المجتمع المصرى
فى أدب العصر المملوكى الأول

٦٤٨ - ٧٨٤ هجرية

د. فوزى محمد أمين

مدرس الأدب العربى

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



المجتمع المصرى فى ادب العصر المملوكى الاول



الدكتور
فوزي محمد أمين
مدرس الادب العربى
بكلية الاداب ــ جامعة الاسكندرية

١٩٨٢



دار المعارف

بســـم الله الرحمن الرحيم

اهـــــداء ...

الى أســتاذى الدكتور

محمــد زغلول سلام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أعتقد أنه لم يعد هناك من يؤمن بأن الفنان شخص اختصته الآلهة بنعمة الوحي أو الإلهام كما قال أفلاطون ، أو بأنه رهين شيطان يوحي إليه بما لا قبل للناس به كما شاع بين العرب القدماء ، فالواقع أن الإبداع الفنى عمل لا ينقدح فى وجدان الفنان من فراغ ، أو يقذف به فى روعه من قوة عليا ، وإنما هو عمل تدخل فيه ألوان من الصناعة والتعقل الواعى ، وطول التمرس بآثار السلف وما خلفوه من أنماط فنية ، كما يدخل فيه استجابات الفنان الواعية وغير الواعية لما يحيط به من ظروف المجتمع وأحوال البيئة ، حتى إننا لا نعدو الحقيقة إذا ذهبنا مع «ايردل جنكز» إلى أن الفن لون من محاولات الإنسان للتكيف مع بيئته ، فالفعل الجمالى — على حد قوله — «ليس نوعا من السلوك المنعزل الذى تمليه قوى مستقله فى الإنسان ، وتساعده عمليات عضوية منفصلة موجهة نحو غاية معينة خاصة ، إنه مرحلة للسلوك الإنسانى الشامل ، متكاملة متناسقة ، ولا يمكن الحط من شأنها ، وهو جانب من الاستجابة التى يقابل بها الإنسان الأشياء التى يصادفها ، كما أنه يسهم إسهامه الفريد فى العملية الخاصة بالتكيف مع هذه الأشياء» . (١)

لا سبيل — إذن — إلى الفصل بين الفن والمجتمع ، فالفن أولاً وأخيراً عمل اجتماعى ولعل نشأة الفنون تثبت صدق هذا ، فالفن نشأ استجابة لمطالب الجماعة ، وإشباعاً لرغبات أفرادها ، وفى المجتمعات البدائية قلما كان الفنان

---

(١) الفن والحياة ، ترجمة أحمد حمدى وعلى أدهم ، ص ١٠ .

يجنح إلى التعبير عن مشاعره الذاتية الخالصة ، وإنما كان دائما يجنح إلى التعبير عن مشاعر جماعية . (١) ويشهد بصدق ذلك ما وصل إلينا من الشعر الجاهلى الذى كثيرا ما نحس فيه ذوبان المشاعر الذاتية فى مشاعر الجماعة ، فالشاعر مشغول عن قضايا عواطفه الخاصة بقضايا الجماعة من حرب وصراع .

وحديث علاقة الفن بالمجتمع حديث طويل تشعبت فيه أقوال الفلاسفة والنقاد ، ومهما غلا هؤلاء الذين ينزعون فى تمثلهم للإبداع الفنى نزعة إجتماعية إلى حد حطوا فيه من شأن العبقرية . وطمسوا ذاتية الفنان فلن نستطيع إلا أن نسلم معهم بتلك العلاقة الوثيقة بين الفن والمجتمع ، ولن نستطيع بحال إنكار هذه العلاقة ، فليس ثمة فنان يتوجه إلى فراغ أو إلى غير جمهور ، سواء أكان هذا الجمهور واقعا أم كان متخيلا — كما يرى «لالو» أحد أقطاب هذه النزعة — وإلا فما المقصود بروعة الفن ؟ ومن الذى يصدر الحكم بالروعة على هذا العمل الفنى أو ذاك ؟ وهكذا فالفنان دائما مرتبط بجمهوره لا يتخلص من طغيانه — على حد قول «لالو» — إلا بتصور لجمهور آخر . (٢)

هذه نظرة موجزة نطرحها بين يدى هذا البحث الذى قام على أساس من هذه العلاقة بين الفن والمجتمع ، وتخيرنا له عنوان «المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول»

ونحن وإن كنا نؤمن بالعلاقة بين الأدب والمجتمع لا نذهب إلى طمس ذاتية الأديب أو إلغاء تميزه ، كما أننا نؤمن بأن رؤية الأديب للواقع ليست هى الواقع نفسه ، وإنما هى الواقع كما يحسه الأديب ويشعر به .

كذلك نؤمن بأن لكل أديب دوافعه ونوازعه الخاصة به ، ولكن علينا

---

(١) أنظر : مشكلة الفن . د. زكريا ابراهيم ص ١١٦ .

(٢) أنظر : مشكلة الفن ص ١١٤ .

أن نسلم بأن هناك قدرا من روح الجماعة أو ما يسمى «باللاوعى الجمعى» يسرى فى عمل كل أديب ، وتنبض به كلماته ، وحتى إذا لم نسلم بذاك فإن إختلاف الدوافع والنوازع بين الأدباء قد يعين على اكتمال الصورة ، ورؤيتها من زوايا مختلفة ، حتى ذلك الأديب الذى يرفض المجتمع ، ويتمرد عليه، ينبغى أن نتلمس عنده جانبا من جوانب الصورة ، فهو — لا شك — يعكس رأى فريق من أبناء مجتمعه ، ويعبر عن روحه .

نحن لا نتوقع — إذن — أن تكون صورة المجتمع التى يعطيها لنا أدب العصر المملوكى مطابقة للواقع ، وسيتبين لنا مدى ما فيها من خلاف عن الصورة التى تعطيها مصادر التاريخ ، ومباحث علم الاجتماع ، ولكنها — مع ذلك — صورة تفتقدها هذه المصادر ، وتعوز المشتغلين بهذه الدراسات ، لأنها الصورة الحية التى تنقل نبض المجتمع بما اعتراه من أحداث ، وما تلاحق عليه من أفراح وأتراح ، وهى أيضا صورة أكثر نقاء ودقة وتركيزا بل ربما كانت أكثر صدقا ونفاذا إلى الحقيقة ، فالحقائق — كما يرى اروين إدمان — «ما هى الا مدلولات لتجربة مباشرة ذاتية ، ومن المميزات الخاصة للفنون الجميلة أنها تكشف عن هذه المدلولات المباشرة بوضوح وتركيز ونقاء يرفعها إلى درجة خاصة من درجات الحقيقة» . (١)

ذلك ما يضيفه هذا البحث إلى الدراسات التاريخية والاجتماعية ، أما ما يضيفه إلى الدراسات الأدبية فهو التفسير لأدب العصر المملوكى بإعادة قراءته على ضوء جديد من ذلك الارتباط بين الأديب ومجتمعه ، ولاشك أن مثل هذه القراءة ستكشف النقاب عن كثير من معميات هذا الأدب حين نربطه بجذوره الاجتماعية فنضعه فى مكانه الصحيح من الأدب العربى .

---

(١) الفنون والأنسان ص ٥٤ .

ونعلم — بعد ذلك — أن هناك من سيقول : وما قيمة مثل هذا التفسير الاجتماعى للأدب وما جدواه ؟ إن الأدب تعبير فنى جمالى ، ودارسه لا يعنيه ما ينطوى عليه من قضايا اجتماعية بقدر ما يعنيه التعبير الجميل ذاته ، ولكن ، أليس الجمال ذاته قيمة اجتماعية ؟! وهل يمكن تصور القيمة الجمالية إلا فى اطار التوافق الاجتماعى ؟! وإذا سلمنا بأنه ليست هناك معايير ثابتة للجمال فلن نستطيع إدراك القيمة الجمالية لعمل أدبى إلا فى إطار عصره ، وما اصطلح عليه من معايير جمالية ، ومن ثم نعود فنقول : إن تفسيرنا لأدب العصر المملوكى لن يقف عند حد الأحداث والعلل الاجتماعية وراء العمل الأدبى ، بل سيتجاوز ذلك إلى دراسة ذوق العصر ومعاييره الجمالية ، وصدى ذلك فيما خلفه الأدباء من أعمال .

كما ينبغى أن نلفت أننا فى تناولنا هذا لأدب العصر المملوكى وربطه بملابسات عصره لا نفصله عن الحقائق الإنسانية الخالدة أو نجعله حبيس عصره لا يتعداه إلى سواه من العصور ، بل ربما وصله مثل هذا التناول بهذه الحقائق فليست هناك حقائق إنسانية مجردة ، وإنما تتراءى هذه الحقائق على أفق موقف الأديب من قضايا عصره وأحداثه ، فهو يتحدث إلى كل الناس من خلال أبناء عصره كما يرى «سارتر» (١) ، واللون المحلى لا ينفى الوحى العلوى ، ولا يطفىء الشرارة المقدسة كما يقول على أدهم . (٢)

وأدب العصر المملوكى أدب شابه كثير من الغموض ، وأبهمت صورته أحكام نقدية غير متأنية ، وحين اخترت أدب هذا العصر ميدانا لدراستى إنما أردت أن أقف على صورته الصحيحة ، محاولا قدر الإمكان التعرف عليه فى

---

(١) ما الأدب ص ٩٧ .

(٢) الثقافة والمجتمع . مجلة الكاتب . نوفمبر سنة ١٩٤٥ .

ضوء الملابسات التى أحاطت به ، والذوق الجمالى الذى ساد البيئة الأدبية آنذاك

وليس لى أن أدعى فضل السبق إلى هذا الميدان بل يجب أن أنوه بجهود الرواد الذين ارتادوا لنا هذه الطريق ، ومهدوا لنا مواطىء الخطى ، وأخص بالذكر الدكتور عبد اللطيف حمزة ، وأساتذتى : الدكتور محمد زغلول سلام ، والدكتور مصطفى الصاوى الجوينى والدكتور حسين نصار .

ولا أدعى — أيضا — أن مثل هذا البحث سيقول الكلمة الأخيرة فى قضية «شخصية مصر وأثرها فى الأدب» التى مازال يدور حولها الجدل ، فأنا أعلم أنه ليست هناك كلمة أخيرة ، ولكن ربما هيأ هذا البحث حجة جديدة لدعاة هذه القضية فيما يذهبون إليه ، ولا أخفى أن من دوافعى إلى اختيار موضوع هذا البحث التعرف على شخصية مصر . وما أضفته على الأدب العربى فيها من صبغ مصرى ، فالحقيقة التى لا خلاف عليها أن شخصية مصر ظلت متميزة على مر العصور ، فالحضارة المصرية قبل الاسلام كان لها طابعها — الخاص الذى يميزها عن كل ماجاورها من حضارات (١) ، وبعد الإسلام ظل لمصر تميزها ، فهل كان لهذه الشخصية المتميزة أثر على أدبها العربى ؟ هذا سؤال يجيب عنه هذا البحث .

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون بناؤه وفقا لجوانب المجتمع المختلفة من سياسية وعقدية ودينية ومعاشية وأدبية ، وقد رأيت أن يكون هذا البحث فصولا متتابعة يختص كل فصل منها بجانب من جوانب المجتمع أو قضية من قضاياه فالفصل الأول اختص بالحكم ، والثانى بالجهاد ، والثالث بالثروة وإنهيار القيم ، والرابع بالتيارات العقدية ، والخامس بالنزعات الطائفية

---

(١) أنظر The Priests of Ancient Egypt . P.7

والسادس بالشخصية المصرية والحياة العامة ، والسابع باللهو والمجون ، والثامن بالذوق الأدبي واتبعت هذه الفصول بخاتمة تسجل أهم ما توصل اليه البحث من نتائج .

والله الموفق إلى سواء السبيل ،،،

دكتور فوزى محمد أمين

الإسكندرية — سيدى بشر — يوليو ١٩٨٠

الفصل الأول

الحكم

١ — الخلافة :

لم يكن إحياء الظاهر بيبرس للخلافة العباسية بالقاهرة سنة تسع وخمسين وستمائة فكرة عارضة أو خاطرا طارئا ، ولكنه كان عملا مخططا له ،وضرورة اقتضتها ظروف الحكم الناشيء .

وقد كان هدف بيبرس من وراء الخلافة أن يسبغ الشرعية على حكمه للبلاد الإسلامية والحجازية ، وأن يسبغ الشرعية أيضا على جهاده في سبيل تحرير الأرض الإسلامية ، أو قل : إنه أراد زعامة العالم الإسلامي مغلقا بذلك باب الأمل في وجه بقايا الحكم الأيوبي . (١)

وما أظن ذلك الأمير العباسي أحمد بن الظاهر والذى لقب فيما بعد بالمستنصر إلا كان مدركا لما يراد به ، وما يرجى من ورائه ، وما أظنه كان يرجو أن تكون له في مصر كلمة نافذة أو حكم فعال ، ولكنه سعى لهذا المنصب آملا في أن يسترد له بيبرس بغداد ، ويصل ما انقطع من ماضي الخلافة فيها ، وحتى إذا لم يكن ذاك فليس منصب الخلافة في مصر بالقليل لهذا الأمير العباسي المنكوب .

ولعلنا نستشف كل ذلك من التقليد الذى كتبه فخر الدين بن لقمان لبيبرس

---

(١) أنظر العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٢٣ ، ص ٢٥ . د. فايد عاشور ط دار المعارف ٧٦ .

على لسان الخليفة المستنصر بعد أن بويع بالخلافة . فى بداية التقليد تنهال آيات الثناء على «بيبرس» الذى أحيا الخلافة ، وأعاد الزمن لها سلما بعد أن كان عليها حربا :

«ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى شرفه الله وأعلاه ، ذكره الديوان العزيز النبوى الإمامى المستنصرى أعز الله سلطانه ، تنويها بشريف قدره ، واعترافا بصنعه الـذى تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره . وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهبت ما كان من محاسن وإحسان ، وأعتب دهرها المسىء لها فأعتب ، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صولة مغضب» . (١)

ثم نمضى فى التقليد فإذا هى خلافة مفرغة ، وإذا بهذا الخليفة لا يملك حلا ولا عقدا وإنما الأمر كله مفوض لبيبرس :

«وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع . وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديـار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا ، ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى ، ولا جهة من الجهات تعد فى الأعلى ولا فى الأدنى» . (٢)

إذن لقد قلد بيبرس كل شىء ولم يبق له شىء اللهم إلا هذه الوصـايا

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى جـ ١ / ٢ ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ نشر محمد مصطفى زيادة ط ١٩٤١ .

(٢) السلوك للمقريزى جـ ١/٢/ ص ٤٥٤

بالعدل ، ومراقبة العمال والجهاد ، ومثل هذه الوصايا ربما كان القصد منها أن تحفظ على الخلافة بعض الرمق ، وأن تعطف إليها أفئدة الناس .

غير أن التقليد يمضى فيلفت بيبرس إلى قيمة الخلافة ، وينبهه على ماخصه الله به من فضلها ، لكى يرعى بيبرس حرمتها ويوقر جانبها :

«فأحمد الله على أن وصل إلى جانبك إمام هدى أوجب لك مزية التعظيم ، ونبه الخلائق على ما خصك الله به من هذا الفضل العظيم ، وهذه أمور يجب أن تلاحظ وترعى» . (١)

تلك إذن هى الخلافة كما أراد منها «بيبرس» وكما أراد لها ، ولعل فريقا من الشعب بارك هذا العمل وهش له ، ولعل فريقاً آخر كان ينظر إلى الأمر فى سخرية مريرة وقد بات يشك فى جدوى الخلافة العباسية بعد أن برهنت الأحداث على عجزها ، فضلا عن أنه يشك فى صحة نسب هذا الخليفة المزعوم إلى بنى العباس ويرتاب فى إدعاءاته . (٢)

وفى مواجهة هذا الفريق الأخير ربما احتاج بيبرس أن يرد قضية الخلافة العباسية إلى أساسها من جديد ، ويعيد إلى الأذهان مآسى الدولة الأموية وما صنعته بآل البيت مستغلا بذلك تعلق الناس بآل البيت ، ضاربا على وتر حساس تجد أنغامه صدى فى كل نفس ، قاصدا بذلك إثارة التعاطف من جديد تجاه العباسيين الذين هبوا للثأر لأهل البيت ، ممهدا من ثم للخلافة العباسية التى أزمع أن يقيمها فى مصر .

وربما أوعز بيبرس بطريق أو بآخر إلى بعض الشعراء أن يضربوا على هذا

---

(١) السلوك للمقريزى ﺟ ١/٢/ ص ٤٥٦ .

(٢) أنظر دولة بنى قلاوون فى مصر لجمال الدين سرور ص ١٠١ .

الوتر ، وأن يعيدوا عزف هذه الأنغام القديمة ، ولعل فى هذا ما يلقى الضوء على قول العزازى بلسان الصالحية :

ولو أنا شهدنا آل حرب   لخالفنا أمية أجمعينا
وتابعنا وبايعنا عليا   أبا حسن أمير المؤمنينا (١)

ولعل العزازى قد كتب فى هذه الأثناء قصيدته التى يمدح فيها آل البيت ويتطرق إلى ما أوقعه بنو أمية بآل البيت من محن فيقول :

أللباغى عليهم يوم فخر   كأصلهم وفرعهم الزكى ؟
أللساعى بهم نحو المنايا   كقدرهم ومجدهم العلى ؟
أتقدر ظلمة الليل الدجى   تغطى آية الصبح الجلى ؟

ثم يستعيد مقتل الحسين فيعيده فى صورة نابضة حية بكل أبعاده إذ يقول :

ترى بعد الحسين يسوغ ماء   ويحلو مورد العيش الهنى ؟
وأية عيشة تحلو وتصفو   وقد جار العدو على الولى ؟
لقد ظلموا وما حازوا حقوقا   لفاطمة البتول ولا الوصى
فويلهم بما اجترموا وباءوا   وما ارتكبوا من الأمر الفرى
أيحسن أن يموت حسين ظامى الجوانح والروى ابن الغوى ؟
أيجمل أن تساق مهتكات   بنات الهاشمى الأبطحى؟
إذا أنا لم أذب حرقا عليهم   فما أنا بالمحب ولا الوفى
جعلت فدى حسين حين ولت   محاسن وجهه الطلق الوضى
ومن لى بالفداء وقد رمته   أمية للمنايا عن قسى
عجبت لكل قلب كيف أضحى   سليما يوم جاءوا بالنعى

---

(١) الديوان ص ٦٥ مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٨٢ شعر تيمور .

همـــو منعوه ورد المـــاء شحــــا   وتلك عــلامة الخـــلق الــدنى
ســـقى دمـــع ضريحـــاً حـــل فيه   وجادتـــــه شآبيـــب الحـبى
فجعنا بالإمـــام ابن الإمام الشـــريف الطـــاهر الورع النـــــقى (١)

وقد يظن أن الشاعر على معتقد الشيعة لأنه وصف عليا رضى الله عنـــه بالوصى ، ولكن لم يذكر أحد ممن ترجموا له ذلك ، وما أظن هذه الكلمة إلا من الألفاظ التى شاعت فى الأوساط الشعبية وفقدت دلالتها العقدية .

وعلى هذا الوتر ضرب أيضاً البوصيرى فى همزيته إذ قال :

فأبكـــهم ما استطعت إن قليـــلا   فى عظـــيم من المصـــاب البـــكاء
كـــل يوم وكـــل أرض لكـــربى   منهـــم كربـــلا وعاشـــــوراء
آل بيت النـــبى إن فـــــؤادى   ليس يسليـــه عنـــكم التأســـــاء
غير أنى فوضتأمرى إلى اللـــــه ، وتفويضى الأمـــــور بـــــراء
رب يـــوم «بكـــر بـــلاء» مسىء   خففت بعـــض وزره الـــزوراء
والأعـــادى كأن كـــل طـــريح   منهـــم الزق حـــل عنه الوكاء(٢)

ولعلنا لحظنا إشارة البوصيرى إلى إنتقام بنى العباس من بنى أمية ، بعد أن بكى واستبكى على آل البيت .

ولعل نغمة أخرى كانت تعزف إلى جانب هذه النغمة ، تصور للناس نكبة بغداد على يد التتار ، وما حل بدار الخلافة من شنائع ، والقصد من ذلك إثارة عاطفة الناس تجاه الخلافة ، وقد عزف على هذه النغمة الخليفة الحاكم بأمر الله حين تولى الخلافة بعد قتل المستنصر فقال يخطب الناس : «فلو شاهدتم

---

(١) القصيدة بديوان العزازى ص ٦ ، ٧ ، ٨ .
(٢) ديوان البوصيرى ص ٢٢ تحقيق محمد سيد كيلانى الطبعة الأولى ١٩٥٥ .

أعداء الاسلام حين دخلوا دار السلام ، واستباحوا الدماء والأموال ، وقتلو الرجال والأبطال والأطفال ، وهتكوا حرم الخليفة والحريم ، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم ، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل ، وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه ، وكم طفل بكى فلم يرحم لبكائه» . (١)

ومهما كان من أمر فقد ظل فريق من الناس ينظر إلى عمل بيبرس ساخرا مرتابا ، وربما وجدنا فى الأدب التمثيلى لهذا العصر ما يعكس موقف هذا الفريق ويصور ريبته وهزءه . فقد ألف ابن دانيال تمثيلية (بابة) لتمثل على مسرح خيال الظل سماها «طيف الخيال» وواضح من مقدمة هذه البابة بما تقرره من إغلاق الحانات وإراقة الخمور وتتبع الشذاذ والمنحرفين أن صاحبها كتبها فى بداية حكم «بيبرس» حيث حرص «بيبرس» على ذلك منذ توليه الحكم ، فتشدد فى منع الخمور وتعقب المنحرفين ، وبلغ تشدده ذروته سنة ٦٦٤ هـ .

إذن فالبابة كتبت فى هذه الأثناء ، وهى تعكس كثيرا من أحداثها التاريخية .

وقد سلك ابن دانيال فى بابته مسلكا هزليا ، ولكن ينبغى ألا يذهب بنا الظن أن هذه البابة محض خيال ، أو مجرد هزل أريد به تلهية الناس ، ولكنها - فيما أعتقد - صورة تمثيلية يسقط الشاعر عليها رأيه فى ما يجرى من أحداث ، فنرى فى شخوصها الهازلة أنماطا لشخصيات المجتمع الجادة ، ولعل ابن دانيال كان يشير إلى ذلك بقوله :

واعلموا أن لكل شخص مثال ، وقد قيل فى الأمثال إنه يوجد فى الأسقاط

---

(١) السلوك جـ ٢/١/ ص ٤٧٨ .

مالايوجد فى الأسفاط ، على أن لكل أسلوب طريقة وتحت كل خيال حقيقة(١)

وقصة البابة تتلخص فى أن الأمير «وصال» يعلن توبته بعد حياة حافلة باللهو والمجون ، ويرغب فى حياة من الطهر والاستقامة ، فيرسل فى طلب الخاطبة «أم رشيد» لتنتقى له عروسا وفى ليلة الزفاف يفاجأ الأمير «وصال» بدمامة زوجه «ضبة بنت مفتاح» فما إن يكشف عن وجهها الخمار حتى تشهق فى وجهه كشهقة الحمار «وإذا هى من أكبر الدواهى بأنف كالجبل ، ومشافر كشافر الجمل ، ولون كلون الجعل ، وأجفان مكحولة بالعمش» (٢).

ويرجح الدكتور فؤاد حسنين أن الأمير وصال بطل البابة ما هو إلا رمز للخليفة العباسى . (٣) ويقوى هذا الظن ما يخلعه ابن دانيال على الأمير وصال من صفات دينية فى معرض عرضه الساخر لشخصيته فهو «صاحب الدبوس والناموس ، والكابوس والسالوس» (٤) وهو «الأمير الأوحد عين الدين ، فخر البله والمجانين .. من تتجمل بطلعته المجالس» . (٥) .

ويقرأ «بابوج» كاتب الأمير وصال تقليدا بما تقلده الأمير من أمور الحكم فيقول :

«فوضنا إليه أمور القبور ، وجعلناه أميرا على مساخرة الجمهور وأضفنا

---

(١) خيال الظل — ابن دانيال ص ١٤٨ — ١٤٩ دراسة وتحقيق ابراهيم حماده ط الهيئة المصرية العامة ١٩٦١ م .
(٢) خيال الظل — ابن دانيال ص ١٧٤ .
(٣) أنظر : قصصنا الشعبى — د. فؤاد حسنين . ص ٨٤ نشر دار الفكر العربى سنة ١٩٤٧ .
(٤) خيال الظل — ص ١٥٤ .
(٥) خيال الظل — ص ١٥٨ .

إليه من الولايات ما يأتى ذكره من خرائب هذه الجهات ، وهى ولاية مصر القديمة والسنباب ، مع ما دثر من الجدران والخراب ، وسد عمائر الأهرام ، وما يجاورها من التلال والآجام» . ثم يقول :

فليباشرها ويستخدم نسيبه ولا يدع من البدع المضحكة بابا مقفلا ولا عملا من أعمال المساخرة معطلا» . (١)

ولا أرى ابن دانيال يقصد بهذا إلا منصب الخلافة الذى أصبح مجرد هيكل خرب ، وأصبح الخليفة لا يزيد عن دمية مضحكة تحركها أصابع السلطان .

ولعل «ضبة بنت مفتاح» تلك العروس الدميمة ما هى إلا رمز للخلافة ، وكأن ابن دانيال يريد أن يبين أن الآمال التى عقدها المستنصر على الخلافة فى مصر ليست إلا سرابا

ويعرض ابن دانيال شخصية الأمير فى سخرية مرة ، ويرسم له صورة زرية ، فيجعله يخرج على الناس «فى شربوش وسباله منفوش» (٢) ويجرى الحديث على لسانه فيقول : «أنا أنطح من كبش ، وأنتن من وحش ، أنا أشرف من نحاس وألوط من أبى نواس» (٣) ويصف إفلاسه فيقول على لسانه «مال المال وحال الحال ، وذهب الذهب ، وسلب السلب وفضت الفضة ، وقعدت النهضة ، وفرغت الكاس بطون الأكياس وبعت العقار برشف العقار» (٤) .

وتبلغ السخرية مداها حينما نرى «صربعر» الشاعر يستهين به فى شعره ويستخف بوعيده قائلا :

---

(١) خيال الظل — ص ١٥٩ .
(٢) خيال الظل ص ١٥٤ .
(٣) خيال الظل ص ١٥٤ .
(٤) خيال الظل ص ١٦٧ .

أتوعـدنى الهـوان فليت شعرى　　أهـذا منـك جائزة لشعـرى ؟
فـماذا للهجـاء ؟ تركت مدحـا　　يهـان به أخو نظـم ونـثر
فإن يك ذا الوعيد بأخـذ روحى　　كما أوعدتـنى يا طـول عمرى(١)

ويمدحه شاعره مرة أخرى فيبدأ مدحه ببيتين من المديح الرائق يتحدث فيها عن الرخاء الذى عم البلاد ، والعدل الذى غمرها فيقول :

إن البـلاد التى أصبحت واليهـا　　أضحت ولا جنة المأوى ضواحيها
وعمـرت منك بالعدل العميم إلى　　أن طـاب حاضرها سكنى وباديها

ثم يتبع ذلك ببيت ثالث يحدث به مفارقة تقلب هذا المديح هجاء فيقول :

من بعد ما أصبحت طير الخراب بها　　على أسافلها تبكـى أعاليها (٢)

ولعل هذه المفارقة تعكس ما أحسه المؤلف من مفارقة أخرى تثير السخرية بين الضجة التى افتعلها «بيبرس» فى استقبال المستنصر وما رسم له من مراسم ومواكب وبين حقيقة هذا المنصب الخاوى إلا من اسمه .

ولقائل أن يقول : إذا كان ابن دانيال يقصد بالأمير وصال شخص الخليفة العباسى فما باله أظهره فى هيئة الجنود ؟ وما باله لم يجعل الأمير وصال يرتدى «العمامة» بدلا من الشربوش ؟ وهذا اعتراض شكلى ، ولعل ابن دانيال أراد بذلك أن يضع حجابا على الرمز ، ثم إن الخلفاء فى هذا العصر كان يروق لهم أحيانا أن يظهروا فى زى أمراء الجند . (٣)

---

(١) خيال الظل ص ١٦٠ .
(٢) طيف الخيال من (خيال الظل) ص ١٥٩ — ١٦٠ .
(٣) الملابس المملوكية — ل.أ. ماير — ترجمة صالح الشيتى ط. الهيئة المصرية ص ٢٧ .

وأغلب الظن أن هذا العرض الساخر لشخصية الأمير وصال ، إنما يعكس ما كان يتندر به الناس على الخليفة ، وما كانوا يتحدثون به فى مجالسهم فيسخرون منه حينا ويرثون له أحيانا .

وأيا ماكان الأمر ، وسواء أكانت شخصية « وصال » رمزا للخليفة أم لغيره فإن الذى لاشك فيه أن الخلافة التى قامت فى مصر كانت ضعيفة عاجزة

وإذا كان بعض الباحثين يرى أن الخليفة كان يمثل الجانب المهيب الذى يشعر الشعب تجاهه بالتبجيل. (١) فإنا نرى سلاطين المماليك عمدوا واحدا بعد الآخر إلى تحطيم هذه الهيبة ، وإزاحة الخليفة عن أى مكان يحتله فى نفوس الناس بإظهار الخليفة دائما فى صورة الإنسان الذى لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا .

وكثيرا ما ضيق السلاطين على الخلفاء فحجبوهم عن الناس كما فعل بيبرس بالخليفة الحاكم بأمر الله (٢) وكما فعل الناصر محمد بالمستكفى إذ نفاه إلى قوص هو وأهله (٣) وكأنما لم يبق من الخلافة إلا اسمها ، ولم يبق للخليفة إلا أن «يؤتى به فى المواقف الرسمية العامة ليتمم الحاشية» . (٤)

إذن فليطنطن كتاب الإنشاء بما شاءوا من مجد الخلافة وعزها وليشققوا الكلام كما شاء لهم فإنه ، فى النهاية ، لن يثير إلا السخرية والإشفاق ، وأى

---

(١) أنظر السياسة والحرب — برنارد لويس ص ٢٥١/ ق ١/ تراث الأسلام ط الكويت ١٩٧٨ .

(٢) السلوك ٢/١ ص ٥٤٠ .

(٣) حسن المحاضرة / حـ ٢ / ص ٥٢ .

(٤) تاريخ دولة المماليك — وليم موير ص ٤٣ ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ط ١٣٤٢هـ ١٩٢٤ م.

إشفاق نحسه على الخليفة وأى سخرية تملؤنا حينما نقرأ قول تاج الدين اليمانى على لسان الخليفة المستكفى :

«هذا وإن الدين الذى فرض الله على الكافة الانضمام إلى شعبه ، وأطلع فيه شموس هداية تشرق من مشرقه ولا تغرب فى غربه جعل الله حكمه بأمرنا منوطا ، وفى سلك أحكامنا مخروطا ، وقلدنا من أمر الخلافة سيفا طال نجاده وكثر أعوانه وأنجاده ، وفوض إلينا أمر الممالك الإسلامية فإلى حرمنا تجبى ثمراتها ، ويرفع إلى ديواننا العزيز نفيها وإثباتها» . (١)

وما أجمل هذا الكلام ، وما أحلى رنين سجعه ! ! لولا أنه حديث خرافة وتهويمات فى فردوس الخلافة المفقود .

ولم يقف أمر السلاطين مع الخلفاء عند حد النفى أو الحجر بل تعـــداه إلى تنحية صاحب الحق منهم ، وتنصيب غيره بدلا منه ، لا لشىء إلا لأن السلطان يريد ذلك حتى لو كان هذا البديل سيء السيرة والسمعة . وهذا ما حدث عندما نحى السلطان الناصر محمد «أحمد بن المستكفى» ونصب بدلا منه «إبراهيم بن محمد بن الحاكم» ولقبه بالواثق ، وكان ابراهيم سيء السيرة ، لقبه العامة بالمستعطى بالله لأنه كان يحتال على الناس ويشترى سلعا لا يوفى أثمانها .

ونجد فى أدب هذا العصر صورة قبيحة زرية لهذا الخليفة يرسمها ابن فضل الله العمرى حيث يقول :

«فما نشأ إلا فى تهتك ، ولا دان إلا بعد تنسك ، أغرى بالقاذورات ، وفعل

(١) نهاية الأرب للنويرى جـ ٨ / ص ١٥٣ .

مالم تدع إليه الضرورات ، وعاشر السفلة والأرذال ، وهان عليه من عرضه ما هو باذل ، وزين له سوء عمله فرآه حسنا ، وعمى عليه فلم ير مسيئا إلا محسنا وغواه اللعب بالحمام ، وشرى الكباش للنطاح ، والديوك للنقار ، والمنافسة فى المعزالزرائبية الطوال الآذان ، وأشياء من هذا ومثله مما يسقط المروءة ، ويثلم الوقار ، وانضم إلى هذا سوء معاملة ومشترى سلع لا يوفى أثمانهـا ، واستئجار دور لا يقوم بأجرها ، وتحيل على درهم يملأ به كفه ، وسحت يجمع به فمه ، وحرام يطعم منه ويطعم حرمه حتى كان عرضة للهوان ، وأكلة لأهل الأوان» . (١)

وربما كانت استهانة السلاطين بالخلفاء دافعا إلى تعاطف فريق من الناس مع هؤلاء الضعفاء المغلوبين على أمرهم ، والمصائب يجمعن المصابين ، ونحس صدى لمشاعر هذا الفريق فى عالم الأدب فنرى ابن الوردى يقول حينما أخرج الخليفة المستكفى منفيا إلى قوص بالصعيد :

أخرجـوكم إلى الصعيد لعـذر　　غير مجـد فى ملتى واعتقـادى
لا يغيركم الصعيـد وكونـوا　　فيه مثل السيوف فى الأغماد (٢)

ونحس ارتياحا وبهجة فى حديث ابن فضل الله العمرى عند رجـوع السلطان الناصر محمد إلى الحق وقد حضرته الوفاة حيث أمر برد الخلافة لابن المستكفى وعزل ابراهيم الواثق :

«فكان مما أوصى به رد الأمر إلى أهله ، وإمضاء عهد المستكفى لابنه ،

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٤٨٩ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط المكتبة — التجارية

(٢) ديوان ابن الوردى ص ٢٨٣ ط الجوائب ١٣٠٠ هـ .

وقال : الآن حصحص الحق ، وحنا على مخالفيه ورق ، وعزل ابراهيم وهزل وكان قد رعى البهم ، وستر اللؤم بثياب أهل الكرم ، وتسمن وشحمه ورم»(١)

الآن حصحص الحق . هكذا يستخدم ابن فضل الله هذا التعبير القرآنى الذى يعيد إلى الذهن قصة امرأة وقعت فى حبائل الشيطان . فكأن صورة السلطان الناصر اقترنت فى وجدان ابن فضل الله بصورة تلك المرأة ، وكأنه بذلك يعرض بالسلطان الناصر محمد من وراء حجاب لما أقدم عليه من سلب الحق أهله ، واقصاء ذويه .

تلك هى مسألة الخلافة ، وحظها من أدب هذا العصر ضئيل ، ولعلنا نعجب لخلافة تخلو ساحتها من الشعراء ، فلا نجد مدحة لمادح أو مرثية لراث وربما يزول هذا العجب حينما ندرك أن هؤلاء الخلفاء كانوا شبه محجور عليهم منعوا عن الناس ، ومنع الناس عنهم .

٢ — السلطنة

يجد القارىء لأدب هذا العصر أصداء متباعدة تعكس منطلق الحكم المملوكى وروحه ، وتصور لنا صراعاته الظاهر منها والخفى ، كما توضح موقف الشعب من هذه الصراعات ، ونظرته لأولئك الحكام .

وقد اعتبر سلاطين المماليك أنفسهم حماة الاسلام والموكلين بالدفاع عنه فلا غرابة أن يخلع الشعراء عليهم ما يرضى فيهم هذه النزعة فيكيلون لهم النعوت الدينية كيلا ، فالسلطان هو ركن الدين وحاميه وهو الذى أعزه وقوى أركانه إلى آخر ذلك مما كان الشعراء يقولونه ربما طموحا للمثل الأعلى للحاكم وربما لأن هذا ما يريد الحاكم أن يعرفه عنه رعاياه .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٤٩٠ .

ومن هذا المنطلق ربما أحس المماليك بأنهم وحدهم هم الملوك ومن سواهم تبع لهم ، فمصر — وبخاصة بعد إحياء الخلافة العباسية — هى قبلة الإسلام أو هى أم القرى كما يقول القيراطى فى مدح الناصر حسن

للملك والإسلام منه أب غدت
مصر بأمن زمانه أم القرى

وكل الممالك تزدرى إلى جانب ملك السلطان كما يقول القيراطى أيضا :

يأيهـا السلطـان يا من ملكـه ... فى جنبـه كل الممالك تزدرى (١)

وإذا كان سلاطين المماليك يحسون فى أنفسهم هذا الاستعلاء الذى صور لهم أنهم سادة ملوك العرب والعجم (٢) فلا على الشعراء أن يطلقوا العنـان لخيالهم فى هذه السبيل فنرى البوصيرى مثلا يصف قلاوون بأنه سلطان البسيطة

فللـه سلطـان البسيطة إنـه ... مليـك يسير النصر حيث يسير (٣)

ويصف الشهاب محمود الأشرف خليل بأنه ملك الدنيا فيقول :

بشراك يا ملك الدنيا لقـد شرفـت ... بك الممالك واستعلت على الرتب (٤)

ويصور صفى الدين الحلى الملوك تسعى إلى الناصر محمد طائعة له مقرة بتفوقه فيقول :

إلى بابه تسعى الملوك فإن عـدت ... تعدى إليها القتل والنهب والأسر
لقـد شهدت أهـل الممالك أنـه ... مليك له من فوق قدرهم قدر (٥)

---

(١) ديوان القيراطى ص ٤٧ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٩ شعر .
(٢) أنظر على ابراهيم حسن تاريخ المماليك البحرية ص ١٥٨ ط مكتبة النهضة ١٩٤٨ .
(٣) الديوان ص ٩٨ .
(٤) تاريخ ابن الفرات ص ١١٧/جـ ٧ تحقيق قسطنطين رزيق — بيروت ١٩٤٢ .
(٥) الديوان ص ٣٧٨ .

ونادرا ما نقرأ فى أدب هذا العصر وصفا لسلطان من السلاطين بأنه سلطان مصر ، أو حتى سلطان مصر والشام وكأن ذلك حطة لهم ، بل مضى الشعراء يؤكدون نزعة الاستعلاء هذه ، ويشيعون فهمها فى أنفس السلاطين ، وكثيرا ما راق لهؤلاء السلاطين أن تقترن أسماؤهم بأسماء الفاتحين العظام ، والحكام الكبار فمضى الشعراء فى هذه السبيل فنرى صدر الدين بن الوكيل يقول فى الناصر محمد

إسكندر الدنيا وكسرى عصره　　　لو عاش تبع مات من تبعاته (١)

ويقول ابن نباته فى الناصر حسن

سلام على إسكندر الوقت إن يفح
شذا الذكر عنه فالسلام على الخضر(٢)

ويقصد الشاعر هنا الإسكندر ذا القرنين وتابعه الخضر بما لهما من ظلال دينية وأسطورية .

ويسلك القيراطى هذه السبيل فى مدحه للناصر حسن وأبنائه الذين سيبلغون مبلغ أبيهم من المجد ولا ريب ، فيقول :

وللك البنون بكل قصر منهم　　　قمر يلوح على الأسرة مزهرا
إن يبلغوا فى الفضل مطلع شمسه　　　فلقد رأينا منهم الإسكندرا

ويمضى فى أبياته فيجعل كسرى وقيصر بين يدى السلطان فى موقف الخائف الوجل

---

(١) تاريخ ابن الوردى ج ٢ / ص ٢٦٠ .
(٢) الديوان ص ١٩٦ .

وأقامت الأيـــام فى أيديكـــــم كسرى مقـــام الخائفين وقيصرا (١)

هذا جانب مما شغف سلاطين المماليك بسماعه ، أو قل : شغفوا بأن يسمعه الشعب حتى يلقوا فى روعه مهابتهم ، وحتى لا يطمح إلى ما فى أيديهم من سلطان .

كذلك شغف هؤلاء السلاطين بأن يتغنى الشعراء بما أسس عليه حكمهم من عدل وانصاف ، وما قامت عليه سيرتهم من تقى وورع وعفاف . فيقول بعض الشعراء فى قلاوون .

كم ملكـــت مصـــر ملوك وكم جادوا وما جادوا ولا أســـرفوا
ما قدمـــوا مثـــل تقـــاه ولا مثل الـــذى خلفـــه خلفـــوا (٢)

أما ابنه الناصر محمد فيصوره الشعراء عادلا ورعا لا يظلم الناس نقيرا . فيقول صفى الدين الحلى فى ورعه

يا ملكـــا فاق المـــلوك ورعـــاً إن شان أهل الملك طيش ورعن (٣)

ويقول مصورا عدله :

مـــلك عـــلا جداً وقـدرا وسـنا فجاء فى طـــرق العـــلا على سنن
لا جـــور فى بلاده ولا عـــــداً إن عد فى العدل زبيد وعـــدن (٤)

ويقول من قصيدة أخرى :

(١) ديوان القيراطى ص ٤٧ .
(٢) تاريخ ابن الفرات ﺟ ٨ ص ٩٩ .
(٣) الديوان ص ١٠٦ .
(٤) الديوان ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

الناصر الملك الـذى فى عصـره شكر الظباء صنيعة السرحـان (١)

وقال فيه أيضا بعض الشعراء :

ملك الزمان ومن رعيـة ملكـه من عدلـه لا يظلمـون نقيرا(٢)

وقال آخر :

أنسيتنـا بالعـدل كسرى ولن نرضى لنـا جبرا به كسـرى(٣)

هكذا .. وكأنه المهدى المنتظر الذى ملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا . ولكنه خيال الشعراء فما كان الناصر محمد - كما تحدثنا كتب التاريخ إلا سفاكا للدماء ، ضاربا رقاب الناس بالريبة والظن .

ولا تختلف صورة الناصر حسن فى خيال الشعراء عن صورة أبيه ، فأعماله تفيض بالتقى والورع كما نلمس فى قول ابن نباته :

مليـك روت أعماله سير التقى عن الملك المصرى عن الحسن البصرى

ويقول من القصيدة نفسها

مليك التقى والعلم والبأس والنـدى فمدح على مدح وشكر على شكر(٤)

ويقول من قصيدة أخرى :

يا من إذا شغـل الأملاك لهـوهم فنفسه بالتقى والملك فى شغـل (٥)

ويقول القيراطى محدثا عن عدله :

---

(١) الديوان ص ١٠٠ .
(٢) الخطط للمقريزى ط العرفان - جـ ٣ / ص ١٣٠.
(٣) المرجع نفسه ط العرفان - جـ ٣ / ص ١٣٠.
(٤) الديوان ص ١٩٦ ، ١٩٧ .
(٥) الديوان ص ٣٨١ .

عم البرية فضــــلا فاغتدوا وهـــم　　من عدله من أذى الأيام فى حرم(١)

ولكن أين الناصر حسن من كل ذاك ، إنه لم يكن فى شغل بالتقى كما قال ابن نباته أو بالعدل كما قال القيراطى ولكنه كان فى شغل مع النساء الــلائى شغف بحبهن وما تلك الصورة التى رسمها له الشعراء إلا الصورة التى أرادها السلطان أن تكون له فى أعين الشعب .

وجانب آخر حرص سلاطين المماليك على أن ينوه به الشعراء وهو الرخاء والأمن ، ولا ينبغى أن نستهين بهذا الجانب فهو دعامة من دعائم إستقرار الحكم ، فلا عجب أن نقرأ فى مدح ابن نباته للناصر حسن :

سلطان مصر الرخا والأمن عم فـما　　بها سوى النيل قطاع على السبل(٢)

ولا عجب أن نقرأ للوداعى فى مدح السلطان لاجين :

يأيها العـــالم بشــــراكم　　بدولـــة المنصور رب الفخار
فاللـــه قد بارك فيهـــا لـــكم　　فأمطر الليل وأضحى النهار(٣)

ولعل هذا يفسر ما نقرؤه فى الأدب الرسمى لهذا العصر حينما يقرن الكتاب بين وفاء النيل وبين سير السلاطين . وكأن وفاء النيل هذا الذى يجرى بفضل الله منة من منن السلطان ، وفضل من أفضاله ، ولنقرأ هذه البشارة التى كتبت سنة ٦٧٩ هـ بفيضان النيل على عهد قلاوون إذ يقول كاتبها :

«والله سبحانه قد علم حسن نيتنا فى رعيتنا فأجراهم على عوائد ألطافه فى

(١) الديوان ص ١٠٠ .
(٢) الديوان ص ٣٨٠ .
(٣) النجوم الزاهرة / جـ ٨ / ص ١٠٨ .

أيام دولتنا ، والعالم بالنعماء مبتهجون ، وبالدعاء الصالح لأيامنا مبتهلون ، قد عاد إليهم زمن الأبتهاج والسرور ، ووثقوا بنصر الله إذ خلفهم من نيلهـــم ومنا السفاح والمنصور» . (١)

ويقول شهاب الدين محمود من بشارة بوفاء النيل على لسان السلطان :

«وقد وثقت الأنفس بفضل الله العميم ، وأصبح الناس بعد قطوب اليأس تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، تيمنا ببركة أيامنا التى أعادت إليهم الهجوع وأعاذتهم مما ابتلى به غيرهم من الخوف والجوع» . (٢)

تلك هى الصورة المثلى التى أرادها الحكام لأنفسهم ، وأرادوا أن تنظر إليهم الرعية من خلالها ، وعلى هدى منها تتحدد العلاقة المرجوة بينهم وبين الشعب .

وننتقل إلى العلاقة بين هؤلاء السلاطين وبين أبناء طبقتهم من المماليك ، ولعلنا واجدون فى أدب هذا العصر الرسمى صورة لهذه العلاقة التى كانت تقوم على مبدأ الزمالة أو (الخشداشية) بلغة القوم . ولعلنا نرى هذا المبدأ قائما فى تلك الرسالة التى بعثها بيبرس إلى بعض أمرائه :

«إنا بحمد الله ما تخصصنا عنكم براحة ولا دعة ، ولا أنتم فى ضيق ونحن فى سعة . ما هنا إلا من هو مباشر الحروب الليل والنهار ، وناقل الأحجار ومرابط الكفار ، وقد تساوينا فى هذه الأمور ، وما ثم ما تضيق به الصدور» (٣)

هكذا يتساوى الجميع لا فرق بين سلطان وأمير ، وإذا كانت هـــذه

---

(١) تاريخ ابن الفرات حـ ٧ / ص ١٨٢ .
(٢) نهاية الأرب للنويرى / حـ ٥ / ص ١٤٥ .
(٣) السلوك / حـ ١ / ٢ / ص ٥٢٥ .

الرسالة تسوى بين الجميع فى المشقة والعمل ، فلا أقل من أن يتساووا فى النعمة والغنم ، وهذا ما تشير اليه الرسالة التالية من بيبرس لأمرائه بعد فتح قيسارية :

«ولما كان بهذه المثابة ، وقد فتح الفتوحات التى أجزل الله بها أجره ، وضاعف ثوابه ، وله أولياء كالنجوم ضياء ، وكالأقدار مضاء ، وكالعقود تناسقا ، وكالوبل تلاحقا إلى الطاعة وتسابقا رأى ألا ينفرد عنهم بنعمة ، ولا يتخصص ولا يستأثر بمنحة غدت بسيوفهم تستنقذ ، وبعزائمهم تستخلص ، وأن يؤثرهم على نفسه ، ويقسم عليهم الأشعة من أنوار شمسه» . (١)

وإذا كانت هذه الرسالة توضح مبدأ الزمالة القائمة بين القوم ، فهى أيضاً تبين أن الجميع يجب أن يدينوا بالطاعة والولاء للسلطان .

وفى تقليد كتبه محيى الدين بن عبد الظاهر بولاية عهد قلاوون إلى ابنه ، نراه يوصيه بكبار الأمراء أن يوقر جانبهم ، ويضاعف حرمتهم ، ويشاورهم فى مهات الأمور ، ونحس فى سطور الرسالة أصداء لتلك العصبية التى قسمت المماليك إلى طوائف ، كل طائفة تنتمى لسيدها :

«وأمراء الإسلام الأكابر وزعماؤه ، فهم بالجهاد والندب عن العباد أصفياء الله وأصفياؤه ، فضاعف لهم الحرمة والإحسان واعلم أن الله قد — اصطفانا على العالمين وإلا فالقوم إخوان ، لا سيما أولى السعى الناجح والرأى الراجح ، ومن إذا فخروا بنسبة صالحية قيل لهم نعم السلف الصالح فشاورهم فى الأمر ، وحاورهم فى مهات البلاد فى كل سر وجهر» . (٢)

---

(١) السلوك للمقريزى حـ ١ / ٢ / ٥٣١ .
(٢) تاريخ ابن الفرات حـ ٧ / ١٨٩ .

وهكذا أبرزت هذه النصوص مبدأ الزمالة الذى هو أساس العلاقة بين السلطان وأمرائه ، ولكنها أيضاً لم تغفل الطاعة والولاء والسعى الناجح .

بل ربما على أساس من الولاء والطاعة فقط تتحدد علاقة السلطان بأمرائه فعلى هدى منها يبعد من يبعد ، ويقرب من يقرب ، ولعلنا واجدون فى نسخة المنشور الذى كتب على لسان الناصر محمد إلى «أقوش» الأشرفى ما يدل على صدق ذلك . يقول الكاتب :

«واحتفلت عوارفنا بالملاحظة لعهده الوثيق العرى ، والمحافظة على سالف خدمته التى ما كان صدق ولائها حديثا يفترى ، وسبق له فى الإخلاص ما يرفعه من خاطرنا مكانة عالية الذرى ، من أضحى من السابقين الأولين فى الطاعة ، والباذلين فى أداء الخدمة والنصيحة لدولتنا جهد الاستطاعة ، والمالكين للممالك بحسن الخلة وجميل الاعتزام ، والمحافظين على تشييد قواعد الملك بآرائه وراياته التى لاتسامى ولا تسام» . (١)

إذن فعلاقة الزمالة تنحل فلا يبقى منها إلا صورتها المثلى ، فإذا هبطنا إلى أرض الواقع فليس ثم إلا الطاعة والولاء والعمل على تأييد دعائم السلطان .

بل كان من سلاطين المماليك من حرص على أن يتخلص من كبار أمرائه لا لشىء إلا لأنه لا يريد أن يترك فى دولته من يطمح ببصره إلى السلطة ، أو يرد على خاطره مجرد هذا الوهم كما فعل الناصر محمد باستدمر كرجى . (٢)

وفى مثل هذا الجو المشحون بالريبة تعد على الأنسان حركاته وسكناته ،

---

(١) صبح الأعشى القلقشندى جـ ١٢ / ص ١٨٣ ، ١٨٤ .
(٢) السلوك المقريزى جـ ٢ / ١ / ٩٤ .

وتصغى الآذان لكل همسة ونأمة ، ولعل ما وصف به المقريزى الناصر محمد من أنه كان لا يكذب فى الشر خبرا يكاد ينطبق على معظم سلاطين المماليك ويمثل طبيعة حكمهم . (١)

ولعل الأدب يعكس لنا هذا الجو المتوجس المستريب الذى لا يوثق فيه بوال أو أمير ، فسرعان ما يولى حتى يعزل ويحل غيره فيعزل ..!!
ولنقرأ قول ابن الوردى :

هــذى أمــور عظـــــام   من بعضها القلب ذائـــــب
ما حــال قطــر يليــــه   فى كــل شهرين نائب (٢)

وأنظر أيضاً إلى هذه الصورة الساخرة :

كم مــلك جــاء وكم نائـــب   يا زينــة الأسواق حتى متــى ؟
قــد كــرروا الزينة حتى اللحى   ما بقيت تلحــق أن تنبتــا (٣)

كل يوم يأتى نائب جديد فتقام له الزينة ، إنه أمر سريع متتابع !! لا يستغرق حتى مقدار ما تنبت لحية حليقة !!

ولعل مبدأ الزمالة هذا كان المحرك لكل الصراعات التى دارت فى دولة المماليك حول كرسى السلطنة ، فكل مملوك يرى أن السلطان لا يزيد عنه إلا بما امتلكه من قوة ، لذلك فما إن تتهيأ لأحدهم القوة حتى يثب على السلطة محاولا انتزاعها لنفسه . وظل الأمر كذلك على الرغم من محاولات بيبرس وقلاوون والناصر محمد فى أن يكون الحكم وراثيا فى أبنائهم . وصحيح أن

---

(١) أنظر السلوك / حـ ٢ / ١ / ٢٨٢ .
(٢) تاريخ ابن الوردى / جـ ٢ / ص ٣٤٧ .
(٣) تاريخ ابن الوردى / حـ ٢ / ص ٣٤٧ .

السلطة انحصرت أو كادت تنحصر فى أسرتى بيبرس وقلاوون طوال الدولة الأولى التى يعرض لها هذا البحث ، إلا أنه ظل هناك — دائما — من ينكر مبدأ الوراثة ويسعى إلى السلطنة كلما سنحت الظروف .

ويصور لنا الأدب هذه الصراعات . ولكنه لا يعطينا تعاطفا حقيقيا مع أى من الفرق المتصارعة . فهو دائما مع الغالب المنتصر . وكأن الأدباء — يسيرون بفلسفة ابن الوردى التى تحذر من الدفاع عن ظالم دالت دولته :

كم وكم دولــة تــبرمت منهـا ثم زالت لأنهـا لم تكنهـا
وإذا نعمة الظـلوم تداعـت لزوال فأحذر عن الذب عنها (١)

وربما كانت المرة الوحيدة التى تعاطف فيها الأدباء مع واحد من — المتصارعين هى تلك التى استعاد فيها الناصر محمد عرشه بعد أن كان قدأقصاه عنه بيبرس الجاشنكير بمعاونة سلار . ونرى الشعراء يصفون ابتهاج مصر بقدوم الناصر محمد وفرار الجاشنكير مذءوما مدحورا مروعا حتى من أنصاره كما يقول أحد الشعراء :

تثـنى عطف مصـر حين وافى قـدوم للناصر الملك الخبير
فـذل الجشنكـير بـلا لقـاء وأمسى وهـو ذو جأش كبـير
إذا لم تعضـد الأقـدار شخصا فـأول مايـراع من النصـير (٢)

ولم يكن تعاطف الناس مع الناصر تميزا له عن بقية أقرانه من المماليك ، ولكنه كان تفاؤلا لا أكثر بوجهه ، فإنه حين اعتلى كرسى الحكم فاض النيل وعم

(١) ديوان ابن الوردى ص ٣٠٢ .
(٢) النجوم الزاهرة / جـ ٨ / ص ٢٧٥ .

الرخاء ، وحينما تتابع من بعده مغتصبو عرشه صادف حكمهم جدب ، وغلاء «فكتبغا» الذى اغتصب عرشه أول مرة بلغ الغلاء فى عهده أقصاه حتى جأر الناس بالشكوى ، وعبر عن ذلك محمد بن دينار بقوله :

ربنا اكشف عنا العذاب فإنا   قد تلفنا فى الدولة المغلية
جاءنا المغل والغلا فانصلقنا   وانطبخنا فى الدولة المغلية (١)

وبيبرس الجاشنكير المغتصب الثانى لعرش الناصر محمد لم يف النيل فى عهده ، وفشت فى الناس الأوبئة والأمراض (٢) وتشاءم الناس بطلعته فكان العامة يرددون فى الشوارع .

سلطاننا ركين   ونائبو دقين
يجينا الماء من اين
يجيبوا لنا الأعرج   يجى الماء يدحرج (٣)

و«دقين» لقب لقبت به العامة «سلار» أتابك بيبرس الجاشنكير من قبيل التهكم حيث كان أجرد فى حنكه بعض شعرات ، وأما الأعرج فهو الناصر محمد حيث كان يعانى من عرج خفيف بساقه . (٤)

ولعل هذا التفاؤل ينعكس على أبيات الشارمساحى التى قالها مهنئا الناصر محمد بعودته :

---

(١) الخطط / حـ ٢ / ص ٤٣٦ وأنظر لمزيد من التفصيل عن هذا الغلاء اغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى ص ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ نشر زيادة والشيال ط ١٩٥٧ م .
(٢) أنظر النجوم الزاهرة حـ ٨ / ص ٢٤٣ .
(٣) النجوم الزاهرة / حـ ٨ / ص ٢٤٤ .
(٤) النجوم الزاهرة / حـ ٨ / هامش ص ٢٤٤ .

ولى المظفر لمـــا فاته الظفـــــــر   وناصر الحـــق وافى وهو منتصر
وقد طوى الله من بين الورى فتنـا   كادت على عصبة الإســـلام تنتشر
فقـــل لبيبرس إن الدهـــر ألبســـه   أثـــواب عارية فى طولهـــا قصـــر
لما تولى تولى الخـــير عـــن أمـــم   لم يحمدوا امره فيهـــم ولا شكروا
وكيف تمشى به الأحـــوال فى زمن   لا النيل وافى ولا وافاهم المطر؟(١)

ونرى الشعراء فى استقبالهم للناصر محمد يشيرون إلى حقه الشرعى فى الحكم منكرين حق بيبرس وغيره ممن أرادوا إغتصابه ، فالحق رجع إلى أربابه والناصر لم يسد سدى بل ورث الحكم عن أبيه . فيقول شمس الدين محمد بن على الداعى :

الحـــق مرتجـــع إلى أربــــــابه   من كف غاصبه وإن طال المـــدى
يا وارث المـــلك العظـــيم تهنـــه   واعـــلم بأنك لم تسد فيـــه ســـدى
عن خير أســـلاف ورثت سريـــره   فوجـــدت منصبـــه السرى ممهـدا
يا ناصرا من خـــير منصـــور أتى   كمهنـــد خلف الغـــداة مهندا (٢)

وشمس الدين الداعى بتأكيده حق الوراثة إنما يرد على بعض من أنكر هذا الحق مناصرا «الجاشنكير» مغتصب العرش .. فقد حرص الجاشنكير على أن يشيع أن الملك عقيم لا وراثة فيه . وربما كان الخليفة المستكفى ينطق بما لقن من ذلك حينما كتب لبيبرس الجاشنكير عهده بتجديد البيعة ذاك الذى قال فيه «واعلموا — رحمكم الله — أن الملك عقيم ليس بالوراثة لأحد خالف عن

---

(١) النجوم الزاهرة / حـ ٩ / ص ١٠ .
(٢) النجوم الزاهرة / جـ ٩ / ص ٨

سالف ، ولا كابر ، وقد استخرت الله ووليت عليكم الملك المظفر . (١)

وربما ظل إرساء قواعد الوراثة للسلطنة مسألة تشغل أبناء الناصر محمد واحدا تلو الآخر ، فهم حريصون على أن يؤكدوها ويرسخوها لا فى أذهان العامة فالعامة لا تطمح إلى الحكم ، ولكن فى أذهان أمراء المماليك ، فى عهد الناصر حسن ، وهو قد تعرض لما تعرض له أبوه من العزل ، نرى ابن نباته يلح على هذه القضية مرة أخرى إذ يقول :

إلى ناصر من ناصـر وكـذا على ... مدى جده المنصور مسترسل النصر
أجل بيوت الملك بيت قلاوون ... وأنت أجل البيت يا وارث الدهر
فملكك حق واضح الصبح أشرقت ... سعادته كالظهر يا واحد العصر
مراد البرايا أن تدوم وإن تـووا ... وميراثك الباقى إلى ذلك الحشر (٢)

وأيا ما كان الأمر فقد بدأت الدولة تتهاوى بعد السلطان الناصر محمد ، وهذا أمر طبيعي يعرفه دارسو الحضارة ، فالذى أعطى هذه الطبقة حق الحكم هو الجهاد والحرب ، أما وقد وضعت الحرب أوزارها أو كادت فى عصر الناصر محمد فقد فقدت هذه الطبقة مبرر وجودها وأصبحت عاجزة عن الحيلولة دون تداعي بنائها (٣) ، إذ ارتدت قوتها إلى ذاتها فأخذ يأكل بعضها بعضا .

ومما زاد الأمر سوءا أن خلفاء الناصر محمد من أولاده وأحفاده كانوا ضعافا صغار الأسنان سيطر عليهم أتابكتهم المتصارعون ، وأصبحوا هم

(١) النجوم الزاهرة / جـ ٨ / ص ٢٦٣

(٢) الديوان ص ١٩٦ ط بيروت

(٣) أنظر د. حسين مؤنس — الحضارة ط الكويت ١٩٧٨ ص ٢٧٥ .

المدبرين لأمرهم ، القابضين على زمامهم ، يجلسون على عرش السلطان من شاءوا وينحون من شاءوا ، وكأن هؤلاء السلاطين دمى تعبث بها أصابع الأتابكة ، تلهو بها حينا وقد تسأم اللهو بها فتهشمها . وأصبح الصراع الحقيقى هو الصراع بين الأمراء . كل منهم يريد أن ينتزع منصب الأتابكية ، فإذا بلغه أتى ومعه سلطانه المفضل ، ويحسن أن يكون طفلا حتى لا يكون له من الأمر شىء ، وقد بلغ الأمر أن جلس على عرش مصر أطفال دون السابعة مثل الأشرف «كجك» والأشرف «شعبان» . وقد ضاق الناس بهؤلاء السلاطين الأطفال ، وعبر الشعراء ساخرين عن هذا الضيق فقال بعضهم :

سلطاننا اليوم طفل ، والأكابر فى   خلف وبينهم الشيطان قد نزغـــا
فكيف يطمع من تغشية مظلمة   أن يبلغ السؤل والسلطان ما بلغا(١)

ووقف الناس يرقبون ملهاة الصراع الدامية فى كثير من الدهشة ، يكادون يخفون الشماتة ، وهم يرون أمر هذه الطبقة آخذا فى الانحلال ، ويرون بيت قلاوون وقد انفرط عقده ، وعبثت بأبنائه أيدى الأمراء قتلا وتذبيحا حتى كأن سعادته كانت عاجلا بلا آجل كما يقول الصفدى :

بيـت قـــلاوون سعاداتـــه   فى عاجـــل كانت بـــلا آجـــل
حـــل على أملاكـــه للـــــردى   دين قد استوفاه بالـــكامـــل (٢)

و«الكامل» يورى بها الشاعر عن «الكامل شعبان» الذى قتل على يد أخيه حاجى بإيعاز من الأمراء .

وصور لنا الشعراء فى لقطات قصيرة سريعة تقلب أمور الحكم ، فلايكاد

---

(١) النجوم الزاهرة / جـ ١٠ / ص ٢٢ .
(٢) النجوم الزاهرة / جـ ١٠ / ص ١٤١ .

سلطان يستقر حتى يعزل أو يقتل ، ولا يكاد أمير يلمع نجمه حتى يهوى سريعا إلى أفول أبدى ، لا يسلم حتى يودع كما يقول شهاب الدين بن العطار فى وصف «يلبغاآص» الذى ولى أتابكا فى عهد الأشرف شعبان فلم يستقر أكثر من أسبوع :

يلبغا آص تــــولى جمعـــــة فبغى واختــار حربا وادعـــى
ويـــح من جــاء لحـــكم زائرا ثم ما ســـلم حتى ودعــا (١)

وكذلك صور الشعراء تلك البهجة التى كان يحسها العامة وهم يشهدون مصارع هؤلاء الطغاة ، ونرى الشعر تسهل ألفاظه ، وتقصر أوزانه، ويقرب من لغة العامة ، وتكاد تنحصر اللقطة فى بيتين أو ثلاثة أشبه بهتافات ترددها الجماهير ، أو بأغنيات يتغنى بها العامة وهم يطوفون الشوارع ، وانظر مثلا على ذلك قول المعمار فيما رآه من صنع تجار الحلوى قطعا على هيئة قوصون بعد أن قتل، وهذه عادة مازالت لها بقايا فى مصر حتى الآن :

شخص قوصـــون رأينـــا فى العلاليـــق مسمـــر
فعجبنـــا منـــه لمـــا جـــاء فى التسمير سكـــر (٢)

وانظر إلى قوله فى طشتمر (حمص أخضر) الذى قتله الناصر أحمد بعد أن كان بلغ شأوا عاليا :

جننـــت بالمـــلك لمـــا أتـــاك بالبسط ماجـــن
وقد أمنـــت الليـــالى يا حمص أخضر وداجـن (٣)

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور — ابن اياس — ص ١٩٣ ط الشعب .
(٢) النجوم الزاهرة / جـ ١٠ / ص ٤٨ .
(٣) بدائع الزهور ص ١٥٤ .

فهو يقترب من لغة العوام ، بل إنه يستخدم اسم الأشارة «ذا» غير منقوط كما يستخدمه العامة فيقول «وداجن» ويقصد «وهذا جن» .

ويصور لنا ما نقرؤه من شعر هذا الصراع الناس وكأنهم يشاهدون بعض المباريات الرياضية ، فهم يعلقون وينتقدون كما يعلق رواد الملاعب على لعبة جيدة أو ينتقدون لعبة سيئة ، وكل ذلك يتم فى تهكم ساخر مرير ، يستعين الشعراء على إبرازه بما يستخدمون من فنون «التورية» وما تحدثه من مفارقات فهذا «يلبغا آص» يصنع السفن لتحمله هو وسلطانه «أنوك» فيسرقها منه الفريق الآخر وسلطانه «شعبان بن حسين» ... ويل ليلبغا من ألسنة العامة إنه لم يكن لاعبا ماهرا ، ولم تنفعه أمواله التى اختزنها فى منزله بالكبش ..

بدا شقا يلبغا وعدت عداه فى سفنه إليه
والكبش لم يفده وأضحت تنوح غربانه عليه(١)

وهذا «إينال اليوسفى» تسرع فهجم على «برقوق» قبل أن يأتى «بركة» فيعينه ... أخطأ إينال ... لماذا أتى بهذا ؟ ..

ما بال إينال أتى فى مثل هذى الحركة
مع علمه بأنها خالية من بركه (٢)

لقد أتقن المشاهدون فن اللعبة ، وأصبح فى استطاعتهم التنبؤ بنتائجها فهاهو شهاب الدين السعدى الأعرج يتنبأ بقتل إلجاى اليوسفى الذى كان زوج أم الأشرف شعبان فلما ماتت كان لابد من صراع هو ضحيته .. إن الأمور تشير إلى ذلك ..

---

(١) بدائع الزهور ص ١٨٨ .
(٢) النجوم الزاهرة / جـ ١ / ص ١٦٩ .

في مستهل العشر من ذى الحجة كانت صبيحة موت أم الأشرف
فالله يرحمها ويعظم أجره ويكون في عاشوراموتاليوسفي(١)

وقد ينهض وسط هذا الصخب صوت جاد وقور يدعو الناس إلى التفكر والتأمل ، والتماس العبرة والعظة ، وربط الأسباب بالنتائج كما نرى في قول الصفدى حينما ذبح الملك المظفر «حاجى» وكان شغوفا بلعب الحمام :

أيها العاقل اللبيب تفكر في المليك المظفر الضرغام
كم تمادى في البغى والغى حتى كان لعب الحمام جد الحمام (٢)

ويقول حينما قتل قوصون وكان قد سمت رتبته في عهد الناصر محمد ، وولديه أبى بكر وكجك :

«قوصون» قد كانت له رتبة تسمو على بدر السما الزاهر
فحطه في القيد «أيد غمش» من شاهق عال على الطائر
ولم يجد من ذله حاجبا فأين عين الملك الناصر؟
صار عجيبا أمره كله في أول الأمر وفي الآخر (٣)

ويقول في مقتل طشتمر (حمص أخضر) :

طوى الردى طشتمرا بعد ما بالغ في دفع الأذى واحترس
عهدى به كان شديد القوى أشجع من يركب ظهر الفرس
ألم تقولوا «حمصا أخضرا» ؟ تعجبوا بالله كيف اندرس !! (٤)

(١) النجوم / ‍جـ ١١ / ص ٦٠ .
(٢) النجوم الزاهرة / جـ ١٠ / ص ١٧٣ .
(٣) النجوم الزاهرة / جـ ١٠ / ص ٤٨ .
(٤) بدائع الزهور ص ١٠٤ .

وما أظن صاحب هذا الصوت الوقور يتوجه به إلا إلى الامراء المتصارعين ، والسلاطين الذين انغمسوا فى لهوهم ، منبها لهم أن الاستقامة أساس دوام الأمر لأصحابه ، وأن القوى لا ينبغى أن يخدع بقوته .. فأين «قوصون» ؟ ألم يكن عين الملك الناصر ؟ وأين «طشتمر» ؟ ذاك الذى كان أشجع من يركب الفرس ؟

ومهما كان من أمر فما أظن هذه الشواهد الأدبية التى أوردناها إلا ممثلة لذلك الانفصام الذى كان بين الحكام والمحكومين ، والذى بلغ فى بعض الأحيان الحد الذى يتشفى فيه الناس بمصارع الحكام .

٣ — الوزارة :

نقرأ الأدب الرسمى لهذا العهد فتطالعنا صورة مشرقة للوزير ولمنصب الوزارة ، فالوزارة كما يقول التقليد هى :

«ذروة الدولة وسنامها ، وتاج المراتب وإكليلها ، وعتاد الخزائن الجامع دقيق المصالح الإسلامية وجليلها» . (١)

ويمضى هذا التقليد الصادر بوزارة سيف الدين «بكتمر» على عهد السلطان أبى بكر بن الناصر فيبينه وزيرا نافذ الأمر مطاع القول فى شرق الدولة وغربها

«فليستقر فى هذه الرتبة السنية استقرار الدرر فى أسلاكها ، والدرارى فى أفلاكها ، نافذ الأمر فى مصالح شرقها وغربها ، مطاع القول فى بعد أماكنها منه وقربها» (٢)

تلك الصورة المثلى للوزارة على عهد الدولة المملوكية رسمها هذا التقليد

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى / جـ ١١ / ص ١٥١ .
(٢) صبح الأعشى للقلقشندى / جـ ١١ / ص ١٥٢ .

كما شاء له خيال كاتبه ، أما الواقع فربما كان مخالفا لذلك أشد المخالفة ، فالوزير فى هذه الدولة كان مقيد الإرادة محدود السلطة ، إذ تقدم عليه منصب آخر هو منصب نيابة السلطان ، ويصف ابن فضل الله العمرى مدى ما اعترى هذا المنصب من هزال فيقول :

«لكنها لما حدثت عليها النيابة تأخرت وقعد بها مكانها ، حتى صـــار المتحدث فيها كناظر المال لا يتعدى الحديث فيه ، ولا يتسع له التصرف فى مجال ، ولا تمتد يده فى الولاية والعزل لتطلع السلطان إلى الاحاطة بجزئيـات الأحوال» . (١)

ويبين ابن خلدون ترفع كثير من أمراء المماليك عن الوزارة وتطلعهم لمنصب النيابة حيث أصبح الوزير كل اختصاصه جباية المال .

«فصارت مرءوسة ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية فى الدولة عن اسم الوزارة ، وصار صاحب الأحكام والنظر فى الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد ، وبقى اسم الحاجب فى مدلوله ، واختص اسم الوزير عندهم بالنظر فى الجباية» . (٢)

ولم يكن أمراء المماليك وحدهم هم الذين ترفعوا عن منصب الوزارة ، بل كان من أبناء الشعب المعممين من ترفع عنها ، وزهد فيها ، ورأى أن العلم أرفع منها بل هو الرتبة التى تنحط دونها كل الرتب . ونرى هذه النظـــرة متمثلة فى مدح البوصيرى لزين الدين احمد :

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى / جـ ٤ / ص ٢٨ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٣ ط الشعب .

عجبت لزهدك فى الوزارة معشر ... فأجبتهم عجباً إذا لم يزهد
ما ضر حبرا قلدته أئمة ... إن لم يكن لمناصب بمقلد
وإذا سما باسم العلوم فلا تسل ... عن حظ نفس بالحضيض الأوهد
ما المجد إلا حكمة أو ليتها ... ينحط عنه قدر كل ممجد
يا رتبة لا ترتقى بسلالم ... وسيادة ما تشترى بالمسجد
خير المناصب ما العيون كليلة ... عنه وما الأيدى له لم تمدد (١)

بل ليس أدل على هون هذا المنصب وضعفه من سخرية الشارمساحى بأبى بكر النشائى الذى تولى الوزارة على عهد الناصر محمد ، وذلك إذ يقول :

مزقوا منصب الوزارة حتى ... لزقوها فى وقتنا بالنشائى(٢)

ومن قبل الشارمساحى سخر ناصر الدين بن النقيب بأحد الوزراء فقال :

أبكم قلدوه أمر الرعايا ... وهو من حلية الوزارة عطل
فهو بالبوق فى الوزارة طبل ... وهو فى الدست حين يجلس سطل(٣)

وسخر محيى الدين بن عبد الظاهر بالوزارة وأشباهها من المناصب بعد أن استأثر الملوك بالأمر فقال :

مرض الزمان وقد تمسك طبعه ... من شر قولنج به يتمغس
حقنته آراء الملوك فجاءه ... أهل المناصب كل شخص مجلس(٤)

ولقائل أن يقول : إن هناك من وزراء هذا العهد من تمتع بنفوذ واسع ،

---

(١) ديوان البوصيرى / ص ٨٠ ، ٨١ .
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ح ٢/١/ص ١٦٨ .
(٣) الغيث المنسجم فى شرح لامية العجم ح ٢ ص ١٨٥
(٤) المرجع نفسه ص ١٨٥ .

وهابه أمراء الدولة كالشجاعى على عهد قلاوون ، وابن السلعوس على عهد الأشرف خليل . ونحن نعلم ذلك ، ونعلم أن الشجاعى كانت تضرب على بابه «الطبلخاناه» وهو أمر لم يعهد لغيره من وزراء هذا العهد ، ونعلم أن ابن السلعوس «أظهر من العظمة والكبرياء والعجب والخيلاء أمرا كبيرا ، وجرد فى خدمته بعض المماليك السلطانية ، فكانوا يركبون فى خدمته ، ويقفون إذا جلس فى مجلسه ، وصار يركب فى موكب كبير من الجند وأصحاب الدواوين وغيرهم من المتعممين » . (١)

غير ان الشجاعى وابن السلعوس لا ينبغى أن يقاس عليهما ، فالشجاعى كان أميرا من أمراء المماليك ، وابن السلعوس كان صديقا ونديما للأشرف خليل .

وعلى الرغم من ضعف هذا المنصب وهزاله فقد دار حوله الصراع ، وبخاصة فى أوقات ضعف السلطنة ، وانحلال قواها ، وتصور الآثار الأدبية لهذا العصر بعض جوانب هذا الصراع وبعض أبعاده .

ولم يكن هذا الصراع يسير على وتيرة واحدة فكان منه العاصف المدمر ، وكان منه المستكن الهادىء ، الذى يعمل فى خفاء ، ولا يكاد يعلن عن نفسه.

ومن أمثلة ذاك اللون العنيف المدمر ما كان بين الشجاعى وابن السلعوس فقد انتهى أمر ابن السلعوس على يد الشجاعى ، وكان ذلك جزاء تكبره وبغيه ولقاء استهانته بخصمه رغم تحذير المحذرين ، فقد بعث اليه أحد أقاربه ينبهه إلى مكمن الخطر قائلا :

---

(١) زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة — بيبرس الدوادار ورقة ١٤٥ — ٩ مخطوط بجامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٨ .

تنبـه يا وزيـر الأرض واعـلم ... بأنـك قـد وطئت على الأفاعي
وكـن باللـه معتصمـا فـإني ... أخاف عليك من نهش الشجاعي(١)

والشجاع هي الحية الذكر . ويورى بها الشاعر عن «الشجاعي» . وبين اللفظ وما يورى به عنه علائق لا تخفى على عين بصير ، فقد كان الشجاعي عسوفا جهولا ، فرح الناس بمقتله ، وشيعوه باللعنات ، وقال الوراق في ذلك

أبـاد الشجاعي رب العبـاد ... وشـيع للدفن في نـار مـالك
عصـا ربه فالعصـا نعشـه ... وعقباه في الحشر أضعاف ذلك(٢)

وفي هذا الصراع كثيرا ما كان يؤخذ أصحاب الوزير المقتول وأتباعه بجريرته ، فيفتش عنهم ، ويمسون بين سجين وطريد ، فشرف الدين النصيبي كان من أتباع حمزة الأسفوني الذى ولي الوزارة على عهد المنصور قلاوون ثم قتل غدرا ، ونرى النصيبي يصف حاله وحال رفاقه من أتباع الأسفوني ، نادما على تلك العلاقة التي جمعته بهـذا الوزير مشؤوم الطالع ، مشئوم الـرأى فيقول :

هـي وقفـة قصرت وطال بلاؤها ... فكأنمـا هي دولـة الأسـفوني
يا حمـزة بن محمـد ألقيتنـا ... في ذل أحزان وضيق سجـون
لم نمـش هونا في الأمـور فكلنـا ... من شـؤم رأيك في عـذاب الهون
ما بين مطـرود عن الأوطـان لا ... يـأوي بها خوفا وبـين رهـين

---

(١) النجوم الزاهرة / جـ ٨ / ص ٥٤ .
(٢) المنهل الصافي لابن تغري بردي / جـ ٢ / ورقة ٩٤ أ – مخطوط بمكتبة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية مصور عن دار الكتب .

تجنى ونؤخذ بالجناية هكذا العقلاء مأخوذون بالجنون (١)

وكثيرا ما كان يحيق الغضب بوزير فيهم على وجهه متخفيا فى الأزقة والحارات ، أو فى الزوايا والمساجد ، يود النجاة بحياته من يد غرمائه وذلك ما حدث للتاج الملكى على عهد المنصور علاء الدين على بن شعبان حيث طارده «بهادر الأعسر» وأمسكه متخفيا فى مسجد عمرو بن العاص ، فقتله وسجل هذه الواقعة ابن العطار فقال :

الملكى مات واستراحت   من نجس أغلف الوزارة
وقالت الميضة ابعدوه   من أين ذا الكلب والطهارة (٢)

ووافق مقتله عيد النوروز فأبى ابن العطار إلا أن يسجل ذلك أيضا بقوله :

قضى الملكى فى النيروز نحبا   وراح مصادراً ومضى وسارا
وعم المسلمين به سرور   وتم بموته عيد النصارى (٣)

هذه ألوان من الصراع العنيف حول الوزارة ومنصبها ، أما الصراع الهادىء الذى هو أشبه بالتنافس فكان بين المعممين من أرباب الأقلام وبين الأمراء من أرباب السيوف .

والمعروف أن منصب الوزارة — إذ ذاك — كان يتعاور عليه هؤلاء وهؤلاء ، فإذا كان الوزير من أصحاب الأقلام سمى بالصاحب ، وإذا كان من أرباب السيوف اكتفى بتقليبه بالوزير . (٤)

---

(١) الطالع السعيد للادفوى / ص ٢٣٤ — تحقيق سعد محمد حسن ط ١٩٦٦ .
(٢) إنباء الغمر بأنباء العمر / ابن حجر العسقلانى / جـ ١ ص ٢١٧ ط القاهرة ١٩٦١ ..
(٣) المرجع نفسه / جـ ١ / ص ٢١٧ .
(٤) على ابراهيم حسن — دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ص ٢٢٥ .

وكثيرا ما كان يعين وزيران فى وقت واحد أحدهما للصحبة ، والآخر من أرباب السيوف . ولنا أن نتخيل ما كان يصطرع فى نفس كل من الوزيرين من أحقاد وضغائن ، فكل منهما يود أن تكون له الكلمة المسموعة والقول النافذ .

ولو دققنا النظر فى أدب هذه الحقبة لوجدنا صدى من ذلك الصراع أو قل التنافس بين المعممين وبين أرباب السيوف . فنرى البوصيرى يمدح زين الدين أحمد بن فخر الدين الذى ولى وزارة الصحبة على عهد بيبرس فيقول :

تفديه أقوام كأن وجوههم … عند السؤال صحائف الآثام
كم بين ذكر الصاحب بن محمد … فينا وذكر أولئك الأقوام (١)

وما أظن الأقوام الذين يعرض بهم البوصيرى هنا ، ويشبه وجوههم بصحائف الآثام إلا أولئك الأمراء من أرباب السيوف . ويمضى البوصيرى فيشير إلى عزة قلم صاحبه فيقول :

شوقا لما مست أنامله فيا … هون النضار وعزة الأقلام (٢)

ويشير إلى مكانة هذا القلم فى تحقيق العلا وتفريج الكرب فيقول :

لله أقلام الوزير فإنها … نظم العلا ومفاتح الإظلام (٣)

ويوضح البوصيرى أن النصر إنما يتحقق لبيبرس بقلم صاحبه ، وحسن رأيه :

---

(١) ديوان البوصيرى ص ٢٠٣ .
(٢) الديوان ص ٢٠٥ .
(٣) الديوان ص ٢٠٥ .

وعقدت رأيك فيهم فلقيتهم ... فردا بجيش لا يطاق لهام (١)

وربما اتسعت دائرة هذا التنافس فشمل المعممين كلهم ، وأرباب السيف كلهم على اختلاف مواقعهم من السلطة ، ونحن لا نبعد بذلك عن ساحة الوزارة فهى معقد العيون ، ومطمح الأبصار لكثير من هؤلاء المتنافسين .

وقلما نقرأ مدحة فى معمم إلا وجدنا فيها إشادة بقلمه ، وتفضيلا له على السيف ، وبيانا لما لكتبه من فعل فى العدو يفوق فعل الجيوش ولنقرأ قول القيراطى فى مدح ابن الشهيد :

مدبر الملك فى سر وفى علن ... فمنه أبدت لنا الرايات آراء
وان غدا صعدة فى الحرب فهو بما ... تبديه من وشيه فى الكتب إنشاء
تكتبت تحته يوم الوغى فلها ... إلى المعالى بليل النقس إسراء
فيها من القول أجناد مجندة ... وفى حروف الهجا للخصم هيجاء
إن صبحت أرض أعداء طلائعها ... مستهم عند ليل النقس بأساء(٢)

ويقول ابن نباته فى شهاب الدين بن فضل الله العمرى :

وذو القلم الذى إن قال أغنى ... عن استماع قعقعة السلاح (٣)

ويقول فى بنى فضل الله :

والفاتحين باقلام لهم وطنا ... ممالكا لم يحلها عزم فتاح
فان حموا بيضة الاسلام إنهم ... من سادة فى صميم العرب أمحاح

---

(١) الديوان ص ٢٠٤ .
(٢) ديوان القيراطى (مطلع النيرين) ص ٤٣ ، ٤٤ . مخطوط
(٣) ديوان ابن نباته ص ١٠٣ .

لو كلموا بمواضيهم وألسنهم فأنهم أهل إبلاغ وإفصاح (١)

وهكذا يكشف ابن نباته عن بعض أبعاد خفية فى هذا الصراع حين يشير إلى أصل ممدوحيه العربى وأنهم سادة أمجاح من صميم العرب ، فكأن الصراع من منظور آخر هو صراع بين العرب وغير العرب .

ولا يخفى على القارىء مغزى ما يقرأ من تلك المفاخرات بين السيف والقلم التى شغف بها أدباء هذا العصر ، فهى ولاشك — تعكس أصداء هذه المعركة الصامتة بين أهل القلم وأرباب السيف .

وربما أتاحت لنا هذه المفاخرات أن نقف على دعوى كل فريق ، وما يراه فى نفسه من جدارة واستحقاق ، وما يجده فى خصمه من حطة ومنقصة .

ولابن نباته رسالة مطولة فى المفاخرة بين القلم والسيف أوردها ابن حجة فى خزانة الأدب . وتبدأ المفاخرة بحديث القلم حيث يرى أنه منار الدين ، وسفير الملك ، وبه رقم الله كتابه ، وهو يعد ويفى ويوعد فيخيف ، وهو المجاهد والسيف نائم ، وهو الجارى بما أمر الله من العدل والإحسان ، وهذا مغمز لأرباب السيوف وما اتسموا به من الظلم والعسف ، ثم تمضى الرسالة فينقلب التعريض هجوما ، وإذا بالقلم يصم السيف وأربابه بأنهم مخربون عابثون لا يملكون الرحمة ، وإنما هم أهل بطش وجهل :

«أتفاخرنى وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعطاء وأنت للمنع ، وأنا الصلح وأنت للضراب ، وأنا للعمارة وأنت للخراب ، وأنا المعمر وأنت المدمر وأنت المقلد وأنا صاحب التقليد ، وأنت العابث وأنا المجود ، ومن أولى من

(١) ديوان ابن نباته ص ١٠٦ .

القلم بالتجويد ، فما أقبح شبهك ! ! وما أشنع يوما ترى فيه العيون وجهك ! ! أعلى مثلي يشق القول ؟ ويرفع الصوت والصول ؟ وأنا ذو اللفظ المكين ، وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين» . (١)

وغير خفي ما في هذه الفقرة من تعريض بطبقة المماليك ووصفهم بالعجمة وعدم الإبانة ، وغير خفي أيضا ما يسري تحت عباراتها من إحساس بالتفوق العربي ، ونمضي مع القلم فإذا حديثه يشف ويكشف ، ويكاد يعبر لا عن شعور المعممين وحدهم ولكن عن شعور الشعب كله تجاه هؤلاء المماليك القساة الغلاظ ذوي العيون الزرقاء :—

«قد سلبت الرحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ، وجلبت القسوة فكم هيجت سبة حمراء ، وأثرت دهماء ، وخمشت الوجوه ، وكيف لا وأنت كالظفر كونا ؟ وقطعت اللذات ولم لا وأنت كالصبح لونا ؟ أين بطشك من حلمي ؟ وجهلك من علمي ؟ وجسمك من جسمي ؟

شتان ما بين جسم صيغ من ذهب وذاك جسمي ، وجسم صيغ من بهق
أين عينك الزرقاء من عيني الكحيلة؟ ورؤيتك الشنعاء من رؤيتي الجميلة»(٢)

أما السيف فيبدأ في بيان فضله من أنه زند الحق الوري وزنده القوي ، به ظهر الإسلام وأخمدت الفتن ، وبه حرز السلطان ثم يبدأ في الحط من شأن القلم ، فيبين ضعة مكانته وخمول شأنه ، فهو في مكان الخادم ، وهو مزور مؤتفك ، وهو لم يخلق للأعمال الجليلة ، وإنما أمره لا يتعدى شئون الفلاحة ، وصون الحطام :

---

(١) خزانة الأدب لابن حجة الحموي ص ١٣٣ ط بولاق ١٢٧٣ هـ .
(٢) خزانة الأدب ص ١٣٣ .

«أولست الذى طالما أرعش السيف للهيبة عطفك ، ونكس للخدمة رأسك وطرفك ، وأمر بعض رعيته وهو السكين فقطع قفاك وشق أنفك ، ورفعك فى مهات خاملة وحطك ، وجذبك للاستعمال وقطك ، فليت شعرى كيف جسرت ، وعبست على مثلى وبسرت ، وأنت السوقة ، وأنا الملك ، وأنا الصادق وأنت المؤتفك ، وأنت لصون الحطام وأنا لصون الممالك ، وأنت لحفظ المزارع وأنا لحفظ المسالك ، وأنت للفلاحة وأنا للفلاح ، وأنت حاطب ليل من نقسه وأنا سارى الصباح ، وأنا الباصر وأنت الأرمد وأنا المخدوم الأبيض وأنت الخادم الأسود» . (١)

ويمضى السيف فى هذه اللهجة المستعلية فيبين للقلم تفاهة قدره فى الدول ، وقلة جدواه ، ويعيره بفقره وعوز أصحابه :

«وهل أنت فى الدول إلا خيال تكتفى الهمم بطيفه ، أو إصبع يلعق بها الرزق إذا أكل الضارب بقائم سيفه ، وساع على رأسه قل ما أجدى ، وسار بما أعطى قليلا وأكدى ثم وقف وأكدى ، أين أنت من حظى الأسنى ، وكفى الأغنى ، وما خصصت به من الجوهر الفرد إذ عجزت عن العرض الأدنى(٢)».

ولا ريب أن حديث السيف يمثل لنا شعور الاستعلاء الذى كانت تموج به صدور المماليك ، كما يمثل نظرتهم إلى البلاد من معممين وغير معممين من أنهم ما خلقوا إلا للفلاحة والحرث ، والقيام على شئون هذا السيد الأبيض الذى يملك أسباب القوة ، ولا يملك أهل البلاد تجاه هذا القوى المتعال إلا المداراة والتنحى عن طريق القراع ، كما رأى القلم فى ختام هذه الرسالة

(١) خزانة الأدب ص ١٣٤ .
(٢) خزانة الأدب ص ١٣٤ .

أدرك أن الدهر دهر صاحبه ، والقدر على حكم الوقت قدره .

٤ — القضاء :

والقضاء — إذاك — هو السلطة الشرعية ، والقائم على حدود الدين . وقد بقيت مناصب القضاء قصرا على أولى العلم من أهل البلاد ، ومن هنا كانت خطورتها ، ومن هنا أيضا كان حرص السلاطين على الحد من سلطة القضاء ، وعلى التدخل فى شئونه ، فالقاضى كانت له مكانته الدينية ، وكان قادرا — لو أدرك فى نفسه هذه المكانة — على هز عروش السلاطين ، وتأليب القلوب عليهم .

ولعل بيبرس كان صادقا كل الصدق حينما قال وقد مات عز الدين بن عبد السلام «اليوم تم لى ملكى» .. ومن ثم كان اتجاه بيبرس — فيما أعتقد — لتفتيت سلطة القضاء ، وتنصيب قضاة أربعة لكل مذهب من المذاهب قاض

ودعك مما يذكره المؤرخون من أسباب حدت ببيبرس إلى ذلك ، فما أظن هذا العمل كان الدافع إليه تشدد قاض أو تعنته ، وإنما هو أمر أحكم ودبر له لضرب سلطة القضاء ، وإثارة الإحن والشحناء بين القضاة .

ولا يخفى على عين ذى بصر بالسياسة أن هذه سبيل السلطان لتصبح الخيوط كلها فى يديه يجذب منها ما شاء ، ويرخى ما شاء .

ويعكس لنا الأدب استياء الناس لتفتيت سلطة القضاء ، وتعيين قضاة أربعة حيث يعلن الأدباء عن استيائهم فى أسلوب ساخر متهكم لاذع ، فيقول بعض الشعراء :

الشافعى من الأئمة قائل ... اللعب بالشطرنج غير حرام

وأبـو حنيفـة قال وهـو مصـدق ... فى كل ما يروى من الأحـكام
شرب المثـلث والمربع جـائـز ... فاشرب على أمن مـن الآثـام
وأبـاح مـالك الفقـاح تكرمـا ... فى ظهر جاريـة وظهر غـلام
والحبر أحمـد حل جلد عـميرة ... وبذاك يستغنى عـن الأرحـام
فاشرب ولط وازن وقامرواحتجج ... فى كل مسألة بقول إمـام (١)

والأبيات على الرغم مما فيها من عرى وتبذل تعبر عن شعور النـاس بتشعب الأمر ، وتضارب الآراء ، والحيرة التى تملكتهم إذ اضطربت المعايير فما عادوا يعرفون إلى أى المذاهب يحتكمون .

بل اعتبر بعض الفقهاء ذلك نذير شؤم وخراب ، وربما كان بعضهـم فى ذلك مدفوعا بتعصبه للشافعية الذين سلب عنهم التفرد بسلطان القضاء . فيقول السبكى : «وقال أهل التجربة : إن هذه الأقاليم المصرية والشاميـة والحجازية متى كان البلد فيها لغير الشافعية خربت ، ومتى قدم سلطانها غير أصحاب الشافعى زالت دولته سريعا ، وكأن هذا السر جعله الله فى هذه البلاد كما جعل الله لمالك فى المغرب» . (٢)

وكثرت الرؤى والأحلام بهذا الصدد ، وهى — ولاشك — لون مـن أدب الحكاية يترجم عن عواطف الناس وتتجسد فيه آراؤهم وأفكارهم ، أو هى كما يقول فرويد «معالجة فريدة لمادة الفكر قبل اللاشعورية ، بحيث تتكثف

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم للسبكى ص ١٠٢ تحقيق النجار وشلبى وأبى العيون ط دار الكتاب ١٩٤٨ م .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى حـ ٢ / ص ١٠٠ ط المطبعة الشرقية ١٣٢٧ .

عناصرها ، ويزاح تأكيدها النفسى ، وتترجم بأسرها إلى صور بصرية أو تشخص» . (١)

فيقال عن بيبرس :

«ثم إنه ندم على ما فعل وذكر أنه رأى الشافعى فى النوم لما ضم إلى مذهبه بقية المذاهب وهو يقول : تهين مذهبي ؟ البلاد لى أو لك ؟ قد عزلتك وعزلت ذريتك إلى يوم الدين» ويعقب راوى الحلم فيقول «فلم يمكث إلا يسيرا ومات ولم يمكث ولده السعيد إلا يسيرا وزالت دولته ، وذريته إلى الآن فقراء».(٢)

وفى حلم آخر رئى بيبرس «فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : عذبنى عذابا شديدا لجعل القضاة أربعة ، وقال فرقت كلمة المسلمين» . (٣)

وأما الأدب الرسمى فقد صور الأمر على وجه آخر ، فبين أن تعددالقضاة أمر كان لازما فى بلد كمصر أصبح يمثل قلب العالم الإسلامى حيث تلتقى وفود المغرب والمشرق ، ولابد — والأمر كذلك — أن تتسع ساحة القضاء فى مصر لكل المذاهب الإسلامية . ولعلنا نفهم ذلك من وصايا ابن فضل الله العمرى لقضاة القضاة ، فنراه فى وصيته للقاضى المالكى يفهمه أن أهل مذهبه غرباء وفدوا من المغرب وأضناهم السفر ، فعليه أن يحسن إليهم ، ويترفق بهم :

«وفقهاء مذهبه فى هذه البلاد قليل ما هم ، وهم غرباء ، فليحسن مأواهم وليكرم بكرمه مثواهم ، وليستقر بهم النوى فى كنفه ، فقد ملوا طول الدرب

---

(١) حياتى والتحليل النفسى — فرويد — ترجمة زيور والمليجى ص ٥٣ ط دار المعارف .
(٢) حسن المحاضرة للسيوطى جـ ٢ / ص ١٠٠ .
(٣) المصدر نفسه جـ ٢ / ص ١٠٠ .

ومعاناة السفر الذى هو أشد من الحرب ، ولينسهم أوطانهم ببره ، ولا يدع فى مآقيهم دمعا يفيض على الغرب» . (١)

ويقول فى وصية قاضى الحنفية :

«وليحسن إلى فقهاء مذهبه الذين أدى اليه أكثرهم الاغتراب وحلق بهم إليه طائر النهار حيث لا يحلق البازى ، وجناح الليل حيث لا يطير الغراب ، وقد تركوا وراءهم من البلاد الشاسعة والأمداد الواسعة ما يراعى لهم حقه إذا عدت الحقوق» . (٢)

ولسنا ننكر أن هذا — ربما — كان هدفا من أهداف بيبرس فى جعل القضاة أربعة ، ولكنه لا يسقط ما ذهبنا إليه آنفا من قصد بيبرس لتفتيت سلطة القضاء .

وعلى الرغم مما يطالعنا به الأدب الرسمى لهذا العهد من إظهار للحرص على العدالة ، وتحر للإنصاف ، وتشديد على القضاة فى إحقاق الحق ، وإقامة المساواة ، ومراقبة الوكلاء والعمال — وهذا ، ولاشك ، وجه الدولة أمام الناس — فالحقيقة شىء آخر ، وقد دأبت السلطة على التدخل فى شئون القضاء فأتيح للحاجب أن يتدخل فى اختصاصات القاضى حتى أصبح يفصل بنفسه فى القضايا (٣) . وأصبح القضاة يتعرضون لعبث السلاطين وكبار الأمراء .

نقرأ فى الأدب الرسمى من وصية قاض لابن فضل الله العمرى :

«وليتحر فى استيداء الشهادات ، فرب قاض ذبح بغير سكين ، وشاهد

---

(١) التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى ص ١٢١ ط مصر ١٣٢١ هـ .

(٢) التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى ص ١٢٠ .

(٣) انظر : على إبراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ص ٢٨٩ .

قتل بغير سيف ، ولا يقبل منهم إلا من عرف بالعدالة وألف منه أن يسرى أوامر النفس أشد العدى له . وغير هؤلاء ممن لم تجر له بالشهادة عادة ، ولا تصدى للارتزاق بسحتها وهى حى على الشهادة ، فليقبل منهم من لا يكون فى قبول مثله ملامة. فرب حدل بين منطقة وسيف ، وفاسق فى فرجية وعمامة». (١)

ويوصيه بمراقبة وكلائه فيقول :

«والوكلاء هم البلاء المبرم والشياطين المولون لمن توكلوا له بالباطل ليقضى لهم به ، وإنما يقطع لهم قطعة من جهنم ، فليكف بمهابته وساوس أفكارهم ، ومساوئ فجارهم ، ولا يدع لجنى أحد منهم ثمرة إلا ممنوعة ، ولا يد اعتداء تمتد إلا مغلولة إلى عنقه أو مقطوعة» . (٢)

ويوصيه أيضا بمراقبة عماله الذين يمدون أيديهم إلى الرشوة :

«وليطهر بابه من دنس الرسل الذين يمشون على غير الطريق ، وإذا رأى واحد منهم درهما ود لو حصل فى يده ووقع فى نار الحريق» . (٣)

هذه هى صورة الدولة التى تود أن يراها الناس بها . ولسنا ننكر أن بعض قضاة هذا العصر ، بوازع من نفسه لا من الدولة ، حقق هذه الصورة المثلى فاضطلع بعبء العدالة ، ونزه يده ومكانه ، وحفظ للقضاء حرمته ، إلا أنه فى سبيل ذلك تعرض من بلاء السلطة لما لا يطيق فهذا تقى الدين بن بنت الأعز يرفض ما طلب منه ابن السعلوس من تعيين أحد أتباعه ، فيلقى جزاء هذا أن يصرف عن القضاء ، ويتهم فى عرضه ودينه ، وينكل به ، وبعد أن تنجلى

---

(١) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١١٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٧ .

(٣) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١١٧ .

هذه الغمرة يذهب إلى مكة حاجا ثم يزور قبر الرسول ، وينفث هناك آلامه فى قصيدة يمدح بها الرسول — صلى الله عليه وسلم — وقد أورد ابن شاكر الكتبي بعض قطع منها تعكس آلام الرجل ومحنته ، فيقول فى أثناء مدحه للرسول عليه السلام وكأنه يعرض بضلال المماليك ومرض قلوبهم :

وأخو الهوى فى طرفه وفؤاده مرض يصد عن الطريق الأرشد

ويقول وكأنه يعزى نفسه عما أصابه ملتمسا فى ذلك الأسوة من سيرة الرسول :

ومحبة المولى هى الأصل الذى لم يثن عزمك فيه رأى مفند

ويرى فى موقف الحسن والحسين — سبطى الرسول — عليه السلام — فى وجه الطغيان ، واختيارهما للطريق الأشق الأجهد حجة على كل من يلى أمور المسلمين ويلتمس الذرائع لتهاونه أو تغاضيه من قوة ترغمه ، أو طغيان يحدق به .. فيقول :

قاما بنصرك فى الحياة عبادة وجلادة أزرت على المتجلد

وتكفلا بعد الممات بنصرة الدين الحنيف على الكفور الملحد

وتقلدا الأمر العظيم فاصبحا حججا على كل امرىء متقلد

تالله قد جدا وما ونيا ولا اختارا الأخف على الأشق الأجهد (١)

وهكذا دأبت السلطة على التدخل فى شئون القضاء ، وكان من القضاة من موقف فى وجه التدخل وصبر للمحنة ، وقد رأينا موقف ابن بنت الأعز

---

(١) أورد ابن شاكر بعض مقطعات من هذه القصيدة فى كتابه فوات الوفيات / ج ٢ ص ٢٨٠ — ٢٨١ / تحقيق إحسان عباس .

وشبيه به موقف ابن دقيق العيد الذى ثقلت وطأته عليهم لعدله ونزاهته وكان وصف الإدفوى له حقا إذ يقول :

وتمسك من التقوى بالسبب الأقوى ، وقام بوظيفة التحقيق والتدقيق التى لا يطيقها غيره من أهل زمنه ولا عليها يقوى ، مع ترك المباهاة بما عليه من الفضائل والسلامة من الدعوى ، وجعل وظيفة العلم والعمل له ملة حتّى قال بعض الفضلاء من مائة سنة ما رأى الناس مثله» . (١)

لكن الذى لاشك فيه مع ذلك أن الرجل كان غير خفيف على القوم كما يقول النصيبى القوصى فى رثائه :

كان الخفيف على تقّى مؤمن لكن على الفجار غير خفيف (٢)

وربما كان الموت خلاصا له من معاناته مع هؤلاء المماليك كما يقول النصيبى :

وخلصت من كيد الحسود ورؤية الجانى البغيض وجزت كل مخوف (٣)

وفى الجهة المقابلة كان هناك من القضاة من رضخ ومالأ السلطة ،وأعانها على تنفيذ مآربها متجاوزا أحكام الدين ، طامعا فى زيف الجاه والمال .

وأصبح من المألوف أن يعزل قاض ويولى آخر لا لشىء إلا أن المعزول كان نزيها نقى العرض ، لا يمالىء السلطة ، وممالأتها أمر مهم كما يقول ابن الوردى حين عزل «عمر بن محمد البلغيائى» وكان المصريون لا يعدلون به فى الفتوى أحدا من عصره :

كان والله عفيفا نزهاً وله عرض عريض ما اتهم

(١) الطالع السعيد ص ٥٦٩ تحقيق سعد محمد حسن

(٢) الطالع السعيد ص ٦١٩ .

(٣) الطالع السعيد ص ٦١٩ .

كان لا يدرى مـداراة الـورى ومداراة الـورى أمر مهـم (١)

وضاق الناس بعزل القضاة وتوليتهم حتى قال بعض الشعراء :

أهـل الشـآم اسـترابوا من كـثرة الحـكام

إذ هـم جميعا شمـوس وحالهـم فى ظـلام (٢)

من أجل ذلك ساءت نظرة الناس فيمن تولى القضاء ، ورأوا فيه طالبا للدنيا ، راكنا إليها ، ورأوا فى مثل هذه المناصب بلاء يكلف الإنسان دنياه ، أو يكلفه دينه حتى كان ابن دقيق العيد يقول : «والله ما خار الله لمن بلى بالقضاء» (٣) ، وكتب إلى بعض نوابه يوقظ ضمائرهم :

«والله إن الأمر لعظيم ، وإن الخطب لجسيم ، ولا أرى مع ذلك أمنا ولا قرارا ولا راحة ، اللهم إلا رجلا نبذ الآخرة وراءه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصر همه وهمته على حظ نفسه من دنياه ، فغايته مطلب الحياة ، والمنزلة فى قلوب الناس ، وتحسين المرأى والملبس ، والركبة والمجلس ، غير مستشعر خسة حاله ولا ركاكة مقصده ، فهذا لا كلام معه فإنك لا تسمع الموتى ، وما أنت بمسمع من فى القبور» . (٤)

وعلى الرغم من تورع ابن دقيق العيد هذا لم يسلم من لسان معاصريه ، فقال فيه برهان الدين المصرى :

وليت فـولى الزهـد عنك بأسره وبان لنـا غير الذى كنت تظهـر

---

(١) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . ابن حجر العسقلانى حـ ٣ / ص ٢٦٣ تحقيق محمد سيد جاد طـ دار الكتب .

(٢) النجوم الزاهرة / حـ ٧ / ص ١٣٧ .

(٣) الطالع السعيد / ص ٥٩٦ .

(٤) تاريخ ابن الفرات / حـ ٨ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

وكنت إلى الدنيا وعاشرت أهلها ولوكان عن جبر لقد كنت تعذر(١)

وسوء الظن فى مثل هذه المناصب نراه فى بعض أشعار اخرى لهذا العهد فيقول الإدفوى :

لا تلمن الدهر أمر الورى واقنع من الرزق ببعض النوال
لو لم يكن فى الحشر فيه سوى طول وقوف المرء عند السؤال
لكان أمرا مؤلما محزنا يلهيك عن أهل وجاه ومال(٢)

ويرى برهان الدين القيراطى شيخ الشافعية فيرى أن من محامده الكبرى هجره للمناصب ، وتنزهه عنها ، وتعففه عما تبديه من زخرف خادع ، وبهرج زائف :

لقد هجرت صاد المناصب نفسه كما هجرت راء الهجا نفس واصل
تنزه عنها وهى لا تستفزه بزخرفها الخداع خدع الختائل
وما مد عيناً نحوها إذ تبرجت تبرج حسناء الحلى فى الغلائل(٣)

وربما اتسع نطاق سوء الظن هذا فطبع نظرة الناس لكل مناصب الدولة سواء منها ما اتصل بالقضاء أو بغيره فهى طريق إلى غضب الله ، وطلابها أهل غى ولدد ، وأيسر الطرق أن يترك الإنسان البلد لحاكمه الغشوم وينجو بنفسه ودينه . كما نرى فى قول ابن نباته :

أصبت لا أجتوى عيش الخمول ولا إلى المراتب أرى طرف مجتهد
جسمى إلى جدثى مهواى من كثب فكيف يعجبنى مهواى من صعد

---

(١) الطالع السعيد ص ٥٨٥ .
(٢) الطالع السعيد ص ٥٩٧ .
(٣) حسن المحاضرة / حـ ١ / ص ١٨٣ .

لا تخدعن بشهــد العيش ترشفــه　　فأى سم ثوى فى ذلك الشـــهد
ولا تـراع أخا دنيا يسـر بهـــا　　ولا تمــار أخا غــى ولا لـــدد
وان وجـدت غشوم القـوم فى بلـد　　حلا ، فقل أنت فى حل من البلـد
لأنصحنك نصحـــا إن مشيت به　　فيـا له من سبيل للعــلا جـــدد
إغضاب نفسك فـيما أنت فاعلــه　　رضى مليكك فاغضبهـا ولا تزد(١)

٥ - التيارات والحركات المعارضة :

كان المجتمع المصرى فى عصر المماليك يموج بتيارات متباينه ، ويضطرب بصراعات شتى ، ولكى نتمثل حقيقة هذه الصراعات وأبعادها يجب أن نكون على ذكر من أن المجتمع المصرى فى هذا العصر كان يتألف من عناصر عده ، وأجناس متباينة .

فالمماليك الذين يمسكون بمقاليد الحكم طبقة غريبة دخيلة تشكل خليطا من جنسيات مختلفة ، وإن كان يغلب عليهم جميعا اسم «الترك» لكثرة من ينتمى إلى هذا الجنس بينهم ، وقد سبقت الإشارة إلى أن هولاء المماليك - وإن كان قد تم لهم السلطان ، وانتزعوا كرسى الحكم من بنى أيوب - ظلوا متصارعين فيما بينهم ، كل منهم يعد العدة ليوم يكون فيه سيد القلعةوصاحب مصر .

وفى الناحية الأخرى كان هناك الشعب بطوائفه المختلفة التى يؤلف بينها شعور الكراهية للحاكمين .

فالقبائل العربية التى أتت مع الفتح ، واستقرت فى مناطق عديدة من صعيد مصر وإقليمى الشرقية والبحيرة ، وذاب بعضها فى الشعب المصرى

(١) ديوان ابن نباته ص ١٢٦ .

وبعضها عاش فى مجتمعات مغلقة أو شبه مغلقة كانت ترى أنها الأولى بالسلطة وأن المماليك — شأنهم فى ذلك شأن الأيوبيين — مغتصبون للحكم .

وأما شعب مصر من المسلمين وغيرهم — فقد ظل يرقب عن كثب هذا الصراع الدائر ، لا يخف إلى حومته ، ولا تستثيره دواعيه إلا فى القليل النادر وكل ما كان يرجوه هو جو من الاستقرار يتيح له أن يمارس حياته فى هدوء ويسر ، وكأن تاريخه الطويل على هذه الأرض خلق فى نفسه ألوانا من الصبر والأناة ، وأورثه ثقة لا تتزعزع بأن الزمن كفيل بعلاج كل هذه الأمور .

على أن هذا لا يمنع أن يكون لأبناء هذا الشعب رأيهم فيما يجرى من أحداث وأن يكون لهم ثقلهم فى ميزان الأمور ، وبخاصة إذا مالوا إلى فريق دون فريق أو رجحوا كفة واحدة من المتصارعين على آخر ، أو تصدوا للسلطة حينما يمس الأمر جوهر القيم والعقائد أو ينذر بزوال الاستقرار .

وإذا ذهبنا نتلمس أصداء هذه الصراعات فى الآثار الأدبية لهذا العصر نطالع أول ما نطالع ذلك الحنين إلى الأيوبيين وعهدهم ، والذى تمثل فى تلك الأنغام الباكية لبعض الشعراء ، فى رثاء «توران شاه» ، آخر سلاطين بنى أيوب والذى قتل غدرا بسيوف المماليك ، فجمال الدين بن مطـــروح يصور ذلك الحزن الذى اعتراه بعد مقتل «توران شاه» ، فعاش فى ليل طويل ورأى الدنيا ولت على أثر توران شاه ، ثم يمضى فيبين أن المماليك ما قتلوه إلا حسدا وغيرة حينما رأوه يتفوق عليهم وهو مازال غض الشباب :

يا بعيـــد الليـــل من سحــــره ... دائمـــا يبكـــى عـــلى قمـــره
خل ذا وانـــدب معى ملكـــا ... ولـــت الدنيـــا عـــلى أثـــره

كانت الدنيا تطيب لنا ... بين باديه ومحتضره
سلبته المـلك أسرته ... واستووا غدرا على سرره
حسدوه حين فاتهم ... فى الشباب الغض من عمره (١)

ولا يعنى الشاعر بأسرة توران شاه سوى هؤلاء المماليك الذين جلبهم والده نجم الدين أيوب ليكونوا له ولأبنائه من بعده عونا ، فإذا بهم يغدرون بابن سيدهم ، ويغتصبون منه سرير الملك .

ويلم الشاعر نور الدين سعيد ببعض هذه المعانى ، وتغلب عليه مشاعر الحسرة لفقد هذا الملك العزيز ، ويتمنى لو أنه ظل فى حصن «كيفا» ولم يسر إلى حتفه فى مصر :

ليت المعظم لم يسر من حصنه ... يوما ولا وافى إلى أملاكه
إن العناصر إذ رأته مكملا ... حسدته فاجتمعت على إهلاكه(٢)

ولا ريب أن الحنين إلى الأيوبيين وحكمهم كان يمثل نزعة فريق من المصريين فالأيوبيين كانوا غرباء — شأنهم فى ذلك شأن المماليك — فهم أحرار خلص ، وبعض الشر أهون من بعض . ويحدثنا التاريخ أن المصريين تباشروا لما أشيع أن عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك قد هزم على يد السلطان الناصر الأيوبى الذى جاء يثأر لابن أخيه توران شاه . (٣)

ولكن هذا الميل للايوبيين — فيما اعتقد — كان نزعة عارضة ، لا حظنا شحوب صورتها فى الأدب . وما أظن هذه النزعة بقى منها شىء بعد استقرار

---

(١) فوات الوفيات حـ ١ / ص ٢٦٥ تحقيق احسان عباس .
(٢) المصدر نفسه حـ ١ / ص ٢٦٥ .
(٣) النجوم الزاهرة حـ ٧ / ص ٩ .

الأمر للمماليك ، وربما كان يغذى هذه النزعة العارضة ، بعض أمراء المماليك ليفرضوا على عز الدين أيبك شريكا له من بنى أيوب يحد من سلطته ، ويضعف من شوكته ، فلما أنتهى أمر هذا الصراع وثبتت الأرض تحت أقدام عز الدين أيبك لم نعد نسمع فى الأدب من ذكر لبنى أيوب أو حنين لأيامهم .

على أن العرب من سكان مصر ويشاركهم فى ذلك فريق كبير من المصريين كانوا يرون غير ذلك ، إذ كانوا يعيشون أيام الأيوبيين مترقبين ليوم الخلاص منهم ، فلما جاء المماليك شعروا بخيبة الأمل ، ورأوا أنهم ما تخلصوا من شر إلا ليواجهوا شرا آخر ، ولعلنا نحس بشىء من مشاعر هذا الفريق فى قول البهاء زهير :

دولـــة كـــم قـــد سألنـــا ربنـــا التعـــويض عنهـــا
وفرحنـــا حـــين زالـــت جـــاءنا أنحـــس منهـــا(١)

أو حين يقول :

وثقيـــل مـــا برحنـــا نتمنّى البعـــد عنـــه
غـــاب عنـــا ففرحنـــا جاءنـــا أثقـــل منـــه (٢)

ولا أظن الشاعر فى البيتين الأخيرين يتحدث عن ثقيل من أولئك الثقلاء الذين تضيق بهم صدور المجالس ، ولكنه يتحدث عن السلطة والحكم متمثلين فى طبقة الجند ، وكان العامة من أبناء مصر يسمون الجندى بالثقيل لثقل ما عليه من آلة الحرب . فى كلمة «ثقيل» تورية ، ولا يغيب عنا شغف أدباء هذا العصر — وبخاصة فى مصر — بهذا اللون من البديع .

---

(١) ديوان البهاء زهير ص ٢٨٨ .
(٢) ديوان البهاء ص ٢٩٢ .

وربما عبر المقريزى عن هذه النظرة فى صورة مباشرة إذ يرى أنـــه لا مفاضلة بين الأيوبيين والمماليك فكلاهما سارق ، وبعضهم أظلم من بعض .

«وأنت إن أمعنت النظر ، وعرفت ما جرى تبين لك أن ما القوم إلا سارق من سارق ، وغاصب من غاصب .. بالله عرفنى فإنى غير عارف من منهم لم يسلك فى أعماله هذا السبيل غير أن بعضهم أظلم من بعض» . (١)

ولم يقف الأمر عند حد هذا التبرم الحبيس ، بل رأينا بعض القبائل العربية أو (العربان) — كما كان يطلق عليهم إذ ذاك — رفعوا راية العصيان من أول يوم لحكم المماليك ، واعتبروا المماليك خارجين مغتصبين ، وتحدثنا كتـــب عن وقائعهم المتكررة التى كان يذهب ضحيتها العديد من أبنائهم وبناتهـــم ويجردون فيها من أموالهم» . (٢)

وقد ظلت عين السلطة ترقب تحركاتهم فى ريبة وقلق ، ويتواصى السلاطين بحسم مادتهم واستئصال شأفتهم ، ففى التقليد الذى صدر عن قلاوون لابنه علاء الدين بولاية العهد ينصحه بمراقبة العربان والتشديد عليهم ونزع سلاحهم وتأديب الخارج منهم :

---

(١) الخطط للمقريزى ـ ٣ / ص ٢٢٤ ط العرفان .

(٢) لمزيد من التفصيلات عن هذه الوقائع انظر : السلوك ـ ١ / ٢ ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٥٢٠ ، النجوم الزاهرة ـ ٨ / ١٥٣ ، ١٥٤ ، وبدائع الزهور ص ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ . وانظر كذلك البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقريزى تحقيق وتأليف د. عبد المجيد عابدين ص ١٠ ، ٣٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ .

وأهم ثورات الأعراب هى ثورة الشريف حصن الدين ثعلب سنة ٦٥١ هـ . وثـورة أخرى تزعمتها جهينه سنة ٦٩٨ هـ ثم ثورة اخرى بزعامة محمد بن واصل العركى واستمرت خمس سنوات (٧٤٩ — ٧٥٤ هـ) وثورة ابن سلام سنة ٧٨١ هـ .

والعربان فى البلاد تحسم موادهم ، وتؤخذ رهائنهم ، ويحترز عليهم ، ويكتب إلى النواب والولاة فى الأعمال بأن أحدا لا يحمل منهم سيفا ولا رمحا ولا سلاحا ، ولا يفسح لأحد منهم فى ابتياع ذلك من القاهرة ، ومن خالف ذلك وحمله فى سفر من بلد إلى بلد تستهلك تلك العدة ويؤدب» . (١)

بهذا الحسم كانت وصية قلاوون لابنه بشأن العربان ، وكأنها أوامر عسكرية لا يجوز الجدل حولها .

ويصف البوصيرى ألوان العقاب التى كان يتعرض لها هؤلاء الخارجون من العربان فيقول فى أثناء مدحه «لأيدمر» الذى تولى ولاية القاهرة سنة ٦٧٨هـ ونكل بالعربان فى إحدى الوقائع تنكيلا مروعا :

زجرتهم بعقوبات منوعة ... وفى العقوبات للطاغين مزدجر
كأنهم أقسموا بالله أنهم ... لا يتركون الأذى إلا إذا قهروا
فمعشر ركبوا الأوتاد فانقطعت ... أمعاؤهم فتمنوا أنهم نحروا
ومعشر قطعت أوصالهم قطعا ... فما يلفقها خيط ولا إبر
ومعشر بالظبا طارت رءوسهم ... عن الجسوم فقلنا إنها أكر
ومعشر وسطوا مثل الدلاء ولم ... تربط حبال بها يوما ولا بكر
ومعشر سمروا فوق الجياد وقد ... شدت جسومهم الألواح والدسر
وآخرون فدوا بالمال أنفسهم ... وقالت الناس خير من عمى عور
موتات سوء تلقوها بما صنعوا ... ومن وراء تلقيهم لها سقر(٢)

ويبعث تاج الدين السبكى برسالة إلى برهان الدين القيراطى يصف له

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٩٩ .
(٢) الديوان ص ٩١ تحقيق محمد سيد كيلانى ط الحلبى ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ .

وقعة من وقائع العربان حدثت سنة ٧٦٥ هـ يقول فيها :

«ولقد شبت بين العرب والترك نار لا للقرى بل للقراع ، ولقد نهضت الدهماء واضطراب النقع المثار ، واشتبه المتبوع بالأتباع ، ولقد بكت البيض وزعقت السمر فى يوم أسود يطيب به الموت الأحمر» .

ثم يمضى فيصف ما حل بالعربان من قتل وتذبيح حيث برزت نساؤهم كل منهن تبحث عن زوجها فتجده وقد أطاحت السيوف برأسه فيقول :

«لقد قامت الحرب على ساق ورقت نساء الأعراب ولكن على الحياة حين رأين الأنفس إلى الحمام تساق ، وكم ذات خدر فقدت واحدها بين الرفاق فكرت تتبعه فصادفت على دمه ومصرعه السباع من كل مهند لمع وكأنه البرق الخاطف ، وجرد فكأنه القضاء الجارى فى المواقف ، وسل فكأنه الأسد الضارى فى المخاوف ، وكل ردينى هز فكأنه الغصن تناثرت ثماره ، وخطر فكأنه قد الحبيب تدانى مزاره ، وطعن فكأنه وخز الشيطان تضرمت ناره .

من كل أبيض فى يديه أبيض أو كل أسمر فى يديه أسمر

ولقد طاحت الغربان برؤس العربان ، وصاحت بالويل والثبور بنات طارق لطوارق الحدثان ، وراحت بالأرواح أقوام تعرف الحقيقة لا بحد ورسم بل بحد وسنان» . (١)

هكذا كان ينكل بالعربان ، ويمثل بهم شر تمثيل ليكون قتلاهم عبرة لأحيائهم حتى لا يشخصوا ببصرهم إلى ساحة السلطان . وكانت معاملة الدولة

(١) طبقات الشافعية الكبرى — تاج الدين السبكى جـ ٦ / ص ٨٠ ط المطبعة الحسينية .

لهؤلاء العربان فيها كثير من الامتهان ، حتى المهادنات كانت تفسر على أنها ضرب من الإذلال ، فهي فرصة للعربان يكثرون فيها من أموالهم وبنيهم لتأخذه الدولة غنيمة سهلة . يقول بعض الشعراء حينما أمن السلطان حسن «ابن الأحدب» زعيم العربان فى الصعيد :

ما هادن السلطان أعداءه ... إلا لأمر فيه اذلالهم
حتى له تكثر أموالهم ... وللسبا تكثر أطفالهم (١)

وغير خاف أن هذا الصراع كان غير متكافىء بين دولة تملك الجيوش المدربة المعدة ، وبين عدة قبائل من البدو شبه العزل ، الذين ربما لا يتسلحون بغير الحمية والنخوة — وكثيرا ما حلا لبعض أدباء هذا العصر الشعبيين أن يتندروا بأولئك العربان وتسليحهم . ولا بأس هنا أن نورد نصا من الأدب الشعبي للغبارى كبير زجالى العصر يصف ما عليه هؤلاء العربان من هزال وجوع ، ويسخر من أسلحتهم التى أتخذوها من الخوص والليف والجريد وقصاع الخشب ، وهم يزحفون خلف زعيمهم ابن سلام إلى البحيرة سنة ٧٨١ هـ وذلك إذ يقول :

جا ابن سلام معو رجال ... كل حد شهوتو رغيف
دا على رقبتو كفال ... ودا فى رقبتوا شليف
ودا لو درع سيسبان ... ودا لو درع خوص وليف
والقسى قسى من نخيل ... وخرائطهم العجب
وصواريهم الجريد ... وخوذهم قصع خشب (٢)

---

(١) بدائع الزهور ص ١٧٢ .

(٢) بدائع الزهور ص ٢١٧ .

وبون بعيد بين هذه الصورة المزرية وبين صورة الجنود المماليك .

ونحن إذا كنا قد أحسسنا فيما قرأناه من نصوص بعدم تعاطف مع هؤلاء العربان ، فما كان ذلك راجعا إلى ما يدعون اليه من حق عربي ، وإنما هو راجع إلى ما اتخذته بعض قبائل العربان التي آثرت حياة البداوة من اساليب النهب والسلب وقطع الطرق ، فهم كانوا يحومون حول مصر كما لو كانوا ذئابا جائعة تحوم حول فريسة دسمة على حد قول دي بوا ايميه (١) . ولا ريب أن مثل هذا الأسلوب كان يحسب على الحركة العربية في مصر ، ويشوه صورتها ، فلا غرابة أن نسمع قول البوصيري في قصيدته الرائية التي أوردنا منها بعض أبيات فيما سبق :

تلثموا ثم قالوا إننا عرب	فقلت لا عرب أنتم ولا حضر
ولا عهود لكم ترعى ولا ذمم	ولا بيوتكم شعر ولا وبر
وأي برية فيها بيوتكم	وهل هي الشعر قولوا لي أم المدر
وليس ينجي امرأ راموا أذيته	منهم فرار فقل كلا ولا وزر
يشكو جميع بني الدنيا اذيتهم	فهم بطرقهم الأحجار والحفر (٢)

فنحن نرى أن البوصيري إنما ينكر أسلوبهم الذي اتخذوه ، مما جعله يستنكر كونهم عربا ، وكأنه يرى أن العرب يجب أن يكونوا على غير ذلك .

أما خارج نطاق هذا الصدام المسلح فإننا نحس في شعر هذه الحقبة بنغمة عربية مقهورة يعزفها الشعراء على أوتار متنوعة ، فمنهم من يتخذ سبيله إلى ذلك سب الدهر والسخط عليه ، ومنهم من يبكي اللغة العربية وما آل إليه امرها بين قوم أعاجم ..

---

(١) وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية — ترجمة زهير الشايب ﺟ ٢ / ص ١٧٦ .

(٢) الديوان ص ٩٠ / ٩١ .

ونبدأ من هؤلاء الشعراء بمجير الدين اللمطى فنراه ينعى فساد الدنيا فيقول :

لقد فسدت أحوالهم بترفع الأسافل منهم وانحطاط ذوى القـــدر
متى ارتفع الأذناب بان برفعها لعينيك عورات تباح مدى الدهر
فلا ســاد نذل فى الأنام ولا عــلا فإن علــو النـذل مما بـه يزرى(١)

فما قصد اللمطى بالأسافل والأذناب والأنذال ؟ أليسوا هم الذين يروحون ويغدون فى أروقة القلعة وطباقها ؟ ثم أليس ذلك منتهى الفساد أو قل الإفساد أن يرتفع هؤلاء الأرقاء بينما العرب الخلص من أمثال اللمطى يحسون القهر والذلة ؟!

وإذا مضينا مع اللمطى وجدنا هذا الإحساس يتضخم عنده فيحس بالعزلة ، ويرى نفسه غريبا ليس له من صديق سوى كتبه التى يجد فيها عزاءه بما يقرؤه من صفحات المجد العربى .. يقول :

أعيــذك إنى بــن أهــلى وجــيرتى (أبيت)وحيدا عادما ود مشفق*
أقلب طــرفى لا أرى لى مؤنســا لعمرك فيهم غير طرس منمــق
يحدثنى عن حسن أحوال من مضى ويخبرنى عن قبح أحوال من بقى(٢)

ونجد فى شعر اللمطى حنينا دائما إلى الماضى الذى اقترن — ولاشك — فى وجدانه بالمجد العربى . وربما جسم له خياله هذا الماضى واقعا محسوسا وشخص لـه أهله فتية عـاشرهم وعاشروه ، ولها معهم ولهوا معه ، حتى إذا أفاق ندب حظه وبكى ماضية ، وانقلب ساخطا على الدنيا :

(١) الطالع السعيد للإدفوى ص ٤٥٤ .
(*) أضفنا ما بين القوسين ليستقيم الوزن .
(٢) الطالع السعيد ص ٤٥٢ .

ما أنس لا أنس عيشا قد لهوت بـه مع فتية كوجوه الأنجـم الزهـر
كنا قديما على حـال نسر بـه من التواصل إخوانا عـلى سـرر
ففـرق الدهر شمـلا كان يجمعنا وفاجأتنا على أمـن يـد الغـير
صمى صمام فقد شالت نعامتهـم وغودروا بين سمع الأرض والبصر
لم يبق عطر عروس بعـد فقدهم ولا بلـوغ لبانات من الوطـر
أعزز عـلى بأنى لا أرى أحـدا من بعـدهم يرتجى للنفع والضرر
وأى شنشنة فى المجـد أعرفهـا لهـم وما فوقها فخر لمفتخر (١)

ونغمة أخرى حزينة نجدها فى شعر اللمطى تبكى لغة العرب التى أصبحت غريبة ، وضاعت بين قوم لا يفهمونها ، منهم عصبة كالحمير تبحث عن الشعير لا الشعر ولا تفهم إلا لغة الصفير :

من بنى الدهر عصبة كالحمـير فـدع الشعر والفهم بالشعـير
لا تخاطبهـم جهـارا إذا مـا رمت ان يفهموا بغير الصفير (٢)

أما أبناء مصر فكانوا يفهمون الشعر ، ومنهم شعراء ومتأدبون كثيرون فمن هم أولئك الذين يشبهون الحمير ؟

ولا ريب أن أسى هؤلاء على اللغة العربية وما آل إليه أمرها من انحسار وغربة إنما يعكس الأسى على المجد العربى بأسره بما كان له من سيادة واستعلاء فلا غرابة بعد ذلك أن نرى شعراء هذا التيار ينفثون آلامهم فى بكائيات حزينة تندب حظ اللغة العربية ، وتأسى وقد أخذت لغات أخرى وافدة تعرف طريقها إلى آذان الناس ، ولعلنا نحس بشىء من ذلك فى قول البهاء زهير :

---

(١) الطالع السعيد ص ٤٥١ .
(٢) الطالع السعيد . ص ٤٥١ .

تكلمني بالأرمنية جارتي أيا جارتي ما الأرمنية من طبعي
ويا جارتي لم آت بيتك رغبة ولا أنت من يرجى لنفع ولا ضر
دعاني إليك الليل والأين والسرى فصادفت أمرا ضاق عن حمله وسعي
كلامك فيه وحده لي كفاية كأن صخورا منه تقذف في سمعي
لك الله مالاقيت يا عربيتي وماذا الذي عوضت بالبان والجزع
سأدعو على الجرد الجياد لأنها سرت فأتت بي واديا غير ذي زرع(١)

فما أظن حزن الشاعر على لغته العربية إلا منفذا لحزنه على ما آل إليه أمر العرب في مصر تحت سلطان المماليك ، وما أظن هذه الجارة الأرمنية إلا تجسيدا رمزيا لدولة المماليك . والأبيات — بعد ذلك — توحي بكثير ، توحي بعدم الرغبة في هؤلاء الحكام « ويا جارتي لم آت بيتك رغبة » وتوحي بأن الذي أتى بهؤلاء الحكام أمر جلل ضاق وسع الجماعة عن حمله وأدركها العجز دونه :

دعاني إليك الليل والأين والسرى فصادفت أمرا ضاق عن حمله وسعي

ويواكب هذا الأسى على العروبة ولغتها سخط جارف على المماليك وحكمهم وأخلاقهم . فهم سواسية لا يفضل أحدهم الآخر ، وليس فيهم من يحمد . وخير للعرب أن ينأوا عن بلاد أصبح فيها السادة هم هؤلاء ، ويكاد البهاء زهير يصرح بذلك لكنه يحترز فيبهم الخطاب إذ يقول :

تساويتم لا أكثر الله منكم فما فيكم والحمد لله محمود
رأيتكم لا ينجح القصد عندكم ولا العرف معروف ولا الجود موجود

(١) ديوان البهاء زهير ص ١٥٢ ، ١٥٣ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم — محمد طاهر الجبلاوي — دار المعارف ١٩٧٧ .

وددت بأنى ما رأيت وجوهكم … وأن طريقا جئتكم منه مسدود
متى تبعدنى عن حدود بلادكم … مطهمة جرد ومهرية قود ؟
وأصبح لا يجرى ببالى ذكركم … ويقطع ما بينى وبينكم البيد (١)

ويتشبث شعراء هذا التيار بكل ما يصلهم بماضى العرب أو يغذى فيهم إحساس التفوق ، فهم دائما ملتفتون إلى الجزيرة العربية يرون فى أماكنها أسبابا تصلهم بمجدهم . فهم فى حنين متصل إلى هذه الأماكن ، يذكرون بها عهودهم الخوالى ، ويتعزون بها عن واقعهم المر ، فيتردد ذكر نجد وغير نجد من أماكن الجزيرة والحجاز ، ومن ذلك ما نراه فى قول مجاهد الخياط التميمى :

أعد يا برق ذكر أهيل نجد … فإن لك اليد البيضاء عندى
أشيمك بارقا فيضل عقلى … فوا عجبا تضل وأنت تهدى
ويبكيك السحاب وأنت ممن … تحمل بعض أشواقى ووعدى
بعثت مع النسيم لهم سلاما … فما عطفوا على له برد (٢)

ويقول ابن دقيق العيد :

فى أرض نجد منزل لفؤادى … عمرته شوق وصدق ودادى
ما كان أقربه على من رامه … بمسرة لولا اعتراض أعادى
أصبو إليه مع الزمان فكيف لا … أصبو وتلك منازلى وبلادى
أرض بها الشرف الرفيع وغاية العز المنيع ، ومسكن الأجواد
أو طئتها فخرجت منها عنوة … بمكائد الأعداء والحساد (٣)

---

(١) ديوان البهاء زهير ص ٧٨ .
(٢) فوات الوفيات / جـ ٣ / ص ٢٢٧ تحقيق إحسان عباس .
(٣) ابن دقيق العيد حياته وشعره . على صافى حسين ص ١٧٢ ط دار المعارف ١٩٦٠ .

أرأيت إلى هذا المنزل بنجد وكيف أن الشاعر أسكنه شوقه ووده ولم يخرج منه إلا عنوة ؟ أهو بعد ذلك منزل أم منزلة هبط عنها الشاعر وقــومه بعد أن اعترضتهم عوادى الدهر ، وفرقت شملهم الأعداء والحساد ؟! وإذا كانت نجد ترمز فى وجدان الشاعر إلى المنزلة الساحقة التى ينبغى الوصول إليها فان الطريق صعب ، يحتاج إلى صدق العزيمة ويعبر عن ذلك ابن دقيق العيد فى موضع آخر من قصيدته فيقول :

طيب الحياة بنجــد إلا أنــــــه — من دون ذاك تفتت الأكبــــاد
فأجابها صدق العزيمة إنمــــــا — نحن المعـالى أنفس الأجـواد (١)

وقد وجد شعراء هذا التيار فى المدائح النبوية متنفسا لمشاعرهم فهــم يفاخرون بعروبة الرسول عليه السلام وانتمائه اليهم ، ويتخذون من هــذه المدائح تكئة للحديث عن العرب بعد طغيان سلطان الأعاجم على مقاليــد الأمور (٢) . وإلى ذلك يشير الدكتور على صافى حسين إذ يقول : «هذا على أن العرب فى مصر والشام كانوا يشعرون فى قرارة أنفسهم — دون شك — بالمرارة والألم لزوال السلطان والملك عنهم فى تلك الديار وصيرورته إلى الأيوبيين ومن بعدهم المماليك ، وهم جميعا من عناصر آرية يختلفون فى الجنس واللغة وأصل الدار عن العرب تمام الاختلاف فلذلك رأينا شعراء العرب فى مصر والشام يكثرون من مديح رسول الله فخر العرب ومصدر مجدهم لما فى ذلك من تعلة لهم وتعزية عما فقدوه من الملك والسلطان» . (٣) وربما وجدنا

---

(١) ابن دقيق العيد ص ١٧١ .
(٢) أدب الدول المتتابعة — عمر موسى باشا ص ٤٦١ ط لبنان ١٩٦٧ .
(٣) ابن دقيق العيد ص ١١٤ .

صدق هذه النظرة فى قول شهاب الدين العزازىّ مادحا الرسول عليه السلام :

نمته من هاشم أسـد ضراغمـة لها السيوف بيوت والقناغيـل
إذا تفاخر أرباب العلا فهم الغر المغاوير والصيد البهاليـل
لهم على العرب العرباء قاطبـة به افتخار وترجيح وتفضيـل
قـوم عمائمهم ذلت لعزتهـا القعساء تيجـان كسـرى والأكاليل (١)

فانظر إلى تفضيل الشاعر للعمائم على تيجان كسرى والأكاليل ، وما ينطوى تحته من معان .

ويستهل محمد بن عبد المحسن الأرمنتى مدحه للرسول عليه الصلاةوالسلام بحديث عن العرب الذين هم خير الشعوب فضيلة وفصيلة والذين هم رأس الأمر وساقه ، وغاية الفخار ومنتهاه :

أمسى المشـوق تسـوقه أشـواقه نحو الحمى أم كيف لا يشتـاقه
نادى السراة السادة العرب الألى بهم أثيل المجـد شد وثاقـه
خـير الشعوب فصيلـة وفضيلـة وأولى منـال لا ينـال لحاقـه
أبنـاء آبـاء تحاكـى جودهم جـود الحيـا ويفوقـه إغداقـه
هم رأس أمر إمـارة الحى الألى بلغوا النهاية فى الفخار وساقه (٢)

ويبدأ الشاب الظريف (محمد بن سليمان العفيف التلمسانى) مدحته للرسول عليه السلام مشيدا بالعرب ، معليا من شأنهم على كل من سواهم يقول :—

أرض الأحبة من سفح ومن كثب سـقاك منهمر الأنواء من كثب

---

(١) فوات الوفيات حـ ١ / ص ٩٦ .
(٢) الطالع السعيد ص ٥٤١ .

ولا عـدت أهلك النائين من نفـس الصبـا تحية عانى القلـب مكتئـب

قوم هم العرب المحمـى جارهم فلا رعى الله إلا أوجـه العـرب

أعز عنـدى من سمعى ومن بصـرى كأننى بـين أم منهـم وأب

إن كان أحسن ما فى الشعـر أكذبه فحسن شعرى فيهم غير ذى كذب(٢)

هذا هو التيار العربى رأيناه ينعكس بوضوح على الإنتاج الأدبى للعصر منسابا فى نغمات حزينة مقهورة ، متشبثا بالماضى ، رافضا لواقعه الذى أصبح زمامه فى يد الأعاجم .

---

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٥ ط بيروت ١٨٨٥ م .

الفصل الثانى

الجهــــاد

تحمل المماليك عبء الجهاد عن العالم الإسلامى فى عصر أحدقت فيــه الأخطار بالإسلام من كل جانب ، فالمغول — وإن كانوا قد هزموا هزيمة ساحقة فى عين جالوت على يدى قطز أحد سلاطين المماليك — ما فتئوا يغاودون الكرة تلو الكرة فى عناد لا يفتر ، وفى دأب مستميت ، وكل هدفهم مصر ذلك المعقل الحصين الذى تتحطم على صخوره غزواتهم واحدة تلو الأخرى . والصليبيون ما تزال لهم بقية من الإمارات تجثم على بقاع عزيزة من أرض الإسلام فى الشام متحفزة مترقبة ، تطل برأسها حينا ، وتواريه أحيانا ، وتمد أيديها للتتار كلما رأت كفتهم راجحة فى ميزان الحرب .

وإذا كان المصريون قد ارتضوا المماليك حكاما ، وملكوا هذه الطبقــة من الأرقاء المجلوبين من أسواق النخاسة زمامهم ، فما كان ذلك إلا لأنهم رأوا أن هذه الطبقة التى نشئت تنشئة عسكرية ، ولقنت فنون الحرب والقتال هى الوحيدة القادرة على القيام بعبء الجهاد ، ودرء خطر الأعداء المحدقين بهم من كل جانب ، والشاخصين إلى الإسلام بأعين طامعة متربصة ، فكأن المصريين بذلك كانوا يغلبون مصلحة الإسلام والمسلمين على ما سواها من اعتبــارات أخرى .

والمماليك ، على ما كان فى حياتهم الخاصة من تحلل دينى وفساد خلقى(١)

(١) دراسات فى تاريخ المماليك البحرية د. على ابراهيم حسن ص ٢٥ .

حرصوا أن يظهروا أمام الشعب فى صورة حماة الإسلام المجاهدين عنه ، وكأنهم بذلك يعلنون أنهم ملتزمون بذلك العقد غير المكتوب بينهم وبين الشعب .

وتمثل لنا الكتابات الصادرة من دواوينهم هذه الظاهرة خير تمثيل . فهذا «بيبرس» يقلد ابنه «بركه خان» ولاية العهد ، ويعد الناس أن هذا الابن سيقتفى أثر أبيه فى بسط العدل ، وجهاد الأعداء . وغزو بلاد الكفار ، وأنه سيكون قوة للمجاهدين ، وطليعة لصفوفهم :

«ومن شيمته الاقتداء فى بسط الإحسان و العدل ، وإحياء سنتنا مما يضفيه على الأولياء من ملابس الفضل . واقتفاء آثارنا فى غزو بلاد الكفار ، والمجاهد الذى تطول به أيدى الكماة بالسيوف القصار» . (١)

وكذلك حرص قلاوون حينما عهد لابنه بولاية العهد أن يوصيه بجيوش الإسلام ويلزمه بالجهاد لا يحيد عنه فهو ديدن المماليك ، ويحثه على غزو الأعداء والفتك بهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ويقول هذا التقليد وهو من إنشاء محيى الدين ابن عبد الظاهر :

«والجهاد ، فهو الديدن من حين نشأتنا ونشأتك فى بطون الأرض وعلى ظهور الخيل ، فمل على الأعداء كل الميل . وصبحهم من فتكاتك بالويل بعد الويل ، وارمهم بكل شمرى قد شمر من يده عن الساعد ، ومن رمحه عن الساق ، ومن جواده الذيل» . (٢)

وما يفتأ المماليك يفخرون بانتصاراتهم وحروبهم ، ويتيهون بفضلهم على الإسلام ، وكأنهم بذلك يذكرون الناس أنهم ماضون على الطريق . فهم الذين

---

(١) دراسات فى تاريخ المماليك البحرية — الملاحق ص ٢٧٣ .
(٢) نهاية الأرب فى فنون الأدب — النويرى جـ ٨ ص ١٢١ .

هزموا الصليبيين فى موقعة المنصورة فطالت بذلك يد التوحيد . وهم الذين مابرحوا يغيرون على هؤلاء الصليبيين فيمعنون فى قتلهم والتنكيل بهم ، ثم هم الذين تصدوا للمغول وجرعوهم مرارات الهزيمة ، وثأروا بذلك للعالم الإسلامى وللخلافته المتردية فى بغداد . وهذه المعانى ألم بجملة منها شهاب الدين العزازى فى بعض من قصيدته التى نظمها معارضا معلقة عمرو بن كلثوم ، والتى اقترحها عليه جماعة من المماليك الصالحية — كما يذكر بين يدى القصيدة — فتراه يقول على لسانهم ذاكرا بأسهم فى وقعة المنصورة ، مشيدا بجهادهم ضد الصليبيين :

أتونا كالأتى إذا توالى ... وقد ملأوا السواحل والسفينا

وظنوا قهرنا والظن شك ... فحققنا بقهرهم الظنونا

و «ريدا فرنس» يقدمهم بصدر ... ضغين يا له صدرا ضغينا

وأقسم لم يدع شيخا كبيرا ... من الإسلام أو طفلا جنينا

يمينا أحنثته وأحوجته ... سيوف الصالحية أن يمينا

وبالمنصورة انتصرت وطالت ... يد التوحيد فوق المشركينا

لقينا زرقهم منا بسمر ... أبت يوم الكريهة أن تلينا

وبيض كالمنايا أو كأن المنايا الحمر كن لها قيونا

سيوف كلما ظمئت لورد ... تفجر فى نحورهم عيونا

وبادرنا البطارق شاهرين الصفائح والكنود مدرعينا

فهزوا عند حملتنا سيوفا ... فخلنا أنهم هزوا غصونا

وما ندرى وقد صلنا عليهم ... صفاحا جردوها أم جفونا

كسوناهم ثياب الموت حمرا ... فخروا بالدماء مضرجينا

ولم نترك بعون الله إلا ... قتيلا أو طريحا أو طعينا

ويصف العزازى جهادهم ضد المغول فيقول على لسانهم :

وقاتلنا جيوش المغل حتّى ... شفينا منهم الداء الدفينا
برمى من سهام خارقات ... نشق بها من الحدق الجفونا
وطعن من أسنتنا دراكا ... نفل بها الجواشن والغضونا
وضرب من سيوف قاطعات ... نقد به الأياطل والمتونا
وأبطال من الأتراك شوس ... كماة فى الحروب مجربينا
تحف بهم ملائكة كرام ... كأن أمامها الروح الأمينا
فولت فرقة منهم يسارا ... وفرت فرقة منهم يمينا
وسالت بالدماء الأرض حتّى ... أفاضت «عين جالوت» عيونا
وسقنا خلفهم حتّى أعدنا ... جياد الخيل واقفة صفوفا
أخذنا ثأر بغداد وعجنا ... على حلب و (ميا فارقينا((١)

ومن هذا المنطلق أقام «بيبرس» الخلافة العباسية فى مصر ، ووصل من أمرها ما انقطع . ولا ريب أنه كان سعيدا كل السعادة وهو يسمع صنيعته الحاكم بأمر الله الخليفة العباسى بالقاهرة يخطب الناس بقوله :

«وهذا السلطان الملك الظاهر ، السيد الأجل ، العالم ، العادل ، المجاهد ، المرابط ، ركن الدين والدنيا ، قد قام بنصرة الإمامة عند قلة الأنصار ، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار ، فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود ، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود ، فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا نياتكم تنصروا» . (٢)

---

(١) القصيدة بتمامها فى ديوان شهاب الدين العزازى ص ٦٣ — ٦٩ .
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك حـ ١ / ٢ / ٤٧٨ .

كان بيبرس سعيدا بهذه الخطبة ، فهذا هو الخليفة بما لشخصيته من ظلال دينية وأسر روحى ينهى إلى الرعية أن «بيبرس» يسير على السنن ويجاهد ويرابط ، ويمزق جيوش الكفر . وماذا للرعية عليه بعد ذلك ؟! ليس لهم إلا الشكر وإخلاص النوايا .

إذن فالقضية برمتها هى قضية الإسلام . ولم تكن الصيحة التى أطلقها قطز فى «عين جالوت» إذ صرخ «وا إسلاماه» إلا تجسيدا لجوهر القضية التى يصطرع حولها المتحاربون . والتى ظلوا يصطرعون حولها طوال هذا العصر ، فالحرب الدائرة حرب بين التوحيد والشرك على اختلاف صوره . فالصليبيون — فى نظر المسلمين — قوم مشركون انحرفوا عن عبادة الإله الواحد ، وهم — بعد ذلك — هادفون إلى محو العقيدة الإسلامية . والمغول لا يختلفون عن الصليبيين فى شيء فهم قوم وثنيون لا عقيدة تجمعهم على وجه التحديد، ومن ثم فنظرة المسلمين لهؤلاء وهؤلاء تكاد تكون نظرة واحدة، والمعركة - أيضا - ضد هؤلاء وهؤلاء، تكاد تكون معركة واحدة وإن إختلفت الرايات، وتباينت مواقع الفرسان . بل كثيرا ما وحد العداء بين هؤلاء وأولئك فاجتمعوا على حرب الإسلام فى عديد من الوقائع .

ونحن إذا رجعنا إلى الآثار الأدبية لهذا العصر رأينا صدق هذا الزعم فنظرة المسلمين إلى الصليبيين والتتار نظرة واحدة ، تصمهم جميعا بالشرك والكفر لا تفرق بين أى منهم . فانهزام التتار فى «عين جالوت» كان هلاكا للكفر ، وإحياء للاسلام فيقول أحد الشعراء مشيدا بقطز :

هلك الكفر فى الشآم جميعا واستجد الإسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر الأروع سيف الإسلام عند نهوضه

ملك جاءنا بحزم وعزم   فاعتززنا بسمره وبيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا   دائما مثل واجبات فروضه(١)

ويصف جمال الدين بن مصعب يوم عين جالوت بأنه يوم ذل فيه الكفر وامتهن، وحصدت السيوف رءوس أصحابه فيقول :

إن يوم الحمراء يوم عجيب   فيه ولى جيش الطغاة البغاة
دار كأس المنون لما مزجنا   عين جالوت بالدما للسقاة
يا لها جمعة غدا الكفر فيها   مسجدا للسيوف لا للصلاة (٢)

ويوم الحمراء هو يوم وقعة عين جالوت .

وحينما هزم بيبرس التتار فى موقعة «الفرات» نجد محى الدين بن عبدالظاهر يصف جيوش الأعداء التى تجمعت من كل صوب بأنها جيوش الشرك فيقول :

تجمع جيش الشرك من كل فرقة   وظنوا بأنا لا نطيق لهم غلبا
وجاءوا إلى شاطىء الفرات وما دروا   بأن جياد الخيل تقطعها وثبا (٣)

ولا يكاد ما قيل عن الوقائع الصليبية يختلف عن ذلك فنحن نقرأ للبوصيرى قوله مصورا انتصار «قلاوون» فى واقعة المرقب :

لقد جهلت داوية الكفر بأسه   وغرهم بالمسلمين غرور
فلا بوركوا من إخوة إن أمهم   وإن كثرت منها البنون نزور(٤)

---

(١) تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٢٠٧ .
(٢) عقد الجمان للعينى ورقة ٤٣٤ / قسم ٣ / جـ ٢٠ .
(٣) فوات الوفيات للكتبى جـ ١ / ص ٢٣٨ .
(٤) ديوان البوصيرى ص ٩٦ .

وهكذا لا نكاد نميز بين ما قيل فى التتار وما قيل فى الصليبيين إلا بما نجده أحيانا من ذكر الصلبان والكنائس والرهبان والبطارقة والتثليث حينئذ ندرك أن المقصود هم الصليبيون . فنحن مثلا ندرك أن العزازى يصف معركة صليبية حين يقول فى فتح أنطاكية على يد بيبرس :

أقبل الصبح وهى شرك وما أدبر إلا وكلها توحيد
وأراها بالأمس كانت قصورا عاليات واليوم فهى لحود
قل لحزب الصليب هذا عذاب الله قد حان يومه الموعود (١)

فهو يصفهم هنا بأنهم حزب الصليب . وفى قصيدة أخرى يذكر فيها فتح طرابلس على يد قلاوون يصفهم بأنهم عصبة عيسوية :

ومانع عنها عصبة عيسوية على الحرب مغداها وفيها مراحها(٢)

ونرى بدر الدين المنجى يذكر «التثليث» فى إشادته بفتح عكا على يد الأشرف خليل بن قلاوون .

بالأشرف السيد السلطان زال عنا التثليث ، وابتهج التوحيد بالجذل(٣)

ويصفهم شهاب الدين محمود بأنهم «دولة الصلب» فى حديثه عن الواقعة نفسها :

الحمد لله زالت دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفى العربى

ويصفهم فى القصيدة نفسها بأنهم «عباد عيسى» .

أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم لله أى رضى فى ذلك الغضب (٤)

(١) ديوان العزازى ص ٦١ .
(٢) الديوان ص ٧٣ .
(٣) تاريخ ابن الفرات ج ٨ / ص ١١٥ .
(٤) تاريخ ابن الفرات ج ٨ / ص ١١٥ ، ١١٦ .

وكل هذه أمور تعين على التحديد والتميز ، ولكنها لا تدل على فارق في النظرة ، على أننا ينبغي أن نكون على حذر ، فليس كل ما ذكر فيه الصليب أو الكنيسة ، أو ما يتصل بالدين المسيحي يتعلق بوقعة صليبية ، وينبغي بهذا الصدد — ألا يغيب عن أذهاننا أن المسيحية اعتنقها بعض التتار ، وأن من زعمائهم من دان بها ، فقبيلة «كتبغا» مقدم جيش المغول في الشام كانت قد اعتنقت المسيحية منذ قرن . و «أبغا» بن «هولاكو» كانت أمه مسيحية تعتنق المذهب النسطوري . (١) وهو قد تزوج من ابنة «ميخائيل» امبراطور — القسطنطينية (٢) . وكان عطوفا على المسيحيين بل يقال : إنه اعتنق الدين المسيحي . (٣) إذن فلا عجب أن نقرأ في مقامة جمال الدين الرسعني التي يصف فيها هجوم التتار على حلب وتخريبهم لها في عهد بيبرس قوله :

«وسما العدوان في عش بيضة الإسلام ، ورفعت الصلبان على المساجد ، ووضعت الأديان والمعابد ، حتى بكى على الوجود الجلمد ، وشكا إلى المعبود السرمد» . (٤)

فها نحن نرى حديثه عن رفع الصلبان والوقعة تترية .

وإذا كانت هذه نظرة المسلمين للتتر والفرنج فما نظرة التتر والفرنج للمسلمين ؟ وهذا سؤال قد يخطر على الذهن ، وللإجابة عنه تعوزنا النصوص إلا أننا قد نستشف نظرة هؤلاء للمسلمين من قول الأوتاري في رثاء دمشق وهو يصف ما صنعه التتار من عسف بأهلها :

(١) العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٩٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ٩٤ .
(٣) دراسات في تاريخ المماليك البحرية د. علي ابراهيم حسن ص ١٦٠ .
(٤) تاريخ ابن الوردي ح ٢ ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

والحصـــار الشـــديد والحبـــس والخـــوف مـــع الســادة العــراة المكــادى
ويـــوزن الأمـــوال مـــن غـير وجد　　باعتســاف الغشّ الغــلاظ الشـداد
كاتـر افجـا خـوار أنت يــا غيـة　　لمحمـــود غازان قـــا آن البلاد (١)

وترجمة البيت الأخير من هذه الأبيات وقد كتب بلغة القوم : «هات أيها الكافر الحقير الخراج فأنت عدو لخان البلاد محمود غازان» . إذن فهم أيضاً ينظرون إلى المسلمين على أنهم كفار .

وإذا كانت هذه نظرة التتار إلى المسلمين ، فلا ريب أن نظرة الفرنـــج كانت تماثلها فالمسلمون فى نظر الفرنج أو «الصليبيين» وثنيون ، وقد صورت الأعمال الأدبية فى أوروبا — إذ ذاك — المسلمين على أنهم عباد أو أوثان ، ولذ للشعراء الجوالة أن يسخروا من الإسلام ورسوله (٢) وليس هنا مجال الإفاضة فى ذلك ، وانما حسبنا هذه الإشارة التى تعين على تمثل ما نحن بصدده من أمر هذه الحرب العقدية .

وطبيعى فى حرب كهذه محورها العقيدة أن تعبأ كل القوى الروحية ، وأن تحاط الوقائع بهالة من الحمية الدينية ، ولذلك سعى سلاطين المماليك إلى استثارة الشعور الدينى بمختلف الوسائل ، فكان الخليفة العباسى يخرج مع كل غزاة يحث المحاربين ، ويحفز هممهم ، ويعدهم بإحدى الحسنيين ، فهـــذا الخليفة المستكفى بالله يصحب السلطان الناصر محمد فى وقعة «مرج الصفر» ، وحين احتدم القتال طاف على صفوف المحاربين يخطبهم قائلا :

---

(١) نهاية الأرب للنويرى جـ ٥ ص ٢٢٨ .
(٢) أنظر : مكسيم رودنسون — مقال الصورة الغربية والدراسات الغربية للإسلام وتراث الإسلام جـ ١ ص ٣٥ ترجمة محمد زهير السمهورى ط الكويت ١٩٧٨ م .

«يا مجاهدون ، لا تنظروا لسلطانكم ، قاتلوا عن دين نبيكم صلى الله عليه وسلم وعن حريمكم» . (١)

كذلك كان القراء يصحبون الجيش ويتلون آيات الجهاد من القرآن الكريم (٢) بل حرص بعض سلاطين المماليك على اصطحاب جماعات من الصوفية فى معاركهم . فكان بيبرس يلازمه فى كل معاركه رجل صوفى يدعى الشيخ خضر وقد صور ذلك بعض الشعراء بقوله :

ما الظاهر السلطان إلا مالك الدنيا بذاك لنا الملاحم تخبر
ولنا دليل واضح كالشمس فى وسط السماء بكل عين تبصر
لما رأينا الخضر يقدم جيشه أبدا علمنا أنه الاسكندر (٣)

والشاعر هنا يشير إلى أسطورة الاسكندر ذى القرنين الذى كان يقدم دائما أمام جيوشه الخضر .

وصورت لنا الآثار الأدبية — أيضا — ما كان يصحب هذه الوقائع من ابتهالات وصلوات وأدعية يستمد بها الناس العون الإلهى لجيوشهم المحاربة فيقول محيى الدين بن عبد الظاهر مصورا الأجواء الدينية التى أحاطت وقعة حمص تلك التى انتصر فيها قلاوون على التتار :

«وكان المسلمون فى سائر البلاد فى تلك الساعة قد طرقوا أبواب السماء وجردوا سلاح الأنبياء من الدعاء ، ولا مشهد ولا مسجد فى تلك الساعة فى القاهرة ومصر ودمشق والأقاليم إلا وصفوف المتهجدين فى ذلك الوقت قائمة

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ١ / ٣ / ٩٢٣ .
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ١ / ٣ / ٩٢٣ .
(٣) فوات الوفيات ـ ١ / ٤٠٦ .

متزاحمة بالمناكب ، كما صفوف المجاهدين ثابتة متصاقبة فى تلك المواكب» .

ويمضى ابن عبد الظاهر فى رسالته هذه فيبين أن هذه التوسلات والأدعية كانت عونا على النصر وطريقا اليه ، وأن الله سبحانه لم ينصر الجيوش الإسلامية إلا ببركة هؤلاء المتهجدين المتوسلين :

«فنظر الله إلى خلقه ببركة تلك الجباه الركع ، وبمن قدم إلى الله به التوسل من الأطفال الرضع ، فأرسل الله ملائكة النصر ترمى ، وجرد سيوف الظفر تحز الرقاب وتدمى» . (١)

وفى الناحية المقابلة اعتبر المسلمون أن الهزائم التى تحل بهم على يد أعدائهم إنما هى جزاء التقصير ، والتفريط فى أمر الدين ، والانصراف إلى الدنيا . ولعلنا نحس ذلك بوضوح فى قول أبى عبد الله محمد بن حسن الشاطبى حين دهم القبارصة مدينة الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ ، وأعملوا فيها القتل والأسر والنهب والتخريب :

لقد ظفر القوم اللئام بمعشر ... كرام ، ولكن قد سرت بظنونى
خطايا تقضت أثرت بارتكابها ... قذى قد نما فى أشهر وسنين
إباحة قبح وارتكاب جرائر ... وتضييع أحكام وخون أمين
وبعد فأمر الله ما منه مهرب ... ولا معقل من حكمه بحصين(٢)

فنحن مع هذا الشاعر نرى أن الفاجعة التى حلت بمدينة الاسكندرية كانت ثمرة للخطايا التى ارتكبت على مدى الأشهر والسنين ، ونتيجة لإباحة المنكرات وتضييع أحكام الدين ، وخون الأمناء على هذه الأحكام .

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٢٤ .
(٢) الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الأسكندرية ورقه ١٨٧ أ .

ومثل هذا ما نجده فى مرثية علاء الدين الأوتارى لدمشق حين دهمها التتار سنة ٦٩٩ هـ . فهو يتجه إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — يطلب منه العون ، معترفا بالذنب ، ملتمسا التوبة وذلك إذ يقول :

غير أن الفساد يكسب ذلا ... ويعمى الفساد طرق السداد
وارتكاب الفساد يورث فقرا ... وخراب البيوت عقبى الفساد
يا حبيب الإله لا تتخل ... عن عصاة غمرتهم بالأيادى
يا حبيب الإله قد مسنا الضـ ... ـر فجد بالإسعاف والإسعاد
يا حبيب الإله تبنا إلى اللـ ... ـه وأنت العماد حتى المعاد(١)

وهكذا يخرج بنا أدب الجهاد لهذه الحقبة إلى رحاب دينية واسعة ، لا تكاد تنفصل فيه نغمات الحرب عن صلوات العباد ، ولا تكاد تفترق فيه ميادين الوقائع عن محاريب المساجد ، واقرأ معى قول شمس الدين الطيبى :

لا عيش الا لفتيان إذا انتدبوا ... ثاروا ، وإن نهضوا فى غمة كشفوا
يبقى بهم ملة الإسلام ناصرها ... كما يقى الدرة المكنونة الصدف
قاموا لقوة دين الله ما وهنوا ... لما أصابهم فيه وما ضعفوا (٢)

فأنت ترى الشاعر معجبا بقوة هؤلاء الفتيان ، ولكنه لا يعجب بها إلا لأنها مسخرة لوقاية الدين وحمايته ، ونصرة الإسلام وكشف غمته .

وإذا نحن مضينا مع النصوص وجدناها تؤكد هذا الامتزاج ، فالخيل خيل الله ، والجنود جنوده ، والدين دينه ، وعناية الله سابغة على من يحاربون لنصرته ، فقلاوون حينما يهب لمغالبة التتار إنما يهب غاضبا للدين ، مخلصا ...

---

(١) نهاية الأرب جـ ٥ / ص ٢٢٨ / ٢٢٩ .
(٢) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى — ابن تغرى بردى جـ ٣ / ورقه ١٦٧ أ ..

عزيمته لوجه الله لا يبغي إلا المثوبة كما يقول العزازي :

لما سمعت أحاديث الذين بغوا   وخالفوا واجترؤا فى الظلم واجترموا
غضبت للدين ثم استنهضتك له   حمية نارها بالحقد تضطرم
قبالها عزمة لله مخلصة   وهمة صغرت فى جنبها الهمم(١)

ويصف البوصيري خيل قلاوون بأنها خيل الله :

وتأتيه خيل الله من كل وجهة   يؤيد منها بالنفير نفير (٢)

ويصف شهاب الدين محمود جنوده بأنها جنود الله :

ففاجأتها جنود الله يقدمها   غضبان لله لا للملك والنشب (٣)

وهذه الفتوح التى يفتحها المسلمون إنما هى إعلاء للدين ، ورفع لمناره ، وإعادة لأمجاده ، ونقرأ ذلك فى قول شرف الدين القدسي يبشر بفتح إحدى القلاع :

«فليأخذ حظه من هذه البشرى التى أصبح الدين بها عالى المنار ، بادى الأنوار ، ضاربا مضارب دعوته على الأقطار ، ذاكرا بموالاة الفتوح أيام الصدر الأول من المهاجرين والأنصار» . (٤)

وإذا كان الأمر كذلك فلاشك أن الرسول — عليه السلام — قد قرت عينه بهذه الفتوح ، وأشرقت روحه عليها راضية مطمئنة ، وابتهجت أرض الإسلام المقدسة وكعبته الغراء ، كما نرى فى قول شهاب الدين محمود يصف فتح عكا على يد الأشرف بن قلاوون :

وأشرف المصطفى الهادى البشير على   ما أسلف الأشرف السلطان من قرب

(١) الديوان ص ٧٠ .
(٢) ديوان البوصيري ص ٩٩ .
(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ / ص ١١٦ .
(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٤٦ .

فقر عينا بهذا الفتح وابتهجت   بشره الكعبة الغراء فى الحجب(١)

وحلا لبعض الشعراء أن يمثلوا جيوش المسلمين بجيش النبى — صلى الله عليه وسلم — وهم فى ذلك شاخصون إلى الهدف الذى من أجله سعى كل من الجيشين ، ونرى ذلك فى قول بعضهم عن جيش بيبرس :

فأتاهم جيش النبى يؤمهم   ملك الزمان الظاهر الآلاء (٢)

ولا عجب بعد ذلك أن تسبل عناية الله على سلاطين المماليك الذين هبوا لنصرة الدين حجبا من الوقاية تقيهم ضربات الأعداء وطعناتهم ، كما نرى فى وصف محيى الدين بن عبد الظاهر لبيبرس فى إحدى معاركه :

حيث الصفوف على الصفوف وماله   عن موقف يرضى الخليفة معدل
والكفر قد بهتوا له إذأبصروا   حجباً عليه من الوقاية تسبل (٣)

ولعلنا الآن نستطيع أن نلمح تفسيرا لما نجده فى المدائح النبوية لهذا العصر من ذكر لحروب الرسول وغزواته وأسلحته ، فهذا — فضلا عن أنه يستثير المشاعر الروحية ويبتعثها — كان يرسم المثل الأعلى للمحاربين ، ويحلق بهم عبر آفاق الزمن ، يصل الماضى بالحاضر ، مبينا أن جوهر القضية واحد لم يتغير ، فمنذ ظهور الإسلام والمعركة محتدمة بين التوحيد والشرك ، وكما يجاهد المحاربون الآن جاهد الرسول وصحبه من أجل الهدف نفسه ، وأولى بالمحاربين أن يتمثلوا هذه المعارك ، ويتخذوا منها الدليل والهدى .

وعلى هذا مضى الشعراء يصورون معارك الرسول ، ويبعثونها صورا

---

(١) تاريخ ابن الفرات حـ ٨ ص ١١٧ .
(٢) عقد الجمان للعينى حـ ٢٠ / ق ٣ / ص ٥٧٩ .
(٣) تاريخ ابن الفرات حـ ٧ / ٩١ .

نابضة هادية رائدة ، فنقرأ للبوصيري في بردته يصف الرسول وصحبه :

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم	ماذا رأى منهم في كل مصطدم
وسل حنينا وسل بدراً وسل أحدا	فصول حتف لهم أدهى من الوخم
المصدري البيض حمراً بعد ما وردت	من العدا كل مسود من اللمم
والكاتبين بسمر الخط ما تركت	أقلامهم حرف جسم غير منعجم(١)

ويقول في قصيدة أخرى مخاطبا الرسول ذاكرا وقعتي حنين والأحزاب :

جاهدت في الله أبطال الضلال إلى	أن ظل للشرك بالتوحيد تبطيل
شكا حسامك ما تشكو جموعهم	ففيه منها وفيها منه تفليل
لله يوم حنين حين كان به	كساعة البعث تهويل وتطويل
ويوم أقبلت الأحزاب وانهزمت	وكم خبا لهب بالشرك مشعول(٢)

وظلت هذه الأنغام الروحية متلاحقة متصلة طوال هذا العصر ، تصف معارك الإسلام ، وتحفز المجاهدين إلى النصر ، وتهون عليهم وقع الهزيمة ، فالحق في النهاية لابد أن ينتصر ، وهذا برهان الدين القيراطي يصف انتصار المسلمين في بدر وفي حنين حين أيد الله المسلمين بجنود من الملائكة فتحقق النصر ، وبطلت الغواية بعد أن حوم شبح الهزيمة ، واهتزت بعض النفوس الضعيفة :

كم ببدر تحت النجوم جسوم	تركوها للنسر والعواء
صدقوا فيهم الجلاد إلى أن	جندلوهم صرعى وبال وباء
وأتوهم بكل أبيض عضب	ليس ينبو وصعدة سمراء

---

(١) ديوان البوصيري ص ١٩٨ .

(٢) ديوان البوصيري ص ١٧٩ .

ثم للخيل ملعب فى حنين ... ألبس الكافرين ثوب الشقاء
حين جاءت جنود ربك حتى ... أقعدتهم فى موطن الإزدراء
كلموهم بالسن سن ظباهم ... لفظتهم خرسا على الخرساء
وعلى صخرها جرت عين نجلا ... * نجيعا على .. الخنساء *
أظهروا الدين بالعزائم لما ... أبطلوا سحر كل ذى إغواء(٢)

وبين البوصيرى فى القرن السابع ، والقيراطى فى القرن الثامن شعراء كثيرون يمموا بشعرهم شطر الساحة النبوية لكن أعينهم ترقب ما يجرى فى عصرهم ، وقلوبهم متعلقة بقضيته ، فهم إن إتجهوا لماضى الإسلام فإنما كانوا يلتمسون قبسا يضىء حاضرهم ، ويرشد لمستقبلهم .

ولعلنا نصل من أمر قضية الجهاد إلى مسألة بالغة التعقيد والطرافة ، فقد بدأ الاسلام يغزو قلوب التتر ، واعتنقه بعض زعمائهم من أمثال أحمدتكودار وغازان ، وذلك على عهدى قلاوون وابنه الناصر محمد .

وقد كان ظن المماليك فى بادىء الأمر أن المعركة انتهت وسقطت بواعثها ويتضح ذلك من رسالة قلاوون إلى أحمد تكودار .

«وأما القول منه إنه لا يجب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح المحجة ، وتركيب الحجة ، فبانتظامه فى سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته متركبة على من غدت طواغيته عن سلوك هذه المحجة متنكبة ، فإن الله سبحانه وتعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة ، وجهادنا واجتهادنا إنما هو لله ، وحيث قد دخل معنا فى الدين هذا الدخول فقد ذهبت الأحقاد ،

* لعل فى البيت كلمة ساقطة فالوزن غير مستقيم
(١) ديوان مطلع النيرين لبرهان الدين القيراطى ص ١٥ ، ١٦ .

وزالت اللحول . وبارتفاع المنافرة تحصل المظافرة . فالإيمان كالبنيان يشد بعضه ببعض ، ومن أقام مناره فله أهل بأهل وجيران بجيران بكل أرض»(١)

ولكن الأمور سارت على غير ما توقع قلاوون فاستمرت المعارك ، واحتدم أوراها بين غازان الذى اعتنق الاسلام وبين الناصر محمد ، ووجدنا أنفسنا أمام فريقين كل منهما يدعى نصرة الإسلام ، والحفاظ على العدل ، وكل منهما يكيل التهم للآخر ، فالمماليك ، فى نظر غازان ، خارجون عن الدين ، مفسدون فى الأرض ، مهلكون للحرث والنسل ، ونقرأ ذلك فى عهد غازان الذى كتبه إلى سيف الدين قبجق بنيابة الشام بعد أن هزم المماليك فى وقعة الخازندار :

«ولما أن سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الإسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالأيمان الفاجرة ليس لديهم وفاء ولا ذمام ، ولا لأمورهم التئام ولا انتظام ، وكان أحدهم إذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد(٢)

وفى رسالة منه للناصر محمد يبين أن الذى حمله على غزو الشام هو ما رآه من مجاهرة المماليك بالمعاصى ، والخروج عن جادة الدين ، وخرق ناموس الشريعة :

«ليعلم السلطان المعظم الملك الناصر ، أنه فى العام الماضى بعض عساكركم المفسدة دخلوا أطراف بلادنا ، وأفسدوا فيها لعناد الله وعنادنا كما ردين ونواحيها ، وجاهروا الله بالمعاصى فيمن ظفروا به من أهلها ، وأقدموا على

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى جـ ٧ / ص ٢٣٩ .

(٢) النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد لابن أبى الفضائل ص ٩٤٠ نقلا عن د. على ابراهيم حسن ص ١١٨ دراسات فى تاريخ المماليك البحرية .

أمور بديعة ، وارتكبوا آثارا شنيعة من محاربة الله وخرق ناموس الشريعـــة فأنفنا من تهجمهم ، وغرنا من تقحمهم ، وأخذتنا الحمية الإسلامية فجذبتنا إلى دخول بلادهم ، ومقاتلتهم على إفسادهم» . (١)

ويرد الناصر محمد على غازان ، مفندا مزاعمه ، مبينا له أن حميتـه التى يعتبرها حمية إسلامية إنما هى حمية جاهلية لأنها تأخذ البرىء بالمسىء ، وتدهم الأماكن المقدسة بجموع ملفقة مختلفة الأديان ، ليس لها هم إلا الانتقام ، وليس هذا بغريب على غازان وقومه فآباؤهم وأجدادهم هم من هم فى الكفر والنفاق .

«وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ما علمتم من الكفر والنفاق . وعـــدم المصافاة للإسلام والوفاق .. وحيث جعلتم هذا ذنبا للحمية الجاهلية وحاملا على الانتصار الذى زعمتم أن همتكم به ملية فقد كان هذا القصد الذى ادعيتموه يتم بالانتقام من أهل تلك الأطراف التى أوجب ذلك فعلها . والاقتصار على أخذ الثار ممن ثار ، اتباعا لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها . لا أن تقصـــدوا الإسلام بالجموع الملفقة على اختلاف الأديان ، وتطئوا البقاع الطاهرة بعبدة الصلبان ، وتنتهكوا حرمة البيت المقدس الذى هو ثانى بيت الله الحرام ، وشقيق مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام» . (٢)

وهكذا فنحن مع الفريقين نرى كلا منها يتخذ من الإسلام ذريعةيتذرع بها ، ويضفى بها الشرعية على حربه . وربما كانت العامة متهيئة لأن ترحـب بالتتار ، لو صح ما يدعونه من إسلام — وما كان ذلك يمثل أكثر من استبدال غريب بغريب . ثم ألم يكن من بين سلاطين المماليك من هو تترى الأصـل ؟ ولذلك ذهب جملة من فقهاء دمشق إلى غازان مستأمنين ، وقبلوا الأرض بين

(١) صبح الأعشى للقلقشندى جـ ٨ ص ٦٩ .
(٢) صبح الأعشى للقلقشندى جـ ٧ ص ٢٤٤ .

يديه ، ويقال إن الناس سروا حينما تليت عليهم وعود التتار البراقة ، ولكن الذى صرف القلوب عنهم ما رأوه من كذب وعودهم ، ومناقضة فعلهم لقولهم . حينئذ أدرك الناس أن المماليك — على ما هم عليه — هم حماة الإسلام الحقيقيون . وأن هؤلاء القوم ليسوا من الإسلام فى شىء .

وكانت القسوة طابع هذه الحروب وديدنها ، لا نستثنى فى ذلك طرفا من الأطراف فالأمر من أى الجهات نظرت إليه وجدته أمر دين يريد طمس دين ، ولن يكون ذلك إلا بتدمير كل مقومات الحضارة والثقافة — ومن هنا كان عنف التتار ، ومن هنا أيضا كان عنف الصليبيين ، ومن هنا قابلهم المسلمون عنفا بعنف ، وبادلوهم قسوة بقسوة .

وقد صور الأدب بعض هجمات التتار وما اتسمت به من سلب ونهب ، وتخريب وتدمير ، وقتل بلا رحمة ، ولا ريب أن قلب المجتمع المصرى قد رجف رجفة هائلة حينما تناهت إلى آذانه تلك الرسالة التى بعث بها هولاكو إلى قطز ، وكانت بمثابة إنذار أن يلقى سلاحه ويقى نفسه وشعبه سوء المصير .

وقد تتابعت جمل هذه الرسالة قصيرة سريعة ، فى إيقاع مرعب ، كأنه ضربات السيوف أو طعنات الرماح ، ويخيل لمن يقرؤها أن الأرض ضاقت عليه برحبها ، وأنه لا مفر من هؤلاء القوم إلا إليهم ، فهم غلاظ شداد ، لا تعرف الرحمة طريقها إلى قلوبهم ، فضلا عما يملكونه من سلاح قاهر ، وعدد وافر .

تقول الرسالة :

«فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكا ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ، فأى أرض تأويكم ؟! وأى طريق تنجيكم ؟! وأى بلاد

تحميكم ؟! فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع » .

وتمضى الرسالة منذرة متوعدة ، تنضح ألفاظها صلفا وغرورا ، وتعكس إحساس القوم بالتفوق ، وثقتهم فى الغلبة والظفر ، وتحقيرهم لعدوهم ، ثم يختمها كاتبها ببيتين من الشعر يجسدان أمانى القوم وأوهامهم ، وما فى نفوسهم من رغبة فى الفتك وتعطش للدماء :

ألا قل لمصرها هلاوون قد أتى ... بحد سيوف تنتضى وبواتر
يصير أعزا القوم منها أذلة ... ويلحق أطفالا لهم بالأكابر(١)

وهكذا لأول وهلة ندرك ما طبع عليه المغول من غلظة وقسوة فلا ندهش بعد ذلك لما نقرؤه فى أدب هذه الحقبة من تصوير لشنائعهم ، وانتهاكهم لكل المحارم ، فها هو «هولاكو» يغير على حلب بجيوشه الكثيفة الجرارة . يقتل رجالها بلا رحمة ، ويريق الدماء التى تحيل الأرض عندما ، ويعبث بكل المقدسات ، فيهدم المساجد ، ويمزق المصاحف مبعثرا أوراقها المطهرة ، ثم يتجه إلى النساء فيجز منهن الشعور ، ويأخذ السبايا لا يرق للوجوه الجميلة تلطخت بالدماء ، ولا يلين للأصوات الضعيفة تستغيث مولولة شاكية . تلك صورة لما صنعه فى حلب نراها فى قول ابن العديم :

أتوها كأمواج البحار زواخرا ... ببيض وسمر والقتام غميم
فلو حلب البيضاء عاينت تربها ... وقد عندم الفضى من تربها دم
وقد سيرت تلك الجبال وسجرت ... بهن بحار الموت والجو أقتم

(١) السلوك للمقريزى جـ ١/ ٢ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

وقد عطلت تلك العشار وأذهلت ... مراضع عما أرضعت وهي هيم
فيالك من يوم شديد لغامه ... وقد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس وارتمت ... مصاحفها فوق الثرى وهي تهضم
وقد جزرت تلك الشعور وضمخت ... وجوه بأمواه الدما وهي تلطم
وكل مهاة قد أهينت سبية ... وقد طالما كانت تعز وتكرم
تنادي إلى من لا يجيب نداءها ... وتشكو إلى من لا يرق ويرحم(١)

لاشك أنه كان يوما عصيبا على حلب وأهلها ، ولابد أن الناس تمثلوا به يوم الحشر ، فابن العديم لا يجد ما يصف به هذا اليوم إلا الوصف القرآني للقيامة . فالجبال سيرت ، والعشار عطلت ، وكل مرضعة تذهل عمن ترضعه بل يمضي فيصف هذا اليوم بأنه الصاخة الكبرى :

فأيقنت أن الأرض مادت وأقبلت ... بها الصاخة الكبرى والان التقم

ونرى في مقامة الشيخ جمال الدين الرسعني تصويرا لهذه الوقعة وأن بدأ باهتا لغلبة الصنعة عليه ، وهو في جملته لا يخرج عما عبر عنه ابن العديم يقول :

«وقد نزلت فنون البلاء بالشام ، وهملت عيون العناء كالغمام ، وصار وسام الإسلام كالوشام ، وعرام الأنام في غرام ، وخفيت آثار المآثر ودرست وطفئت أنوار المنابر وطمست ، وحلبت العيون ماءها على حلب ، وسكبت الجفون دماءها من الصبب . والتف عليها الخلل والاختلال ، واحتف بها القتل والوبال . واختطف من أعيانها عرائس الشموس والأقمار ، واقتطف من أغصانها نفائس النفوس والأعمار» . (٢)

---

(١) عقد الجمان للعيني ــ ٢٠ / ق ٣ / ص ٤٨٦ .
(٢) تاريخ ابن الوردي ــ ٢ / ص ٢١٥ .

وبلغ من تبجح هؤلاء القوم بالإثم ، ومجاهرتهم بالشر ، أنهم سخروا أهل الشام فى هدم قلاعهم وحصونهم (١) ، وكان العوام يرددون فى أسى ظاهر وهم يهدمون قلعة المعز .

رفقا عليها قلعة منيعة … يهدمها من هو من حزبها
فغاية المفرط فى سلمها … كغاية المفرط فى حربها
تحثنا فى هدمها أعجم … وتشتكى منا إلى ربها
فهذه الأرواح من جوها … وهذه الأجسام من تربها
لما رأوها أسرفت فى العلا … كان علاها منتهى ذنبها (٢)

ولا يقلل من تأثير هذه الأبيات أنها تتكىء على قصيدة المتنبى المعروفة :

آخر ما الملك معزى به … هذا الذى أثر فى قلبه (٣)

وتضمن بعض أبياتها وشطراتها ، بل إن نسجها على هذا المنوال لهدلالته النفسية التى ينبغى أن تلاحظ فأبيات المتنبى تعكس جوا من التسليم والعجز كذلك الذى يحسه هؤلاء المسخرون وهم يهدمون قلعتهم بأيديهم .

ولم يكن غازان وجنوده أرحم من هولاكو ، أو أقل منه وحشية وقسوة على الرغم من ادعائه الإسلام ، وتشدقه بألفاظ العدالة والإصلاح ، وفى قصيدة الأوتارى شاهد على ما فعله جنود غازان بدمشق سنة ٦٩٩ هـ من تخريب وهدم وإحراق وحصار واعتساف للأموال ، ثم هؤلاء الأسرى الذين لا يحصيهم عد ، وفيهم الأطفال والصبية الذين أخذوا ليباعوا بأسواق النخاسة يقول الأوتارى :

---

(١) تاريخ ابن الوردى جـ ٢ / ص ٢٠٥ .
(٢) تاريخ ابن الوردى جـ ٢ / ص ٢٠٧ .
(٣) ديوان المتنبى جـ ١ ص ٣٣٥ .

وبأنس بقاسيون وناس أصبحوا مغنماً لأهل الفساد
طرقتهم حوادث الدهر بالقتل ونهب الأموال والأولاد
وبنات محجبات عن الشمس تناءت بهن أيدى الأعادى
وقصور مشيدات تقضت فى ذراها الأيام كالأعياد
وبيوت فيها التلاوة والذكر وعالى الحديث بالإسناد
حرقوها وخربوها وبادت بقضاء الإله رب العباد

ثم يمضى فى القصيدة فى لهجة عاجزة شاكية متحسرة مصورا كثرة أعداد الأسرى ومصيرهم ، وهيئتهم التى تستجلب الدمع من كل عين :

من لأسرى كسرى حيارى دهمتهم دهمتهم جياد أهل العناد
واضع اللقط فى الحساب عناه لو يعش حصر كثرة الأعداد
منهم الطفل والصبية والشا ب ينادى فمن يجيب المنادى
وينادى عليهم برغيف وبنزر بخس بسوق الكساد
عوضوا عن سرورهم بغرور وقصور البلاد سكنى البوادى
وبأهل الوداد شر أناس وبلين المهاد شوك القتاد
أى عين عليهم ليس تبكى؟ أى قلب عليهم غير صادى؟ (١)

ودون قصيدة الأوتارى نرى أبياتا لبضعة من الشعراء يصورون هؤلاء القوم المغيرين متحسرين على مدينتهم . فكمال الدين الزملكانى ينظر إلى أفعال القوم ، ويستبعد أن تكون أفعال بشر وإنما يقرنهم إلى جنس الجن :

لهفى على جلق يا شر ما لقيت من كل علج له فى كفره فن

---

(١) القصيدة بتمامها فى نهاية الأرب للنويرى ح ٥ ص ٢٢٧ وما بعدها .

بالطبم والرم جاءوا الا عديد لهـم فالجن بعضهم والحن والـبن.(١)

ويعدد ابن قاضى شهبه الغمم السبع التى صحبت غازان ، ولنلحظ التورية فى كلمة سبع التى تصرف الذهن إلى الفتك والافتراس :

رمتنا صروف الدهر حقا بسبعة فما أحد منا من السبع سـالم
غـلاء وغازان وغـزو وغـارة وغدر وإغبان وغم مـلازم(٢)

وينظر الوداعى إلى الأمر فى سخرية مرة ، سخرية الإنسان الـذى ألف مثل هذه الغارات ، وحلت فى قلبه المرارة الساخرة محل الخوف والهلع ، فهو ينظر إلى غازان وما فعله جنوده من تجريد الناس من أموالهم على أنه دعوة للتوبة والزهد فكأن معه شيخ مسلك من شيوخ الصوفية الذين يدعون إلى الطريق . ولا يخفى علينا أن الشاعر بذلك يسخر من غازان ومن ادعائه الإسلام والعدالة :

أتى الشام مع غازان شيخ مسلك على يده تاب الورى وتزهدوا
تخلوا عن الأمـوال والأهل جملة فما منهـم إلا فقـير مجـرد(٣)

ولم يكن الصليبيون أقل وحشية من المغول ، وذلك بشهادة حكم منهم هو وليم موير إذ يقول : «وقد كانت الميزة العجيبة لهذه الحرب المقدسة الوحشية والقساوة اللتان سارتا جنبا إلى جنب مع التقوى المشوبة بالتعصب»(٤) والأدب شاهد آخر على قسوتهم . وحسبنا أن نقرأ أصداء ذلك الهجوم الذى شنه بطرس الأول على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ ، وفى غفلة من أولى الأمر

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جـ ٨ / ص ١٢٦ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٢٦ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٢٦ .
(٤) تاريخ دولة المماليك فى مصر وليم موير ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ص ٤

نزل رجاله إلى المدينة فقتلوا ونهبوا ، وأخذوا من أهلها خمسة آلاف أسير (١)

ويصور ابن أبي حجلة التلمسانى أسطول المغيرين الذى هجم على حين غفلة بمراكبه السبعين التى أحالت زرقة البحر سوادا بما تحمله من رجال وعتاد :

ألا فى سبيل الله ما حل بالثغر على فرقة الإسلام من عصبة الكفر
أتاها من الإفرنج سبعون مركبا وضاقت بها الغربان فى البر والبحر
وصير منها أزرق البحر أسودا بنو الأصفر الباغون بالبيض والسمر
أتوا نحوها هجما على حين غفلة وباعهم فى الحرب يقصر عن فتر (٢)

ويصور الشاطبى (أبو عبد الله محمد بن حسن) ما فعله المغيرون من نهب وهتك للحرم ، وقتل بلا وازع من رحمة حتى امتلأت الشوارع بجثث القتلى وترملت النساء بعد فقد رجالهن :

لقد شاهدت عينى العجائب ما رأت كظفر شمال وانهزام يمين
ومد عدو كافر باع بغيه لحرق سياج وارتكاب متون
وهتك رجال وانتهاب ذخائر وهتك حريم فى الخدور مصون
لقد قطعت منى المفاصل مذ رأت لكل قتيل ظل غير دفين
وحرمت الأجفان نومى، وحق لى على حرم فارقن كل خدين

ويستمر الشاطبى باكيا مدينته التى خلت من الأنس ، وخيم عليها جو قاتم نادبا أحبابه الذين فارقوه إما للقتل أو الأسر ، ويصور لنا على لسان الأسرى

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة يرجع إلى :
— دولة بنى قلاوون فى مصر — د. جمال الدين سرور ص ٢٤٦ وما بعدها .
— الالمام بما جرت به الأحكام وهى مخطوطة تدور كلها حول هذه الوقعة .

(٢) بدائع الزهور ص ١٨٥ .

ما يحسونه من ذل وهوان وهم فى يد الأعداء :

يقــول فقيــد الأهل بالحــال معلمى ألم تر حــزب الشرك قد ملكــونى ؟
فها أنا بعد العز فى ذل أسرهـــم وبعد سراحى فى مضيــق سجــونى
وبعد انشراحى فى هنا لذة المــنى أقاسى قسى القلب غير حنـون(١)

وشاعر آخر من شعراء الثغر هو أبو عبد الله الإخميمى يهوله ما يرى من فظائع القوم ، وتحجر قلوبهم ، فلم يرحموا شيخا مسنا ولا طفلا بريئا عاجزا بل أعملوا فيهم المدى تذبيحا وتقتيلا فيقول مصورا ذلك :

كم أراقــوا مـــن دم فيــه ومــا رق قلــب منهــم ولا انزجــر
ولـــكم شــيخ تفــنى عمــره ذبحــوه بالمــدى ذبــح البقــر
وصغـــير بضعــــوه ثم مـــا رحمــوا مــن كفــرهم منه الصغر
ولـــكم طفـــل نجيــب قــارىء حسبــه مـــن عمــره درس السور
أخــذوه ثم لا يرحمـــــــه أحــد منهم إليه قــد نظــر (٢)

أما النويرى فيسجل هذه الواقعة فى منظومة طويلة يبدؤها بقوله :

عـــاذلى لا تـــلم وخل ملامى فعيــونى بعــد الدمــوع هــوامى
خلــنى أسيــل الدمــوع غــزارا وأطيــل النــواح طــول دوامى

والمنظومة على وزن وقافية قصيدة ابن الرومى فى وصف خراب البصرة على أيدى الزنج ، وكأن النويرى بذلك أراد أن يقرن فى ذهن قارئه بـين الواقعتين ، وما فيهما من قتل وسلب وتخريب ، والمنظومة — وإن لم تعد شعرا بالمعنى الصحيح ، حيث يغلب عليها التسجيل المباشر ، ولا ترتقى إلى مستوى

(١) القصيدة فى الالمام بما جرت به الأحكام للنويرى السكندرى ورقة ١٨٧ أ ، ب .
(٢) الإلمام بما جرت به الأحكام ورقة ١٩٠ ب .

الأسلوب الشعرى لضعف عبارتها ، وركاكة جملها ، وكثرة الأخطاء الأسلوبية واللغوية والنحوية فيها — تعد وثيقة دامغة لما فعله القبارصة بالثغر فى هذه الهجمة ، فضلا عن أن فى بعض أبياتها نبضات شعرية كتلك التى نراها فى وصف النويرى للأسرى الذين أخذهم المغيرون مقيدين فى أغلالهم ، وفى تصويره للمدينة وقد عاث فيها القوم فسادا ، وإنتهاكا للحرمات ، وتخريبا وإحراقا . وذلك إذ يقول :

لهف نفسى على الأسارى جميعا — أصبحوا بعد عزة واحترام
فى كبول الحديد قد قيدوهم — بقيود الحديد فى الأقدام
لهف نفسى على مدينة قوم — سجدوا للمهيمن العلام
كيف أمست بها الفرنج النصارى — الكلاب العباد للأصنام
ينهبوها ويأسرون رجالا — ونساء مع جملة الخدام •
تركتها الفرنج يبكى عليها — بحريق متوج بقتام (١)

هذه واقعة من وقائع الصليبيين رأينا كيف صورها الأدب ، ولنا أن نقيس عليها بقية الوقائع . ومن المدهش بعد ذلك أن نجد موير وهو يؤرخ لهذه الحقبة يتهم بيبرس وغير بيبرس من سلاطين المماليك بالقسوة والوحشية وهو الذى شهد على قومه آنفا بأنهم البادئون (٢) أفليس من حق المدافع أن يرد على نفسه ، وأن يبادل عدوه قتلا بقتل وتخريبا بتخريب ، أو نستنكر بعد

• فى البيت خطأ نحوى واضح ، إذ كان المفروض على الشاعر أن يقول (ينهبونها) بدلا من (ينهبوها) ولكن الوزن اضطره إلى ذلك .

(١) القصيدة بتمامها فى مخطوط : الإلمام بما جرت به الأحكام للنويرى .. ورقة ١١٧، ١١٨، ١١٩ .

(٢) انظر صفحات ١٤ ، ٢٨ ، ٤٧ ، ٤٨ من كتاب تاريخ دولة المماليك لوليم موير .

ذلك روح الثأر التى سيطرت على الشعور الإسلامى والتى سجلها أدباؤه ؟! إن القارىء لأدب هذه الحقبة ينبغى أن يكون على وعى بالمنطلق الذى يصدر عنه ، وبالمشاعر التى تمليه على أصحابه .

وكما صور الأدب روح هذه الحروب ومنطلقها الدينى فإنه صور لنا وقائعها وما دار فيها من صراع مرير ، ومن معارك ضارية ضد المغول حينا وضد الصليبيين حينا آخر . وقد حرص الأدباء على أن يبرزوا صعوبة هذه المعارك ، ومقدار ما بذله الجيش من تضحية فى سبيل إحراز النصر .

وقد ركز الأدباء فى وصفهم للمغول على عنصرى الكثرة والإستماتة فى القتال ، وأنهم قد اختيروا بدقة شديدة ، فيبين محيى الدين بن عبد الظاهر أن الآلاف التى تصدت للجيش الإسلامى فى قيسارية كل واحد منهم اختير من بين ألف مقاتل :

«وهؤلاء المغل كان طاغية التتار «آبغا» — أهلكه الله — قد اختارهم من كل ألف مائة ، ومن كل مائة عشرة . ومن كل عشرة واحدا لأجل هذا اليوم . وعرفهم بسيما الشجاعة . وعرضهم لهذا السوم» . (١)

ثم يستمر فى هذه الرسالة الطويلة التى أرسلها مبشرا بالفتح فيصف استماتتهم فى القتال . ومقاومتهم حتى آخر سهم فى كنائنهم ، وحتى تكسرت رماحهم ، وتحطمت سيوفهم فيقول :

«وصاروا مع عدم ذكر الله بأفواههم وقلوبهم يقاتلون قياما وقعودا وعلى جنوبهم : فكم من شجاع ألصق ظهره إلى ظهر صاحبه وحامى . وناضل ورامى ، وكم فيهم من شهم ما سلم قوسه حتى لم يبق فى كنانته سهم ، وذى

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى جـ ١٤ ص ١٤٥ .

سن طارح به فما طرحه حتى تثلم ، وذى سيف حادثه بالصقال فما جلى محادثه حتى تكلم ،وأبانوا عن نفوس فى الحرب أبية ،وقلوب كافرة ونخوةعربية(١)

وأما العزازى فيصور حشود المغول فى هذه الوقعة من المرازبة الشجعان الذين حجبوا الأرض . ويشير إلى تحالف المغول والصليبيين فيتحدث عن إختلاط الألسنة من فارسية ورومية ، ولا يفوت العزازى أن يسجل شيئا من أوصافهم الجسدية ، وما تميزوا به من ضيق فى العيون :

وقد حشد الأعداء وأشتد بأسها ... وسار بها جبارها وغشومها
فجاءت بجيش يحجب الأرض كثرة ... كما حجبت شمس السماء غيومها
مرازبة خزر العيون كأنها ... أسود شرى قد ضاق عنها صريمها
إذا زمجرت بالفارسية مغلها ... تجاوب هاتيك الزماجر رومها
فشد عليها شدة ظاهرية ... إلى أن هوت أقيالها وقرومها (٢)

ونراه فى وقعة «حمص» التى خاضها قلاوون مع المغول ، يركز أيضاً على عنصر الكثرة ؛ فهم قد اغتروا بجمعهم الذى لا يحصيه عد ، ويندفع كالسيل المدمر . ويشير الشاعر إلى قوتهم الجسدية وطاعتهم لقوادهم ،فيصفهم بأنهم كالبهائم أجساما ، وكصغار الغنم انسياقا :

وغرهم ذلك الجمع الذى جمعوا ... حتى إستمروا على العزم الذى عزموا
وأقبلوا فى خميس ما له عدد ... كالسيل فى سعة البيداء يزدحم
خزر النواظر . أعلاج ،مرازبة ... مثل البهائم إلا أنهم بهم (٣)

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى حـ ١٤ ص ١٤٦ .
(٢) ديوان العزازى ص ٦٢ .
(٣) ديوان العزازى ص ٧١ .

وفى وقعة «مرج الصفر» التى انتصر فيها السلطان الناصر محمد يصف شهاب الدين محمود جموع التتار التى إحتشدت بأنها تسيل كالرمال ، ورغم قتلاهم الكثيرين فمازالت جموعهم تعاود الكرة تلو الكرة :

«فكانوا بعد كثرة من قتل منهم فى المعركة الأولى أوفر من أول الليل ، جمعاً يناهز الأربعين ألف فارس ، فأصبحوا يعاودون القتال وينزلون إلى أطراف الجبال للنزال ، والجيوش المنصورة تلزمهم من كل جانب ، وتحكم فى أبطالهم القنا والقواضب» . (١)

وإذا كانت الكثرة والإستماتة هما موطن الصعوبة فى المعارك ضد التتار ، فقد كانت المواقع الحصينة ، ووعورة الطرق المؤدية إليها تمثل الأمر نفسه مع الصليبين ، وهذا شىء طبيعى ، فالصليبيون كانوا قد استقروا فى مواقعهم منذ أمد طويل ، وبنوا القلاع والأبراج الشامخة وحصنوها ما شاءت لهم قوتهم وأمانيهم فى البقاء . فحصن المرقب الذى فتحه قلاوون سنة ٦٨٣ هـ كان حصنا شامخا مرتفعا كأنه وهم تتمثله الأفكار ، وكأن نهر المجرة هو الماء الذى يسقى أهله كما يقول الشهاب محمود :

أوردتها المرقب العالى وليس سوى ... ماء المجرة فى أرجائها نهـــر
كأنه وكـأن الجـو يكنفـه ... وهـم تمثلـه فى طيهـا الفكـر

وكم حاولت الريح أن تصل إليه أو تحيط بأخباره فعجزت .

تعلو الرياح إليه كى تحيط بـه ... خبرا وتدنو ومـا فى ضمنها خبر

ويمضى الشاعر فيبالغ فى وصف إرتفاع هذا الحصن فيبين أن أهلـه لا يرتوون من ماء السحب إلا إذا إنحدروا إليها :

(١) نهاية الأرب للنويرى جـ ٥ / ص ١٦٣ .

وليس يروى بمـاء السحب مصعدة　　إليـه من فيـه إلا وهـو منحدر (١)

أما قلعة الروم التى فتحها الأشرف خليل فكانت تستقر فى مكانها المنيع يحيط بها الماء ، وتعلو ضاربة فى الأفق ، والطرق إليها صخرية صماء تتعثر فيها الرياح ، ويزل عنها الذر ، ويضل فيها القطا . كما يقول الشهاب محمود

لهـا طرق كالوهم أعيا سلوكـه　　على الفكر حتى ما يخيلـه الفكـر
إذا خطـرت فيها الرياح تعـثرت　　أو الذر يوما زل عن متنه الـذر
يضل القطا فيها ويخشى عقابها العقا　　ب ويهفو فى مراقبها النسـر (٢)

ولم تكن عكا التى فتحها الأشرف خليل — أيضا — بأقل تحصينا ومنعة ، فقد دار حولها سوران من البر والبحر ، ووقف فرسانها يحيطونها بسيوفهم ورماحهم . والمجانيق منصوبة حولها ترمى بالنار كل من يدنو منها . يقول الشهاب محمود :

سوران بر وبحـر حـول ساحتها　　دارا وأدناهما أنأى مـن القطـب
خرقـاء أمنـع سوربهـا وأحصنه　　غلب الكماة وأقـواه على النـوب
مصفـح بصفـاح حولهـا شرف　　مـن الرمـاح وأبراج مـن اليـلب
مثـل الغمائم تهـدى مـن صواعقهـا　　بالنبل أضعاف ما تهدى من السحب
كأنمـا كـل بـرج حولـه فـلك　　من المجانيق ترمى الأرض بالشهب (٣)

ومن البديهى أن مبالغة الأدباء فى بيان شجاعة العدو . ومنعة حصونه ، واستماتة رجاله ، إنما تشير من طرف خفى إلى عظمة الإنتصار وبطولة المنتصرين

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ / ص ٣١٨ .
(٢) فوات الوفيات ج ١ / ص ٤١٥ .
(٣) تاريخ ابن الفرات ج ٨ / ص ١١٦ .

وفى الصورة المقابلة أبرز لنا الأدب قوة جيش المسلمين ، وبأس رجاله وما هم عليه من العدد والعدد ، ويصور العزازى جيش بيبرس الذى تقدم به إلى «قيسارية» بأنه عظيم العدد ، رجاله يرون فى الموت حياتهم وفى الشقاء نعيمهم ، ويندفعون كالسيل تبرق فى خلاله الأسلحة التى يحملها الفرسان ، إنهم المماليك الظاهرية الذين يلبون كل صيحة للحرب إذا تقاعست الأبطال :

وأقبل من فسطاط مصر بجحفل … عظيم ، ومنصور الجيوش عظيمها
رجال ترى أن الحمام حياتها … غداة جهاد والشقاء نعيمها
سحائب سيل والخيول بروقها … وأقمار ليل والعوالى نجومها
إذا قيل يا للظاهرية بادرت … إلى الخيل والأبطال بادو جومها(١)

ويصف «الأشرفية» مماليك الأشرف خليل الذين تقدم بهم لفتح عكا بأنهم ركبوا خيولهم المسرعة كالبروق ، وتتابعت سهامهم فغدت كالسحاب المتراكم بمطر العدو ، وبدت وجوههم فى خلال النقع فأشبه الليل المقمر ، إنهم آساد ينطلقون نحو فرائسهم ، وأين منهم من سمعنا عنه من أبطال العرب ، إن زيد الفوارس لو رأى أحدهم لفر مدبرا فهو أشد منه عزيمة وأصبر على وطيس الحرب :

وعساكر للترك إسلامية … نصرت وحق لمثلها أن ينصرا
ركبت بروقاً للخيول وأرسلت … منها غماما للقسى كنهورا
وتسارعت نحو الهياج وأسفرت … تحت العجاج فخلت ليلا مقمرا
إن قيل يا للأشرفية أقبلت … نحو الفرائس مثل آساد الشرى
من كل أغلب لو رآه مقبلا … زيد الفوارس فر عنه مدبرا
إن شد كان أشد منه عزيمة … وأكر إن حمى الوطيس وأصبرا(٢)

(١) ديوان العزازى ص ٦٢ .
(٢) ديوان العزازى ص ٧٥ .

أما بدر الدين المنجى فيشبه هذا الجيش فى ضخامته بالليل ؛ نجومه السيوف والرماح ، يغطى الأرض سهولها وآكامها . وفرسانه فوق الجياد كأنهم أسود على قمم الجبال ، وهم فى دروعهم لا تبدو منهم سوى العيون :

فى جحفل لجب كالليل أنجمه ... تبدو لرائية من قضب ومن أسل
عم المهامه من وعر ومن أكم ... وطبق الأرض من سهل ومن جبل
تخالهم وجياد الخيل تحتهم ... للبأس فى الروع آسادا على قلل
لا تنظر العين منهم إن هو لبسوا ... لا مات حربهم يوماً سوى المقل (١)

وقد وجه بعض الشعراء عناية خاصة لوصف الخيل فتحدثوا عن ألوانها ودربتها ومرانها ، وحركتها فى ساحة المعركة حيث تحيل الأحياء من العدو أمواتا على حد قول محيى الدين بن عبد الظاهر :

يركضون الجياد فى حلبة النصر ... فأكرم بمثلهم راكضينا
كل شقراء كالسلاف وصفراء ... كتبر قد سرت الناظرينا
وجياد من الأداهم والشهب ... ترينا ليلا وصبحا مبينا
وكميت قد راح حى كميت ... من غلو بها لدى العابرينا (٢)

ويصور صفى الدين الحلى دربة الخيل فى جيش «الناصر محمد» ذلك السلطان الذى كان مغرما بإقتناء الخيول الأصيلة فيصفها بأنها تطير كالصقر ، وتخطر مختالة كالطاووس ، وتروغ كالخطاف ، وتعلو ببصرها إلى السماء منتظرة الإشارة من فارسها لتعرج إليها لو أراد ، أو تمشى فوق الصراط إذا شاء :

بأقب يعصى الكف ثم يطيعه ... فتراه بين تسرع وتوان

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ / ص ١١٤ ، ١١٥ .
(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ / ص ٣٢ .

قد أكسبته رياضة سواسه ... فتكاد تركضه بغير عنان
كالصقر فى الطيران والطاوو ... س فى الخطران والخطاف فى الروغان
يرنو إلى حبك السماء توهما ... أن المجرة حلبة الميدان
لو قيل عج نحو السماء مبادرا ... وطئت يداه دوابر الدبران
أو قيل جز فوق الصراط مسارعا ... لمشى عليه مشية السرطان (١)

هذا شأن الجيوش المتحاربة ، ولا شك أن المعارك بعد ذلك ستكون ضارية شديدة ، ونقرأ فى كتابات الأدباء وأشعارهم صورا مختلفة لهذه المعارك فمنهم من يصور التحام الجيوش ، ومنهم من يبرز تصارع الفرسان وقرع السيوف بالسيوف ، ومنهم من يركز على تهاوى المعاقل والحصون ، وذلة الهزيمة تكسو الوجوه . وقد حفظت لنا كتب الأدب ودواوين الشعراء كثيرا من صور من هذه المعارك .

ونبدأ بهذه البشارة التى انطلقت تزف إنتصار المصريين فى «عين جالوت» وتصور فقرة من فقراتها اضطرام نار الحرب ، وامتلاء ساحة المعركة بالرماح والأسنة حيث تهطل السهام ، ويثور النقع ، ويرتفع صهيل الخيل ، ويتخطف الموت الأبطال . ونحس بفرحة غامرة تشيع فى ألفاظ هذه الفقرة وصورها . حيث يقول كاتبها الذى أغفلت المصادر أسمه :

«إلى أن تراءت العين بالعين ، واضطرم نار الحرب بين الفريقين ، فلم تر إلا ضربا يجعل البرق نضوا ، ويترك فى بطن كل من المشركين شلوا ، حتى صارت المغاوز دلاصا ، ومراتع الظبا للظبا عراصا ، واقتنصت آساد المسلمين المشركين إقتناصا ، ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا

---

(١) ديوان صفى الدين الحلى ص ١٠١ ، ١٠٢ .

عنها مناصا ، فلا روضة إلا درع ، ولا جدول إلا حسام ، ولا غمامة إلا نقع ولا وبل إلا سهام ، ولا مدام إلا دماء ، ولا نغم إلا صهيل ، ولا معربد إلا قاتل ، ولا سكران إلا قتيل» . (١)

وتكاد تجرى حروب المسلمين مع المغول على نسق واحد ، فهى صدام مباشر فى ساحة مكشوفة ، يزحف المغول فيهب الجيش الإسلامى للقائهم ، ويلتحم الجيشان ثم يتم النصر ، تلك هى الصورة الغالبة فيما نقرؤه من وصف لمعارك التتار ولا يكاد يشذ عن هذا النسق إلا ما نراه من وصف معركة «البيرة» التى خاضها بيبرس مع التتار ، حيث كان لها ملابساتها الخاصة إذ إقتحم «بيبرس» بفرسانه نهر الفرات ، وكان هذا عملا رائعا ألهب خيال الأدباء فأبرزوه فى بعض صور نابضة كما نرى فى قول بدر الدين يوسف بن المهمندار :

لو عاينت عيناك يوم نزالنا ... والخيل تطفح فى العجاج الأكدر
وقد اطلخم الأمر واحتدم الوغى ... ووهى الجبان وساء ظن المجترى
لرأيت سدا من حديد ما يرى ... فوق الفرات وفوقه نار ترى
طفرت وقد منع الفوارس مدها ... تجرى ولولا خيلنا لم تطفر
ورأيت سيل الخيل قد بلغ الزبى ... ومن الفوارس أبحرا فى أبحر
لما سبقنا أسهما طاشت لنا ... منهم إلينا بالخيول الضمر
لم يفتحوا للرمى منهم أعينا ... حتى كحلن بكل لدن أسمر
فتسابقوا هربا ولكن ردهم ... دون الهزيمة رمح كل غضنفر
ما كان أجرى خيلنا فى إثرهم ... لو أنها برءوسهم لم تعثر (٢)

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى جـ ٧ ص ٣٦٢ .

(٢) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٢٣٩ .

فهى مطاردة يفر فيها العدو يلاحقه جيش بيبرس ، ولذلك يركز الشاعر على فعل الرماح (كحلن بكل لدن أسمر) . (ردهم رمح كل غضنفر) وفى الأبيات تصوير جيد لولا ما نجده من بعض ألفاظ خشنة مثل (اطلخم) فى البيت الثانى ، وما نجده من ضعف فى بعض العبارات مثل (سبقنا أسهاطاشت لنا منهم إلينا) فحروف الجر المتتابعة أحدثت غموضا فلا يستطيع القارىء فهم العبارة بيسر .

وكذلك صور لنا الأدب ما كان يلجأ إليه الجيش المملوكى من استخدام لأسلوب «الكمين» فى حرب التتار ، ويحدثنا محيى الدين بن عبد الظاهر عن ذلك الكمين الذى أعده قلاوون فى وقعة حمص سنة ٦٨٠ هـ فيقول :

«ومولانا السلطان وجنوده فى غيلهم رابضون ، وعلى سيوفهم قابضون يستجرونهم ليقع شركهم من توسط البلاد الإسلامية فى شرك ، ويستدرجونهم ليقعوا من أسفل نار الموت فى درك ، فلما قربوا من حماة المحروسة ، وبينوا بنيانها من قراها . واستدنتهم حمص لقراها . وثب مولانا السلطان وثبة شبيت منهم الوليد ، وأقدم عليهم إقداما كان مساوقه فيه خالد بن الوليد».(١)

كذلك أشار الأدباء إلى بعض التحالفات التى كان يعقدها التتار مع الأرمن . مما كان يحدو سلاطين المماليك إلى غزو أرمينية المرة بعد المرة ، ونهب عاصمتها «سيس» وتمزيق هذا الحلف . ويصور محيى الدين بن عبد الظاهر كيف هجم بيبرس على «سيس» فولى حاكمها مهينا ذليلا بعد أن خذله أحلافه من التتار ، وولوا هاربين :

وتولى ليفون منه حسيرا   خائباً خائفاً لعيناً مهينا

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ / ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

وكــذاك التتــار خوفــاً ورعبـا   قــد تولــوا مــن بأسه هاربينـا
آه لــو أنهــم أقامــوا فقالــوا   أى يــوم لشره قــد حيينــا
أنــذروا بالجيــوش أبغـا فــولى   هاربـا لا يكـذب الناقلينـا (١)

ويبدو أن هؤلاء الأرمن كانوا مغرمين بالمتاعب . يلقون بأنفسهم دائماً إلى التهلكة . فهم حينا مع التتار . وحينامع الفرنج وفى كلا الحالين تهوى على رءوسهم ضربات الجيش المملوكى .

وإذا كان ابن عبد الظاهر صور تحالفهم مع «أبغا» زعيم التتار وما جر عليهم ، فالعزازى يصور تحالفهم مع الفرنج ، وماذا كان من أمر هؤلاء المتحالفين ، فقد سقطت «سيس» ولم يغن عنها حلفها ، بل كان الفرنج أول من فر من ساحة المعركة :

يا يوم وقعة سيس سار ذكرك فى   أقصى العراق وأقصى الصين واليمن
جاء الكتاب بنصر المسلمين فــلا   والله ما جاز أحلى منـه فى أذن
ولى الفرنـج على أعقابهم هربـاً   لا يعطفون على إلف ولا سـكن
طافت بهم من كمـاة الترك طائفـة   تهوى اللقاء هوى المشتاق للوطن (٢)

أما الحرب ضد الصليبيين فكانت تتسم بأنها حرب هجومية ، وكانت تتمثل فى إنقضاضات مباغته على حصن من الحصون أو معقل من المعاقل ، حيث تنصب المجانيق ، ويضرب الحصار الذى قد يطول وقد يقصر . وقد يسلم أهل الحصن فينجون بحياتهم . وقد يركبون العناد فيسلمهم إلى الموت .

ويصور علاء الدين بن الزكى فى بشارة كتبها لأخيه كيف أحدق بيبرس

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ / ص ٣٢ .
(٢) ديوان العزازى ص ٥٨ ، ٥٩ .

وجنوده بصفد ، حيث كان فرسانه فى تشوق للقتال يهزون رماحهم ، ويلوحون بسيوفهم ، بينما المجانيق تصب حجارتها على المدينة صبا : «وحماة الحرب قد وقفت فى مراكزها ، وكماة الهيجاء قد إستعدت لأخذ فرص النصرومناهزها والرماح قد اهتزت شوقا إلى لقائهم ، والسيوف قد آلت أنها لا توافق على مقامهم ، والمجانيق تزور حماهم ، وتلك الزيارة لشقائهم ، وتدمر بحجارتها عليهم تدميرا ، وترمهم من بأسها يوما عبوسا قمطريرا ، وتصير بهم إلى الهلاك وتعدهم جهنم وساءت مصيرا» . (١)

ويطول الحصار ويستيئس العدو فيطلب الأمان ، فتكف الأيـدى ، وتتوقف الحرب ، ويخرج هذا الرسول المفزع ترتعد منه مفاصله ، ولا تكاد تحمله ساقاه ، يخترق الصفوف برسالة قومه .

«وقيل إن الكافر قد طلب الأمان ، وإنه ركب ظهر المذلة مذ ناولـه الجزع العنان ، وإن الكفر قد ذل للإيمان ، وإن شيطانه قد نكس على عقبه لما تراءت الفئتان ، فأمسكت المجانيق عن ضربها ، وكفت الحنايا عن إرسال شهبها ، وأقصرت ليوث الحرب الضارية عن وثبها ، فما كان إلا هنيهة وقد خرج رسول منهم حيث لا تنفع الرسائل ، واخترق وشيج القنا ، وشـوك النصال ، وظبا المناصل . ورأى كثرة هالته فكادت تنقد منه المفاصل ، ومشى إلى السلطان خاضعا وأعيا على السباطين يقوم كلما عوجته الأفاكل» . (٢)

أما البوصيرى فينقل فى صورة نابضة حصار «قلاوون» لحصن «المرقب» وكيف طال الحصار على أهله ، وحجارة المجانيق تمطرهم ، والفرسان ينقبون أسواره من كل جانب ، فلما أستيأس الفرنج وقفوا على الأسوار يصيحـون طالبين الأمان بعد أن تيقنوا من مصير عنادهم المحتوم :

---

(١) نهاية الأرب للنويرى حـ ٥ ص ١٥٢ .

(٢) نهاية الأرب للنويرى حـ ٥ ص ١٥٤ .

فلمْ يرقبوا من صرح هامان مرقبا ... بهامته برد السحاب بكور
وصب عليهم عارض من حجارة ... ونبل وكل بالعذاب مطير
وساموه خسفاً من نقوب كأنها ... أثاف لها تلك البروج قدور
فذاقوا به مر الحصار فأصبحوا ... لهم ذلك الحصن الحصين حصير
يصيحون أعلى السور خوفاً كصافن ... نفى عنه نوم المقلتين صفير
وماذا يرد السور عنهم وخلفه ... من الخيل سور والصوارم سور
وليس لهم إلا إلى الأسر ملجأ ... وإلا إلى ضرب الرقاب مصير
فلما أحسوا بأس أغلب همة ... غدو إليهم بالردى وبكور
دعوه وشمل النصر منهم ممزق ... أماناً وجلباب الحياة بقير (١)

ومثل هذا الأسلوب . الحصار والنقب ، والمجانيق نجده فى كل الهجمات على الصليبيين وإذا شئت فلنقرأ قول شهاب الدين محمود فى فتح عكا فلن تجد خلافا عن الصورة السابقة سوى ما يبدو من جمود على أبيات شهاب الدين محمود وما تتسم به من روح السرد :

وجئتها بجيوش كالسيول على ... أمثالها بين آجام من القضب
وحطتها بالمجانيق التى وقفت ... أمام أسوارها فى جحفل لجب
ورضتها بنقوب ذللت شمما ... منها وأبدت محياها بلا نقب
وبعد صبحتها بالزحف فاضطربت ... رعباً وأهوت بخديها إلى الترب (٢)

والقارىء لأدب هذه الحقبة يحس أن نظرة سلاطين المماليك إلى التتار كان يشوبها شىء من الوجل والخوف . بينما كانت نظرتهم إلى الصليبيين نظرة

---

(١) ديوان البوصيرى ص ٩٧ .
(٢) تاريخ ابن الفرات حـ ٨ ص ١٦٧ .

استعلاء . وهذا راجع إلى أن التتار كانوا ما يزالون فى عنفوانهم ، بينما كان الصليبيون يقتربون من النهاية ، وتفتك بإماراتهم أمراض الشيخوخة من خور وعجز خلاف . ومن هنا نستطيع تفسير هذه النغمة المتهكمة الساخرة التى نسمعها فى كتابات سلاطين المماليك إلى ملوك الصليبيين وأمرائهم ، ولتقرأ معى رسالة بيبرس إلى صاحب حصن الأكراد بعد فتح حصنه ، وأنا على ثقة من أنك ستحس بروح الإستعلاء والثقة التى تملأ بيبرس ، وتفيض بها ألفاظه سخرية وتهكما :

«نعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذى حصنته وبنيته وخليته ، وكنت الموفق لو أخليته ، وتكلفت فى حفظه على إخوتك فما نفعوك ، وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه ، وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن ويبقى أو تخدم سعيدا ويشقى» . (١)

ولعلك لحظت هذه التورية فى كلمة «سعيد» إذ قصد بها ابنه «السعيد بركة» الذى كان قائد هذه الهجمة .

وربما كان مما يمت إلى الحروب الصليبية بصلة تلك الحرب التى دارت وقائعها على حدود مصر الجنوبية ونقصد بها حرب النوبة ، فقد قامت فى بلاد النوبة مملكة مسيحية كثيرا ما كانت تثير القلاقل فى الجنوب ، وتغير على أهل الصعيد . وقد حدا ذلك «ببيبرس» أن يبعث إليها بحملة تأديبية ، ويعزل ملكها ويولى مكانه ملكا آخر من بنى قرابته

وتصور الرسالة التى كتبها محيى الدين بن عبد الظاهر مبشرا بإنجاز مهام هذه الحملة أن النظرة إلى هذه الحرب لا تفترق عن النظرة إلى الحروب الدائرة

(١) السلوك المقريزى - ١ / ٢ ص ٥٩١ الهامش .

فى الشمال مع الصليبين والمغول ، فهى حرب دينية ، وأهل هذه المملكة - أيضا - أهل رجس وفساد وكفر . ولعل ذلك يتضح من بعض سطور هذه الرسالة حين تقول :

«ونفهمه أنا علمنا أن الله بفضله طهر البلاد من رجسها ، وأزاح العناد ، وحسم مادة معظمها الكافر وقد كاد وكاد» . (١)

فهى الروح نفسها التى نلمسها فيما كتب عن سائر وقائع هذا العصر .

إلا أن هناك شيئاً آخر توضحه رسالة ابن عبد الظاهر هو تلك الروح العنصرية التى اتسم بها المماليك ، والتى تشى بها سطور الرسالة وإيحاءات ألفاظها فنلمس إعتزاز هؤلاء المماليك بلونهم الأبيض وإزدراءهم للون الأسود الذى يتصف به أهل النوبة . فيقول الكاتب :

«وأهلك العدو الأسود بميمون طائر النصر الأبيض» (٢) . ويقول فى «موضع آخر» وبين خيط السيف الأبيض من الخيط الأسود من فجر فجورهم» ويفيض قوله بالسخرية حين يصف قتلاهم السود الذين أصبحوا كأنهم أضحية عيد النحر . فيقول : «وعجل عيد النحر بالأضحية بكل كبش يبرك فى سواد وينظر فى سواد ، ويمشى فى سواد» . (٣)

وهذه العنصرية تتجلى - أيضا - فى تسمية أهل النوبة بالعبيد ، وكأن هناك فرقا بين العبد والمملوك ، فالعبد هو صاحب اللون الأسود حتى ولو لم يمسسه رق ، والمملوك هو ذلك الفارس الذى يتيه بلونه وهو فى الحقيقة أحرى بأن يسمى عبدا ، ويمثل لنا ابن النقيب نظرة المماليك حين يقول فى وقعة دنقلة :

---

(١) فوات الوفيات / حـ ٢ / ص ١٨٠ .
(٢) فوات الوفيات حـ ٢ / ص ١٨١ .
(٣) فوات الوفيات حـ ٢ / ص ١٨٠ .

يا يوم دنقلة وقتل عبيدها ... في كل ناحية وكل مكان
كم فيه زنجي يقول لأمه ... نوحي فقد دقوا قفا السودان (١)

ويبدو أن مملكة النوبة لبثت زمنا تثير الشغب والقلاقل ، ففي عهد قلاوون تتوجه إليها حملة تأديبية ثانية . ويصف العزازى هذه الحملة فيصور فرسانها وقد شرعوا رماحهم ، وارتفعت راياتهم ، وأخذوا يضربون في مسالك وعر وطرق مجهولة يضل بها السليك بن السلكة لورام فيها سيرا ، ويجبن عنترة عن قصد مثلها ، فإذا وصل هؤلاء المحاربون «دنقلة» هدموا حصونها وقلاعها وكنائسها ، وأقاموا الآذان بعد أن ظلت نواقيس الكنائس تدق بها زمنا . ثم يصف الشاعر هزيمة أهل دنقلة (العبيد) ، وفرارهم ، وهون ملوكهم وعودة الجيش بالسبي مقيدين يثقلون الركب ، وتنوء بهم السفن :

والجيش قد أشرعت كتائبه ... من حوله السمهرية اللدنا
في مسلك لو سرى «السليك» به ... لضل فيه . أو «عنتر» جبنا
وهد منها حصونها المشمخرا ... ت وأوهى القلاع والمدنا
ثم أقام الأذان في بيع ... دقت نواقيسهم بها زمنا
ولم يدع قط في كنائسها ... لا حجرا قائماً ولا وثنا
وفر جمع العبيد مذ ركبوا ... من صولة الترك مركبا خشنا
وهان منهم ومن ملوكهم ... أصعبهم في مقادة رسنا
ولو أراد الأمير لافتتح الهند ولو شاء دوخ اليمنا
فيالها غزوة مباركة ... قضى بها الواجبات والسننا
وعاد بالسبي في الحبال وقد ... قام لسلطانه بما ضمنا

---

(١) فوات الوفيات جـ ٢ / ص ١٨٢ .

حتى لقد أثقلوا الركائب فى السبر وفى البحر ضيقوا السفنا (١)

وأنت تلمح فى أبيات العزازى النظرة نفسها لأهل النوبة فهم أهل شرك ووثنية ، وتلمح أيضا التعالى نفسه فأهلها عبيد لا قيمة لهم سوى أنهم يثقلون سير الركب .

وقد حرص الأدباء فى تصويرهم لحروب هذا العصر سواء ما كان منها مع المغول ، وما كان منها مع الصليبيين أو من يمت إليهم بسبب ، على تصوير بلاء الجيوش الإسلامية ، وما أنزلته بالعدو من فواجع وخسائر ، وركز معظم الأدباء على إبراز كثرة قتلى العدو ، وما سال من دماء جنوده على أرض المعركة وكأن الأدباء كانوا يجدون فى ذلك شفاء للنفوس الموتورة ، وربما لروح الثأر الصادية .

ففى وقعة «البيرة» التى انتصر فيها بيبرس على التتار يصور لنا شهاب الدين محمود دماء العدو وقد سالت فمنعت تصاعد الغبار ، وودت الآساد والأطيار أن تشكر مساعى السلطان بما هيأه لها من وليمة :

رشت دماؤهم الصعيد فلم يطر ... منه على الجيش السعيد غبار
شكرت مساعيك المعاقل والورى ... والترب والآساد والأطيار (٢)

وفى فتح قيسارية نرى محيي الدين بن عبد الظاهر بعد أن يتحدث عن قتلى العدو وكثرتهم ، يصور لنا مشهدا رهيبا ، حيث جمعت رءوس القتلى لدى دهليز السلطان تدوسها الخيل ، وتبعثرها بأرجلها ، والسلطان ينظر إلى هذه الرءوس متفرسا فى وجوه أصحابها :

---

(١) ديوان العزازى ص ٩٨ .
(٢) النجوم الزاهرة / جـ ٧ / ص ١٦٠ .

«وكأنما رءوسهم المجموعة لدى الدهليز المنصور أكر تلعب بها صوالجة من الأيدى والأرجل من الخيل :

ألقت إلينـا دمـاء المغـل طاعتهـا   فلو دعونـا بلا حرب أجـاب دم

فكم شاهد مولانا السلطان منهم مهيب الهامة ، حسن الوسامة ، تتفرس فى جهامة وجهه الفخامة ، قد فض الرمح فاه فقرع السن على الحقيقة ندامه(١)

ثم يمضى ابن عبد الظاهر فى تصوير بقية المشهد حيث يقبل الأسرى على رءوس أصحابهم ، يتعرفون عليها . ويتحسرون على أصحابها وما كان لهم من شجاعة :

«وأقبل بعض الأحياء من الأسارى على الأموات يتعارفون ، ولأخبار شجاعتهم يتواصفون ، فكم من قائل : هذا فلان وهذا فلان ، وهذا كان وهذا كان ، وهذا كان يحدث نفسه بأنه يهزم الألوف ، وهذا يقرر فى ذهنه أنه لا تقف بين يديه الصفوف» . (٢)

ولم يقتصر تصوير الأدب للفواجع التى نزلت بالعدو على وصف كثرة القتلى ، وسيل الدماء ، وإنما راح الأدباء يتحدثون فى نشوة غامرة عما نزل ببلاد العدو من تخريب وتدمير ، فالعزازى يصور ما حل بسيس فى إحدى الوقائع الصليبية حيث أخذ الملوك فى الأسر صاغرين ، يتلفتون إلى الوطن فى أسى ، وأخذت النساء ليعرضن فى أسواق النخاسة بأزهد الأثمان ، ويختم الشاعر الأبيات متشفيا فى هؤلاء القوم الذين أوقعهم بغيهم فى سوء المصير :

قـل للبطـارق عقبى البغى أوقعكم   فى محنـة أصبحت من أعظم المحن
قد قلت بعد ارتواء مـن دمائـكم   ما شاء من حادثات الدهر فليكـن

---

(١) صبح الأعشى — ١٤ / ص ١٤٨ .
(٢) صبح الأعشى — ١٤ / ص ١٤٨ .

هذى ملوككم تنقاد صاغرة   وذى قرابينكم تنساق فى قرن
لها التفات إلى أوطانها أسفاً   كما تلفتت الأنعام للعطن
بيعت بناتكم فى كل ناحية   بيع الهوان بمنزور من الثمن
لم ينجكم ما ادخرتم من مطهمة   جرد ومن سابريات ومن جنن
ذوقوا العذاب عذاب الله وانتبهوا   ومن يغالب قضاء الله يمتهن (١)

ويقف بدر الدين بن المنجى ينظر إلى عكا حينا فتحها الأشرف خليل منتشيا بخرابها يرى فيه لذة عينه ، ومتعة نفسه ، ولعله قد ربط بين ما حدث لعكا على يد الأشرف خليل ، وما حدث لعمورية على يد المعتصم ، وتمثلت فى ذهنه قصيدة أبى تمام فى هذا الموقف فانثالت منها عليه بعض الصور والعبارات فقال :

فأصبحت بعد عز الملك خاضعة   من ذلة الملك طول الدهر فى سمل
فسلب بزّتها عنها وقد عطلت   ألذ للطرف من حلى ومن حلل
ومحو آثارها منها وقد خربت
أشهى إلى النفس من روض الربى الخضل (٢)

أما شهاب الدين محمود فيصور السبايا من نساء الفرنج ، وقد أخذن قسرا بعد أن بترت أمامهن الرءوس . وهن يستعصين ثم لا يجدن بدا من الإذعان والتسليم فيقول :

وأبرزت كل خود كاعب بترت   لها الرءوس وقد زفت بلا طرب
فاتت وقد جاورتنا ناشراً وغدت   طوع الهوى فى يدى جيرانها الجنب (٣)

---

(١) ديوان العزازى ص ٥٩ .
(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١١٥ .
(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١١٨ .

ويجزنا الحديث عن السبايا إلى الحديث عن الأسرى ، فقد كان يساق عظماؤهم بين يدى موكب السلطان المنتصر فى ذلة ووجل ، ويصورهم محيى الدين بن عبد الظاهر فى أحد هذه المواكب يحجلون فى قيودهم ، تشيعهم صرخات نسائهم وحسراتهن ، فيقول مصورا موكب بيبرس المنتصر فى دمشق :

وأتى دمشق وكل قائد جحفل ... متدلل فى أسره متذلل
كم ذات حجل قد رأت مولى لها ... فى القيد ما بين المواكب يحجل
قالت له هذا هو الملك الذى ... ما كان يحمى منه يوماً معقل (١)

ويصورهم مرة أخرى فى صورة نثرية فى موكب قلاوون حيث تقدموا الموكب السلطانى متهالكين ، ومن خلفهم رماح الجيش المنتصر تحمل رءوس القتلى : «وثنى مولانا السلطان العنان ، وملوك المغل الأسارى يساقون بين يديه سكارى وما هم بسكارى ، وقد أثمرت رءوس الرماح بكل بطل كم كان يحسن رأساء . (٢)

ويرسم علاء الدين بن عبد الظاهر صورتهم مقرنين فى الأصفاد يساقون بين يدى الناصر محمد بعد وقعة مرج الصفر ، وهم ينظرون إلى عظمة مصر والندم يأكل قلوبهم :

«والأسارى قد جعلوا بين يديه مقرنين فى الأصفاد ، يشاهدون مدنية ماثلت إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد» . (٣)

وقد يساق الأسرى ركوبا ، أسيرين على كل بعير ، كما يشير إلى ذلك بيت البوصيرى :

---

(١) تاريخ ابن الفرات حـ ٧ ص ٩١ .
(٢) تاريخ ابن الفرات حـ ٨ / ص ١١٨ .
(٣) نهاية الأرب حـ ٣٠ / ورقة ٢٣٧ ب .

فلو شاء سلطـــان البسيطة ساقهـــم ... لمصر وتحت الفارسين بعـير (١)

وقد لا يقف أمر الأسرى عند هذا الحد بل قد يبالغ فى إهانتهم «فيجرسون» فى صورة مزرية وقد أركبوا الحمير ، وأحاطت بهم العامة يسبونهم ويوبخونهم ولعلنا نلمح شيئاً من ذاك فى أبيات النويرى السكندرى :

يا راهب الديــر صرت اليوم فى حزن ... لأجل فرقـة قاع الديـر والوطـــن

وصرت فى قبضة الإسـلام مرتهناً ... كأنك الميت فى قطن وفى كفـــن

ماذا ضللت من الإفرنـج فاجتمعوا ... على عبادة صلبـــان إلى وثـــــن

جازاك كفـرك بالتجريس فى ملأ ... على حمار طويل الذيـــل والرســـن

فاقدم تلامــذة تلمذتهـــم أبـــدا ... إلى الجحيم كما قدمت من فـــتن (٢)

وإذا تركنا حديث الأسر والسبى إلى ما سوى ذلك من الغنائم المادية وجدنا النصوص الأدبية وبخاصة الشعرية منها تغفلها أو تأتى بإشارات عاجلة مقتضبة ولعلهم فى ذلك كانوا محكومين بالقيم الخلقية التى انحدرت إليهم عبر الآثار الأدبية للعرب فى الجاهلية والإسلام ، ولعلهم كانوا على ذكر من قول عنترة :

ينبئــك مـــن شهــد الوقيعة أننى ... أغشى الوغــى وأعف عند المغنم

وقول أبى تمام :

إن الأســود أسود الغيـل همتهـــا ... يوم الكريهــة فى المسلوب لا السلب

ولعلنا نجد أصداء هذه المعانى فيما نقرؤه من أدب هذه الحقبة كذلك الذى نراه من قول شهاب الدين محمود فى فتح عكا :

تحكمت فسطت فيهـــم قواضبهـــا ... قتلا وعفت لحاويها عن السلب (٣)

---

(١) ديوان البوصيرى ص ٩٨ .

(٢) الإلمام بما جرت به الأحكام ورقة ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ﺣ ٨ / ص ١١٧ .

وعلى أى حال فقد أشار الأدب إلى أن هذه الغنائم كانت كثيرة بحيث تتيح الغنى كما نلمح فى قول ابن النقيب :

ولما ترامينا الفرات بخيلنا سكرناه منا بالقوى والقوائم
فأوقفت التيار عن جريانه إلى حيث عدنا بالغنى والغنائم (١)

كما أشار الأدباء إلى ألوان هذه المغانم المادية وأنواعها، فهى تارة خيول العدو المهزوم وسلاحه وما يحترزه من أموال ومعادن ثمينة كما نرى فى قول ابن عبد الظاهر :

« وأما العدو فتقاسمت الأيدى ما يمتطونه من الصواهل والصوافن ومايصولون به من سيوف وقسى وكنائن ، ومايلبسونه من خوذ ودروع ، وجواشن ، وما يتمولونه من جميع أصناف المعادن» . (٢)

وهى تارة تتمثل فيما ينهبه الجنود من الماشية كما نرى فى قول محيى الدين ابن عبد الظاهر أيضا :

يا ويح سيس أصبحت نهبة كم عوق الجارى بها جارية
وكم بها قد ضاق من مسلك يستوقف الماشى بها الماشية (٣)

ولعل الحديث عن نهب الماشية «بسيس» عاصمة أرمينيا يمثل هدفا من أهداف مهاجمتها ، حيث كانت أرمينيا سوقاً للحنطة والبغال كما يقال.(٤)

وأشار ابن عبد الظاهر — أيضا — إلى أنه كانت هناك فرق تتبع الجيش فى غزواته تعرف بالكسابة ما إن ينتصر الجيش حتى تدخل على العدو دياره فتعمل فيها النهب والسلب وذلك فى قوله :

---

(١) النجوم الزاهرة حـ ٧ / ص ١٦٠ .
(٢) صبح الأعشى حـ ١٤ / ص ١٤٧ ، ١٤٨ .
(٣) تاريخ ابن الفرات حـ ٧ / ص ٣٣ .
(٤) انظر العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٩١ .

«وطلعت سناجق الإسلام الصفر على أسوارها ، ودخلت عليهم من أقطارها ، وجاست الكسابة خلال ديارها» . (١)

وسجل لنا الأدب أيضا ما كان يروق لبعض سلاطين المماليك من تخليد بعض معاركهم بأن ينقشوا لوحات لها فى قصورهم وأواوينهم ، ومثال ذلك تلك اللوحة التى نقشها السلطان الأشرف خليل فى ديوانه الذى بناه ، والتى تصور إحدى وقائعه ، ولعلها وقعة عكا ، فهى المعركة الوحيدة التى قدر للأشرف أن يخوضها ، وقد وصف ابن دانيال الموصلى هذه اللوحة ، حيث امتطى الجنود فيها جيادهم فى وضع الاستعداد ، محدقين بأعينهم كأنهم ينتظرون إشارة البدء لخوض المعركة ، ولم يفت ابن دانيال أن يشير إلى جمال هؤلاء الجنود وفتنة وجوههم حتى ليحسبهم الناظر حورا وولدانا . ولم يفته كذلك أن يسجل براعة الرسام الذى جعل اللوحة نابضة بالحياة حتى ليحس الرائى أن الجيش سيدهمه . يقول ابن دانيال :

صورت جيشك فيه مثل عادته ... كأنهم فى ظهور الخيل سكان
لا يسأمون ركوب الخيل فى طلب الأعداء يوماً ولا يلهيهم شان
قد حدقت لامتثال الأمر أعينهم ... فليس تطبق منهم قط أجفان
سيوفهم بدماء الكفر قد رويت ... سفكاً وكل إلى الهيجاء عطشان
كأنهم فى غياض من رماحهم ... تحت البنود وهم حور وولدان
صورتهم فإذا رسل الملوك رأوا ... جمالهم فتنوا والحسن فتان
وأطرقوا ثم قالوا خفضوا وقفوا ... فها هنا اليوم للحيطان آذان
مثال ذا صعدوا تلك المعاقل من ... حيطانها وهم رجل وفرسان
لولا الأمان لداستنا جيوشهم ... واستخطفتنا من الحيطان عقبان(٢)

---

(١) نهاية الأرب جـ ٥ / ص ١٥٩ .
(٢) التذكرة الصفدية جـ ١٤ / ص ٧١ .

ولعل سؤالا يتبادر إلى الذهن بعد ذلك ، ألم يعن الأدب بتصوير البطولة فى هذا العصر ؟ وللإجابة عن هذا ينبغى أن نكون على ذكر من أن هؤلاء المحاربين طبقة من الأرقاء ، وأن متطلبات الجهاد هى التى تقدمت بهم إلى صفوف الحكم كما سلف القول . وفى الحقيقة أنهم حملوا عبء الجهاد دون وهن ، ولكن أهل البلاد — مع ذلك — كانوا يحسون بالنفور منهم ، بل ربما شعروا فى قرارة أنفسهم بنوع من الاستعلاء عليهم . وإذا كان بعض السلاطين قد تمكن من تألف قلوب العامة حوله مثل «بيبرس» «وقلاوون» وابنه الناصر محمد فقد بقيت الطبقة المثقفة تحس بالاستعلاء على هؤلاء الحكام . وظل هذا الشعور مسيطرا على أنفسهم لم ينتزعه ما أبداه المماليك من ضروب الشجاعة ، ومن بلاء فى الذود عن الإسلام .

لقد حقق «قطز» النصر العظيم على التتار فى «عين جالوت» ومزق جموعهم المنتشية بخمر النصر ، فماذا قال عنه الشعراء ؟! قال شهاب الدين أبو شامة :

غلب التتار على البلاد فجاءهم ... فى مصر تركى يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم ... ولكل شىء آفة من جنسه (١)

الأمر إذن لا يعدو أن يكون شرا يصد شرا ، وآفة تدفع آفة ، والبيتان بعد ذلك ينضحان بكثير من مشاعر الازدراء والنفور .

وغنى عن البيان بهذا الصدد أن الأدباء الذين تصدوا لحديث الحرب والسياسة كانوا بين فريقين : فريق يتمثل فى كتاب الديوان وهذا عمله ووظيفته وفريق يتكسب بأدبه . يبغى المنفعة المادية وتدفعه ضرورات العيش أن يطأطىء كبرياءه ، ويطامن من خيلائه واستعلائه فيقول بلا عاطفة ، وينظم بلا إعجاب وهذا زعم نرى صدقه فى أدب كلا الفريقين حيث نلمس جدب العاطفة ،

---

(١) المنهل الصافى ـ ٣ / ورقة ٢٠ .

ونحس أنه فى مجموعه أدب تلفيق يتكىء بشدة على التراث الموروث ويستلهمه فى كثير من المعانى والصور يؤلف بينها على نحو من الأنحاء ، وخذ مثلا على ذلك قصيدة شهاب الدين محمود فى بيبرس :

كذا فلتكن فى الله تمضى العـزائم   وإلا فـلا يجفو الجفون الصـوارم

فهى على نسج قصيدة المتنبى :

على قدر أهل العزم تأتى العـزائم   وتأتى عـلى قـدر الكـرام المكارم

وقصيدته فى فتح عكا :

الحمـد لله زالت دولـة الصلـب   وعـز بالـترك دين المصطفى العربى

فهو ترديد لما قاله أبو تمام فى عمورية .

ومثل آخر هو قصيدة بدر الدين المنجى فى فتح عكا :

بلغت فى الملك أقصى غاية الأمـل   وفقت شـأو ملوك الأعصـر الأول

فهى نسج على منوال مسلم بن الوليد فى مدحه ليزيد بن مزيد الشيبانى ، ودوران حول كثير من معانى أبى تمام فى فتح عمورية .

وفى مثل هذه الأعمال لا ينبغى أن نجهد أنفسنا بالبحث عن صور البطولة والأبطال فهى أعمال يطبعها الطابع الذهنى . ولا يعدو جهد الأديب فيها الصياغة ، وجمع النظير إلى نظيره . وإذا كان فى بعض مواضع من هذه القصائد أو ما يماثلها حرارة أو نبض فهذا يرجع إلى الشعور الدينى وإلى أن المعارك معارك إسلامية أولا وأخيرا ، أما البطولة والأبطال فقلما تجد شاعرا يقف ليبدع لنا صورة نابضة ، أو يصور فى إعجاب بطلا من أبطال الجهاد.

وعمل الذهن واضح فى كثير من حديث هؤلاء الأدباء عن البطولة ،

وإلا فماذا ترى فى قول الشيخ شمس الدين بن غانم فى الأشرف خليل حين فتح عكا :

مليكان قد لقبا بالصلاح فهذا خليل وذا يوسف
فيوسف لا شك فى فضله ولكن خليل هو الأشرف (١)

فهل فى هذا شيء سوى العبث الذهنى ؟!

وشبيه بهذا العبث الذهنى العبث اللفظى الذى نراه فى قول شهاب الدين محمود فى فتح عكا :

ليث أبى أن يرد الوجه عن أمم يدعون رب الورى سبحانه بأب
كم رامها ورماها قبله ملك جم الجيوش فلم يظفر ولم يصب
لم يلهه ملكه بل فى أوائله نال الذى لم ينله الناس فى الحقب

فهل تحس لهذه الأبيات نبضا ؟! وهل ترى فيها سوى ذلك العبث اللفظى بين (أبى — أب) ، (رامها — رماها) ، ثم هذا القلق فى البيت الأخير ، وسيطرة الوزن على الشاعر ، فالأشرف نال ما لم ينله الملوك لا ما لم ينله الناس ، وبون بعيد بين العبارتين .

ثم أين المراثى ؟! ألم يستشهد فى هذه المعارك من جنود الإسلام كثير من الأبطال والفرسان ؟! ألم يكن واحد منهم حريا بمرثية من المراثى تخلدبطولته؟ إن المديح ربما لا يدل على صدق فى العاطفة كذلك الذى يدل عليه الرثاء ، فالرثاء مبعثه الحزن الخالص والإعجاب الخالص على عكس المديح الذى قد تسوق إليه الرغبة أو الرهبة فى بعض الأحيان . ولكن أنى لنا بالحزن الخالص

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ / ص ١١٨ .

أو الإعجاب الخالص فى نفوس شعراء يرون أن الأمر كله لا يعدو أن يكون مهمة رسمية ، حتى هؤلاء الشهداء كانوا هم أيضا فى مهمتهم الرسمية . فإذا وجدنا مرثية بعد ذلك وجدناها شاحبة باهتة ربما تثير الضحك أكثر مما تستدر الدمع ولنقرأ مرثية محيي الدين بن عبد الظاهر فى بيبرس والتى يقول فيها :

تقـــرا عليـــك تحيــة وســلام يا قــبر من فجعت بــه الأيـام
الظــاهر السلطــان مــن بمصابه هــد الهدى وتأثــر الإســلام
وغـدت دمشق بقــبره وحلوله فيهـا تتيــه على الوجود الشام
قــبر الــذى لــو أنصفته قلوبنــا ما أصبحـت بمـسرة تشـــتام
بالله يا من فى صنائع جـــــوده عاشوا ، ومن بلغوا به ما رامـوا
يا من به خدمتهم الأيام والأقــدا ر والأرزاق والأقـــــــوام
لم لا شققتم مــثل مـا شق الدجى جيب الصباح وشقــت الأقلام ؟
أيــن البكاء على الــذى كانت لــه عند الخلائق حرمــة وذمــام ؟!
أيـن المدامع يا جفـون أما تــرى قرن الرجال ثوت عليه رجام ؟(١)

ونستطيع أن نقول أى شىء سوى أن الشاعر حزين ، فنحن لا نــرى إلا مبالغات ممجوجة ، واستجداء للدمع فضلا عن ضعف الألفاظ وتفكك العبارات .

كل هذا يثبت ما ذهبنا إليه آنفا من شحوب عنصر البطولة فى أدب هذا العصر والذى عللنا له باستعلاء فريق من الأدباء على طبقة الحكام . وإحساس فريق آخر بأنه يؤدى عملا رسميا حين ينظم أو يكتب فأصحابه لا يترجمون عن ذواتهم بقدر ما يؤدون المطلوب منهم قوله .

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٤٣ .

ولعل شعور الاستعلاء هو الذى يفسر لنا كيف وقف بعض الأدباء من السلطة موقف صاحب العمل من الأجير ، فهو راض عنه طالما أدى ما عليه ، أما إذا قصر فى عمله أو تهاون انقلب عليه ساخطا لائما موبخا . فحينما هجم القبارصة على الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ وهزموا حاميتها ، انقلب فريق من الأدباء ساخطين على المماليك ، يرمونهم بالتخاذل والجبن وتشتت الرأى ، كما نرى فى قول الشاطبى :

عجبت لمن ألقى السلاح جبانة *** وولى بوجه كالح ومهين
إذا دارك المولى بلطف عبيده *** أمدوا بعقل فى الخطوب رصين
وإن خذلوا فالرأى منهم مشتت *** ولو أنهم فى الحرب أسد عرين(١)

ويعرض ابن أبى حجلة التلمسانى بضعف المماليك وخورهم ، ويقول : إنه لو حضر أسطول سبته وتولى جنوده الدفاع لما حدث ذاك :

فمن لى بأسطول به أهل سبتة *** بغربانهم مثل النسور إذا تسرى
ومن لى بفرسان الجزيرة عندما *** تعامل أهل الكفر فى البحر بالنحر(٢)

ويفصح بعض الشعراء عن رغبته فى عزل والى الثغر فيقول :

إسكندرية قالت *** يا نائبى صن دماكا
لقد تغير ثغرى *** واحتجت فيه سواكا (٣)

إذن فماذا بقى من حديث البطولة ؟! ونرى أن الذى بقى منه هو ما يمثل فكر المماليك ، وما يودون سماعه ، وما كانوا يحثون عليه الأدباء بوسيلة أو بأخرى .

---

(١) الالمام بما جرت به الأحكام ورقة ١٨٧ ب .
(٢) الالمام بما جرت به الأحكام ورقة ١٧٠ ، ١٧٩ .
(٣) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ١٨٥ .

وأول ما نراه هو أن السلطان لا ينفرد بكل المديح والإشادة ، بل يأخذ من حوله من الأمراء والقواد قسطا من ذلك ، ولذلك حلا لبعض الشعراء أن يصوروا السلاطين بالأهلة بين النجوم كما نرى فى قول محي الدين بن عبد الظاهر :

إذ تبدى السلطان بين نجوم من بنى الترك يعشقون المنونا
يركضون الجياد فى حلبة النصر فأكرم بمثلهم راكضينا (١)

كذلك وصفوا لواءه المنصور تحيط به الكتائب كأنها البحر تتلاطم أمواجه :

كتائب كالبحر الخضم ، جيادها إذا ما تهادت ، موجه المتلاطم
تحيط بمنصور اللواء مظفر له النصر والتأييد عبد وخادم(٢)

ووصفوه بين جنوده الذين لا تبعد عليهم مسافة . ولا تعجز خيولهم عن إرتقاء صعب من الصعاب :

«وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد أحرسته عيونها ، وتلك المخاوف كلهن أمان ، وقد اتخذ من إقدامه عليها خير حبائل ومن مفاجآته لها أمد عنان وفى خدمته جنود لا تستبعد مفازة ، وكم راحت وغدت وفى نفوسها للأعداء حزازة فامتطوا بخيولهم من جبال لبنان تيجاناً لها صاغتها الثلوج» . (٣)

وكذلك كان حرص الأدباء على إظهار السلطان لا يميز نفسه عن جنوده فهو يعمل معهم ، ويتقدم مع من يتقدم منهم :

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ / ص ٣٢ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٧ / ص ١٧٠ .
(٣) نهاية الأرب جـ ٥ / ص ١٥٨ .

«ومولانا السلطان لا ترى جماعة مقدمة ولا متقدمة إلا وهو يرى بين أولئك» . (١)

ولعل ذلك مرجعه إلى أن المماليك كانت تحكمهم فكرة الزمالة أو - (الخشداشية) كما سلف القول ، وهذا يعطينا التفسير لما إتسم به الحديث عن البطولة من صفة الجماعية التى لاحظها بعض الباحثين (٢) ، وقد مر بنا فى نصوص هذا الفصل ما مدح به العزازى بطولة الصالحية خشداشية بيبرس ، والأشرفية مماليك الأشرف بن قلاوون .

كذلك صور لنا الأدباء اعتزاز المماليك بانتمائهم إلى الجنس التركى ،وهذا يعكس نزعة عنصرية شعوبية لدى المماليك ، فلم يكن الشعراء يكررون فى قصائدهم وصف المماليك بالترك إلا إرضاء لرغبة القوم ، وإشباعاً لنزعتهم العنصرية .

يقول شهاب الدين محمود :

من الترك أما فى المغانى فإنهم ... شموس وأما فى الوغى فضراغم(٣)

ويقول :

جيش من الترك ترك الحرب عندهم ... عار وراحتهم ضرب من الوصب(٤)

ويقول العزازى :

جيش من الترك فى أدراعهم أسد ... لها السيوف نيوب والقنا أجم (٥)

(١) نهاية الأرب ﺟ ٥ / ص ١٥٩ .
(٢) مطالعات فى الشعر المملوكى - بكرى شيخ أمين ص ١٢٨ .
(٣) النجوم الزاهرة ﺟ ٧ / ص ١٧٢ .
(٤) تاريخ ابن الفرات ﺟ ٨ / ص ١٨٦ .
(٥) ديوان العزازى ص ٧٠ .

ويقول البوصيرى :

ترك تزينت الدنيا بذكرهم ... فهم لها الحلى إن غابوا وإن حضروا (١)

وحلا لبعض الشعراء أن يفضلوهم على فرسان العرب فى الشجاعة كما مر بنا من قول العزازى :

فى مسلك لو سرى السليك به ... لضل فيه أو عنتر جنبا

وكقوله :

من كل أغلب لو رآه مقبلا ... زيد الفوارس فرعنه مدبرا
إن شد كان أشد منه عزيمة ... وأكر إن حمى الوطيس وأصبرا

كذلك أحب المماليك أن يوصفوا إلى جانب الشجاعة بالجمال ، وكأن كلا منهم لم يزل ذاكرا لذلك اليوم الذى عرض فيه فى سوق النخاسة ، وكان الجمال أحد الأمور الرئيسية فى تقويمه ، لذلك لا نعجب إذا وصفهم شهاب الدين محمود بأنهم شموس المغانى ، أو بأنهم غصون البان فوق السروج ، ووجوههم كالبدور .

فى كل سرج غصن بان مهفهف ... وفى كل قوس مد ساعده بدر (٢)

ولا عجب أن يقول العزازى فى قلاوون :

وما البدر إلا وجهه وضياؤه ... وما البحر إلا كفه وسماحها (٣)

ومرة أخرى يصور العزازى جنود الأشرف خليل بأنهم الأقمار فى ليل النقع :

---

(١) الديوان ص ٨٩ .
(٢) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٤١٥ .
(٣) الديوان ص ٧٤ .

وتسارعت نحو الهياج وأسفــرت   تحت العجاج فخلت ليلا مقمرا(١)

ولعل فى هذا ما يكشف عن سر تشبيه ابن الزكى لهم بالظباء فى قوله :

«وقد أحدقت بهم كماة الترك كأنها ظباء بأعلى الرقمتين قيام» (٢) وفى هذا أيضاً ما يكشف عن تشبيه ابن دانيال الموصلى لهم بالحور والولدان والحديث عن حسنهم الفتان فى أبياته التى سبق ذكرها .

هذا حديث البطولة نختتم به هذا الفصل الذى خصصنا به الجهاد فى هذا العصر ، ومهما كان من أمر فقد استطاع الأدب أن يعطينا صورة واضحـــة القسمات لمعارك هذا العصر وحروبه ، ومنطلق هذه الحروب وروحها .

---

(١) الديوان ص ٧٥ .

(٢) نهاية الأرب ج ٥ / ص ١٥٢ .

الفصل الثالث

الثروة وإنهيار القيم

عاش المماليك وأعوانهم من رجالات الدولة والقائمين على الأمر فيهاطبقة مستعلية ، تتفيأ ظلال النعيم ، وتلهو بالمال تبعثره يمنة ويسرة ، بينما الشعب الكادح يرزح فى أغلال الفقر ، ترهقه الضرائب ، وتثقل خطوه أعباء الحياة وتفصل بينه وبين الأمل حواجز من اليأس والقهر .

وحينما قسم المقريزى الناس فى مصر سبعة أقسام : أعلاها أهل الـدولة وأدناها ذوو الحاجة والمسكنة ، وبين هؤلاء وأولئك أناس مختلفو الدرجات ، متباينو المراتب من تجار وباعة وسوقه وفلاحين وعلماء . (١) إنما كان معياره فى ذاك الثروة وتوزيعها ، أو قل سوء توزيعها ، فهى تكاد تنحصر فى أيدى قلة هم أهل الدولة ، أما من دون ذلك فهم يقتاتون بالفتات ، وتختلف درجاتهم بمقدار ما استحوزت عليه كل طبقة من فضلة الكئوس ، وبقايا الموائد .

والمقريزى له عذره فى اتخاذه الثروة معيارا لتقسيمه ، فالحقيقة أن المماليك كانوا لا يهتمون إلا بها ، وما من سبيل توصلهم إليها إلا سلكوها ، فأسرفوا فى فرض الضرائب ، وفتحوا خزائنهم للرشا ، لم يتعفف عنها صغير منهم أو كبير (٢) ، أما أنات المحرومين ، وصرخات المعوزين فلا تقلق لهم بالا ، ولا

---

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧٢ .

(٢) انظر البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك د. احمد عبد الرازق احمد (الكتاب كلـه إحصاء لما اخذ من رشا) .

تحرك منهم ساكنا ، وحسبهم ما ينعمون به من رغد الحياة ، وما يملأ خزائنهم من ذهب وفضة ، وما تعج به قصورهم من جوار وعبيد . وإن شئت فاقرأ فى خطط المقريزى عن ثروات الأمراء ، ولتأخذ مثلا لذلك «قوصون» فتى السلطان الناصر محمد . وحسبك أن تعلم أنه بعد أن نهبت العامة داره انحط سعر الذهب حتى بيع المثقال بأحد عشر درهما لكثرته فى أيدى الناس . (١) وما قوصون إلا أمير من أمراء الناصر محمد بن قلاوون فما ظنك بثروة السلاطين

إنه المال — إذن — ما كان يحرص عليه هؤلاء ، ولهم فى كل إقليم عامل موكل بجمعه ، يكلف الناس فى ذلك من أمورهم شططا حتى يملأ بيت المال وخزائن الأمراء .

ونرى فى أدب هذا العصر صورا لهذه الأموال التى كانت تتدفق على بيت المال من كد الفلاحين وعرقهم ، يقول البوصيرى فى مدح عز الدين أيدمر الذى وكل بإقليم المحلة :

ملأت فيها بيوت المال من ذهب ... وفضة صبرا يا حبذا الصبر
والمال يجنى كما يجنى الثمار بها ... حتى كأن بنى الدنيا لها شجر
وتابعت بعضها الغلات فى سفر ... بعضا إلى شون ضاقت به الحدر
وسيقت الخيل للأبواب مسرجة ... لم تحص عدا وتحصى الأنجم الزهر
والهجن تحسبها سحبا مفوفة ... فى الحق منها فضاء الجو منحصر
وكل مقترح ما دار فى خلد ... يأتى إليك به فى وقته القدر
وما هممت بأمر غير مطلبه ... إلا تيسر من أسبابه العسر
والعاملون على الأموال ما علموا ... من أى ما جهة يأتى وما شعروا

---

(١) انظر الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ٤٨٢ .

وما أرى بيت مال المسلمين درى من أين تأتى له الأكياس والبدر (١)

والبوصيرى كشاعر مادح مسترفد لاشك يمدح هذا الأمير بما يعلى من قدره عند أولى الأمر . وهل يعلى من قدر أمير عندهم شىء أفضل من أن يحسن عمله فى جمع المال ؟ ! ... ثم أرأيت إلى هذا المال المتدفق ، وإلى هذه الغلات التى يتابع بعضها بعضا ، وإلى هذه الخيل المحملة التى تفوق النجوم عدا ، وإلى هذه الهجن التى يضيق بها الفضاء ؟ ! .. كل هذه أموال تتدفق لتستحيل بعد ذلك إلى مجالس قصف ولذة ، لقد صدق البوصيرى حين شبه الناس بالشجر ، فهكذا هم فى نظر الحكام ولا يزيدون .

وإذا كان البوصيرى قد ركز على مقدار المال وكثرته وكأنه بهر به ، فابن دانيال الموصلى يعطينا صورة حية للكيفية التى كان يتم بها جمع هذا المال . وكان ابن دانيال يعمل معاونا لأحد الأمراء الموكلين بجمع الغلال ، ونورد له هذه القصيدة التى يصور فيها سفرة من أسفاره فى سبيل ذلك :

صاح لولا عناء قبض الغلال ما قبضنا فى هذه الأغلال
لا ولا كنت قائماً فى هجير ذا ضلال عن جلسة فى الظلال
كل يوم لى سفرة ورحيل للقرى مثل رحلة الرحال
فوق جحشى الخرج المشاق كأنى بائع العطر للنسا بالنخال
هو قبض لكنه قبض قلب وهو شغل لكنه شغل بال
فى خمول لو حازه أهل قارون لكدوا جميعهم بالمخالى
يا لها سفرة بها سود الرحمن عرضى وصورتى وقذالى
ساء فيها خلقى وخلقى إلى أن لو رآنى العدو يوما رثى لى

(١) الديوان ص ٩٣ ، ٩٤ .

ثم من بعد ذا وذا جعلونى ‏ ‏ شاهداً فى ديوانهم بالمحال
عند من ترعد الفرائص منه ‏ ‏ وتسير الرجال سير الجبال
كيف لا أنكر الشهادة من قو ‏ ‏ م أرادوا صفعى ونتف سبالى
ورفيقى فيها الدلاصى دلو الدين انكو صطل من الأصطال
لو أتوه بخط قفط بن نوح ‏ ‏ قال : هذا خطى وهذا مقالى
بين قوم لو قلت : إنى ابن سينا ‏ ‏ ضرطوا فى شوارب الغزال
منهم السيد الكبير كثير ‏ ‏ وسويد وزعبر بن الخيال
ذا ينادى قال الأمير اطلبوا الديوان واستعجلوا على الكيال
فنوافى اليه وهو من العجب بأنف على الوزارة عال
فينادى حجابه اقبضوا لا تنقصوا دون قبض رسم الموالى
واحذروا أن ينظفوا غلة قط بلوح فى الريح أو كربال
فأنادى ان كان لابد من ذا ‏ ‏ فاقبضوها بطارة الزبال
وتوقوا عصف الرياح لكيلا ‏ ‏ تجدوها كدارس الأطلال
عمل لا أحصل القوت فيه ‏ ‏ قط إلا بحيلة البطال
وبودى أنى خلصت كفافاً ‏ ‏ منه يوما ولا على ولا لى (١)

وتلتمس لابن دانيال العذر فى شكواه من هذا العمل ، فهو يجنى لغيره ، ولعله رق لما يراه من بؤس الناس الذين ترتعد فرائصهم خوفا ورعبا ، ولعله — أيضا — ضاق لما يراه من عنت رفقائه وادعائهم على الناس ، ولعلنا لحظنا أنه أعطى هؤلاء الرفقاء أسماء تجسد ما هم عليه من سوء فى الخلق والخلقة فمنهم الدلاصى دلو الدين ، وزعبر ، وسويد ، وهم أناس لا يقيمون لغير المال

---

(١) التذكرة الصفدية جـ ١٤ / ص ٨٧ ، ٨٨ .

وزنا ، وعلم ابن سينا لديهم أو الغزال لا يساوى شيئاً .

ولاشك أن ابن دانيال — وهو الفنان الشاعر — كان ساخطا فى أعماقه على هذا العمل لدرجة سخط فيها على نفسه .

يا لهـا سفـرة بهـا سود الرحمـــن عرضـى وصـــورتى وقـــذالى
ســاء فيهـــا خلـــق وخلـــق إلى أن لـــو رآنى العـــدو يومـــا رثى لى

إن هذا السخط فى أعماق ابن دانيال يستحيل إلى تهكم مرير ينفثه ساخرا من هذا الوالى المتعنت المتعالى الذى كل همه أن يطاع أمره ولو كان خاطئا . ولو جمعت الغلال «بطارة الزبال» كما يقول ابن دانيال فى تعبيره الشعبى الساخر .

وطبيعى أن يتفشى هذا الشره ، وتسرى عدواه من الكبير إلى الصغير ، فيصبح كل من ولى أمرا من أمور الناس وقد أعمل يده فى السلب والنهـب مستغلا منصبه ، محتميا به ، لا يردعه خلق ، ولا ترفعه همة .

ونقع فى أدب هذه الحقبة على صور صارخة من جشع العمال والمستخدمين حتى بين أولئك الذين فرض فيهم العفاف والنزاهة كالقضاة ، والقائمين على الحسبة ، وإليك ما قاله الشارمساحى فى حال «القزوينى» قاضى القضاة وحال أولاده ، إذ جاروا على أموال الأوقاف ، وأنفقوها فى ملذاتهم بينما الشعب يعانى ما يعانى من الجوع : (١)

يموت عديم القـوت بالجوع حسرة ويشبع بالأوقاف أهـل الطيالـــس
فما أحـــد إلا وحشو حســــابه من الغبن نار دونها نـار فـارس

(١) انظر تفصيل قصة القزوينى فى «تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده» — الشجاعى ص ٢٠ ط فيسباد ١٩٧٨ م .

وهـذا ابـن قاضى المسلمين موكل ... بعلـق وراح فى ظـلام الحنـادس
وما ذاك إلا أن والـــده امـــرؤ ... جنـوح لمـا يرضى به غـير عابس
وان رام منه مـال وقف يضيعـــه ... فما هـو للأمـوال عنـه بحابـس
ونعـذر نجـلا هـام فى زمن الصبا ... بكل صبى فاتر الطـرف ناعـس
فـكم صاد غزلانا مـن الـترك دونها ... فـوارس حـرب يا لهـا من فوارس
وكم بـاع أمـوال اليتـامى لقربهـا ... توسـد للمـردان فـوق الطنـافس
فسل مـودع الأيتام ما صنعـوا بـه ... وقد كنسوه عامـدا بالمكانـس
وجامع طولـون فما كـان وقفـه ... له إذ أتاه غير لحسة لا حس (١)

أما القائمون على الحسبة ، فحسبنا أن نقرأ ما كتبه المقريزى فى وصف نجم الدين محمد الطنبدى الذى ولى حسبة القاهرة فى دولة حاجى بن شعبان لنعلم إلى أى حد صارت الأمور ، وأصبح بعض هؤلاء القائمين على أمور الدين لا يفهمون منه إلا لبس الجبة وإرخاء العذبة ، وضرب عباد الله بالدرة ، أما ما سوى ذلك فيد مفتوحة ، وفم يأكل السحت . يقول المقريزى :

«كان شيخا جهولا ، وبلهاناً مهولا ، سيء السيرة فى الحسبة والقضاء ، متهافتاً على الدرهم ولو قاده إلى البلاء ، لا يحتشم من أخذ البرطيل والرشوة ، ولا يراعى فى مؤمن إلا ولا ذمة ، قد ضرب على الآثام ، وتجسد من أكل الحرام ، يرى أن العلم إرخاء العذبة ، ولبس الجبة ، ويحسب أن رضا الله — سبحانه — فى ضرب العباد بالدرة وولاية الحسبة ، لم تحمد الناس قط أياديه ، ولا شكرت مساعيه ، بل جهالاته شائعة ، وقبائح أفعاله ذائعة» . (٢)

وفى أبيات لقطينة الشاعر الأسفونى نرى صورة أخرى من صور الاغتصاب

(١) الدرر الكامنة ﺟ ١ / ص ١٧٢ .
(٢) الخطط ﺟ ٣ / ص ٢٢٧ .

والسطو ، فإنه يصف ما ارتكبه الشهود وأمين الحكم فى أسفون — وهم الذين وكلوا برعاية العدالة — من اغتصاب بيت زوجه ، ويجأر قطينة شاكيا لوالى قوص ، مطالبا بإعادة الحق لأصحابه :

قهرت بالجانب البحرى طائفـة فـول وجهك يا مـولاى قبليهـا
وانزل بأسفون واكشف عن قضيتها وكف كف شهود أصبحوا فيها
عنـدى يتيمـة تركى ظفـرت بها لهـا من الله جـدران تواريهـا
تعاونـوا مع أمين الحكم واغتصبوا أخفوا وثائق فحوى خطهم فيها
حتى أبيعت عليها نصف حصتها ما حيلتى وأمين الحكم شاريهـا
ما زلت أفحص عن تلك الوثائق يا مولاى حتى أبان الله خافيهـا
وها هى الآن عندى وهى ثابتـة فامض الولاية فيما كان يؤذيها (١)

وتصدى البوصيرى للمستخدمين كاشفا مخازيهم ، معريا أساليبهم فى نهب الأموال ، وفى ديوانه قصائد عدة يتناول فيها هذه الظاهرة ، ونجتزىء بقصيدته النونية التى تصور أخلاق المستخدمين وجناياتهم على الناس ، يقول البوصيرى

ثكلـت طوائـف المستخدمينا فـلم أر فيهـم رجـلا أمينـا
فخـذ أخبارهـم عـنى شفاهـا وأنظـرنى لأخـبرك اليقينـا
فقـد عاشرتهـم ولبثـت فيهـم مـع التجريب من عمرى سنينـا

ثم يمضى البوصيرى فيحدثنا عن تلك الطائفة التى حوتها بلبيس ، ويصفهم باللصوص يفوق الواحد منهم مئات ممن نعرف ، ويعدد من أسمائهم فريجيا والصنى وأبا يقطون والنشو :

---

(١) الطالع السعيد للإدفوى ص ٢٢٨ .

حوت بلبيس طائفة لصوصا ... عدلت بواحد منهم مئينا
فريجي والصنى وصاحبيه ... أبا يقطون والنشو السمينا
فكتاب الشمال هم جميعا ... فلا صحبت شمالهم اليمينا

ويصور البوصيرى كيف يستحيل هذا المال المنهوب إلى ثياب حريرية ، وخمور جيدة ، ومردان ملاح :

وجل الناس خوان ولكن ... أناس منهم لا يستترونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرا ... ولا شربوا خمور الأندرينا
ولا ربوا من المردان قوما ... كأغصان يقمن وينحنينا

ويبين البوصيرى كيف أن هؤلاء العمال سدوا على الأحرار السبيل لتحصيل أموال إقطاعاتهم ، بحيث صار الأمير يبيع إقطاعه لهم بالربع ، ولا يجديه دون ذلك ما يقدمه لهم من برطيل :

ولم ينفعهم البرطيل شيئاً ... وما ازداد وابه إلا ديونا
كأنهم نساء مات بعل ... له ولد فورثن الثمينا
وقد تعبت خيول القوم مما ... يطوفون البلاد ويرجعونا
عذرتهم إذا باعوا حوالا ... تهم بالربع للمستخدمينا
وأعطوهم بها عوضاً فكانوا ... لنصف الربع فيه خاسرينا

ثم أنظر إلى «ابن قطية» وكيف يصوره البوصيرى ، إنه لا يترك بلدا إلا بعد أن ينهب مالها ، ويترك جرونها خواء ، وكل همه تحصيل الذهب ، هذا الذى كان التبن مطلبه قبل ذلك :

وما ابن قطية إلا شريك ... لهم فى كل ما يتخطفونا
أغار على قرى فاقوس منه ... بجور يمنع النوم الجفونا
وجاس خلالها طولا وعرضا ... وغادر عاليا منها حزونا
فسل «أذنين» «والبيروق» عنه ... ومنزل حاتم وسل العرينا

فقد نسف التلال الحمر نسفا ولم يترك بعرصتها جرونا
وصير عينها حملا ولكن لمنزله وغلتها خزينا
وأصبح شغله تحصيل تبر وكانت راؤه من قبل نونا (١)

وتعد هذه القصيدة — بحق — وثيقة دامغة توضح إلى أى مدى وصلت أخلاق العمال والمستخدمين فى عصر البوصيرى .

ودون هذا التصوير المسهب للبوصيرى نجد أبياتا للوداعى يحذر السلطان من ابن نوح الذى كان مرتشيا ظالما :

قل للمليك أمده رب العلا منه بروح
إن الذى وكلته لا بالنصيح ولا الفصيح
وهو ابن نوح فاسأل القرآن عن عمل ابن نوح (٢)

والوداعى قد اكتفى فى أبياته بالإشارة الخاطفة ، والتلميح الذكى ،ولعله آثر ذلك تأدبا فى مخاطبة السلطان فهو أدرى بمن يولى ، وهو يعرف ابن نوح معرفة ربما تفوق معرفة الوداعى .. ولكنه المال .. ! !

وأصبحت الرشوة عرفا سائدا ، ولا غرابة فى ذلك ، طالما أصبح المال هو المطلب الأسمى ، والقيمة العليا ، وأصبح الدرهم شفيعا لا يمكن رده ، وبلسما شافيا لكل جرح على حد تعبير أثير الدين أبى حيان :

أتى بشفيع ليس يمكن رده دراهم بيض للجروح مراهم
تصير صعب الأمر أهون ما ترى وتقضى لبانات الفتى وهو نائم(٣)

وأصبح الدرهم — أيضا — هو الطريق إلى قلوب الأمراء ، وإلى أبوابهم ،

---

(١) القصيدة كاملة بديوان البوصيرى من ص ٢١٨ — ٢٢٣ .
(٢) الوافى بالوفيات جـ ٣ / ص ٢٣٧
(٣) الدرر الكامنة جـ ٥ / ص ٧٢ .

وانظر إلى هذه السخرية المرة لسراج الدين الوراق ، وقد أراد الدخول على أحد الأمراء .

قلت لبواب على بابه مشوه الخلقة والشكل
خذلى عليه الاذن قال استرح ذا باب خذ منى ولا خذ لى(١)

ويسخر كمال الدين الإدفوى من الزين الدمشقى الذى ولى تدريس الحديث وهو من الجهل بمكان ، كل ما هنالك أنه قدم الشفيع الذى لا يمكن رده :

بالجاه تبلغ ما تريد فإن ترد رتب المعالى فليكن لك جاه
أو ما ترى الزين الدمشقى قد ولى درس الحديث وليس يدرى ما هو(٢)

وأمر طبيعى أن تنهار كل القيم طالما الحال على ذلك ، فيعتلى المناصب من لا يستحقها ، ويتقدم من لا يستحق التقديم ، ويصبح الناس فى سباق ، يأكل بعضهم لحم بعض ، وكل يريد أن يهدم الآخر ليعلو هو ، لا وازع من الدين يمنع ، ولا تورع عن الحرام يردع . ولعلنا نحس بأصداء هذه المحنة الأخلاقية فى قول ابن دقيق العيد :

قد جرحتنا يد أيامنا وليس غير الله من آسى
فلا ترج الخلق فى حاجة ليسوا بأهل لسوى الياس
ولا تزد شكوى إليهم فما معنى لشكواك إلى قاسى
فان تخالط منهم معشرا هويت فى الدين على الراس
يأكل بعض لحم بعض ولا يحسب فى الغيبة من باس
لا ورع فى الدين يحميهم عنها ولا حشمة جلاس
لا يعدم الآتى إلى بابهم من ذلة الكلب سوى الخاسى

---

(١) سلوك السنن ، ابن أبى حجلة لوحه ٤ .
(٢) الدرر الكامنة جـ ٣ / ص ٢٣٨ .

فاهـرب مـن النـاس إلى ربهـم لا خـيـر فى الخلطة بالنـاس (١)

وفى أبيات أخرى له نحس بآثار هذه المحنة ، وكيف استشرى أمرهـا ، فاضطربت المعايير ، وأصبح لا يقدم إلا صاحب المال ، أما أهل العلم فلا مكان لم فى الساحة :

يقولون لى : هلا نهضت إلى العـلا فـما لـذ عيش الصابر المتقنـع
وهـلا شددت العيس حتّى تحلهـا بمصر إلى ظل الجناب المرفـع ؟
ففيهـا من الأعيان من فيض كفـه إذا شـاء روى سيله كـل بلقـع
وفيهـا قضـاة ليس يخـفى عليهم تعين كـون العـلم غير مضيـع
وفيها شيـوخ الدين والفضل والألى يشير إليهم بالعـلا كـل إصبـع
وفيها ، وفيها ، والمهـانة ذلـة فقم واسع واقصد باب رزقك واقرع
فقلت نعم أسعى إذا شئت أن أرى ذليـلا مهاناً مستخفاً بموضعـى
وأسعى إذا ما لذ لى طـول موقفى على باب محجوب اللقـاء ممنـع
وأسعى إذا كـان النفـاق طريقتى أروح وأغدو فى ثياب التصنـع
وأسعى إذا لم يبـق فى بقيـة أراعى بها حق التقى والتـورع (٢)

أرأيت إلى هذا الانهيار الأخلاقى الذى يتحدث عنه ابن دقيق العيـد ، الاستخفاف بالعلم وأهله ، النفاق ، الرياء ، تحلل الدين وانفصام عراه ، وما كل ذلك إلا لأن المال وضع على الرأس فى قائمة القيم ، وشغل الناس بالدنيا ، وألهتهم المادة يحصلونها بأى وسيلة ومن أى طريق .

ولا نترك ابن دقيق العيد دون أن نورد له هذه الأبيات التى تصور انقلاب الموازين ، وتشعرنا بما كان يعانيه الرجل من ألم يحاول أن يتعزى عنه :

(١) الطالع السعيد / ص ٥٨٩ ، ٥٩٠ .
(٢) معيد النعم ومبيد النقم للسبكى / ص ٧٠ ، ٧١ .

أهل المناصب فى الدنيا ورفعتها ... أهل الفضائل مرذولون بينهم
قد أنزلونا لأنا غير جنسهم ... منازل الوحش فى الإهمال عندهم
فما لهم فى توقى ضرنا نظر ... ولا لهم فى ترقى قدرنا همم
فليتنا لو قدرنا أن نعرفهم ... مقدارهم عندنا أو لو دروه هم
لهم مريحان من جهل وفرط غنى ... وعندنا المتعبان العلم والعدم (١)

وترددت هذه المعانى فى شعر الشعراء ، فنرى القيراطى يصور فى أسى ضياع العلم والعلماء ، بينما يتقدم الجهلاء ويفوزون برغد العيش :

كم من فتى بالعلم حال غدا ... معطلا من رتبة عاليه
وعاطل من جلب العلم فى ... حال بأنواع الحلى حاليه
وفرقة راكبة شهبها ... لجهلها عدت من الماشيه(٢)

وإذا كنا أحسسنا الألم يحتمل فى شعر ابن دقيق العيد والقيراطى وهما يريان إهمال العلم ورجاله ، فإنا نرى هذا الألم ينقلب سخرية دامعة عند الجزار حينما رأى أنه سلك سبيل العلم ، وأضاع عمره فى فهم غوامضه ، وكشف معمياته ، ثم لم يجن من وراء ذلك إلا الخمول ، وإهمال الذكر :

قرأت النحو تبيانا وفهما ... إلى أن كعت منه وضاق صدرى
فما استنبطت منه سوى محال ... يحال به على زيد وعمرو
فكان النصب فيه على نصبا ... وكان الرفع فيه لغير قدرى
وكان الخفض فيه جل حظى ... وكان الجزم فيه لقطع ذكرى(٣)

وتباينت مسالك الأدباء فى معالجة هذه المحنة الأخلاقية ، فمنهم المنكر

---

(١) معيد النعم ص ١٥٥ .
(٢) الديوان ص ١٨٦ .
(٣) فوات الوفيات / جـ ٤ ص ٢٨٥ .

المتشدد ، ومنهم المحلل الباحث عن العلل والأسباب ، ومنهم الناصح ،ومنهم اليائس ، ومنهم الساخر . وقد يسلك الأديب كل هذه الدروب فهو مـــرة منكر متشدد ، وهو مرة ناصح ، وهو ثالثة ساخر حسبما تقتضيه الظروف ، وتتطلبه الأحوال .

فالشيخ تقى الدين السبكى يقف موقف المنكر المتشدد ، وهو ينظر للأمر من منظور دينى ، فيرى أن هذه النقم التى تحل بالمسلمين إنما ترجع لانحرافهم عن الجادة ، وتكالب أولى الأمر على الدنيا ، وجريهم وراء المتع العاجلة من الملبس والزينة بينما الشعب يتضور جوعا ، وهو فى تناوله للأمور يبدأ برسم الصورة المثلى لما ينبغى أن يكون ، ثم يتبعها بما وصل إليه الأمر من انحراف ، محذرا من العاقبة الوخيمة ، والمصير السيء . فيقول مثلا فى أمر السلطان :

«ومن وظائفه أن ينظر فى الإقطاعات ، ويضعها مواضعها ، ويستخـدم من ينفع المسلمين ، ويحمى حوزة الدين ، ويكف أيدى المعتدين ، فـــإن فرق الإقطاعات على مماليك اصطفاها ، وزينها بأنواع الملابس والزراكش المحرمة ، وافتخر بركوبها بين يديه ، وترك الذين ينفعون الإسلام جياعا فى بيوتهم ثم سلبه الله النعمة ، وأخذ يبكى ويقول : ما بال نعمتى زالت ، وأيامى قصرت ؟ فيقال له : يا أحمق أما علمت السبب ؟ أولست الجانى على نفسك؟»

ويشدد السبكى النكير على ما يراه من ألوان الانحراف كتسخير إمكانات الدولة للأهواء الشخصية ، ونراه يعرض لما يلجأ إليه الحكام من استخدام خيول البريد فى جلب الجوارى والمماليك الملاح والمغنين ، أو فى السعى لإيقاع الأذى بإنسان مظلوم فيقول :

«والآن أكثر ما تهلك خيول البريد وتساق للأغراض الدنيوية من شراء

(١) معيد النعم ص ١٧ .

المماليك ، وجلب الجوارى والأمتعة ، وإذا ركب الفقيه فرساً أنكر عليه ذلك وقيل : أخطأ السلطان أو نائبه فى إركابه ، فإن البريد لا يساق إلا لمهات السلطنة كأنهم يعنون بمهات السلطنة ما اعتادوا من شراء مملوك مليح ، او استدعاء مغن حسن الصوت ، أو خراب بيت شخص أنهى عنه مالا صحة له» . (١)

ويعرض السبكى لما وصل إليه حال الحكام من الاستلانة للشهـوات المحرمة ، والرغبات الدنسة ، ومثال ذلك ما يتخذه السلاطين من «الجمدارية» الذين وكل إليهم السلاطين أمر الثياب ، ولهم فيهم مآرب أخرى . يقول :

«وأكثر ما يكونون صبيانا ملاحا مردا يتعاناهم الملوك ، وكذا الأمراء ، يكونون بالنوبة مع المخدوم ، يلازمونه حتى وقت نومه ، وقد تناهت الرغبة فيهم لإستيلاء شهوة المرد على قلوب أكثر أهل الدنيا ، وصارت الجمدارية تتنوع فى الملابس المهيجة للشهوات البشرية ، ويتزينون فيربون فى ذلك على النساء» . (٢)

وينظر السبكى مستاء وهو يرى ما يضيع من أموال المسلمين فيما يفتّن فيه رجال الدولة من تذهيب الأطرزة ، وزخرفة البيوت ، وهم فى سبيل ذلك يحتجرون كثيرا من المال كان يمكن أن يعيش به الناس فى رخاء ، ويشتد غضب السبكى فيعلن أن هذه سبيل الهلاك ، وأن من يفعل ذلك لا ينبغى أن يتوقع من الله نصرا أو عونا . يقول :

«ومن قبائحهم ما يذهبونه من الذهب فى الأطرزة العريضة ، والمناطق وغيرها من أنواع الزراكش التى حرمها الله — عز وجل — وزخرفة البيوت سقوفها وحيطانها بالذهب ، وقد لعن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من

(١) معيد النعم ص ٣٢ .
(٢) معيد النعم ص ٣٥ .

ضيق سكة المسلمين . وأنت إذا اعتبرت ما يذهب من الذهب فى هذه الأغراض الفاسدة تجده قناطير مقنطرة لا يحصيها إلا الله تعالى ، فإنه لابد فى كل منطقة أو طراز ونحوه من ذهاب شىء — وإن قل جداً — تأكله النار ، وهو فى الأبنية أكثر . فإذا ضممت ذلك القليل إلى قليل آخر على اختلاف فى البقاع والأزمان لم يحص ما ضاع من القناطير المقتنطرة من الذهب إلا الله تعالى ، ثم القدر الذى يسلم ولا يضيع يصير محبوسا عندهم ، أطرزة ومناطق ، وسلاسل ، وكنابيش ، وسروجا ، وغير ذلك من المحرمات المختلفة ، ولو كان مضروبا سكة يتداوله المسلمون لانتفعوا به ، ورخصت البضائع ، وكثرت الأموال ، ولكنهم احتجروا ، وفعلوا هذه القبائح ، وطلبوا من الله — تعالى — أن ينصرهم» . (١)

وينتقد السبكى بشدة ما يراه من صنيع كتاب الديوان ، وما يذهبون إليه من التشبه بالمماليك فى ملابسهم ، وفى تزيين أقلامهم ودويهم بالذهب ، وما ينتهجون فى وظائفهم من تقديم العون للمماليك على ظلم الناس ، ويحذر السبكى من عاقبة هذا البغى ومآله :

«فإذا رأيت ديوانا من وزير أو غيره يخرج من بيته بعد أن امتلأ باطنه بالحرام ، وهو لابس الحرام ، وجلس على الحرام ، وفتح الداوة الحرام ، وأخذ يمد الأقلام للحرام ، ثم عاقب للحرام ، أفليس حقا إذا رأيته بعد زمن يسير مضروبا بالمقارع ، يطاف به فى الأسواق ويجنى عليه» . (٢)

والأمر الذى أغضب السبكى غضبا شديداً هو ما رآه من الزراية بأهل العلم واستكثار الأرزاق عليهم ، والحط من شأنهم ، وقد مر بنا فيا عرضناه

---

(١) معيد النعم ص ٤٩ ، ٥٠ .
(٢) معيد النعم ص ٣٠ .

من كلام السبكي إنكاره على المماليك تركهم العلماء يتضورون جوعا ، واستياؤه لما يلحظه من استكثار المماليك على عالم من العلماء أن يركب خيول البريد فى مهمة دينية ، وهو لا يفتأ فى كتابه «معيد النعم ومبيد النقم» يلح على هذه الظاهرة ويشير إليها من آن لآخر ، مبينا أن الزراية بالعلم وأهله من أكبر قبائح الحكم المملوكي . فيقول مستنكرا متهكما :

«ومن قبائح كثير من الأمراء أنهم لا يوقرون أهل العلم ، ولا يعرفون لهم حقوقهم ، وينكرون عليهم ما هم يرتكبون أضعافه . وما أحمق الأمير إذا كان يرتكب معصية ووجد فقيها يقال عنه مثلها أن ينتقضه ويعيبه ، وما له لا ينظر إلى نفسه مع ما خوله الله تعالى من النعم ! ! أما علم أن القبيح عند الله — تعالى — حرام بالنسبة إلى كل أحد» . (١)

ويعود فى موضع آخر فيشير إلى استكثار الأرزاق على العلماء ، ويحذر رجال الدولة من مغبة هذا الأمر ، ومن غضب من الله يحل بهم ، فيقول :

«ومن قبائحهم استكثارهم الأرزاق — وإن قلت — على العلماء ، واستقلالهم الأرزاق — وإن كثرت — على أنفسهم . ورأيت كثيرا منهم يعيبون على بعض الفقهاء ركوب الخيل ، ولبس الثياب الفاخرة . وهذه الطائفة من الأمراء يخشى عليها زوال النعمة عن قريب ، فإنها تتبختر فى أنعم الله مع الجهل ، والمعصية ، وتنقم على خاصة خلقه يسيرا مما هم فيه ، أفما يخشون ربهم من فوقهم ! ولو اعتبر واحد منهم رزق أكبر فقيه لوجده دون رزق أقل مملوك عنده» . (٢)

ولا ريب — بعد ذلك — أن السبكي ، فيما عرضه من صور الفساد فى

(١) معيد النعم ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) معيد النعم ص ٤٩ .

عصره ، كان يفطن إلى موطن الداء ، ومكمن العلة ، وكان يدرك أن الإقبال على الدنيا ، والنهم إلى المال هما آفة الأخلاق ، وعلة انقلاب المعايير واضطراب القيم ، كما أنه كان يفطن لما للقدوة السيئة من أثر فى تزيين القبح ، وجعله وكأنه العرف المتبع .

أما المقريزى فإنه يقف موقف المحلل ، الباحث عن أسباب العلة ، المشخص لأعراضها ، تعينه على ذلك عقلية علمية تجنح إلى الهدوء ، وتميل إلى الموضوعية وتنأى — ما وسعها — عن المؤثرات العاطفية ، وتختار من الألفاظ أدقها ، وأكثرها تحديدا .

ويحدد المقريزى أسباب العلة فى ثلاثة أشياء لا رابع لها — على حد قوله — أولها الرشوة ، وثانيها غلاء الأطيان ، وثالثها رواج الفلوس ، وقلة ما بأيدى الناس من الدرهم والدينار .

وإذا تتبعنا المقريزى فى عرضه لهذه الأسباب ، وجدنا أنها جميعا تنبع من منبع واحد هو الشره للمال ، والرغبة فى الاستكثار منه ، والعمل على احتجار الذهب والفضة ، وسبكها حليا وأساور ، بدلا من أن يكونا دراهم ودنانير يتعامل بها الناس فى بيعهم وشرائهم .

إلا أن الأهم من ذلك هو ما يشير إليه المقريزى من ارتباط قضية الثروة بقضايا الأخلاق ، فالسلطان مثلا يقبل الرشوة ، ويقبلها وزراؤه ، وبذلك تنهار القدوة ، فيقدم طالب المنصب الرشوة للسلطان أو الوزير بيد بينما يده الأخرى تتقاضى أضعافها من الناس ، والسلطان مضطر أن يغمض عينيه عما يجرى ، وينفتح الباب على مصراعيه للجهلة والمفسدين الذين تؤهلهم أموالهم لبلوغ الأعمال الجليلة ، والولايات العظيمة .. تلك هى القضية ، وهذه آفة الآفات . يقول المقريزى :

«السبب الأول ، وهو أصل الفساد ، ولاية الخطط السلطانية ، والمناصب الدينية بالرشوة كالوزارة ، والقضاء ، ونيابة الأقاليم ، وولاية الحسبة ، وسائر الأعمال ، بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل ، فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى ما لم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة ، والولايات العظيمة لتوصله ، بأحد حواشى السلطان ، ووعده بمال للسلطان على ما يريده من الأعمال» . (١)

ويبين المقريزى جناية القدوة السيئة على العمال . فإذا كان السلطان مرتشيا فماذا ننتظر من عماله ؟! لا ريب أن العدوى ستسرى ، فكما يغمض السلطان عينه عن الوزير ، يغمض الوزير عينه عمن دونه ... وهكذا ...

«لا جرم أنه يغمض عينيه ولا يبالى بما أخذ من أنواع المال ، ولا عليه بما يتلفه فى مقابلة ذلك من الأنفس ، ولا بما يريقه من الدماء ، ولا بما يسترقه من الحرائر ، ويحتاج إلى أن يقرر على حواشيه وأعوانه ضرائب ، ويتعجل منهم أموالا ، فيمدون هم أيضاً أيديهم إلى أموال الرعايا ، ويشرئبون لأخذها بحيث لا يعفون ولا يكفون» . (٢)

الشيء الآخر الذى يشير إليه المقريزى — وهو فى ذلك — أيضا — شاخص إلى تلك العلاقة بين الثروة والأخلاق — هو أن التقرب إلى الأمراء والسلاطين أصبح سبيله إظهار البراعة فى جباية الأموال من الناس بالحق وبالباطل دون نظر إلى أحوال الناس أو رحمة بهم . يقول المقريزى :

«وذلك أن قوما ترقوا فى خدم الأمراء يتولفو إليهم بما جبوا من الأموال

---

(١) إغاثة الأمة ص ٤٣ .
(٢) إغاثة الأمة ص ٤٣ ، ٤٤ .

إلى أن استولوا على أحوالهم ، فأحبوا مزيد القربة منهم ، ولا وسيلة أقرب إليهم من المال ، فتعدوا إلى الأراضى الجارية فى اقطاعات الأمراء ، وأحضروا مستأجريها من الفلاحين ، وزادوا فى مقادير الأجر . فثقلت لذلك متحصلات مواليهم من الأمراء ، فاتخذوا ذلك يدا يمنون بها اليهم ، ونعمة يعدونها — إذا شاءوا — عليهم ، فجعلوا الزيادة ديدنهم فى كل عام» . (١)

ولا يفتأ المقريزى بين حين وآخر ينبه إلى ما وصل إليه أمر الفلاحين من فقر وجوع حتى مات بعضهم ، وتشرد آخرون ، وهلكت دوابهم ، وكأنه بذلك يشير إلى تلك المفارقة الصارخة بين هؤلاء السادة من طلاب المال والرفه وبين هؤلاء المعدمين من الفلاحين . وانظر إليه يقول :

«ومع أن الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت فى اللذات رغبتهم ، وعظمت فى احتجار أسباب الرفه نهمتهم ، استمر السعر مرتفعا لا يكاد يرجى انحطاطه ، فخرب بما ذكرنا معظم القرى ، وتعطلت أكثر الأراضى من الزراعة ، فقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الأرض لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد ، من شدة السنين ، وهلاك الدواب ولعجز الكثير من أرباب الأراضى عن إزدراعها ، لغلو البذور . وقد أشرف الإقليم لأجل هذا الذى قلنا على البوار والدمار» . (٢)

ومع أن المقريزى سلك سبيل العالم المحلل . واصطنع لذلك أسلوبا علميا يغلب عليه التحديد ، فعبارته لا تخلو من نبض . وكثيرا ما تهزنا منه فقرات كتلك الفقرة السابقة التى يصور فيها حال الفلاحين ، وما وصلوا إليه من فاقة وبؤس ، بعد أن صور أهل الجاه وما هم فيه من نعيم ورفه . والجمع بين

(١) اغاثة الأمة ص ٤٥ ، ٤٦ .
(٢) اغاثة الأمة ص ٤٦ ، ٤٧ .

هاتين الصورتين المتقابلتين عمل — ولا شك — من أعمال الوجدان ، لم يغفل المقريزى حين نسجه على هذا المنوال من شعور يريد أن ينقله إلى قارئه ، ثم انظر ما اصطنعه المقريزى من إطناب فى تصوير حال الفلاح ، وقد كان بوسعه أن يشير إلى ذلك فى جملة أو اثنين ، ألا يوحى هذا بما كان يعتلج فى وجدان المقريزى من مشاعر؟

ونترك المقريزى إلى نمط آخر آثر النصح الهادىء والموعظة الحسنة يقدمها لأولى الأمر بطريق غير مباشر أو من وراء حجاب .

والبوصيرى — وان كان قد شدد النكير على العمال والمستخدمين — سلك مع كبار أولى الأمر مسلكا مخالفا ، وآثر أن يقدم نصحه لهم مغلفا لا يكاد يحس ، كأن يدس فى إحدى قصائده بيتا أو إثنين يجسدان القضية كلها ، أو كأن يأتى بهذا النصح فى سياق يخيل للقارىء أنه لا يقصد به شيئا من نقائص عصره ، بينما هو فى الحقيقة شاخص إليه ، طامح إلى اصلاح ما به من فساد :

وفى مدائح البوصيرى النبوية أبيات لا تمر على القارىء الواعى ، إذ نرى البوصيرى وكأنه يتجه إلى حكام عصره ، يرسم لهم الصورة المثلى لما ينبغى أن يكون عليه الحاكم من نزاهة وعفة وتقى وزهد وتجرد من الميل والهوى . فيقول فى قصيدته الهمزية فى معرض الحديث عن صحابة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وآل بيته :

سدتم الناس بالتقى وسواكم سودته البيضاء والصفراء
وبأصحابك الذين هم بعدك فينا الهداة والأوصياء
أحسنوا بعدك الخلافة فى الدين وكل لما تولى إزاء
أغنياء نزاهة فقراء علماء أئمة أمراء
زهدوا فى الدنا فما عرف الميل إليها منهم ولا الرغباء(١)

---

(١) الديوان ص ٢٢ .

وفى بردته يسوق هذه الأبيات مخاطبا نفسه ، مبينا لها عاقبة الانسياق مع الهوى ، وما أظنه — على الحقيقة — يخاطب إلا أولئك الحكام ، الذين استسلموا لأهوائهم ، وأطلقوا العنان لجواد الرغبة :

من لى برد جماح من غوايتها ... كما يرد جماح الخيل باللجم
فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها ... إن الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه ... إن الهوى ما تولى يصم أو يصم
وراعها وهى فى الأعمال سائمة ... وإن هى استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدر أن السم فى الدسم(١)

ولا يفتأ البوصيرى يدس هذه النصائح فى طيات قصائده ، محاولا أن ينبه أذهان الحكام ، ويرشدهم برفق إلى الطريق الأمثل ، ففى قصيدته التى يمدح بها (قراسنقر) أحد قواد قلاوون الكبار ، نراه يسوق هذه الأبيات فى معرض الحديث عن الولاة ، منبها إلى أثر الوالى فى الرعية ، ومشيرا إلى أثر القدوة فى سلوك الناس :

وكل امرىء وليته فى رعية ... بما فيه من خير وشر يؤثر
فمن حسنت آثاره فهو مقبل ... ومن قبحت آثاره فهو مدبر
وكم سعدت بالطالع السعد أمة ... وكم شقيت بالطالع النحس معشر(٢)

وفى قصيدته النونية التى يفضح فيها جرائم المستخدمين ، والتى عرضنا لها آنفا ، نراه يلتفت إلى الوالى الجديد قائلا :

فلا تقبل عفاف المرء حتى ... ترى أتباعه متعففينا

---

(١) الديوان ص ١٩١ ، ١٩٢ .
(٢) الديوان ص ١١٣ .

ولا تثبت لــه عسرا إذا مــــا غــدت ألزامــه متمولينـــا
فإن الأصــل يعــرى عن ثمــار وأوراق ويكسوها الغصونــا (١)

أفليس هذا لونا من النصح غير المباشر للــوالى الجديد ؟! أفــلا يريــد البوصيرى أن يقول : إنا سنحكم عليكم أيها الوالى بمن حولك من أتباع ، فإذا تعففوا حكمنا عليك بالعفة ؟!

ويقول له فى القصيدة نفسها :

إذا أمناؤنا قبــلوا الهدايـــا وصاروا يتجــرون ويزرعونـــا
فــلم لا شاطروا فــيما استفــادوا كما كان الصحابة يفعلونــا (٢)

ومثل هذه الأبيات الأعيان فى شعر البوصيرى لا ينبغى أن نمر عليها مـرا سريعا ، وإنما ينبغى أن نلتفت إلى ما يعنيه البوصيرى بها ، وما يقصد مــن ورائها فى رسم المثل الأعلى ، وبيان الطريق الذى ينبغى أن يسلكه الحكام .

وهذه السبيل نفسها يسلكها ابن أبى حجلة التلمسانى فى كتابه «ديــوان الصبابة» وقد كتب ابن أبى حجلة كتابه هذا للسلطان الناصر حسن الــذى شغف بحب النساء ، ولذلك جعل ابن أبى حجله كتابه قائما على أخبار الحب والمحبين ، إلا أن ابن أبى حجله لا ينى بين الحين والحين أن يدس النصيحة فى ثنايا كلامه ، محذرا السلطان من مغبة الانقياد للهوى ، وما يجر إليه من ضياع الملك ، وفساد أمر الرعية ، فيقول منبها السلطان ، مستشهدا بأمثلة من التاريخ لمن كان الهوى سرا فى زوال ملكه :

«ومنهم من نال بالراح اللذة المحظورة ، وأخرج بها وجنة الحبيب مـن صورة إلى صورة ، فجارى النديم فى الجريال ، وسما إلى الحبيب سمو حباب الماء حالا على حال ، فأفضى به ذلك إلى هلكه ، وفساد ملكه ، كـــا إتفق

(١) الديوان ص ٢٢١ .
(٢) الديوان ص ٢٢٠ .

للأمين بن الرشيد وغيره ، قال الربيع : قعد الأمين يوما للناس ، وعليه طيلسان أزرق ، وتحته لبد أبيض ، فوقع فى ثمانمائة قصة ، فوالله لقد أصاب وما أخطأ ، وأسرع فما أبطأ ، ثم قال يا ربيع أتراني لا أحسن التدبير والسياسة ولكنى وجدت شم الآس وشرب الكاس ، والاستلقاء من غير نفاس أشهى إلى من مقابلة الناس . وكذلك خلع قبله الوليد بن يزيد وبعده المتوكل وغيرهم من الخلفاء ممن آثر راحة النفس على تعب السياسة» . (١)

ويقول فى موضع آخر :

«وكم مثله من ملك قاهر ، وسلطان قادر ، تذل لهيبته الأملاك ، وتذعن لسطوته الفتاك ، هدم الهوى أركانه ، وأذل عزه وسلطانه ، فقصر جفنه فى الليالى الطوال ، وأوقعه مع عقله الحسن فى أسر الاعتقال» . (٢) وفى مكان آخر يحاول أن يلفت السلطان إلى أن شغفه بالنساء ينبغى ألا يصرفه عن الملك والقيام بأموره ، فيقول :

«وقد تقدم أن الملوك ليسوا كغيرهم فى العشق ، وأن الملك العظيم قد يعشق ، ولا يذهب به عشقه إلى ترك تدبير ملكه ، وهناك طبقة أخرى دون الملوك إذا عشقوا لم يتفرغوا لاشتغالهم بصنائعهم ، وطبقة أخرى يبخلون بأديانهم وعقولهم عن شغل قلوبهم بما لا يحل لهم ويحرم عليهم» . (٣)

وهكذا نرى ابن أبى حجلة كان يضع نصب عينه أيضا قضية القيم ، ولذلك لا يفتأ بين حين وآخر منبها السلطان ، ذاكرا له مغبة الانسياق وراء الشهوات ، مبينا له السبيل التى ينبغى أن يسلكها الملوك ، ولكنه يؤدى كل

---

(١) ديوان الصبابة ص ٤٠ ، ٤١ .

(٢) ديوان الصبابة ص ٤٣ .

(٣) ديوان الصبابة ص ١٩٨ .

ذلك فى صورة رقيقة مهذبة ، ويوجه نصحه هينا خفيفا لا يكاد السلطان يحس أنه موجه إليه ، وإنما هو يوقظ الفكر ، وينبه الوجدان .

ويندرج تحت هذا النمط ما لجأ إليه عبد الباقى اليمانى فى رسالته «زهر الجنان فى المفاخرة بين القنديل والشمعدان» . فما أظنه جعل الشمعدان إلا رمزا لأولى العز والجاه من رجال الدولة ، وما أظنه كذلك اتخذ القنديل إلا رمزا لأهل العلم والدين الذين يعانون الخصاصة والمسكنة ، ويتضح ذلك من وصفه لكليهما فالشمعدان لجينى القوام ، أبيض الوجه ، يجالس الملوك ، وينادم الأمراء ، أما القنديل فهو معلق من أذنه فى مسجد أو زاوية ، مسود الوجه ، سيء المظهر ، زهيد القيمة .

ويقدح اليمانى زناد المصاولة بين الخصمين ، فيأخذ الشمعدان فى الفخر ، متعاليا بثمنه ، متباهيا بحمائله الذهبية ، وأنواره الشمسية :

«أين ثمنك من ثمنى ؟ ومسكنك من مسكنى ؟ صفائحى صفحات الإبريز . فلذا سموت عليك بالتبريز ، تنزه العيون فى حمائلى الذهبية ، وتسر النفوس ببزوغ أنوارى الشمسية ، ولا يملكنى إلا من أوطنته السعادة مهادها، وقربت له الرياسة جيادها» .

ويرد القنديل فى ثقة الواثق ، محاولا أن يبين للشمعدان أن العبرة ليست فى الحمائل الذهبية ، والصفائح التى صنعت من الإبريز ، إنما العبرة بنقاء الباطن وعلو المكانة ، وعراقة النسب :

«.. وتالله إنك فى صرفك بصفرك مغلوط ، لقد خصصت بالعلو وخصصت بالهبوط ، ترى باطنى من ظاهرى مشرقا ، وتخالنى لخزائن الأنوار مطلقا فحديث سيادتى مسلسل ، وتاج فضائلى بجواهر العلو مكلل» .

ويحاول الشمعدان أن يدفع عن نفسه ، ويعلو خصمه ، ولكن القنديل يجبهه بالحقيقة التى تخرسه ، وترده إلى رشده :

«لقد أطلت الافتخار بمحاسن غيرك لما وقفت فى المناظرة ركائب سيرك ، فاشكر اليد البيضاء من شمعك ، واحرص على معرفة قيمتك ووضعك ، وأما افتخارك بتلاوة سورة النور ، فأنا أحق بها منك ، إذ محلى الجوامع ، والفرقان فارق بينى وبينك مع أنه ليس بيننا جامع ، فتفضيلى فيه بينه وآية نورى فى سورة النور مبينة ، فاقطع مواد اللجاجة ، واقرأ السورة المشتملة على آية الزجاجة ، يظهر لك من هو الأعلى ، ومن هو بالافتخار أولى» . (١)

وقد يمر قارىء على هذه الرسالة مرورا عابرا ، ولا يرى فيها غير واحدة من المفاخرات التى درج عليها جمهور الكتاب لترويض أقلامهم ، وبيان براعتهم وتملكهم لناصية اللغة ، ولكنى أحس — كلما قرأت هذه الرسالة — أن وراءها شيئا ما ، ويخيل إلى أن اليمانى يريد أن ينبه أولى الأمر إلى حقيقة غفلوا أو تغافلوا عنها ، هى أنهم يتباهون بما ليس فيهم ، ويتفاخرون بالثروة والثروة — أصلا — ملك الناس ، ونتاج عرقهم ، فهم فى ذلك كالشمعدان الذى يتباهى بشمعه ، ويفتخر بمحاسن غيره ، ثم إن اليمانى — أيضا — حاول فى هذه المفاخرة أن يرمى دعائم بعض القيم ، ويرد العيون التى خلبها بريق المال إلى الرؤية الصائبة ، والبصر السليم ، فالمال ليس كل شىء ، وإنما هناك الفضل والشرف والدين ، ولا ينبغى أن يكون المظهر هو كل ما يحرص عليه الإنسان ، فهناك الجوهر ونقاء الباطن .

وعلى أية حال فنحن نقدم لمفاخرة اليمانى بين قنديله وشمعدانه فهما جديدا ، ربما قصد إليه اليمانى وربما لم يقصد ، ولكن إلى أى مدى يكون القارىء محكوما

---

(١) الرسالة بتمامها فى نهاية الأرب ج ١ ص ١٢٤ — ١٢٦ .

بمقاصد الكاتب ؟ إن الكاتب فى بعض الأحيان لا تحكمه هذه المقاصد ، فهناك تيار اللاوعى يتسرب فى ألفاظه وعباراته ومداد قلمه .

ومن الأدباء فريق استبد به اليأس ، وضاقت عليه الدنيا برحبها ، ورأى ألا سبيل إلى الخلاص إلا الموت ، بل إن منهم من تمنى الموت ، وغبط عليه أهل القبور ، ورآهم أسعد من الأحياء إذ هم على الأقل قد تخلصوا من أعباء القهر ، وملاحقة الغرماء ، وإلى هذه المعانى يشير عبد الرازق بن حسام القفطى بقوله :

طوبى لسكان القبور فإنهم ... حلوا بساحة أكرم الكرماء
فازوا بتعجيل القرى من ربهم ... فى خفض عيش دائم النعماء
نالوا المنى فى قربه وجواره ... وتخلصوا من منة الغرماء (١)

وهذه الروح اليائسة نلمسها فى بعض شعر القيراطى ، فنراه يدعو إلى التواكل إذ السعى لا ثمرة ، له وإنما الأمر كله أمر حظ يخط مصائر الإنسان :

خليلى ليس الرزق يأتى بحيلة ... وكل رشيد لم يزل متوكلا
وسعد الفتى بالجدلا الجد فاطرح ... فخارك بالآباء فى وسط الملا
وكم عالم حط الحطيط بعلمه ... وكم جاهل للوح بالحظ قد علا
فها أنا للأيام غير محارب ... أصاحبها مستبشرا متهللا
فإن كان حظى رابحا كنت رابحا ... وان كان حظى أعزلا كنت أعزلا (٢)

وربما قال قائل : وما علاقة هذه الأبيات بحال المجتمع ؟ إنما هى أبيات نسجها القيراطى على منوال أقوال الزهاد . ولكن ألا ترى معى أن القول

---

(١) الطالع السعيد ص ٣٢٠ .
(٢) الديوان ص ١٧٢ .

بالحظ هو ثمرة اضطراب القيم ، واختلال الموازين ؟ ألا ترى أن هذا معناه سقوط قيمة العمل والسعى ؟! ثم ألا تلمح ما فى الأبيات من لمز وتعريض برق المماليك ؟ وكأن الشاعر يريد أن يقول إذا كانت الدنيا أعطت هؤلاء الأرقاء مجهولى النسب ، فدع حديث الأنساب فأمره لا يجدى صاحبه فتيلا .

وهذه الروح اليائسة تتراءى لنا فى ثوب أو آخر ، وقد نقع عليها حتى عند هؤلاء الأدباء الذين عرفوا بالفكاهة والسخرية مثل الوراق والمعمار ، وليس هذا بغريب فبين اليأس والسخرية صلة حميمة لا تغيب عن ذى فطنة . فاسمع لهذا الأنين يتقطر من قول الوراق :

مولاى عز الدين لى حاجة   أنت تراها فرصة المنتهز
شبعت ذلا فعسى مرة   تجعلنى آخذ رزقى بعز (١)

واسمع لهذه النغمة الشاكية تمتزج بيأس المعمار وكأنها رجع الأنين وذلك فى قوله :

يا أغنياء الزمان هل لى   جرائم عندكم عظام
فضتكم لا تزال غضبى   فلا سلام ولا كلام
والذهب العين لا أراه   عينى من عينه حرام (٢)

وكانت السخرية سلاح كثير من الشعراء ، ولهم فى ذلك طرائقهم وأساليبهم فمنهم من يكتفى باللمزة الخاطفة فى بيت او اثنين ، ومنهم من يفتن فى تضخيم العيب وتجسيد النقائص ، ومنهم من يلمز فى خبث وهو آخذ فى موضوع بعيد كل البعد كأن الأمر لا يعنيه أو كأن الأمر جاء عرضا .. وانظر إلى قول

---

(١) الدرر الكامنة / جـ ٢ / ص ٢٩٣ .
(٢) الدرر الكامنة / جـ ١ / ص ٥١ .

البهاء زهير كيف يلمز الأتراك فى معرض حديثه عن أحد الثقلاء :

إن الرضى الـذى بليت بـه أفعـاله الكل غـير مرضى
وكنت فى شـدة برؤيتـه كسلم فى إسـار ذمـى
وبعـد جهـد خلصت مـن يـده خلاص عظم من كف تركى (١)

وانظر إلى المعمار كيف يلمز الشهود فى معرض حديثه عن البراغيث :

ليـل البراغيث ليـل لا نفاد لـه لا بارك الله فى ليـل البراغيـث
كأنهـن بجسمى مـذ حللـن بـه يد الشهود على مال المواريث (٢)

وسخر الشعراء بمجون السلاطين ولهوهم ، واسمع لأحدهم وهو يسخر بالسلطان حسن وشغفه بالنساء :

لمـا أتى للعاديـات وزلزلـت حفظ النساء وما قـرا للواقعـه
فلأجل ذاك الملك أضحى لم يكـن وأتى القتال وفصلت بالقارعـه
لـو عامـل الرحمن فـاز بكهفـه وبنصره فى عصره فى السابعـة
من كانت القينـات مـن أحزابـه عطعط بـه الدخـان نـار لامعـه
تبت يـدا مـن لا يخـاف مـن الدعا فى الليـل إذيغشى يقع فى النازعه (٣)

وهذا نفس شاعر فقيه يدلنا عليه ما يذكره موريا من أسماء السور القرآنية ولكن الذى نود أن نشير إليه هنا هو هزء الشاعر بالسلطان الذى استلان مجالس النساء ، وحفلت مجالسه بالمغنين والمغنيات من أمثال «عطعط» و «الدخان» .

كذلك سخر الشعراء من ادعاء المماليك التدين ، وتسابقهم فى بناء المساجد

(١) الديوان ص ٢٠٣ .
(٢) روض الآداب للحجازى ص ٢٨٧ .
(٣) النجوم الزاهرة / جـ ١٠ / ص ٣١٦ .

والسبل . ولابن مكانس أبيات يسخر فيها من النشو حين أنشأ سبيلا بالجامع العمرى يقول فيها :

أنشـا العظيم النشـو لمـا ارتقى ... وزارة زادتــــه فى وزره
بالجـامع العمـــرى سبيـلا وقد ... قـالت لنـا عنـه بنـو مصـره
هــذا سبيــل حــاله فاســـد ... وزيـره يرشـــح مــن قعره(١)

وأبرز الشعراء فى سخرياتهم تلك المفارقات الصارخة بين غنى الأغنياء وفقر الفقراء ، حتى فى طائفة الجنود فبينما هناك الأمراء و (خاصكية) السلطان يرفلون فى ثياب الأطلس ، ويتوشحون بالمذهب والمطرز ، هناك أجناد الحلقة ممن لا يكادون يجدون قوت يومهم إلا بمشقة ، ولناصر الدين بن النقيب أبيات يتحدث فيها على لسان أحد جنود الحلقة ، ولعله هو نفسه كان واحدا منهم . يقول فيها :

نحـن إلا قطـاعة الأجنــاد ... وبراوات غـز هــذا الـوادى
نحــن إلا حـكاية وخيــال ... وحديث لحــاضر ولبــادى
نحــن إلا غســالة لمراقــدا ... ر قـدور تفرغـت وزيــادى
نحـن إلا زبالـة ضمهـا الزبـا ... ل مــن فـوق الكـوم للوقـبــاد
جردونـا فـيا قطعنـا فـــردو ... نا وقــد أحسنـوا إلى الأغمـــاد
وعرضنـا عـلى براذيـن جيش ... مـا استعدت لحملـة وطـــراد
وأتينا مــن القمـاش إلبهـــم ... بخليـع مرقـــع وكـــداد
وســروج تطايــر الجلـــد عما ... كـان مـن تحتهـا مـن الأعـواد
قــد تـبـرت منهـا مياثرها اللبـــد وخـان البـداد عهـد الوكــاد

(١) المنهل الصافى / جـ ٢ / ص ٢٠١ .

كشف الله ذلك الستر عنها   فرأينا عوراتهن بوادى
ورماح لم تعتقل لطعان   وسيوف ما جردت لجلاد
صدئت فى الجفون من كثرة اللبث وملت بها لطول الرقاد
فهى لا فرق فى يد الفارس الكشحان منا أو فى يد الحداد
أترى من يكون فى هذه الحال مطيقا بيكار تلك البلاد (١)

وعلى الرغم مما استخدمه الشاعر فى أبياته من ألفاظ شعبية وتركية ممايعوقنا عن فهم بعض أبياتها فهما دقيقا ، فإنه نجح إلى حد كبير فى إشعارنا بما عليه جنود الحلقة من فقر وعوز ، كما أنه أعطانا صورة لملابسهم الرثة ، وأسيافهم التى أكلها الصدأ ، وأشعرنا بمكانتهم من الجيش وسائر جنوده فهم لا يتعدون ماء غسلت به القدور ، أو «زبالة» جمعت ليوقد بها .

وفى سبيل إبراز هذه المفارقة بين الغنى الصارخ والفقر المدقع ، ولفتا لغياب روح التراحم والتكافل فى المجتمع اتخذ الشعراء من أنفسهم ومن حياتهم ودورهم مادة لما يعرضونه من صور ساخرة تجسد الفقر ، وتبرز عناء الناس ، ولعل الجزار وابن دانيال كانا فارسى هذه الحلبة المبرزين ، نقرأ شعرهما فى هذا المجال فنضحك ، ولكنه ضحك كالبكا كما يقول المتنبى .

وانظر إلى الجزار يصور نفسه فى يوم من أيام الشتاء ، وقد خلع ثوبه ليغسل ، وأخذ ينتظره حتى يجف لأنه لا يملك غيره :

لبست ثوبى وقد زررت أبوابى   على حتى غسلت اليوم أثوابى
وقد أزال الشتا ما كان من حمقى   دعنى فمستوقد الحمام أولى بى
أنام فى الزبل كى يدفا به جسدى   ما بين جمر به ما بين أصحابى

---

١) فوات الوفيات حـ ١ / ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

أو فوق قدر هريس أحرسها　　　مع الكلاب على دكان غلاب(١)

وانظر إليه يصف نصفيته التى حار معها وحارت معه ، وهو ما يزال يرقعها ويأخذها بالعصر والدق والنشا :

لى نصفية تعد من العمر سنينا غسلتها ألف غسله
لا تبلى عن مشتراها فقيها　　　منذ فصلتها نشاء بجمله
كل يوم يحوطها العصر والد　　　ق مرارا وما تقر بعمله
فهى تعتل كلما غسلوها　　　ويزيل النشاء تلك العله
أين عيشى بها القديم وذاك الر　　　فق فيها وخطرتى والشمله
حيث لا فى أجنابها رقعة قط ولا فى أكمامها قط وصله (٢)

ويعرض علينا ابن دانيال صورة لداره الضيقة المنتنة التى أصبحت مأوى للهوام والحشرات ، ويصور فراشه البالى وأثوابه المرقعة فيقول :

أصبحت أفقر من يروح ويغتدى　　　ما فى يدى من فاقة الا يدى
فى منزل لم يحو غيرى قاعداً　　　فإذا رقدت رقدت غير ممدد
ملقى على طراحة فى حشوها　　　قمل كمثل السمسم المتبدد
والفأر يركض كالخيول تسابقت　　　من كل جرداء الأديم وأجرد
هذا وكم من ناشر طاوى الحشا　　　يبدو كمثل الفاتك المتردد
هذا ولى ثوب تراه مرقعا　　　من كل لون مثل ريش الهدهد(٣)

وفى أبيات أخرى يصف حاله وحال عياله وقد تأخر عنهم القمح :

إننى مذ تأخر القمح عنى　　　عاشق كل مخزن فيه غله

---

(١) فوات الوفيات حـ ٤ / ص ٢٩٢ .
(٢) فوات الوفيات حـ ٤ / ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .
(٣) فوات الوفيات حـ ٣ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣

إن سمعت الكيــال يشدو بذكرى   غلــة هاج فى فؤادى غلــــه
ومنــاى إذا أثـــار غبــــارا   أغبرا لـو كحلت منــه بكحلــه
ورأيت الأطفـال مــن عــدم الخـــبز تلظــى ولـو على قرص جله
تــلك تشــكو وتيك تدعـو وهذى   تتجنى عــلى وهــى مدلــــه
فترانى ملـــتق وعرسى تنـــادى   قم وعجـل فليس فى القـوت مهله
أنت زوج الفـــراش لا عشت أم أنـــت حكـيم كما يقـال بوصلــه
ما ترينا قرصا سوى قرص شمس الا   أفق تبــدو وخشكنان الأهلـــه
عنـتر الحـرب لـو يطـالب مثلى   بدقيـق لفـر مـن فـرد حمله (١)

وما أظن الجزار وابن دانيال بلغا من الفاقة هذا الحد ، وما أظنهما أيضا قصدا مجرد الإضحاك ، وإنما كانا من الذكاء أن جعلا من الإضحاك شيئا أشبه بالمخدر بينما يعملان المبضع فى الجسد المريض .

---

(١) التذكرة ــ ١٤ ورقة ٥٣ .

الفصل الرابع

التيـارات العقـدية

١ - التصوف :

ازدهرت حركة التصوف فى مصر المملوكية ، وترددت أسماء عديد من أعلام التصوف فى هذا العصر من أمثال أبي الحسن الشاذلى وتلميذه أبي العباس المرسى ، والسيد ابراهيم الدسوقى ، والسيد أحمد البدوى ، وغير هؤلاء ممن ماتزال أسماؤهم تحتل مكانة بارزة فى وجدان الشعب المصرى إلى يوم الناس هذا .

كذلك نرى فى هذا العصر عديدا من الشعراء قصروا إنتاجهم عـلى التصوف ومنهم على سبيل المثال عفيف الدين التلمسانى ، والخيمى ، وابن وفا .

والحقيقة أن المماليك روجوا لهذا التيار ، واحتفوا به ، وقد سبقت الإشارة إلى علاقة الظاهر بيبرس بمتصوف يدعى «خضر» ونشير هنا إلى علاقة النـاصر حسن بمتصوف آخر يدعى «الهرماس» واعتقاده ببركته . (١)

ويعكس لنا الأدب الرسمى لهذا العصر رعاية الدولة للمتصوفة ، وإحاطتهم بالهيبة والإجلال ، وإشعار الناس ببركتهم . فيقول ابن فضل الله العمـرى فى وصيته لشيخ شيوخ الصوفية :

«ومثلك خير كله ، وسحاب لا يتقلص ظله ، ومن عندك فى هذا المـكان

---

(١) الخطط للمقريزى حـ ٣ / ص ٧ .

كلهم لك إخوان ، وهم على التقوى أعوان ، وكلهم كالشجرة يجمعها أصل واحد تفرعت منه أغصان ، فاعرف لأهل السابقة حقهم ، ومنك وإلا فممن يطلب العرفان» . (١)

وكتب محيي الدين بن عبد الظاهر فى محضر قيم حمام الصوفية ويدعى يوسف :

«وكم أقبل مستعملوه تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، وكم تجرد مع شيخ صالح فى خلوه ، وكم قال ولى الله (يا بشراى) إنه ليوسف حين أدلى فى حوضه دلوه ، كم خدم من الصلحاء والعلماء إنسانا ، وكم ادخر بركتهم لدنيا وأخرى فحصل منهم شفيعين مؤتزرا وعريانا» . (٢)

وهكذا نرى هذه الصفات التى يخلعها كتاب الديوان على الصوفية من أنهم خير محض ، وأهل تقوى ، ومن أن الذى يسعى فى خدمتهم لابد أن يحظى بشىء من بركتهم ، وهذا — لاشك — يعكس اتجاه الدولة ونظرتها للمتصوفة .

ولكن سلاطين المماليك إذا كانوا قد روجوا للتصوف ، واحتفوا برجاله فلم يكن ذلك عن زهادة منهم ، ولكنه — فيما أعتقد — صرف للناس عن الدنيا حتى يستأثروا بها وحدهم . يقول الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام :

«وكان طبيعيا أن تتفق سياسة المماليك مع الاتجاه العام لفلسفة أصحاب الطرق الصوفية . وهى فى جملتها انصراف عن الدنيا ، وزهد فى الحياة والمال ، حتى ينعم المماليك وحدهم بها دون سائر الخلق ، وللناس بعد أن

---

(١) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢٧ .
(٢) سلوك السنن لوحه ٢٤ وما بين القوسين إضافة من عندنا لأن المعنى لا يستقيم بدونها .

ينعموا بنعيم الآخرة ، ويكفيهم ذلك عن حرمان الدنيا» . (١) وربما تنبه فريق من الناس لما يرى إليه المماليك فسخروا منهم ، وأمعنوا فى السخرية ، ومن ذلك ما نراه من قول محمد بن أحمد الاسكندرانى المعروف بابن القوبة :

أعجامنا قد أصبحت قلوبهم ... وجداً بحب الخانقات خافقه
لا تعجبوا فكل كلب نابح ... ولا يحب الكلب إلا خانقه (٢)

واختلفت نظرة الناس للتصوف والمتصوفة فبينا نرى من يعتقد فى تقواهم ويقر بإخلاصهم فى دعواهم إذ بنا نرى من يتهمهم بالكفر والزندقة، ويرميهم بالبطالة والكسل والفساد ، وتتردد فى أدب العصر أصداء لكلتا النظرتين ، فهناك من الأدباء من تصدى للدفاع عنهم ، وهناك من أوسعهم سبا ولوما وتهكما وسخرية .

فالإدفوى واحد ممن تصدوا للدفاع عن المتصوفة ، وعما يدعونه من كرامات وخوارق ، وفى أبيات له يصفهم بأنهم أرباب المعارف ، وأن سرائرهم خالصة لله ، وأنهم قد وصلوا إلى مكان يعز على سواهم الوصول إليه والارتقاء إلى رحابه ، فلا مجال للاعتراض عليهم . أو التشكك فيما يقولون :

إلا أن أرباب المعارف سادة ... سرائرهم لله فى طيها نشر
هم القوم حازوا ما يعز وجوده ... وجازوا بحارا دونها وقف الفكر
أطاعوا إله العرش سراً وجهرة ... فمكنهم حتى غدا لهم الأمر
فهم فى الثرى غيث الورى معدن القرى ... وهم فى سماء المجد أنجمها الزهر
فطف بحماهم واسع بين خيامهم ... ولا تستمع ما قال زيد ولا عمرو

---

(١) الأدب فى العصر المملوكى جـ ١ / ص ١٩٣ .
(٢) الوافى بالوفيات للصفدى جـ ٢ / ص ١٥٤ .

إذ طفت بين الحى تحمـى وتتـقى ... بأسياف عزم دونها البيض والسمر
ومن يعترض يوما عليهـم فإنـــه ... يعود ومن نيل المنى كفه صفر (١)

ومن قبل الإدفوى وقف البهاء زهير يستنكر على من يقدح فى أمـر المتصوفة ، ويرى أن ذلك فعل سوء ينبغى على المرء أن ينزه نفسه عنه ، كما ينبغى عليه ألا يخوض من أمر القوم فيما لا يعرف ، فهم رجال لهم حال مع الله لا يعرفها أحد :

أتقـدح فيمـن شرف الله قـــدره ... ومازال مخصوصا بـه طيب الثنا
لعمـرك ما أحسنت فـيما فعلتــه ... وليس قبيح القـول فى الناس هينا
نطقت فـلم تحسن ولم تبـق ساكنـا ... لقــد فاتك الأمر الذى كان أحسنا
دع القوم إن القـوم عنـك بمعـزل ... وإنك عن هذا الحديث لـفى غـنى
رجـال لهم حـال مـع الله خالــص ... ولا أنت من ذاك القبيل ولا أنا(٢)

وكانت آراء ابن عربى وما ذهب إليه من القول بوحدة الوجود ماتـزال تثير حولها كثيرا من الجدل والاختلاف ، فمن الناس من يكفره ، ومنهم من يرفعه مكانا عاليا . ونرى الصفدى يهب للدفاع عن آراء ابن عربى لمـا قرأ كتابه الفتوحات المكية ، مبينا أن هذا الكتاب ليس فيه ما يخالف العقـل أو النقل ، وأنه يدور حول معتقد الأشعرى ، أما ما يتنادى به الناس من أمـر هذا الكتاب فهو حسد لصاحبه ، وحقد على منزلته العالية :

ليس فى هذه العقيـدة شـــىء ... يقتضيــه التكذيب والبهتـــان
لا ولا ما قـد خالف العقـل والنقـــل الـذى أتى بـه القـــرآن
وعليهـــا للأشعـــرى مـدار ... ولهـا فى مقـــاله إمـــكان

---

(١) الطالع السعيد ص ٣٠١ .
(٢) الديوان ص ٢٦٣

وعلى ما ادعاه يتجه البحث ويأتى الدليل والبرهان
بخلاف الشناع عنه ولكن ليس يخلو من حاسد انسان(١)

وعلى الجانب الآخر ، نرى من يتهم الصوفية بأنهم أهل كسل وبطنة . يقول ابن تيمية ساخرا على لسانهم :

والله ما فقرنا اختيار وإنما فقرنا اضطرار
جماعة كلنا كسالى وأكلنا ماله عيار
تسمع منا إذا اجتمعنا حقيقة كلها فشار(٢)

ويرميهم الشيخ فتح الدين بن سيد الناس بفاحش القول مشيرا إلى ما هم عليه من الادعاء وإتيان المنكرات :

ما شروط الصوفى فى عصرنا اليوم سوى ستة بغير زيادة
هى نيك العلوق والسكر والسطلة والرقص والغنا والقياده
وإذا ما هذى وأبدى اتحادا وحلولا من جهله أو أعاده
وأتى المنكرات عقلا وشرعا فهو شيخ الشيوخ ذو السجاده(٣)

وقول ابن تيمية وابن سيد الناس يعكس موقف الفقهاء من المتصوفة ، ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى تلك الخصومة التى احتدمت بين الفريقين ، وكانت مازال محتدمة الأوار فى هذا العصر ، ومازال كلا الفريقين ينظر إلى الآخر فى إزدراء وتحقير ، وانظر إلى قول البوصيرى ، وهو يعكس رأى المتصوفة فى الفقهاء :

قل للذين تكلفوا زى التقى وتخيروا للناس ألف مجلد

(١) الوافى بالوفيات جـ ٤ ص ١٧٥ .
(٢) البدر الطالع الشوكانى جـ ١ / ص ٧٢ .
(٣) الخطط المقريزى جـ ٣ / ص ٣٣٤ .

لا تحسبوا كحل العيون بحيلة . إن المها لم تكتحل بالإثمد
ما النحل ذللت الهداية سبلها مثل الحمير تقودها للمورد(١)

فهو يرى أن علم الصوفية علم لدنى قذفه الله فى قلوبهم ، وأعفاهم من عناء الطلب والدرس فهم كالمها لم تكتحل ولكنها كحيلة العيون ، وهم كالنحل ذلل الله لها سبلها ، بخلاف الفقهاء الذين يتكلفون ذلك كالحمير التى تقاد دون أن تعرف طريقها .

إلا أن هناك من الفقهاء من اعتقد فى الصوفية اعتقادا حسنا ، ودافع عنهم ، وعما يدعونه من كرامات وخوارق . ومن هؤلاء الفقهاء تاج الدين السبكى . (٢) ومع ذلك فهو يرى أنه قد اختلط بالمتصوفة من ليس منهم ، ودخل فى صفوفهم قوم ليسوا من التقوى فى شىء جعلوا من دخول الخوانق وظيفة تحصل بها الدنيا ، لذلك نراه يفضح هؤلاء الدخلاء ، ويرميهم بشنيع القول :

«فهؤلاء القوم إذا اتخذوا الخوانق ذريعة للباس الزور ، وأكل الحشيش ، والانهماك على حطام الدنيا ، لا ستر هم الله ، وفضحهم على رءوس الأشهاد» .(٣)

والحقيقة أن مجتمع الصوفية قد اتسع لقوم لم يكونوا من الزهادة فى شىء ولم يكونوا على إدراك بمعتقدات القوم ، فتشوشت فى رءوسهم كثير من الأفكار ، ولعل ابن أبى حجلة التلمسانى كان يقصد بعض هؤلاء حين راح يعرض بجهلة الصوفية ودعواهم فى الحب الإلهى . وتنزيلهم له منزلة الحب

(١) الديوان ص ٧٦ .
(٢) انظر معيد النعم ص ١١٩ - ١٢١ .
(٣) معيد النعم ص ١٢٥ .

البشرى وما يكتنفه من غيرة المحب على المحبوب ، وذلك فى قوله «وهذه الغيرة تختص بالمخلوقين ولا تتصور فى حق الخالق لأنه سبحانه يجب على جميع المخلوقين أن يحبوه ويذكروه ويعبدوه خلافا لبعض جهلة الصوفية ممن كان إذا رأى من يذكر الله أو يحبه يغار منه ، وربما أسكته إن أمكنه ، ويقول غيرة الحب تحملنى على هذا ، وإنما ذاك حسد وبغى وعدوان ، ونوع معاداة لله ، ومزاحمة لطريق رسله ، أخرجوها فى قالب الغيرة ، وشبهوا محبته بمحبة الصورة» . (١)

وتفشت بين هؤلاء الدخلاء كثير من الأمراض الخلقية ، وانهمك كثير منهم على الحشيشة وغيرها من المفاسد ، لذلك كثر تعريض الأدباء بمثل هؤلاء من مدعى الزهد والتصوف ، فنرى سيف الدين المشد يعيب على الصوفية أكلهم الحشيش ، ويشبههم بالدواب :

أرى فقراءنا من كل علم ومن دين دوابا فى ثياب
يراعون الحشيشة حيث كانت وهل يرعى الحشيش سوى الدواب (٢)

ويسخر ابن دانيال الموصلى من صاحبه ابن قلية الذى ترك اللهو مزمعا التصوف ، ويبدأ ابن دانيال معلنا حزن مجالس اللهو على هذا الندم المفارق ، ثم ينتقل فيسخر من زهده الذى هو زهد التصنع والرياء :

وإذا ما خلوت فى خلوة المسجد قل للمريد عندى ضيوف
وإذا ما اخرجت كيسك بالمعلوم قل للحضور هذا سفوف

(١) ديوان الصبابه ص ٧٣ .
(٢) الديوان ص ٢٥

حبذا زهدك التليد فما أنت به في الشيوخ إلا طريف

ويخرج القول قليلا قليلا إلى الفحش ، وتبلغ السخرية مداها ، ويبدو لنا هذا الشيخ في النهاية وقد استبدل لونا من الفسق بلون آخر يقول ابن دانيال

أترجى منك الرجوع قريبا طمعا فيك والمحب عطوف
لا تقل قد لبست صوفا فإن الكبش جلبابه من القرن صوف
يطرب الضأن وهو مثلك في الألحا ن أسماع قومه والخروف
طار منك المقصوص في حلقك الر أس لزهد وفاتك المنتوف
هبك بدلت بالمدام حشيشا ثم آوى اليك علق نتيف
وتفننت في عميرة جلدا بعد جلد حتى يضج الكنيف
كيف يكفيك بعد أكلك للحلوا ء واللحم دقة ورغيف (١)

ولاشك أن هذه الأبيات تصور بعض الأمراض الخلقية التي تفشت في مجتمع المتصوفة آنذاك . إلا أننا ينبغي ألا نضيف أمثال هؤلاء من الدخلاء على مجتمع الصوفية أو على فكره ، ونحن بصدد دراسة الفكر الصوفي متمثلا فيما لدينا من أدب هذا العصر .

وحركة التصوف في مصر المملوكية ينبغي ألا تعزل عن إطارها التاريخي فهي ثمرة لشجرة تضرب بجذورها في أعراق القرن الأول الهجري حين بدأت الطريق تنحرف بالمسلمين عن الجادة التي مضى عليها الرسول — صلى الله عليه وسلم — وخلفاؤه الراشدون .

ومنذ ذلك الحين وهذه الشجرة آخذة في النماء ، تعلو فروعها ، وتتكاثر

---

(١) القصيدة كاملة في التذكرة الصفدية ح ١٤ ورقة ٥٥ .

أغصانها كلما اضطرمت نيران الصراع فى العالم الإسلامى ، وكلما فشا الجور ، واستبد الحكام ، وكأن هذه الشجرة إصبع احتجاج أو إدانة موجهة للواقع الإسلامى .

وأصبح المتصوفة ، يوما بعد يوم ، يتباعد ما بينهم وبين الواقع ، وكان الشعار الذى نقشوه على لوائهم «الفرار من الدنيا» كما يقول جولد تسيهر (١) وأصبحوا يتمثلون بعبارة تقول «وجودك ذنب لا يقاس به ذنب آخر» (٢) ، ثم جاء المتكلمون والفقهاء فزادوا من هوة الاغتراب الصوفى بما إنتهى اليه أمر الدين على أيديهم فالفقهاء حولوه إلى أمور شكلية ، والمتكلمون أشاعوا البلبلة فى الأفكار . (٣)

وهكذا أخذ المتصوفة عبر هذه القرون يطلبون لأنفسهم عالما آخر يستعيضون به عن الواقع ، ويلتمسون طريقاً آخر للمعرفة غير طريق العقل ومن ثم فتحوا نوافذهم لفلسفات وافدة ، وثقافات غريبة من هيلينيةومسيحية وغنوصية (٤) ما لبثت أن امتزجت بثقافاتهم الإسلامية ، وتخلق من كل أولئك خلق آخر تطالعنا به الآداب الصوفية .

وربما كان من المفيد هنا أن نشير إلى دور مصر فى ارساء قواعد الفكر الصوفى وبلورتها حتى ذهب بعض الباحثين إلى أن التصوف مصرى النشأة(٥) وعلى أى حال فإن مجتمع مصر المملوكية ، وما كان عليه من اختلال

---

(١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ١٣١ .

(٢) العقيدة والشريعة فى الاسلام جولد تسيهر ص ١٣٧ .

(٣) انظر : التصوف ثورة روحية فى الاسلام . ابو العلا عفيفى — ص ٧٥ وما بعدها

(٤) Nicholson, R.A.A Literary History of Anebs p.388—390

(٥) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ج ١ ص ١١ .

وفسان مد شعلة هذا الاغتراب الصوفى بزيت جديد ، فتوهجت نارها ، وسعى إلى ضوء هذه النار خلق كثير ممن أثقلت كاهلهم الحياة ، ورأوا فيها شرا لا صلاح له . فسلطة عسكرية مستبدة متناحرة ، تستأثر دون الشعب بكل شيء ، ومجتمع يرهقه العسف والذل ، وتفت فيه الأمراض الخلقية من نفاق ووصولية ، واستغلال وانحلال . وعلماء تهاونوا فى أمر الدين وأصبحوا يرخصون للأمراء مالا يرخصونه لعامة الناس . (١)

وعالم التصوف فى مصر المملوكية عالم زاخر نطل عليه من خلال أدب الصوفية لهذه الحقبة . على أن النفاذ إلى هذا العالم ليس سهلا فهو عالم محوط بالألغاز والرموز ، والمتصوفة لهم مجتمعاتهم الخاصة ، فقد عاشوا فى زواياهم وخوانقهم على نمط متميز فى الطعام والذكر والصلاة . وقد أورد ابن بطوطة وصفا مفصلا لهذه الحياة . (٢) وما أظن الحياة فى هذه الزوايا والخوانق إلا تعلقا بالمثل الأعلى للروح الإسلامية التى جمعت بين المهاجرين والأنصار فى مجتمع المدينة على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد حرص المتصوفة إمعانا منهم فى الاغتراب أن تكون لهم لغة خاصة ، ورموز يجهلها غيرهم ، ولنقرأ هذه الرسالة التى كتبها السيد إبراهيم الدسوقى إلى بعض مريديه :

«سلام على العرائس المحشورة فى ظل وابل الرحمة ، وبعد فإن شجرة القلوب إذا اهتزت فاح منها شذى يغذى الروح فيستنشق من لا عنده زكم ، فتبدو له أنوار وعلوم مختلفة ، مانعة محجوبة ، معلومة لا معلومة ، معروفة لا

---

(١) انظر معيد النعم ومبيد النقم ص ١٠٢

(٢) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٢٠ ط ١٩٥٨ ، ١٣٧٧ هـ .

معروفة ، غريبة عجيبة ، سهلة شطة ، فائقة طعم ورائحة وشم مم محل جميل جهد راب علوب ، نغط ، نبوط ، هوبط ، سهبط ، حرموا نحيط ، غلب عمن ، عسب ، غلب ، عرماد ، علمود ، على ، عروس ، علماس ، مسرود ورقد ، قد ، قرسم ، سباع ، سبع ، صبوغ » . (١)

وطبيعي ألا نفهم شيئا من ذاك . فهذا كلام أشبه بالرق أو التعاويذ السحرية التي يستدعي بها صاحبها قوى مجهولة .

ولم يقتصر أمر الغموض والإلغاز على مثل هذه الرسائل النثرية ، بل نجده في بعض أشعار القوم ، ولتقرأ معي للسيد محمد بن وفا قوله في تائيته :

وفى كل ذوق ذقت كل مذاقة ... فلى لذة اللذات فى كل لـذة
بكاسات كيسى كل كاس وكيس ... على كل شرب طاف من لطف شربتى
فسكران سكرى أسكر السكر سكره ... فنى كل سكران تساكر سكرتى
وصحوى بعد السكر كالصحو قبله ... وفى سكرتى صحو يصحح صحوتى
فسكرى بصحوى بعد كون تكونى ... وصحوى بسكرى قبل نشأة نشوتى (٢)

فنحن فى هذا النسيج التعبيرى نحس أننا إزاء عالم خاص تحولت فيه الألفاظ عن وظيفتها الأصلية من الإفهام والتوصيل إلى وظيفة أخرى من الإيحاء والإيهام بما تلقيه فى روع السامع من خلال تكوينات صوتية معقدة .

هو — إذن — عالم غامض ، وكأن المتصوفة أرادوا أن يجعلوا هذا العالم وقفا عليهم وعلى مريديهم . وإلى هذا يشير القشيرى فى رسالته إذ يقول :

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ح ١ ص ١٦٧ .
(٢) الديوان المنسوب إلى سيدى محمد بن وفا ورقة ٨٧ مخطوط ببلدية الاسكندرية .

«وهذه الطائفة مستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم ، (والإجماع)* والستر على من باينهم فى طريقهم لتكون معانى ألفاظهم مستبهمة على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع فى غير أهلها» . (١)

ولا تظنن عالم المتصوفة قائماً على غير نظام ، وإنما هو قد نظم بدقة بالغة ، فهو عالم يرأسه قطب الغوث الذى يحكم سبعة أقطاب ، يحكمون بدورهم سبعة أبدال ، هم بدورهم يحكمون أربعة أوتاد . فإذا مات قطب الغوث حل قطب من الأقطاب مكانه ، وحل بدل من الأبدال مكان القطب ، وحل وتد مكان البدل ، وعلى قمة هذا العالم الباطنى يشرف الخضر ، يقول الأستاذ الدكتور محمد زغلول معلقا على ذلك : «ومن هذا التقسيم أو البناء التصاعدى «الهيراركى» يتضح أن عالم الصوفية ملك قائم بذاته فى دنيا الحقيقة على رأسه الخضر ، ومن تحته مساعدون وأتباع من الأغواث والأبدال والأبواب والأقطاب ، وأرفع هؤلاء درجة من كان يعيش بمكة مجاورا ، وبهذا كان أمل الصوفية وغايتهم جوار مكة زمنا لينالوا الحظوة فى بيت الله . وهناك يكونون أقرب ما يكون إليه » . (٢)

والخضر الذى يشرف على هذا العالم إنما هو تجسيد لفكرة الخير المطلق ، والمعرفة الكاملة ، والمتصوفة يزعمون أن الخضر هو الذى صاحب موسى — عليه السلام — فى رحلة البحر ، غير أن القرآن الكريم لم يرد فيه هذا الاسم . وأظنه تسرب إليهم من بعض الأساطير القديمة عن الإسكندر ذى القرنين الذى شرب طاهيه من ماء الخلود فاخضر لونه ، ومن هنا سمى بالخضر .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣١ .
* هكذا فى النسخة التى بيد أيدينا ولعلها «والإعجام» .
(٢) الأدب فى العصر المملوكى جـ ١ ص ١٩٩ .

ولعل الصوفية أقاموا الخضر فى عالمهم مقابلا لإبليس الذى يجسد فكـرة الشر ، ومما يدل على ذلك قول ابن عطاء الله السكندرى :

«فاعجبوا — رحمكم الله — لرجل يصدق بطول بقاء إبليس وينكر طول بقاء الخضر» . (١)

وعلاقة الخضر بالولى — فى معتقدهم — كعلاقة جبريل بالرسول يمـده دائما بمدد سماوى كما يقول محمد بن وفا :

لـكل ولى فى الـورى خضر كما ... لـكل رسـول جبرئيـل بنسبـة

لـه يتجـلى مـن قـواه لفعلـه ... نواميس حق لا تراب بريبـة (٢)

وينبغى ألا نقيس كل أمور الصوفية بمعايير الدين ، ولا أن نتصدى لكل ما يقولون أو يدعون بما فى يدينا من كتاب الله وسنة رسوله ، وإنما ينبغى أن نأخذ كثيرا من حديثهم على أنه ألوان من التصوير الفنى ، فما الخضر وغير الخضر إلا تجسيدات فنية لأحاسيس وطموحات تعيش فى نفوسهم . وهى — فيما أعتقد — تمثل واقعا وجدانيا لا واقعا دينيا . (٣)

وبمنطق الفن وحده ينبغى أن نناقش ما يحكيه الصوفية من كرامات ، وخوارق فهى ليست إلا لونا من ألوان التعبير الفنى «يصعد بالإنسان فـوق حدود طاقته البشرية ، ولا يتخذ من عالم الحس حدودا لعمله ، وإنما يسخره للتعبير عن تهويماته وتصوراته ومعانيه العليا ، فيرمز من خلاله إليها حينـا ، ويصورها حينا آخر ، تلهب العاطفة المشبوبة خياله فتدفعه إلى المطلق الـذى ينحسر العقل دون إدراكه .» (٤)

---

(١) لطائف المنن ص ٨٣ .

(٢) الديوان المنسوب لابن وفا ص ٨٠ .

(٣) انظر : بحار الحب عند الصوفية — أحمد بهجت ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٤) لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربى وبعده د. عبد الحميد عابدين ص ١٢٧ .

وإذا نظرنا إلى الكرامات التى يرويها الصوفية عن عارفيهم وأوليائهم وجدناها جميعا تنبع من منبع واحد ، وتتجه وجهة واحدة ، بل كثيرا ما تنسب الكرامة الواحدة لأكثر من ولى ، وعلى هذا فهى جميعا تتعاون على إبراز صورة واحدة بصرف النظر عمن تنسب ، ومن ثم ينبغى أن ننظر إليها كلها على أنها لوحات فنية يكمل بعضها بعضا . وتعطينا فى النهاية صورة الولى أو العارف أو (البطل) الذى يتشوف إليه الصوفية ليزيل ما بهذا الكون من شرور ، ويصلح ما به من فساد .

ولأن الفساد قد استشرى فى الكون فلابد أن يكون هذا البطل خارق الأفعال والصفات ، لا تقيده قيود ، ولا تعوقه عوائق ، أيا كان كنه هذه القيود والعوائق ، وسواء تمثلت فى الزمان والمكان ، أم تمثلت فى الجسد الكثيف وقيوده ، ولابد — أيضا — أن يكون هذا البطل مؤيدا بقوى علوية تعينه وتحفظه ، وتحطم أمامه الصعاب .

ويروق للصوفية أن يسبق ميلاد ذلك البطل شيء خارق لأنه انسانخارق أو نبؤة تتنبأ بحدث عظيم لأن ميلاده حدث عظيم . فقد قيل — فيما قيل — عن التبشير بمولد السيد إبراهيم الدسوقى :

«إن العارف بالله تعالى محمد بن هارون صاحب الوقت بسنهور بالقرب من دسوق منشأ الأستاذ كان إذا رأى والد الأستاذ أعنى أبا المجد قام له ، ثم ترك ذلك ، فسئل ، فقال : ما كان القيام له بل كان لبحر فى ظهره : وقد إنتقل إلى زوجته» . (١)

---

(١) لسان التعريف بحال الولى الشريف : احمد جلال الكركى ص ٣٣ ، ٣٤ .

فكأن الدسوقى هو الكلمة (Logos) ، أو النور الذى يتحدر فى الأصلاب ليكون خليفة الله فى الأرض ، أو الرجل الإلهى .

وتمضى الرواية فتأتى بخارقة أخرى ، فهذا الطفل الوليد ولد يوم وقوع الشك فى هلال رمضان فقال ابن هارون :

«انظروا هذا الصغير هل رضع اليوم ؟ فأخبرت والدته أنه من الأذان قد فارق ثديها ولم يرضع» . (١)

فتحقق من أن ذلك اليوم هو أول رمضان ...

وهكذا تمضى الرواية ، ولعلنا نشم فيها ريحا مسيحية ، ولكنها رؤية الفن لهذا البطل المرتقب الذى يخلص العالم من شروره .

وحين يبلغ الوليد (البطل) أربع سنوات تطوى له الأرض من المشرق إلى المغرب ، ويجول فى الملكوت ، وينتهى إلى سدرة المنتهى ، ويكشف له عن اللوح المحفوظ ، فتنحل له طلاسم الأشياء ، وتصبح الدنيا فى يدم كحلقة الخاتم يحرك فيها ما يحرك ويسكن ما يسكن . (٢)

هو إذن انسان اصطفاه الله لهذه المهمة فجذبه إليه ، وأفنى فيه رغباته الشهوانية المتمثلة فى جسده ، يقول الدسوقى :

«لقد أخذنى حبيبى من إياى ، وسلبنى عن معناى ، وأفنانى عن فناى»(٣)

وهذا الولى مزود بقوى خارقة فهو يطير فى الهواء ، ويمشى على الماء ،

---

(١) لسان التعريف بحال الولى الشريف ص ٣٤ .

(٢) أنظر المصدر نفسه ص ٤٠ ، ٤١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٠ .

ويفهم لغة الوحش والطير ، ويتكلم بكل لسان ، وتسخر له الجن ، ويتحمل مالا يقدر عليه بشر من الجوع والعطش ، وهو — فضلا عن ذلك — قادر على التنبؤ بما كان وما سيكون .

ومع أن الولى أتيح له فى نظر الصوفية طي المكان والزمان ، فهم يرون أن الأهم من ذلك قهر الولى لنفسه وهواه ، وهم فى ذلك يجسدون تعلقهم بالمثل الأعلى الذى يطمحون إليه فى البطل المخلص ، وربما كان ذلك لعظم إحساسهم بأن فساد العالم لم يأت إلا من انغماس حكامه فى الترف ، واستجابتهم لنداء الرغبة فى أجسادهم .

فيحكى عن أبى العباس المرسى أنه قال :

«كنت ليلة من الليالى جالسا بالإسكندرية اكتب كتابا لبعض أصحابنا وإذا بالشيخ خليل هذا فى الهواء (يقصد خليل النشيلى) فقلت له : إلى أين انتهيت فى سياحتك فى هذه الليلة ؟ فقال : خرجت من نشيل ، وانتهيت إلى جبال الزيتون بالمغرب الأقصى ، وأنا أريد أذهب إلى بيت المقدس ، وأعود إلى بلدتى ، ولو بسط لى أكثر من ذلك لانبسطت . قال الشيخ : فقلت له : ليس الشأن أن تذهب إلى جبال الزيتون وتعود من ليلتك ولكن أنا الساعة لو أردت أن آخذ بيدك ، وأضعك على «قاف» وأنا هنا فعلت ». (١)

أرأيت إلى أبى العباس يستهين بالنشيلى وقد طويت له الأرض ذات الطول والعرض ؟ وما ذلك إلا لأنه يرى أن العبرة بطى النفوس لا بطى الزمان والمكان فالشيطان — على حد قول أحد أقطابهم — يمشى فى ساعة من المشرق إلى المغرب . (٢)

---

(١) الطائف المنن ص ٩٧ .
(٢) العريف بحال الولى الشريف ٤٦ .

فالطى إذن نوعان ، طى أكبر ، وطى أصغر ، أما الأصغر فهو طى الزمان والمكان ، وأما الأكبر فهو طى أوصاف النفوس ، والعزوف عن رغبات الجسد . ولعل هذا هو ما عبر عنه البوصيرى حين وصف أبا العباس بقوله :

مغرى بقتل النفس عمداً وهو لا ... يعطى إلى القود القياد ولا اليد
لله مقتول بغير جناية ... كلف بحب القاتل المتعمد
ما زال يعطفها على مكروهها ... حتى زكت وصفت صفاء العسجد
وأجيب داعيها لرد مشرد ... من أمرها طوعا وجمع مبدد
لم تترك التقوى لها من عادة ... ألفت ولا لمريضها من عود(١)

وإذا كان حكام الأرض قد عتوا فى تجبرهم وبغيهم ، وانتفت الرحمة من قلوبهم ، فينبغى أن يكون الولى ممثلا للصورة المقابلة من الرحمة والإيثار . ولنقرأ هذه المناجاة للدسوقى :

«اللهم إن كنت خلقتنى من أهل الجنة فلك الحمد ، وإن كنت خلقتنى من أهل النار فضخم الله بدنى . قيل لى : يا إبراهيم ، وما مرادك بتضخيم البدن ؟ قلت : يارب حتى لا يدخل أحد جهنم غيرى فأكون فيها موحدا فداء جميع خلقك» . (٢)

أرأيت إلى هذا الحوار النفسى الذى يسميه الصوفية مقاما من مقامات التجلى ؟ فهل هذا التجلى إلا جلاء النفس ، وانطماس ما بها من الأثرة ، وسمو الإنسان على ذاته ، ووأده لصوت «الأنا» فى داخله ؟ فإذا كان ولابد من عذاب فليحمل هو وحده عذاب البشر ، وليكن هو مخلصهم من الخطايا .

---

(١) ديوان البوصيرى ص ٧٥ .
(٢) لسان التعريف بحال الولى الشريف ص ٤٦ .

وقد يفيد الشعر الذى نظمه من اعتقد المتصوفة فى قطبانيتهم فى إكمال بعض جوانب هذه الصورة أو إيضاحها . يقول السيد أحمد البدوى محدثا عن نفسه :

لم يشرب العشاق من بحر الهوى … إلا بقية نقطة من طينتى
سكروا بها فتهتكوا وتصنعوا … وأنا طويت الحب تحت طويتى
فقرأت من توراة موسى تسعة … تليت على موسى لها لم يثبت
وقرأت من إنجيل عيسى عشرة … تليت على عيسى فزادت رفعتى
وقرأت من نهج الغرام مسائلا … وأتيت فيها من شواهد فطنتى

ثم :

أنا صاحب الناموس سلطان الهوى … أنا فارس الأنجاد حامى مكة
أنا أحمد البدوى غوث لا خفا … أنا كل شبان البلاد رعيتى (١)

ويدور الدسوقى حول هذه المعانى فيقول :

نعم نشأتى فى الحب من قبل آدم … وسرى فى الأكوان من قبل نشأتى
أنا كنت فى العلياء مع نور أحمد … على الدرة البيضاء فى خلويتى
أنا كنت فى رؤيا الذبيح فداءه … بلطف عنايات وعين حقيقة
أنا كنت مع إدريس لما أتى العلا … وأسكن فى الفردوس أنعم بقعة
أنا كنت مع عيسى على المهد ناطقا … وأعطيت داودا حلاوة نغمة
أنا كنت مع نوح بما شهد الورى … بحاراً وطوفانا على كف قدرة
أنا القطب شيخ الوقت فى كل حالة … أنا العبد إبراهيم شيخ الطريقة (٢)

وسيقال : هذه هى فكرة الحقيقة المحمدية التى نادى بها المتصوفة ، والتى

---

(١) الأدب الصوفى لعلى صافى حسين ص ٣٧٠ .

(٢) الأدب الصوفى د. على صافى حسين ص ٣٧٣ .

تعنى أن الولى نطفة مطهرة حلت فى ظهر آدم ، وتنقلت فى الأصلاب الطاهرة حتى تجسدت فى شخص العارف . وسيقال : إن المتصوفة فى ذلك تأثروا بالمسيحية وتصورهم للكلمة « Logos » ، وسيقال : إن هذا أثر من آثار الشيعة وتصورهم للإمامة . ونحن نسلم بكل هذا ، ولكنه لا ينفى أن ذلك التصور الذى رأيناه فى شعر الأقطاب هو أولا وقبل كل شىء واقع نفسى يعيشه العارف ، فيشعر بالانتشار عبر الزمان والمكان ، وبتجاوزه للحدود المعروفة فى عالم البشر ، بل ربما أحس أنه ملك الأرض كلها ، وحاكم الإنس والجان والأشباح ، فهو الإنسان الكامل الذى أعطاه الله مقاليد الكون ، وعاهده على خلافته فى الأرض كما يقول الدسوقى :

وعاهدنى عهداً حفظت لعهده ... وعشت وفيا صادقا بمحبتى
وحكمنى فى سائر الأرض كلها ... وفى الجن والأشباح والمردية
وفى أرض صين الصين والشرق كله ... لأقصى بلاد الله صحت ولايتى(١)

هذه هى صورة الولى أو العارف التى عاشت فى وجدان المتصوفة ورأوا فيها تصويرا لبعض طموحاتهم التى أصابها الإحباط فى دنيا الناس .

وإذا كانت السعادة العظمى هى غاية الصوفية على حد قول الدكتور توفيق الطويل (٢) ، فإن هذه السعادة لا تتحقق إلا بسلوك طريق طويل أو معراج روحى ينتقل فيه السالك من مقام إلى مقام ، ومن مرحلة إلى مرحلة . وفى أثناء ذلك تعتريه أحوال ومواجد ، ولذلك كان الصوفية يرون أنفسهم دائما أهل سفر .

---

(١) الأدب الصوفى د. على حسين ص ٣٧١ .
(٢) فلسفة الأخلاق عند الصوفية . مقال فى كتاب محيى الدين بن عربى فى ذكراه المئوية الثامنة ص ١٦٤ .

وبالمجاهدة تتم حرية الانسان ، حيث ينتصر على رغباته وشهواته ، ويقطع رجاءه بدنيا الناس . فهى سعادة إذن مدخلها الحرية ، والحرية فى نظر المتصوفة كما عبر عنها القشيرى هى «أن لا يكون العبد بقلبة تحت رق شىء من المخلوقات لا من أعراض الدنيا ولا من أعراض الآخرة فيكون فرد الفرد لم يسترقه عاجل دنيا ، ولا حاصل هوى ، ولا آجل منى ، ولا سؤال ولا قصد ولا أرب ولا حظ» . (١)

ومن هنا دعا المتصوفة إلى الهرب من دنيا الناس خيرها وشرها . يقول أبو الحسن الشاذلى : «اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم فإن خيرهم يصيبك فى قلبك ، وشرهم يصيبك فى قالبك ، ولأن تصاب فى بدنك خير من أن تصاب فى قلبك» . (٢)

ومن هنا أيضا كانت دعوتهم إلى تحقير الدنيا ونبذها فإن العزة بها ذل ، والوجد بها فقد . ومن كلام الشاذلى :

«اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا ، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا ، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلا تصحبه لطائف رحمتك ، وكل وجد حجب عنك فنسألك عوضه فقدا تصحبه أنوار محبتك» . (٣)

والذل أن يعلق الإنسان رجاء على إنسان مثله مخلوق لا يملك من أمر نفسه شيئا ، فلم لا يصون الإنسان نفسه عن الناس ويتجه إلى خالق الناس . فتمام الحرية أن تصدق عبودية الإنسان لله ويتخلص من رق الأغيار على حد قول القشيرى (٤) ، وهذا ما يعبر عنه ابن عطاء الله السكندرى بقوله :

(١) الرسالة القشيرية ص ١٠٠ .
(٢) لطائف المنن ص ١٣٩ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٤٠ .
(٤) الرسالة القشيرية ص ١٠٠ .

لم لا أصون عن الـورى ديباجتى ... وأريهم عز الملـوك وأشرفـا
أأريهم أنى الفقـير إليهـم ... وجميعهـم لا يستطيـع تصرفـا
أم كيف أسأل رزقـه مـن خلقـه ... هذا لعمرى إن فعلت هو الجفـا
شكوى الضعيف إلى ضعيف مثلـه ... عجز أقام بحامليـه عـلى شفا (١)

وفى هذا يقول أيضا :

أيحسن أنى إذ نزلت بداركـم ... أوجـه يومـا للعبـاد رجـائى
بـلى إننـى ألـوى إليـك بهمـة ... أخلف فيهـا مـا سـواك ورائى(٢)

ويقول من حكمه :

«لا ترفعن إلى غيره حاجةهو موردها عليك فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعا . من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا» . (٣)

وصدق العبودية يقتضى أن يسقط العبد تدبيره ، ويمتثل لقضاء الله فيه . حينئذ تسقط كل المخاوف ، أو قل تصبح المخاوف كلها أمانا . أيخاف فقرا ؟ والفقر والغنى بيد الله .. أيخاف سلطانا ؟ ولا سلطان على هذه الأرض إلا لله . ثم ما الغنى وما الفقر ؟ وما الجاه وما السلطان ؟ إن كل أولئك لمع آل ، وبرق يسبى العيون بظاهره ، والباطن لا يعلمه إلا الله ، وربما كان الغنى هو الفقر وكان الافتقار فى الغنى . ولنقرأ لابن عطاء الله قوله :

ولا تحزن إذا ما ضـاق عيـش ... فتحرم رتبـة الرجـل اللبيب
وكم لطف خـفى فى كفـاف ... وكم لله مـن سـر غريـب

---

(١) لطائف المنن ص ١٣٦ .
(٢) لطائف المنن ص ١٣٢ .
(٣) حكم ابن عطاء الله السكندرى شرح الشرنوبى ط القاهرة ص ٣٢ .

وكم من محنة فى اليسر تردى ... وتمنع عنك موفور النصيب(١)

وفى ظلال هذا العالم الآمن لا ينبغى أن يشغل الإنسان نفسه بشىء لا بما مضى ولا بما آت . ولهذا قيل : «إن الصوفى ابن وقته» وقيل : «الفقير لا يهمه ماضى وقته وآتيه بل يهمه وقته الذى هو فيه» . (٢)

وإسقاط التدبير بعبارة أخرى معناه حجب العقل ، فالصوفية لا يثقون بالعقل هاديا ، وهذا هو جوهر الخلاف بينهم وبين الفقهاء وأهل الكلام . فالفقهاء أرادوا أن يخضعوا الدين لمقاييس العقل ، والمتكلمون أرادوا أن يصلوا إلى كنه الله بالعقل . أما المتصوفة فيرون أن العقل محدود ، والمحدود لا يدرك غير المحدود . وكيف يخوض العقل لجة المعارف وسفائنه خلقت لغيرها كما يقول عفيف الدين التلمسانى :

وكيف يعرف بحراً مثل لجته ... من ليس يحرك من مجرى سفائنه(٣)

وحجب العقل فى عالم المتصوفة فتح لباب الأمل على مصراعيه ، وكسر لرتابة المنطق فى عالم الواقع . فالصوفى لا يريد أن يربط بين المقدمات والنتائج أو بين الأسباب والمسببات ، ولكنه دائما مترقب للمفاجأة يردد مع الشاعر قوله :

دع المقادير تجرى فى أعنتها ... ولا تبيتن إلا خالى البال

ما بين طرفة عين وانتباهتها ... يبدل الله من حال إلى حال

لذلك نرى المتصوفة يفرون من العقل ، بل من هؤلاء الذين يتخذونه دليلا للمعرفة ، يقول التلمسانى :

---

(١) الأدب الصوفى فى مصر د. على صافى حسين ص ٣٦٦ .
(٢) الرسالة القشيرية ص ٣٠ ، ٣١ .
(٣) ديوان عفيف الدين التلمسانى ص ١٧ .

وقد وقفت لعقلي في شهودكـــم إذ ختتـــه والوفـا وصف لخائنـــه
هربت حـــين تعاطـــاني لسلوتكم منه هروب غريم من مداينـــه (١)

وإذا كان المتصوفة قد أغرموا بالرمز والإشارة ، فما أظن حديثهم عن العذل وأصحابه إلا إشارة لهؤلاء الذين يرفعون شعار العقل . وانظر إلى قول عفيف الدين التلمساني :

دعـوا منكـرى فـوزى بها يتفطروا يحـق لهـا تيك القلوب انقطارهـا
وقالوا : انكسار في زجاجة عقلـه وما صحة الأجفان إلا انكسارها(٢)

فمن هؤلاء المنكرون ، أليسوا هم أهل العقل ؟

وإذا كان العقل هو الذى يمسك على الإنسان اتزانه ، ويحفظ عليه وقاره في عالم المادة ، فما أظن دعوى المتصوفة إلى التهتك وخلع العذار ، ونبذ الوقار إلا تحقيرا من شأن العقل ، وحطا من سلطانه . وعلى هذا ينبغي أن نفهم قول عفيف الدين التلمساني :

إن تكـن مغرما بـذاك العـــذار فالبس الوجـد خالعـاً للعـــذار
وأت حانات حبهـا يا نديمـــى بائعا بالعقـار ثـوب الوقـــار
وتورع مـــن التـــورع فيهـــا واصرف الهم بالكئـوس الكبـار
نحن قـــوم بهـــا شربنـــا وطبنـــا ورمينـــا بـرى تـــلك الجـــمار(٣)

وإذا كان الصوفية يدعون إلى الحب قواما للعلاقة بين الإنسان وخالقه فما ذلك أيضا إلا اتقاء لهجير العقل ، واحتماء بواحة القلب الحانية الظلال . ألم

---

(١) ديوان العفيف ص ١٥ .
(٢) ديوان العفيف ص ٨ .
(٣) ديوان العفيف ص ٢٥ .

يكن العقل أداة الفقهاء فى تحويل الدين — على زعم القوم — إلى أمور شكلية ، وإلى علاقة تقوم على الخوف والرهبة بين الإنسان وربه ؟ ومن هنا نحس أن القوم فى دعواهم إلى الحب يريدون أن يبعثوا النبض فى شرايين الدين التى تصابت — كما زعموا — على أيدى الفقهاء . فهل الحج مثلا مجرد طواف حول الكعبة ، والقلب خرب مقفر ، أو هو الحب أولا لصاحب هذا البيت . ولعل فى هذا ما يلقى الضوء على قول أبى العباس :

لست من جملة المحبين إن لم أجعل القلب بيته والمقاما
وطوافى إجالة السر فيه وهو ركنى إذا أردت استلاما (١)

ولعل فيه أيضا ما يفسر قول عفيف الدين التلمسانى :

ولا سعى بى إلى بين الصفا قدم ومروة لسوى قلبى وساكنه
ولا أفضت سوى دمعى لمزد لفى إلا لأرمى حصاة عن مواطنه
ولا حلقت ولا قصرت ثم سوى شعور قلبى بنائية وظاعنه (٢)

إذن هو عالم عامر بالحب ، ومن لم يعمر قلبه الحب فهو آثم ، وكل قلب ليست فيه صبوة فما هو بقلب كما يقول عبد الغفار بن نوح القرصى :

أنا أفتى أن ترك الحب ذنب آثم فى مذهبى من لا يحب
ذق على أمرى مرارات الهوى فهو عذب وعذاب الحب عذب
كل قلب ليس فيه ساكن صبوة عذرية ما ذاك قلب (٣)

وهذا الحب تتسع دائرته فتشمل الكون كله خيره وشره ، أفليس هذا الكون مرايا تعكس قدرة الخالق وكماله ، وأعيانا تتراءى عليها أنوار ذاته .

---

(١) لطائف المنن ص ٢٣٤ .
(٢) ديوان العفيف ص ١٦ .
(٣) الطالع السعيد ص ٣٢٤ .

إن الله هو الوجود الحق ولا وجود لسواه ، ومن ثم فالصوفى يرى كل الكون وحدة واحده ، يرى الله ولا يرى بعده شيئا وهذا ما يسمى بوحدة الشهود ، أو يرى الله متمثلا فى كل شىء وذاك هو وحدة الوجود . فمن القول بوحدة الوجود أبيات التلمسانى التى تقول :

شهدت نفسك فينا وهى واحدة   كثيرة ذات أوصاف وأسماء
ونحن فيك شهدنا بعد كثرتنا   عيناً بها اتحد المرئى بالرائى
فأول أنت من قبل الظهور لنا   وآخر عند عود النازح النائى
وباطن فى شهود العين واحده   وظاهر لا بمماراة لإبداء
أنت الملقن سرى ما أفوه به   وأنت نطقى والمصغى لنجوائى(١)

وإذا كان الأمر كذلك فقد سقطت قضية الشر فى عالم المتصوفة ، وما نراه من معانى الشر ليس إلا وهما ، يقول ابن عطاء السكندرى :

«ومن عرف الله تعالى أفسد عليه باب الانتصار لنفسه إذ العارف اقتضت له معرفته أن لا يشهد فعلا لغير معروفه فكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعلا فيهم» . (٢)

وبناء على ذلك أيضا يسقط التكليف ، ويسقط الحساب والعقاب ، وتمحى الفوارق بين الأديان ، ويصير الأمر كما صوره ابن عربى :

لقد صار قلبى قابلا كل صورة   فمرعى لغزلان ودير لرهبان

أو كما يصوره نجم الدين ابن إسرائيل :

وأرضى بدين المانوية شرعة   ودينى فى حبيه دين موحد (٣)

---

(١) ديوان العفيف ص ٧٩ .
(٢) لطائف المنن ص ٢٧ ..
(٣) الديوان المنسوب لابن وفا ص ٦ .

فهل ما ذهب إليه المتصوفة من القول بوحدة الوجود كان — كما يرى الدكتور عبد اللطيف حمزه «نوعا من السمو الروحي والعقلى فوق جميع العصبيات الدينية المختلفة ، وهى العصبيات التى ولدت بين أهل هذه الديانات حروبا طاحنة منها الحروب الصليبية» ؟ . (١)

هذا احتمال جائز ربما يقويه أن القول بوحدة الوجود نشأ فى ظل الحروب الصليبية ، وأول من قال به ابن عربى .

وهكذا نمضى مع الصوفية فنحس أن قضية الاغتراب عندهم بدأت فى إطار اجتماعى كلون من التمرد على الواقع أو الثورة عليه ، ولكنها أخذت تنمو مستحيلة إلى غربة كونية «قوامها الهرب من هذا الوجود الحسى بوصفه غريبا وغير أصيل بالرجوع إلى الله والفناء فيه بوصفه الوجود الحق ، أو — على حد تعبير الصوفية — الوطن الأصلى» (٢) ويصبح الفناء هو السبيل «لتجاوز — الانفصال من أجل الوحدة شهودية كانت أو وجودية بين الله والإنسان».(٣)

وإذا كان الموت يمثل لكثير من بنى البشر قضية مؤرقة ، فإن هذه القضية محلولة كما نرى فى عالم المتصوفة . إنهم لا يخافون الموت بل ينشدونه ، والفناء من مطالبهم ، وهو فى نظرهم معبر الوصول إلى الجمال المطلق الذى ينشدونه وإنهم يمعنون فى طلب هذا الموت بألوان المجاهدة وصنوف المكابدة . يقول عفيف الدين التلمسانى :

هل السلامة إلا أن أموت بهم ... وجداً وإلا فبقيائى هو العطب

إن يسلبوا البعض منى والجميع لهم ... فإن أشرف جدى الذى سلبوا (٤)

(١) الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى ط أولى ص ٩٥.

(٢) الاغتراب د . محمود رجب ص ١٨٠ ط منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٨ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٨١ .

(٤) ديوان العفيف ص ٨٤ .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى :

«فإذا الولى على الحقيقة لا يكره الموت إن عرض عليه ، وقد أحب الله من لا محبوب لو سواه ، وأحب له من لا يحب شيئاً لهواه ، وأحب لقاه من ذاق أنس مولاه» . (١)

والوجود الجسمانى عائق يبعد الإنسان عن وجوده الحقيقى المتمثل فى الاتصال بالحقيقة المطلقة . يقول عبد العزيز بن أبى فارس :

وجدت بقائى عند فقد وجودى — فلم يبق حد جامع لحدودى
وألفيت سرى عن ضميرى ملوحا — برمز إشاراتى وفك قيودى
فأصبحت منى دانياً بمعارفى — وقد كنت عنى نائيا بوجودى(٢)

أفبعد ذلك يكون للموت حساب فى نظر القوم ؟! وهكذا تتداعى كل المخاوف واحدة إثر واحدة ، ويخيم السلام على هذا العالم الباطنى .

إن الفارق بين عالم المادة الذى نعيش فيه وعالم الحقيقة الذى يعيشه المتصوفه بوجدانهم هو الفارق بين الحلم واليقظة ، أو بين النوم والصحو ، أو بين الظاهر والباطن . ومن هنا فلا حضور فى أحدهما إلا بالغيبة عن الآخر . وهذا عفيف الدين التلمسانى يرى أنه كان فى حلم وأفاق ، وحين تفتحت عينه على الحقيقة نسى كل ما يتعلق بعالم الحلم ، نسى حتى نفسه :

كنت قبل اليوم فى حلم — وتقضى ذلك الحلم
وحبيبى من لبهجته — أنا والأشواق نحتكم
كيف أخفى والغرام له — شاهدان : الدمع والسقم

---

(١) لطائف المنن ص ٤٩ .
(٢) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى — ص ٢ — ص ٤٨٤ .

أنا عني اليوم في شغل فاعذروني إن نسيتكم (١)

والقوم في سبيلهم إلى الحقيقة المنشودة يسبحون في بحار من الشوق إلى الشاطىء حيث لا شاطىء ، وإلى الحياة حيث الفناء ، وإلى الشهود حيث الغيبة وتبدو لهم الحقيقة سافرة محجبة ، بعيدة قريبة ، فلا تسمع منهم إلا أنغاما مغتربة كأنها تراتيل تقدس الجمال وتسبح له . يقول ابن عطاء الله السكندرى :

«اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه ، والواصلون لهم أنوار المواجهة فالأولون للأنوار ، وهذه الأنوارلهم ، لأنهم لله لا لشىء دونه ، قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون» . (٢)

ويقول :

«الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه ، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده ، فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بحسب الآثار» . (٣)

وهكذا فنحن نرى بصر القوم شاخصا دائما إلى النور ، يلوح لهم فيندفعون نحوه أو يجذبون إليه ، وفي سبيل الوصول إليه يهون الألم ، ويعذب العذاب ، ويحلو السقم . يقول الحيمى :

كلفت ببدر من مبادى الدجى بدا فعاد لنا ضوء الصباح كما بدا
وحجب عنا حسنه نور حسنه فمن ذلك الحسن الضلالة والهدى
فيا عاذلى دعنى ونار صبابتى عليه فإنى قد وجدت لها هدى

(١) ديوان العفيف ص ٤٦ .
(٢) حكم ابن عطاء الله ص ٢٧ .
(٣) حكم ابن عطاء الله ص ١٤ .

وهاك يدى إنى على ترك حبه ... مدى الدهر لا أعطيك ياعاذلى يدا
فيا نار قلبى حبذا أنت مصطلى ... ويادمع عينى حبذا أنت موردا
ويا سقمى فى الحب أهلا ومرحبا ... ويا صحة السلوان شأنك والعدا
فلست أرى عن ملة الحب مائلا ... وكيف ونور العامرية قد بدا (١)

ونراه فى قصيدة أخرى يقف فى ضراعة متوسلة ممتثلا لما يشاؤه هذا المحبوب ، راضيا منه بالبعد وبالهجر وبالاحتجاب ، فحسبه أن المحبوب يملأ عليه كيانه ، فهو قريب منه على رغم البعد ، ومتصل به على رغم الهجر ، ومشاهد لحسنه على رغم الاحتجاب :

إن كان يرضيهم إبعاد عبدهم ... فالعبد منهم بذاك البعد مقترب
والهجر إن كان يرضيهم بلا سبب ... فإنه من لذيذ الوصل محتسب
وإن هموا احتجبوا عنى فإن لهم ... فى القلب مشهود حسن ليس يحتجب
قد نزه اللطف والأشواق بهجته ... عن أن تمنعها الأستار والحجب (٢)

وأما عفيف الدين التلمسانى فيتمنى طيفا من المحبوب وأنى له النوم ؟ ولكن رغم سهاده فهو راض به بل يرى فى الموت لذة ، وفى النار بردا وسلاما :

ردوا الكرى إن كان عز وصالكم ... فعسى تمثله لى الأحلام
لو لم يلذ الموت فى حبى لكم ... لم أصب نحو البرق وهو حسام
ولما اعترضت بنار قلبى للهوى ... ولكل نار بالنسيم ضرام
صب يرى نار الصبابة أنها ... فى حبكم برد له وسلام
حفظ المودة زاده ولحبذا ... فى الزاد حفظ مودة وذمام
وإذا أتتكم أمة بإمامها ... وافيتكم ولى الغرام إمام

---

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ٣٩٢ .
(٢) المنهل الصافى ج ٣ — ورقة ١٢٧ أ .

هـذا دمى لـكم الحـلال وإنمـا　　عنـكم فسلـوانى عـلى حرام(١)

ويعلم كل واحد من هؤلاء أنه ليس وحده فى ميدان هذا الحب، ولذلك يحاول — دائما — إظهار سبقه فى المضمار وتفوقه على الأقران ، وانظر إلى قول تقى الدين السروجى :

أنعم بوصـلك لى فهـذا وقتـه　　يكفى من الهجران ما قد ذقتـه

يـا مـن شغلـت بحبـه عـن غيره　　وسلوت كل الناس حـين عشقته

أنفقت عمرى فى هـواك وليتـنى　　أعطى وصولا بالـذى أنفقتـه

كم جـال فى ميـدان حبـك فارس　　بالصدق فيك إلى رضاك سبقته (٢)

وإذا كان يروق لشعراء الصوفية أن يمثلوا الجمال المطلق أو يرمزوا إليـه بصورة المرأة ، فهم يلمون بأوصافها الجسدية إلماما محلقا ، فلا يلبثون أن يصفوا شيئا من جمالها المادى حتى يحلقوا بروحهم متجاوزين المادة ، وكأنهم بذلك يلفتون النظر إلى أن هذا الجمال المادى ليس هو المقصود لذاته ، بل هو صورة مقربة ، ولا ينى الشاعر بين حين وحين أن يذكر من الألفاظ مايرفعنا عن عالم المادة ، ويسمو بنا إلى رحاب قدسية ومن ثم فهو يطرز شعره بألفاظ لها دلالتها الدينية كأن يذكر بعض أماكن الحجاز التى يمر بها الحجيج. يقول ضياء الدين على الخزرجى السكندرى (ت ٦٨٦ هـ) :

ما الحمى ما المنحنى مـا حاجـر　　مـا مـنى مـا خيفهـا مـا المشعـر

هـى أو طـانى ولكـن غـلتى　　بسوى سـكانها لا تفـتر

قلـت لمـا لمعـت عنـد الحمى　　نار ليلى : صاحبى هـل تبصر ؟

هـذه أنـوارهم لا نارهـم　　قـد تجلت والـورى لم يشعـروا

---

(١) الأدب الصوفى د على صافى حسين ص ٤١٠ .

(٢) المنهل الصافى جـ ٢ — ١٨٥ .

ومناديهم ينادى معلنا   هذه حضرتنا فلتحضروا(١)

هكذا يسمو الصوفية فى معارجهم متعلقين بمحراب الجمال الأقدس ، حتى إذا حانت لحظة «الجمع» كما يسمونها ، ووصل السالك إلى عين القرب ، رفعت الحجب فسقطت كل الحواجز ، وامحت كل الحدود فلا وراء ولا أمام ولا بعد ولا قبل ، ولا أنا ولا أنت ، بل هى حال لا يدرى السالك ما هى ، ولا يدرى معها لنفسه وجودا ، إنه فى سكر بنشوة اللقاء ، وخمرة جلت عن المثيل والشبيه فهى كما يقول التلمسانى :

تضىء على كف النديم ولا يرى   سواها له بين السقاة نديم
تلوح لهم منها شموس كئوسها   وفيها لهم منها تلوح نجوم
ويعمى عن الإبصار طرف خليلها   فيغرق فى بحر الهوى ويعوم
ويأخذ ما يعطى الخصوص عمومها   فيشرق من ذاك الخصوص عموم(٢)

وقد يشعر السالك بهذا الإشراق يفيض من داخله ، فيحس أنه لم يعد كغيره من الناس فلا ذاته هى ذاته ، ولا صفاته هى صفاته ، وإنما هو قد تسرمد حين امتزج بالنور السرمدى ، وهذه الحال هى ما يعبر عنها القسطلانى بقوله :

لما رأيتك مشرقا فى ذاتى   بدلت من حالى ذميم صفاتى
وتوجهت أسرار فكرى سجدا   لجميل ما واجهت من لحظاتى
وتلوت من آيات حسنك سورة   سارت محاسنها لجمع شتاتى
وبلوت أحوالى فصرت معبرا   فى الصحو عن سكرى بصدق ثباتى
وتحولت أحوال سرى فى العلا   فعلت على محو وعن اثبات

(١) الأدب الصوفى ص ٢٨٦ .
(٢) ديوان التلمسانى ص ١٤ .

وتوحدت صفـتى فرحت مروحا   نظرا لما أشهدت من آيـاتى (١)

وهكذا نمضى مع المتصوفة فنراهم متعلقين بما وراء عالمنا ، مشدودين دائما إلى المطلق ، فهم — وإن كانون معنا بأجسادهم — يحلقون بأرواحهم فوق حدود الجسد ، أو يجاهدون للتحرر من قيوده الكثيفة .

٢ — التشيع :

رغم أن العصر المملوكى بدأ وقد مر ما يقارب قرنا من الزمان على سقوط الدولة الفاطمية جهد فيه صلاح الدين وخلفاؤه من بنى أيوب فى محاربة المعتقد الشيعى والقضاء عليه ، كانت ما تزال هناك بقايا لهذا المذهب ، وكان مايزال يجد أنصارا ومريدين .

ونستشف من مصادر هذا العصر أن أكثر أنصار هذا المذهب كانـوا يتركزون فى صعيد مصر ، فيذكر الإدفوى أن التشيع كان فاشيا فى أسوان وإدفو وإسنا (٢) ، ويقول عن أسفون : «إنها معروفة بالتشيع — الشنع».(٣)

ونجد فى أدب هذا العصر بعض أصداء لهذا المعتقد ، وللجدل الذى كان ما يزال دائرا حوله . فيطالعنا «قطينه» الأسفونى ببعض أبيات يشكو فيهاشيعة أسفون إلى قوص . ويصف أسفون بأنها أصبحت مأوى لكل ضال وكافر ، ويصف داعى الشيعة بأنه تيس معمم ، ويذكر من أمر هؤلاء الضلال أنهم يمعنون فى سب الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فيقول :

حديث جرى ماياملك الرق واشتهر   بأسفون مـأوى كل من ضل أو كفر
له منهـم داع كتيس معمـــــم   وحسبك من تيس تولى على بقـر

(١) فوات الوفيات جـ٢— ص ١٦٧ .
(٢) الطالع السعيد ص ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٩ .

ومن نحسبهم ، لا أكثر الله منهم ، يسبوا أبا بكر ولم يشتهوا عمر •
فخذ مالهم لا تخشى من مآلهم فإن مآل الكافرين إلى سقر(١)

ويتصدى شهاب الدين محمود لهؤلاء الغلاة الذين يسبون الشيخين — رضى الله عنهما — ، فيصمهم بالجهل والضلال ، ويبين أنه لا ينبغى لمؤمن أن يحط من أقدار رجال شرفهم الله ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيله ، وكانوا أول من لبى ونصر ، وهاجر وصبر :

يا مظهرا حب الرسول وجهله يغريه من سفه ببغض صحابه
رمت الهدى فضللت فيه لأنه ما جئت حب محمد من بابه
أتحبه وتعيب قوما آمنوا بسنا هداه حين كشف حجابه ؟
كذبت نفسك ليس فضل كامل فى دينه إلا وهم أولى به
أتذم أول مؤمن ومصدق من قومه بكلامه وكتابه ؟!
مهلا فما بدر الوجود وقد سما فى الأفق منتقصا بنبح كلابه
أيكون أول مؤمن سمع الهدى فأجابه مستوجبا لعقابه ؟ !
أفما يردك عن ضلالك والهوى عقل ، فإن الدين ما يعنى به
اثنى الإله عليهم فى قوله «والسابقون» فلم تصخ لخطابه
تبا لمن سمع الثناء عليهم من ربه ورماهم بسبابه
نصروا النبى وآزروه وقاطعوا فيه العدا وتمسكوا بجنابه
لبوه طوعا إذ دعاهم للهدى وهم لدى ظفر العدو ونابه
فغدوا وهم من هاجر أوطانه أو صابر أو موثق لعذابه
لذت لهم فى الله أوصاب الردى ووخيم مربعه ومطعم صابه (٢)

• فى البيت خطأ نحوى إذ حذف نون (يسبوا) دون ناصب أو جازم .
(١) المصدر نفسه ص ٢٢٧ .
(٢) ديوان الشهاب محمود ص ١٣٢ .

وفى رسالة لمحيى الدين عبد الظاهر لناصر الدين بن النقيب نراه يعرض برجل من الشيعة انتقصه ، ويتهكم ابن عبد الظاهر بهذا المنتقص ، ويصمه بالضلال ويأخذ فى تفنيد معتقده ، ساخرا من ابن سبأ وما أشاعه عن خلود على ومعراجه الروحى . متكرا ما يعتقده الكيسانية من رجعة محمد بن الحنيفة(١) فيقول موجها الخطاب إلى هذا المتشيع :

«ولا أعلم أيها المستنقص لى ذنبا يستدعى هذا الإسهاب ، ولا بينى وبينك خطوبا فهمت به من الخطاب ، اللهم إلا أنى لا أعتقد اعتقادك المضلل،ولا أرى رأيك المؤول ، ولا أقلد عبد الله بن سبأ فى اعتقاده ، ولا أبا الخطاب الأسدى فى اجتهاده (٢) ، ولا أوافق هشام بن مسلم الجواليقى على مراده (٣) ولا أنشدك :

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
على والأئمة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... تعود الخيل يقدمها اللواء (٤)

---

(١) أشاع عبد الله بن سبأ أن عليا لم يقتل وإنما شبه لقاتله ، وأشاع أن عليا صعد إلى السماء وهو فى السحاب والرعد صوته والبرق سوطه . أنظر ص ٢٤ ، ٢٥ . نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام د . على سامى النشار ط دار المعارف ١٩٦٤ . أما الكيسانية فكانوا يعتقدون بخلود ابن الحنيفة فى جبل رضوى ، ويتوقعون رجعته بين أنصاره حاملا اللواء . انظر الكيسانية فى الأدب والتاريخ د . داود القاضى ص ١٨٦ ط بيروت ١٩٧٤ .

(٢) رأس فرقة من الغلاة زعم ألوهية جعفر الصادق . انظر الملل والنحل ص ١٧٩ ، ١٨٠ جـ ١ ط الحلبى .

(٣) رأس فرقة من الغلاة أيضا زعم أن الله على هيئة البشر ، وزعم أن عليا إله واجب الطاعة . انظر الملل والنحل ص ١٨٤ — ١٨٦ جـ ١ ط الحلبى .

(٤) الأبيات لكثير عزة .

ولا أنشدك قول السيد الحميرى :

ألا قـل للوصـى فدتـك نفسى   أطـلـت بذلك الجبـل المقامـا
أضر بمعشـر والـوك عنـا   وسموك الخليفـة والإمامـا(١)

ويتطرق الحديث بابن عبد الظاهر إلى ذكر عداء الشيعة للخوارج والعثمانية مشيرا إلى جذور هذا العداء ووقائعه ، ولا ينسى أن يضع على رأس هؤلاء شيعة أبى كامل ، ذاك الذى طعن فى على — رضى الله عنه — لأنه ترك طلب حقه ، وقعد عنه . يقول :

«أو أنك تعتقد أنى من شيعة أبى كامل ، أو أنى اتفقت أنا وابن ملجم على تلك الغوائل ، أو أننى من الطالبين بثأر الدار إذ جد الوهل ، أو أننى كنت مع بنى ضبة فى يوم الجمل ، أو أننى تأولت فى قتل عمار بن ياسر ذلك التأويل السقيم ، أو أننى كنت من جملة من رفع المصاحف لطلب التحكيم ، أو استبريت عقل أبى موسى الأشعرى بالمشاوره ، أو خدعته بخلع الرجلين فى المساوره ، أو اتبعت عبد الله بن وهب الراسبى فى جمعه» .

ويمضى ابن عبد الظاهر مستعرضا تضلعه فى تاريخ الشيعة ، وأصـول معتقداتهم ، إلا أننا لا نستطيع أن نستشف من الرسالة إلى أى فرقة من فرق الشيعة كان انتماء صاحبه ، أهو سبئى أم امامى أو اسماعيلى ؟ فالهجوم يعم كل الفرق ولا يخص واحدة بعينها .

ويبدو أن هذه المجتمعات الشيعية كانت مازال على العادات والسنن التى انتهجها الفاطميون من مثل إظهار الحزن فى يوم عاشوراء ، ويشير الدكتور

---

(١) رسالة ابن عبد الظاهر لابن النقيب ص ٤ ، ٥ .

محمد كامل حسين إلى أن أهل السنة كانوا يكيدون لهم بالتكحل والتخضب فى ذلك اليوم (١) ، وقد ظل من الشعراء من ينكر هذا التزين فيقول أبو الحسين الجزار :

ويعود عاشوراء يذكرنى رزء الحسين فليت لم يعد
يا ليت عيناً فيه قد كحلت لشماته لم تخل من رمد
ويداً به لمسرة خضبت مقطوعة من زندها يندى
أما وقد قتل الحسين به فأبو الحسين أحق بالكمد (٢)

وفى قول آخر يرد على من ينكر اكتحاله فى يوم عاشوراء بأن ذاك الكحل حداد تلبسه العين على الحسين :

ومنكر ينكر اكتحالى يوم أراقوا دم الحسين
فقلت دعنى أحق عضو فيه بلبس الحداد عينى (٣)

وتظهر لنا بعض النصوص الأدبية أن هناك من وفد إلى مصر من المغرب يدعو للمذهب الشيعى ، ويروج له ، ويثير فى الناس الحنين إلى أيام الفاطميين تعينه فى ذلك الدولة المرينية فى المغرب ، وتكشف لنا رسالة من ابن الوردى عن وجه هذه الدعوة السرية التى كان يقوم بها بعض المغاربة ، فقد كتب يشكو القاضى الرباحى المالكى الذى ولى قضاء حلب ويحذر منه قائلا :

ثم إن من أعظم ذنوبه وأكبر عيوبه ، أن هذا الفرد الظالم حوله من المغاربة غير سالم ، وهم فى السر يتوقعون قيام الحرب ، ويطمعون أن مصر سيملكها أهل الغرب» .

---

(١) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبى ص ٣٤ .
(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٢٠ .
(٣) منتخب الجزار ورقة ٢١٦ .

ثم يكشف عن دعوته لصاحب المغرب ، وكرهه لدولة الأتراك إذيقول

لقــد بلينـــا بمالكـــى يقــدح فى الـترك كـل حـين
يفـل فى الســر وهــو يدعـو لصـــاحب المغـــرب المرينى

ويتحدث عن معتقد هذا القاضى ، وحنينه للدولة الفاطمية ، وعمله سرا على ذلك ، فيقول :

«فاعزلوا عن أعمالكم هذا القرد ، وإن غضب فغضب الأسير على القد ، فإنه يميل على الزيدية ، ويتذكر الدولة العبيدية :

قـال الرباحـى ســـرا مصـــراً إليهـــا إليهـــا
كنـــا بمصـــر وإنـــا لعاملـــون عليهـــا (١)

وقد جهد فقهاء الدولة فى محاربة هذا المعتقد ، وأسهم فى ذلك نفر منهم من أمثال بهاء الدين هبة الله القفطى ، وابن دقيق العيد ، وأخذ العلماء يتنادون إلى إزالة بدع هؤلاء الخارجين عن سنن جماعة المسلمين ، فنرى تاج الديـن السبكى يحث العلماء على هذا اللون من ألوان الجهاد قائلا :

«ودافعوا عن دين الإسلام ، وشمروا عن ساق الاجتهاد فى حسم مادة من يسب الشيخين أبا بكر وعمر – رضى الله عنهما – ويقذف أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها – التى نزل القرآن ببراءتها ، وغضب الرب تعالى لها ، حتى كادت السماء تقع على الأرض ، ومن يطعن فى القرآن وصفات الرحمن فالجهاد فى هؤلاء واجب ، فهلا شغلتم أنفسكم به ؟» . (٢)

ووقفت الدولة من أصحاب التشيع موقفا متشددا ، ونلمس ذلك فـيما

---

(١) ديوان ابن الوردى ورسائله ص ١٩٩ .
(٢) معيد النعم ص ٧٥ .

نقرؤه من الأدب الرسمي ، فابن فضل الله العمرى يشدد فى وصيته لنقيب السادة الأشراف على محاربة أصحاب البدع من الغلاة ، فيقول :

«وأزل البدع التى ينسب إليها أهل الغلو فى ولائهم ، والعلو فيما يوجب الطعن على آبائهم لأنه يعلم أن السلف الصالح — رضى الله عنهم — كانوا منزهين عما يدعيه خلف السوء من افتراق ذات بينهم ، ويتعرض منهم أقوام إلى ما يجرهم إلى مصارع حينهم . فللشيعة عثرات لا تقال من أقوال تقال ، فسد هذا الباب سد لبيب ، واعمل فى حسم موادهم عمل أريب وقم فى تهيهم والسيف فى يدك قيام خطيب ، وخوفهم من قوارعك مواقع كل سهم مصيب» . (١)

ثم يعرض لمعتقدات الشيعة مفندا لها ، محذرا من اتباعها ، داعيا نقيب الأشراف أن يحاربها ويكشف زيفها وخطل أصحابها :

«فانظم فى نادى قومك عليها عقود الاجماع ، ومن اعتزى إلى اعتزال أو مال إلى الزيدية فى زيادة مقال ، أو ادعى فى الأمة الماضية مالم يدعوه ، واقتفى فى طرق الإمامية بعض ما ابتدعوه ، أو كذب فى قول على صادقهم ، أو تكلم بما أراد على لسان ناطقهم ، أو قال إنه يلقى عنهم سرا ضنوا على الأمة ببلاغه . وذادوهم عن لذة مساغه ، أو روى عن يوم السقيفة والجمل غير ما ورد أخبارا ، أو تمثل بقول من يقول عبد شمس قد أوقدت لبنى هاشم نارا ، أو تمسك من عقائد الباطن بظاهر ، أو تعلق له بأئمة الستر رجاء ، أو انتظر مقيما برضوى عنده عسل وماء ، أو ربط على السرداب فرسه لمن يقود الخيل يقدمها اللواء ، أو تلفت بوجهه يظن عليا — كرم الله وجهه — فى الغمام ، أو تفلت من عقال فى اشتراط العصمة فى الإمام ، فعرفهم أجمعين أن هذا من

---

(١) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٣٠ .

فساد أذهانهم ، وسوء عقائد أديانهم» . (١)

وتكشف لنا هذه الوصية عن التفاف الشيعة حول طائفة الأشراف فى مصر ، وربما كانوا يرون فيهم تجسيدا لبعض معتقداتهم ، كما تكشف عن علاقة التشيع بالاعتزال ، وأن كثيرا من الشيعة معتزلة ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان أبو هاشم بن محمد بن الحنفية شيخا من شيوخ واصل بن عطاء كما يقول طاش كبرى زاده(٢) . إلا أن الملاحظ أن الوصية لا تخص فرقة بعينها من فرق الشيعة ، فنرى الكاتب يتحدث عن جميع الفرق من سبئية وإمامية وكيسانية وإسماعيلية ، فهل وجدت فى مصر — حينذاك — كل هذه الفرق ؟ أو أن هذا تحذير عام يقصد به الكاتب محاربة التشيع أيا كان لونه وأيا كانت فرقته ؟!

وعلى أى حال فقد ظلت أصداء التشيع تتردد فى أدب هذا العصر ، ربما كانت خافتة ، وهذا دليل على خفوت تيار التشيع ذاته ، ولكنه تيار موجود فمن الشعراء الذين دانوا بالتشيع ، والذين يعكس شعرهم هذا التيار الحسن بن منصور المعروف بابن شواق الإسنائى (ت ٧٠٦ هـ) وله قصيدة تتردد فيها معتقدات الشيعة يبدؤها بقوله :

كيف لا يحلو غرامى وافتضاحى ... وأنا بين غبوق واصطباح

ويقول منها :

فلئن أفرطتموا فى هجره ... ورأيتم بعده عين الصلاح

فهو لاج لأولى أهل العبا ... معدن الإحسان طرا والسماح

(١) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٣١ .

(٢) أنظر : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام . النشار ص ٥٢ .

قلدوا أمرا عظيما شأنه ... فهو فى أعناقهم مثل الوشاح
أمناء الله فى السر الذى ... عجزت عن حمله أهل الصلاح
هم مصابيح الدجى عند السرى ... وهم أسد الشرى عند الكفاح
تشرق الأنوار فى ساحاتهم ... ضؤوها يربو على ضوء الصباح
أهل بيت الله إذ طهره ... فجميع الرجس عنهم فى انتزاح
آل طه لو شرحنا فضلهم ... رجعت منا صدور فى انشراح
أنتم أعلى وأغلى قيمة ... من قريضى وثنائى وامتداحى
جدكم أشرف من داس الثرى ... فى مقام وغدو ورواح
وأبوكم بعده خير الورى ... فارس الفرسان فى يوم الكفاح
وارث الهادى النبى المصطفى ... ما على من قال حقا من جناح (١)

فالشاعر فى مدحه لآل البيت يصفهم بأنهم أمناء الله فى سره ، وأنهم قلدوا أمرا عظيما من أمور الدين ، وهذا ما يذهب إليه الشيعة بشأن أئمتهم إذ يعتقدون أنهم منحوا من الأسرار الإلهية ما لم يمنحه بشر قط ، ويتطرق الشاعر إلى ذكر على — رضى الله عنه — فيصفه بأنه وارث النبى — صلى الله عليه وسلم ويقصد الشاعر وراثة العلم والأسرار الدينية وهذا — أيضا — محور من محاور المعتقد الشيعى ، ولعلنا لاحظنا إشارة الشاعر إلى حديث العباءة حين وصف عليا وبنيه بأنهم أولو العبا ، وهذا حديث يعتد به الشيعة لما يرون فيه من قصر الرسول — صلى الله عليه وسلم — قرابته على على وبنيه دون سائر أهله .

ويحدثنا الإدفوى عن شاعر آخر من أهل التشيع هو إبراهيم بن محمد الثعلبى ، ويقول : إنه لما حضر إلى إدفو سنة ٦٩٧ هـ داود الذى يدعى أنه

---

(١) الطالع السعيد ص ٢١٣ .

ابن سليمان العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، أنشد إبراهيم فى استقباله قصيدة طويلة . وذكر الإدفوى منها هذين البيتين :

ظهر النور عند رفع الحجاب فاستنار الوجود من كل باب
وأتانا البشير يخبر عنهم ناطقا عنهم بفصل الخطاب (١)

والبيتان ينضحان بالاغراق فى التشيع ، وحسبنا ما علق به عليهما الدكتور محمد كامل حسين إذ يقول : «فالشاعر فى هذين البيتين مدح داود بهذه الصفات التى أسبغها شعراء العصر الفاطمى على الأئمة متخذا المصطلحات الفاطمية الخالصة ، فظهور النور عند رفع الحجاب هو ظهور الإمام بعد استتاره ، وفى البيت الثانى يشير إلى أن داعيه الامام الذى عبر عنه بالبشير جاءهم بفصل الخطاب ، وقد رأينا أن وظيفة الحجة فى الدعوة الإسماعيلية هى فصل الخطاب» . (٢)

أما ابن حجر العقلانى فيحدثنا عن عبد القوى القرافى الذى كان رافضيا وعزز على رفضه لقوله من أبيات :

كم بين من شك فى خلافته وبين من قال : إنه الله (٣)

ولم يذكر ابن حجر سوى هذا البيت ، ربما لتحرجه من ذكر بقية الأبيات ، وهذا موقف معروف تجاه الأدب الشيعى ، فالغالب على مؤرخى هذه الحقبة التحرج لما يرونه فى أدب الشيعة مما ينافى معتقدهم السنى ، أو مما يرون أنه كفر صراح ، وهذا يدفعنا إلى الزعم أن كثيرا من نتاج المتشيعة فى هذه الحقبة قد طمس ، ولم يصل إلينا منه سوى شذرات متفرقة ذكرت على

---

(١) الطالع السعيد ص ٦٦ .
(٢) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبين ص ٣٢ .
(٣) الدرر الكامنة حـ ٣ ص ١٠ .

سبيل التهجين والقدح فى هذا المعتقد وأهله .

وربما كان العجيب أن عبد القوى هذا الذى ذكره ابن حجر كان حنبليا ظاهريا أشعريا ثم بعد ذاك متشيع ، وقد وصف نفسه بقوله :

حنبلى رافضى ظاهرى أشعرى ، هذه إحدى الكبر (١)

وحقيقة إنها إحدى الكبر ، إذ كيف جمع بين هذه المعتقدات المتباينة بل المتناقضة أحيانا .

وشاعر آخر هو فخر الدين بن مكانس نحس له ميولا شيعية ، ويروى له ابن حجة هذين البيتين فى مدح على رضى الله عنه :

يا ابن عم النبى إن أناسا قد تولوك بالسعادة فازوا
أنت للعلم فى الحقيقة باب يا إماما وما سواك مجاز (٢)

وهو فى هذين البيتين يدور حول ما كان يرويه الشيعة من حديث منسوب إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — من أنه قال : أنا مدينة العلم وعلى بابها .

وتجدر الإشارة هنا إلى صفى الدين الحلى ، ذلك الشاعر المتشيع الذى قدم إلى مصر فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، وأقام فيها مدة ، وربما اختلط بأوساط الشيعة فى مصر ، وربما رأوا فى شعره تعبيرا عن معتقداتهم . وتشيع صفى الدين واضح فى شعره كل الوضوح ، وله عدة قصائد ومقطعات يمدح فيها عليا — كرم الله وجهه — وآل بيته ، وفى واحدة من هذه القصائد يذهب إلى أن الله — سبحانه — أثنى على «على» فى سورتى «يس» و «صاد» وهو بذلك يأخذ بمذهب الشيعة فى تأويل القرآن ، ثم يمضى فيتحدث عن معجزات

(١) الدرر الكامنة ﺟ ٣ — ص ١٠ .
(٢) تأهيل الغريب لابن حجة ص ٣٠٨ .

علي ، ويصفه بأنه سر النبي وصنوه :

وغلت في صفـــات فضلك ياسين   وصـــاد وآل ســـين وصـــاد
ظهـرت منـك للـورى معجـزات   فأقرت بفضـــلك الحســـاد
إن يكـذب بها عـداك فقـد كذ   ب من قبل قوم لوط وعـــاد
أنت سر النـبي والصنـو وابـن العـــم والصهـر والأخ المستجـــاد (١)

وفي أبيات أخرى يشير إلى يوم الغدير الذي يرى الشيعة أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — قلد فيه عليا أمر الخلافة فيقول :

تـــوال عليـــا وأبنـــاءه   تفـــز في المعـــاد وأهوالـــه
إمـــام لـــه عقـــد يـــوم الغديـــر   بنـــص النـــبي وأقوالـــه (٢)

وإذا كان شعر صفي الدين لا يشير بوضوح إلى أي فرقة من فرق الشيعة كان انتماؤه — إذ لا يتعدى مدح علي وآل بيته — رضي الله عنهم — فهو يبين أنه كان معتدلا في تشيعه ، ولا يذهب مذهب بعض الشيعة في سب الشيخين ، أو تفضيل علي على سائر الصحابة ، وربما رأينا مصداق ذلك في قوله :

ولائي لآل المصطفى عقـــد مذهـبي   وقلبي من حب الصحابة مفعـم
وما أنا ممـــن يستجيز بحبهـــم   مسبة أقـوام عليهم تقدمـــوا (٣)

وفي قوله :

قيـــل لي تعشق الصحـــابة طـــرا   أم تفـــردت منهـــم بفريـــق
فوصفت الجميـــع وصفاً إذا ضـــوع   أزرى بكل مسك سحيـــق (٤)

---

(١) الديوان ص ٨٨ .
(٢) الديوان ص ٩٠ .
(٣) الديوان ص ٩١ .
(٤) الديوان ص ٩١ .

وعلى أى حال فصفى الدين الحلى طارىء على المجتمع المصرى لا يمثله إلا بالقدر الذى مكثه فيه ، أو بالقدر الذى ينعكس على شعره .

وإذا كنا نلاحظ أن الأدب الصادر عن مجتمعات الشيعة بمصر أدب شاحب خافت ، فليس معنى ذلك اندثار معتقدات الشيعة ، فالحقيقة أن كثير من هذه المعتقدات تسرب إلى مجتمعات الصوفية ، وامتزج بأفكارهم ومعتقداتهم وأخذ يلوح لنا من خلال أدبهم بصورة أو بأخرى ، وقد ألمح بعض الباحثين إلى هذه الصلة الوثيقة بين التصوف والتشيع ، ونرى فى أشعار الصوفية ، وأقوالهم صدى لهذا الامتزاج ، ولعلنا لاحظنا فى حديثنا عن التصوف أن السيد إبراهيم الدسوقى أخذ ما يقوله الشيعة من انحدار النطفة المطهرة عبر الأصلاب حتى تتجسد فى إمام الوقت وعزفه على وتر صوفى .

وفى شعر البوصيرى — وهو أحد شعراء المتصوفة — كثير من الظلال الشيعية ، واقرأ له فى قصيدته الهمزية قوله :

وعلى صنو النبى ومن دين فؤادى وداده والولاء
ووزير ابن عمه فى المعالى ومن الأهل تسعد الوزراء
لم يزده كشف الغطاء يقينا بل هو الشمس ما عليه غطاء(١)

فها نحن نراه يصف عليا بأنه صفو النبى ووزيره ، وبأنه كشف عنه الغطاء ، أى اطلع من الأسرار والخفايا على ما لم يعرفه غيره . وهذا من أقوال الشيعة .

وفى قصيدة أخرى يصف منزلة على من الرسول — صلى الله عليه وسلم — بأنها كمنزلة هارون من موسى :

(١) الديوان ص ٢٣ ، ٢٤ .

ومن كان من خير الأنام بفضلــه كهارون من موسى وذلكم الجد(١)

وهذا ما كان يردده الشيعة أيضا .

وفى مدحه للسيدة نفيسة يردد ما يعتقده الشيعة من أن آل البيت ورثـوا علم الرسول — صلى الله عليه وسلم — وظل ينتقل فيهم من إمام إلى إمام ، ويذهب البوصيرى إلى أن الرسول — عليه السلام — لا يزيد إلا بفضل النبوة عن السيدة نفيسة ، ثم يمضى البوصيرى فيصف السيدة نفيسة بالصفات التى كان يخلعها الشيعة على الأئمة من أنها العروة الوثقى ، والرتب العلا ، والغايـة القصوى :

سليلـة خـير العالمـين نفيســة سمت بك أعـراق وطابت محاتـد
إذا جحـدت شمس النهـار ضياءها ففضلك لم يجحـده فى الناس جاحد
بآبائك الأطهـار زينـت العـلا فحبات عقد المجـد منهم فرائـد
ورثت صفـات المصطفى وعلومـه ففضلكمـا لولا النبوة واحـد
فـلم ينبسط إلا بعلمـك عـالم ولم ينقبض إلا بزهـدك زاهـد
معارف ما ينفـك يفضى بسرهـا إلى ماجد من آل أحمد ما ماجـد
يضىء محيـاة كـأن ثنـاءه إلى الصبح سار أو إلى الله راشـد
تبلـج مـن نـور النبـوة وجهـه فمنـه عليـه للعيـون شواهـد

ثم يقول :

هى العروة الوثقى هى الرتب العـلا هى الغاية القصوى لمن هو قاصد(٢)

وهكذا نرى أن التشيع — وإن كان قد انقرض أو يكاد من مصر كمعتقد قد عاشت أفكاره ومعتقداته إلا أنها أخذت زيا جديدا ، وصبغا مخالفا .

---

(١) الديوان ص ٦٨ .
(٢) الديوان ص ٥٩ — ٦١ .

الفصل الخامس

النزعات الطائفيه

ساد جو من التوتر العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة فى مصر طوال العصر المملوكى ، وربما كانت هناك عوامل كثيرة ساعدت على خلق هذا التوتر ، ولا ريب أن أهم هذه العوامل وأخطرها هو الحروب الصليبية التى كانت تخوضها الدولة دفاعا عن الدين ، الأمر الذى طبع العصر كله بطابع دينى ، وأصبح هذا الطابع هو الذى يحكم كثيرا من العلائق بين المسلمين وأهل الذمة ولا ريب أيضا أن ما ارتكبه الصليبيون من أهوال قد خلق فى العالم الإسلامى — ومصر هى القلب منه آنذاك — مشاعر تفيض بالمرارة الأمر الذى كان له رد فعل عنيف ضد أهل الذمة . (١)

ويعكس لنا الأدب الرسمى لهذا العهد توجس الدولة من المسيحيين ، وخوفها من اتصال الملكانية منهم بدول الغرب الذين هم على مذهبهم ، واليعاقبة بالحبشة التى كانت يعقوبية المذهب . فيقول ابن فضل الله العمرى فى وصيته لبطريرك النصارى الملكانين :

«وإياه ثم إياه أن يأوى اليه من الغرباء القادمين عليه من يريب ، أو يكتم عن الإنهاء إلينا مشكل أمر ورد عليه من بعيد أو قريب ، ثم الحذر الحذر من إخفاء كتاب يرد إليه من أحد الملوك ، ثم الحذر من الكتابة إليهم أو المشى على مثل هذا السلوك ، وليتجنب البحر وإياه من اقتحامه فإنه يغرق ، أو تلق

---

(١) أنظر أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى د . عبد مقاسم ص ٩١ ط المعارف ١٩٧٧ م .

ما يلقيه إليه من جناح غراب فإنه بالبين ينعق» . (١)

ولعلنا لحظنا تلاعب الكاتب بألفاظ البحر والغرق ، والغراب والنعيق ، وما تلوح به عبارته من تهديد ووعيد .

ومن وصية لبطريرك اليعاقبة يقول ابن فضل الله :

«وليتجنب ما لعله ينوب ، وليتوق ما يأتيه سرا من الحبشة حتى إذا قدر فلا يشم أنفاس الجنوب ، وليعلم أن تلك المادة وإن كثرت مقصره ،ولا يحفل بسواد السودان فإن الله جعل آية الليل مظلمة وآية النهار مبصرة» . (٢)

ورغم هذا التوجس فلم يكن — كما يبدو — للمماليك غنى عن استخدام أهل الذمة فى وظائف الدولة الإدارية لخبرتهم فى هذا المجال ، الأمر الذى كان يثير سخط المسلمين لما يلحظونه من ثراء هؤلاء العمال من أهل الذمة ، وتعاليهم وتماديهم فى ابتزاز أموال المسلمين بغير الحق فى الوقت الذى يتهاونون فيه مع أبناء ملتهم ، ويعملون فى الخفاء على مد الكنائس والأديرة بالمال .

ويشير السيوطى إلى اعتماد دولة الأتراك على القبط قائلا : «كان هذا أول شؤم الأتراك أن عدلوا عن وزارة العلماء إلى الأقباط والمسالمة» . (٣)

وضاق الناس بالأسعد بن صاعد الفائزى الذى كان من المسالمة ، وأكثر من فرض الضرائب حتى قال فيه بعض الشعراء :

لعن الله صاعدا وأباه فصاعدا
وبنيه فنازلا واحدا ثم واحدا (٤)

(١) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٤٥ .
(٢) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٤٦ .
(٣) حسن المحاضرة جـ ٢ — ص ١٢٤ .
(٤) حسن المحاضرة جـ ٢ — ص ١٢٤ .

وكثرت سخريات الشعراء من استخدام أهل الذمة ، فنرى المعمار يسخر من ابن الأطروش الذى نال رتبة عالية ، ويصف بغلته بأنها على دين النصارى تمشى بزنار :

ان ابن الاطروش حوى رتبة　　باع بها الجنة بالنار
تنصرت بغلته تحته　　فأصبحت تمشى بزنار (١)

ويرى شهاب الدين العطار أن الأقباط بلغوا ما بلغوه لجنون المماليك ، وفقدانهم العقل :

قالوا : نرى الأقباط قد رزقوا　　حظا وأضحوا كالسلاطين
وغالوا الأموال قلت لهم　　رزق الكلاب على المجانين (٢)

ونلحظ فى كتابات هذه الحقبة كثيرا من المؤلفات التى تتصدى لاستخدام أهل الذمة وتنهى عنه ، منها الكلمات المهمة فى مباشرة أهل الذمة للإسنوى ، ومنها المذمة فى استعمال أهل الذمة لابن النقاش . (٣)

ويعجب الإسنوى لما يراه من تسلط أهل الذمة فى مصر مع عظمتها وسعة علم علمائها فيقول :

«والعجيب أنه لا يعرف فى إقليم من الأقاليم من الشرق إلى الغرب توليتهم إلا فى اقليم مصر خاصة ، فيا لله العجب ما بال هذا الاقليم دون سائر الأقاليم ؟ مع أنه أعظم أقاليم الإسلام ، وأوسعها عالما ، وأكثرها علماء» . (٤)

أما ابن الإخوة فيصور ما يجده من تعالى أهل الذمة وتماديهم فى الترف

(١) مطالع البدور جـ ٢ — ص ١٢٩ .
(٢) الدرر الكامنة جـ ١ — ص ٣٠٧ .
(٣) الكتاب الأخير مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٣٩٥٢ تاريخ .
(٤) الكلمات المهمة فى مباشرة أهل الذمة ص ٩ نشر موشى برلمان بروكلين ١٩٦٩ .

والترفع على المسلمين والتكنى بكناهم ، وتعاظم نسائهم ورجالهم فيقول :

«فلو شاهد عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — اليهود والنصارى فى زماننا هذا وآدرهم تعلو على آدر المسلمين ومساجدهم ، وهم يدعون بالنعوت التى كانت للخلفاء ، ويكنون بكناهم ، فمن نعوتهم الرشيد وهو أبو الخلفاء ويكنون بأبى الحسن وهى على بن أبى طالب — رضى الله عنه — وبأبى الفضل وهو العباس عم رسول الله ، وقد جاوزوا حد أقدارهم ، وتظاهروا بأقوالهم وأفعالهم ، وأظهرت منهم الأيام طبائع شيطانية مكنتها وعضدتها يد سلطانية فركبوا مركوب المسلمين ، ولبسوا أحسن لباسهم ، واستخدموهم ، فرأيت اليهودى والنصرانى راكبا يسوق بمركبه ، والمسلم يجرى فى ركابه ، وربما تضرعوا وتذللوا ليرفع عنهم ما أحدثه عليهم ، وأما نساؤهم إذا خرجن من دورهن ومشين فى الطرقات فلا يكدن يعرفن ، وكذلك فى الحمامات ، وربما جلست النصرانية فى أعلى مكان من الحمام والمسلمات يجلسن دونها ويخرجن الأسواق ، ويجلسن عند التجار فيكرموهن بما يشاهدون من حسن زيهن فلا يدرون أنهن أهل ذمة» . (١)

وعبارة ابن الاخوة تنضح بالأسى على العهد العمرى الذى كان يلزم أهل الذمة بمغايرة الزى الإسلامى ، والركوب بالكف ، والتواضع للمسلمين ، ولعلنا لاحظنا إشارة ابن الاخوة إلى تعضيد السلطان لأهل الذمة ، وتغاضيه عن أفعالهم ، وربما كان ذلك راجعا إلى حرص المماليك على المال ، وتقريب من يجمعه لهم مهما كان لونه أو دينه ، ولم يكن أمامهم بهذا الصدد إلا الاعتماد على أهل الذمة ، الذين كانوا يحتجرون لأنفسهم بعض هذا المال ، ولا يتبقى

(١) معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ٤٢ ، ٤٣ طبع كيمبرج ١٩٣٧ بعناية روبن ليوى .

للناس فى النهاية سوى الفتات ، واسمع قول شهاب الدين الأعرج السعدى :

وكيف يروم الرزق فى مصر عاقل ... ومن دونه الأتراك بالسيف والترس
وقد جمعته القبط من كل وجهة ... لأنفسهم بالربع والثمن والخمس
فللترك والسلطان ثلث خراجها ... وللقبط نصف والخلائق فى السدس(١)

ويصور البوصيرى إبتزاز القبط لأموال الناس ، ويصمهم باللصوصية ، وبأنهم «يسفون» أموال السلاطين على حد قوله :

عزوا وأكرمهم قوم لحاجتهم ... ما نالهم بعد ذاك العز من هون
وطاعنوا الناس بالأقلام واستلبوا ... منهم بها كل معلوم ومكنون
ومن مواش وأطيار وآنية ... ومن زروع ومكيول وموزون
لهم مواقف فى حرب الشرور كما ... حرب البسوس وحرب يوم صفين
لا يكتبون وصولات على جهة ... مفصلات بأسماء وتبيين
إلا يقولون فيما يكتبون له ... من الحقوق ، وماذا وقت تعيين ؟
فاسمع وكاسر وحس الريح يافطنا ... فلست أول مقهور ومغبون
هم اللصوص ومن أقلامهم عتل ... بها يسفون أموال السلاطين

ثم يصور البوصيرى مصارف هذه الأموال المنهوبة ، وكيف أنها تنفق على مجالس اللذة ، وبناء القصور ، والتفنن فى الأطعمة ومجالس الأنس :

وكل ذلك مصروف ومصرفهم ... للشيخ يوسف أبى هبص بن لطمين
وللشراب وتبييت الخطاء به ... يحلو العقار بأنواع الرياحين
وللعلوق وأنواع الفسوق معا ... وللخروق الكثيرات التلاوين
وللبغال الوطيات الركاب ترى ... غلمانهم خلفهم فوق البراذين

---

(١) الدرر الكامنة ﺟ ١ — ص ٣٥٦ .

وللمناديل فى أوساط من ملكوا ... وللمناطق فيها والهمايين
وللرباع العوالى الارتفاع بنا ... وللبساتين تنشا والدكاكين
وللشبارى وللأنطاع تفرش فى ... تموز فوق رخام فى الأواوين
وللمجالس فى أوساطها خرك ... وللطنافس فى أيام كانون

ويشير البوصيرى إلى ما يمد به هؤلاء الكنائس والقسس من هذه الأموال فيقول :

وصانعوا كل مستوف إذا رفعوا ... له الحساب بسحت كالطواعين
ورمحوه فقال الشيخ والدنا ... قس القسوس ومطران المطارين
منا له العذر فيما حل يقبله ... إما برسم مداد أو لصابون
وللزيوت وإيقاد الكنائس كم ... وللدقيق المهيا للقرابين ؟ !

ويبلغ السخط بالبوصيرى مداه وهو يرى ما يتقلب فيه المستخدمون من أهل الذمة من رغد ، فيحث السلطان على جهادهم ، زاعما أن جهادهم خير من جهاد التتر والفرنج فيقول :

سبوا الرعية لم يبقوا على أحد ... ولا أمانة للقبط الملاعين
لا تأمنن على الأموال سارقها ... ولا تقرب عدو الله والدين
وخل غزو هولاكو والفرنس معا ... وانهض بفرسانك الغر الميامين
واغزن عامل أسوان تنال به ... جنات عدن بإحسان وتمكين (١)

وإذا كان هذا شأن عامل أسوان وأتباعه من النصارى صورته لنا هذه القصيدة ، ففى قصيدة أخرى للبوصيرى أيضا نرى صورة لنصارى المحلة ، إذ يصفهم البوصيرى بأنهم السوس الذى ينخر فى عظام الدولة ، ويهلك أقوات ...

(١) القصيدة بتمامها فى ديوان البوصيرى ص ٢١٤ — ٢١٧ .

المسلمين ، ويصور ما فى ضمائرهم من النوايا السيئة قائلا :

إن النصارى بالمحلـة ودهـم لو كان جامعها يكون كنيسا
أترى النصارى يحكمون بأنه من باشر الأحباس صار حبيسا
إن عاد اسحق إليها ثانيا ضربوا على أبوابها الناقوسا
صرف الإله السوء عنك بصرفه فاصرفه عنا واصفع القسيسا
أفدى به المستخدمين وإنما أفدى بتيس كاليهود تيوسا
لو كنت أملك أمرهم من غيرتى لم أبق للمستخدمين ضروسا
يرعون أموال الرعية بالأذى لو يحلبون لأشبهوا الجاموسا
الله أرسلهم على أقواتهم سوسا وقد أمنوا عليها السوسا (١)

وفى قصيدة ثالثة يصف تعصبهم لبنى ملتهم قائلا :

ويعجبهم من جد جديه بطرس ويحزنهم من جد جديه جحدر
بأن النصارى يرغبون لبعضهم ومن غيرهم كل يراع ويذعر
عدوانهم للملك ما ليس تنقضى وذنب أخى الاسلام ماليس يغفر (٢)

ويبدو أن مفهوما خاطئا ساد عقول بعض أهل الذمة من النصارى، وهو أنهم أصحاب البلاد ، وأن المسلمين غاصبون ، لذلك فهم يبيحون لأنفسهم كل ما يصل إلى أيديهم من أموال على أنها بعض حقوقهم . ويبدو أن هذا مفهوم قديم فى أوساط المسيحيين ففى أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى ظهر بينهم كاتب يعرف بالراهب كان يدعو إلى ذلك ، ومن قوله : «نحن ملاك هذه الديار حرثا وخراجا ، ملكها المسلمون منا ، وتغلبوا عليها وغصبوها ، وامتلكوها

---

(١) الديوان ص ١٢٤ .
(٢) الديوان ص ١١٦ .

من أيدينا ، فنحن مها فعلنا بالمسلمين فهو قبالة ما فعلوا بنا» . (١)

وظل هذا المفهوم يجد له من يؤيده من النصارى ، وإلى ذلك يشير — الاسنوى ويوضح أن منهم من يعتقد «أن البلاد الآن ملكهم ، وأن المسلمين قد أخرجوهم منها بغير استحقاق ، فيسرقون من الأموال ما قدروا عليه ، ويعتقدون أنهم لم يخونوا ولا ظلموا ، ويرون ان احتمال المصادرة والعقوبة عليهم كاحتمال المرض قد تطرأ وقد لا تطرأ ، ويودعون تلك الأموال فى الكنائس والديورة وغيرها» . (٢)

وطبيعى أن يجد هذا المفهوم مفهوما مقابلا لدى بعض المسلمين من أنهم الفاتحون وأنهم أحق بالبلاد .

وكان اليهود — وقد ظهرت أمثال هذه المفاهيم — يستحلون لأنفسهم ما قدروا على نهبه من كلا الفريقين .

ويعرض البوصيرى لهذه المفاهيم منكرا لها ، ساخرا من دعاتها ، منبها إلى ما تجره أمثال هذه الدعاوى من أخطار على البلاد ، وضياع لأموالها . وهو لذلك يدعو إلى محاسبة كل عامل محاسبة صارمة أيا كان دينه فيقول :

يقول المسلمون : لنا حقوق ... بها ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط إنهم بمصر الملوك ومن سواهم غاصبونا
وحللت اليهود بحفظ سبت ... لهم مال الطوائف أجمعينا
فلا تقبل من النواب عذرا ... ولا النظار فيما يهملونا
فلا تستأصل الأموال حتى ... يكونوا كلهم متواطئينا

---

(١) صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٣٦٩ .
(٢) الكلمات المهمة فى مباشرة أهل الذمة للاسنوى ص ٩ .

والا أى منفعـــة بقـــوم   إذا استحفظتهم لا يحفظونا (١)

وطبيعى أن مثل هذا التوتر إذا ترك دون أن تزال أسبابه لابد أن يتفجر بالحمم ، وهذا ما حدث ، فقد وصل الأمر حد الصدام العنيف متمثلا فى إشعال الحرائق ، وازهاق الأرواح ، وتبادل الفريقين هدم دور العبادة ، وقد وصل سخط المسلمين أحيانا إلى التصدى للسلطان ، والوقوف فى وجهه كما حدث عندما تصدت العامة للناصر محمد حينما رأت منه بعض الميل للنصارى (٢) وربما كان اليهود أقل تعرضا لضراوة هذه الهبات من المسيحيين ، إلا أنهم مع ذلك لم يسلموا فى كثير من الأحيان من لفح هذا الغضب ، والاصطلاء بشرره . وفى كل مرة كانت الدولة تتدارك الأمر فتصدر مرسوما بعـدم استخدام أهل الذمة ، وتلزمهم بلبس (الغيار) أى لبس مغاير لما يلبسه المسلمون متمثلا بالنسبة للنصارى فى العمائم الزرقاء وعقد الزنار ، وبالنسبة لليهود فى العمائم الصفراء ، كما كان يحتم على الفريقين عدم ركوب الخيل ، وكثيرا ما كان هذا التشدد يلجىء بعض أهل الذمة إلى دخول الاسلام للاحتفاظ بوظائفهم وقد حفظت لنا المصادر بعض نماذج من هذه المراسيم ، ففى سنة ٧٥٥هـ عقب موجة من هذه الموجات الغاضبة ، أصدر الملك الصالح مرسوما يعيد أهل الذمة إلى العهد العمرى ، ويمنع استخدامهم ، ويشير المرسوم إلى ما ذهب إليه أهل الذمة من التمادى والإضرار بالمسلمين فيقول :

«ولما طال عليهم الأمد تمادوا على الاغترار ، وتعدوا إلى الضرر والإضرار

---

(١) الديوان ص ٢٢١ .

(٢) أنظر السلوك للمقريزى فى حوادث سنة ٦٦٣ ص ٥٣٥ — حـ ١ — ٢ ، وانظر الخطط جـ ٣ ص ٤٠٤ ، وانظر أيضا السلوك حوادث سنة ٧٢١ حـ ٢ — ١ ص ٢١٦ — ٢٣٧ ، وفى حوادث السنة نفسها — أنظر النجوم الزاهرة حـ ٩ — ص ٦٨ ، ٦٩ .

وتدرجوا بالتكبر والاستكبار ، إلى أن أظهروا التزين أعظم إظهار ، وخرجوا عن المعهود فى تحسين الزنار والشعار ، وعتوا فى البلاد والأمصار ، وأتوا من الفساد بأمور لا تطاق كبار» . (١)

ثم يمضى المرسوم فيوضح ما يجب على أهل الذمة ، وما ينبغى عليهم أن يلتزموا به بشأن دور العبادة :

«وهو أن لا يحدثوا فى البلاد الإسلامية وأعمالها ديرا ولا كنيسة ، ولا قلاية ولا صومعة راهب ، ولا يجددوا فيها ما خرب منها ، ولا يمنعوا كنائسهم التى عوهدوا عليها ، وثبت عهدهم لديها ، أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم ، ولا يؤوا جاسوسا ، ولا من فيه ريبة لأهل الإسلام ، ولا يكتموا غشا للمسلمين» . (٢)

ولعلنا لاحظنا روح التوجس تجاه أهل الذمة ، وعدم الاطمئنان إليهم فى هذه السطور .

ثم يحدد المرسوم بعد ذلك هيئة الزى الواجب على رجالهم ونسائهم الالتزام به فيقول :

«وأن لا يتشبهوا بشىء من المسلمين فى لباسهم قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ، بل يلبس النصرانى منهم العمامة الزرقاء عشرة أذرع غير الشعرى فما دونها ، واليهودى العمامة الصفراء كذلك ، وتمنع نساؤهم من التشبه بنساء المسلمين ولبس العمائم» . (٣)

---

(١) صبح الأعشى جـ ١٣ — ص ٣٨٢ .
(٢) صبح الأعشى جـ ١٣ — ص ٣٨٣ .
(٣) صبح الأعشى جـ ١٣ — ص ٣٨٣ .

وفى ختام المرسوم نهى عن استخدام أهل الذمة فى أعمال الدولة ، أو فى إقطاعات الأمراء ، ويعرض المرسوم — مرة ثانية — بما دأب عليه مستخدمو أهل الذمة من التعالى والترفع فيقول :

«ورسمنا أن لا يخدم نصرانى ولا سامرى ولا يهودى فى دولتنا الشريفة — ثبت الله قواعدها — ولا فى دواوين الممالك المحروسة والأعمال ، ولا عند أحد من أمرائنا أعزهم الله تعالى ، ولا يباشر أحد منهم وكالة ولا أمانة ، ولا ما فيه تأمر على المسلمين ، بحيث لا يكون لهم كلمة يستعلون بها على أحد من المسلمين فى أمر من الأمور ، فقد حرم الله ذلك نصا وتأويلا» . (١)

إلا أن هذه المراسيم كا يعمل بها مدة حتى تهدأ الخواطر ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه . يقول الدكتور قاسم عبده «ومهما يكن من أمر فإن كثرة المراسيم الصادرة بشأن فرض القيود على أهل الذمة تدلنا بوضوح على أن تلك القيود لم تكن متبعة ، ولم يلتزم بها الذميون على الدوام» . (٢)

ومهما يكن من أمر فقد صور لنا الأدب ما كان يعقب هذه الموجات الغاضبة من تشديد على أهل الذمة ، وإلزامهم بلبس مغاير ، فنى سنة ٦٩٨ هـ حينما أصدر السلطان مرسومه بشأن أهل الذمة وشدد عليهم ، قال شمس الدين الطيبى :

تعجبوا للنصارى واليهود معا ... والسامرين لما عمموا الخرقا
كأنما بات بالأصباغ منسهلا ... نسر السماء فأضحى فوقهم ذرقا (٣)

وقال علاء الدين الوداعى :

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٨٥ .
(٢) أهل الذمة فى العصور الوسطى ص ١٦٠ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٨ — ص ١٣٥ .

لقد ألزموا الكفار شاشات ذلـــة تزيدهم من لعنــة الله تشويشـــا
فقلت لهم ما ألبسوكم عمائمـــا ولكنهم قد ألبسوكم براطيشـا (١)

وعقب موجة ثانية فى عهد السلطان الصالح بن الناصر محمد صدر مرسوم مشابه كان له فى نفوس المسلمين صدى مبهج عبر عنه النويرى السكندرى بقوله :

ملك الزمان الصالح بن محمـــد الناصر بن قلاون المنصـور
أذللت ديـن الكفـر ثم قهـرته وجعلتـه فى ذلــة وثبـور
ليسـوا عـلى ديـن المسيح لأنهم قد بدلـوه بكفـر كـل كفـور
سمعـوا مقالة بولص فاسترجعـوا عن دين عيسى وانثنـوا بغـرور
ضلـوا ضـلالا لاستماع حديثه ألقاهم فى التيــه والتحـير
إن اليهـودى بولصـاً أغواهـم لمـا تنصر وهـو غـير نصـير
فأضلهـم عن دين عيسى فاغتدوا فى زى ثـيران وزى حمـير
كفـروا بمـا جـاء المسيح وبدلوا فاستوجبـوا لعنـا عـلى التغيير
فجـزاؤهم تنكيلهـم بعـمائم زرق وذيـل للثيـاب قصـير
وركوبهم مـن جنب شق واحـد لحميرهم والذيل فى تشمـير (٢)

وإذا كانت هذه المراسيم المشددة قد دفعت ببعض أهل الذمة إلى الإسلام لكى يحتفظوا بمناصبهم ، فقد ظل الناس ينظرون إليهم فى ريبة وحذر ، ويرون إسلامهم مجرد خدعة أو حيلة ، وقد عرض بعض الشعراء بهذا الإسلام الزائف عقب موجة التشدد التى حدثت أيام الأشرف خليل بقوله :

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٥ .
(٢) الإلمام بما جرت به الأحكام ج ٢ — ص ٩٣ ، ٩٤ .

أسلم الكافرون بالسيف قهرا　　وإذا ما خلوا فهم مجرمونا
سلموا من رواح مال وروح　　فهم سالمونا لا مسلمونا (١)

وكتب أحمد بن المكرم منبها الناصر محمد إلى هذه الخدعة يقول :

يا أيها السلطان لا تغتّرر　　بخدعة القبط وما يمموا
أمرت ألا يخدموا ذمة　　فأسلموا خيفة أن يحرموا
خافوا على الورق ولو أنهم　　خافوا على دينهم صمموا
فخذ جواليهم وجنبهم　　والله ما فى جمعهم مسلم (٢

ونجد فى شعر ابن دانيال بعض سخريات بهؤلاء المسالمه، فيقول فى يهودى يكنى بالرشيد أعلن إسلامه :

قالوا اليهودى الرشيد قد اهتدى　　رشدا وعن كفر اليهود قد انتقل
فأجبتهم ما رام فى إسلامه　　الا احتيال مآثم لا تحتمل
لا يخدعنكم غرة إسلامه　　فالكلب أنجس مايكون إذا اغتسل(٣)

ولم يقف الأمر فى الصراع الطائفى عند حد العنف ، وأعمال الحريق والتخريب ، وإصدار المراسيم المتشددة ، بل تعدى ذلك إلى ألوان من المناظرة العلمية ، ونصب كل فريق مقاعد للجدل يفند فيها مزاعم خصمه ، ويدفع عن عقيدته ، ويبرهن على صحة دينه .

وقد اشتهر من بين المسيحيين أبناء العسال ، أبو اسحق بن فخر الدولة وأخوه الأسعد أبو الفرج هبة الله ، وأخوهما الصفى أبو الفضائل ماجد ، وهذا

---

(١) الخطط جـ ٣ — ص ٤٠٤ .
(٢) الإلمام بما جرت به الأحكام جـ ٢ ورقه ٩٣ .
(٣) التذكرة الصفدية جـ ١٤ — ص ٥٧ .

الأخير له مؤلفات يرد فيها على المسلمين ، كما أنه ألف كتابا يرد فيه على ابن تيميه (١) وعرف أيضا أسقف مليج المدعو «بطرس» والذى ألف كتابا يرد فيه على المسلمين ويدفع عن الديانة المسيحية . (٢)

وقد تصدى لهؤلاء من المسلمين علماء لعل أبرزهم ابن تيمية الذى كتب عدة مؤلفات فى دحض مزاعم أهل الذمة .

وتنادى الفقهاء إلى جدال أهل الذمة ، وهدايتهم ، ونرى تاج الدين السبكى يشدد النكير على العلماء الذين يتقاعسون عن مناظرتهم ، ويرى أن هذا أمر من أهم الأمور ، فيقول :

« ويأيها الناس بينكم اليهود والنصارى قد ملئوا بقاع البلاد فمن الذى انتصب منكم للبحث معهم ، والاعتناء بإرشادهم ، بل هؤلاء أهل الذمة فى البلاد الإسلامية ، تتركونهم هملا ، تستخدمونهم ، وتستطبونهم ، ولا نرى منكم فقيها يجلس مع ذمى ساعة واحدة ، يبحث معه فى أصول الدين ، لعل الله يهديه على يديه . وكان من فروض الكفايات ، ومهمات الدين أن تصرفوا بعض هممكم إلى هذا النوع . فمن القبائح أن بلادنا ملأى من علماء الإسلام ولا نرى فيها ذميا دعاه إلى الاسلام مناظرة عالم من علمائنا» . (٣)

وقد انبرى البوصيرى منافحا عن الدين بشعره ، متصديا لأهل الذمة ، والحقيقة أن البوصيرى أسهم بدور كبير فى هذا المجال ، وربما كان لهذا الدور الفضل فى شهرته وذيوع صيته ، واعتقاد الناس فيه وفى شعره . والقارئ

---

(١) المخطوطات العربية لكتبه النصرانية حـ ٤ — ص ١١ ، ١٣ .
(٢) المرجع نفسه حـ ٤ ص ٦٢ .
(٣) معيد النعم ومبيد النقم ص ٧٥ ، ٧٦ ط الخانكى ١٩٤٨ .

لديوان البوصيري يرى أنه يمثل القضية الدينية فى عصره بكل أبعادها .

ومنذ البداية نحس أنه قد نصب من نفسه مدافعا عن القضية الإسلامية ، ونراه فى بعض الأحيان يقرن نفسه بحسان بن ثابت شاعر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى نافح عن الدين ضد المشركين فى عهده الأول فيقول مثلا :

آل بيت النبي طبتم فطاب المدح لى فيكم وطاب الرثاء

أنا حسان مدحكم فإذا نحت عليكم فإننى الخنساء (١)

ويقول من قصيدة أخرى :

فادعنى حسان مدح وزدنى إننى أحسنت عنك المنابا (٢)

ثم يقول منبها إلى جهاده بشعره فى سبيل الدين :

إننى قمت خطيبا بمديحك ومن يملك منه الخطابا

وترامت به فى بحار مكثرا أمواجها والعبابا

بقواف شرعت للأعادى وجدوها فى نفوس حرابا

هى أمضى من ظبي البيض حدا فى أعاديك وأنكى ذبابا (٣)

ويقسم أنه سيظل يلهب بشعره أعداء الإسلام متوددا ببغضهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم :

لا تنكروا بغضى عدو المصطفى إنى ببغضهم لـه أتحبب

أقسمت لا تنفك نار قريحتى أبدا على أعدائه تتلهب (٤)

---

(١) الديوان ص ٢٢ .

(٢) الديوان ص ٣٢ .

(٣) الديوان ص ٣٣ .

(٤) الديوان ص ٤٧ .

ويركز البوصيرى فى جدله الشعرى على تحريف النصارى للإنجيل ، واليهود للتوراة ويدور حول ذلك فى قصائد عدة ، فيبين أن الانجيل بشـر برسالة محمد — عليه الصلاة والسلام — ولكن النصارى حرفوا ذلك وأنكروه

واستخبروا الإنجيل عنه وحـاذروا — من لفظه التحريف والتبديـلا
إن يدعـه الانجيـل فارقليطـه — فلقد دعاه قبل ذلك إيـلا
ودعاه روح الحق للوحى الـذى — يتـلى عليه بكـرة وأصيـلا
وأراه لا يتكـلم إلا إذا — أرفعت عنـكم للالـه مقـولا
إن انطلـق عنكم يكن خير لـكم — ليجيئكم مـن ترتضـوه بديـلا
يأتى عـلى اسم اللـه منه مبـارك — ما كان موعد بعثه ممطـولا (١)

ويبين أن الزبور أيضا فيه بشارة برسالة نبينا عليه السلام ، وكذلك هناك بشارة أخرى فى سفر اشعيا . يقول :

وسلـوا الزبـور فـإن فيـه الآن من — فصـل الخطـاب أوامـرا وفصولا
فهو الذى نعت الزبـور مقلـدا — ذا شفرتين من السيوف صقيلا (٢)

ويقول :

وكتاب شعيا مخـبر عـن ربـه — فاسمعـه يفـرح قلبك المتبـولا
عبدى الذى سرت به نفسى ومـن — وحي عليـه مـنزل تنزيـلا
لم أعط ما أعطيتـه أحدا من الفضل — العظيم وحسبـه تخويـلا

(١) الديوان ص ١٥٣ — ويعلق البوصيرى على الأبيات بأن عيسى عليه السلام قال : اللهم ابعث الفار قليط يعلم الناس أن ابن الإنسان بشر ص ١٥٤ الديوان ، والفار قليط كلمة يونانية معناها محمد ، وكذلك دعاها بإيليا والمنحمنا أنظر ص ١٥٤ ، ١٥٥ الديوان .
(٢) الديوان ص ١٥٦ .

يأتي فيظهر الورى عــدلى ولم　　يك بالهوى فى حكمه يميــلا (١)

ويبين أن شعيا وصفه بأنه راكب الجمل ، وكذلك بشر به حزقيل ووصفه بغرس غرسته البدو فى أرض عطشى ، فخرج من أغصانه نار أكلت كرمة اليهود :

والغرس فى البدو المشار لفضلـــه　　إن كنت تجهله فسل حزقيــلا
غرست بأرض البـدو منه دوحـــة　　لم تخش من عطش الفلاة ذبــولا
فأتتك فاضلـة الغصون وأخرجت　　نارا لمــا غرس اليهـود أكــولا
ذهبت بكرمة قــوم سوء ذللـت　　بيد الغرور قطوفها تذليــــلا (٢)

وهكذا ينتهى البوصيرى إلى أن النصارى واليهود قوم جاحدون ، أنكروا الحق بعدما عرفوه :

إن أنكرته النصارى واليهود عــلى　　ما بينت منــه تــوراة وإنجيــل
فقــد تكرر منهم فى جحودهــم　　للكفر كفر وللتجهيل تجهيـل (٣)

ويتجه البوصيرى إلى النصارى فيبين لهم أنهم عاملوا المسلمين بما عاملهم به اليهود ، فكما جحدوا رسالة محمد — عليه السلام — جحد اليهود رســالة عيسى عليه السلام وذاك قصاص عادل :

قـل للنصارى الألى ســاء مقالتهم　　فما لهــا غير محض الجهل تعليــل
من اليهود استفدتم ذا الجحود كمـا　　من الغراب استفاد الدفن قابيــــل
فان عنـدكم توراتهـم صــدقت　　ولم تصدق لــكم منهم أناجيــل

(١) الديوان ص ١٥٨ .
(٢) الديوان ص ١٦٠ .
(٣) الديوان ص ١٧٨ .

ظلمتمونا فأضحوا ظالمين لكم   وذاك مثل قصاص فيه تعديل (١)

وإذا كان هذا الحديث يتسم بالشدة ، فإن البوصيرى فى أحيان أخرى يلين ويتجه إلى النصارى داعيا إلى التماس العبرة والعظة ، وعدم التمادى فى التجاهل والإنكار . فنراه يقول فى قصيدته الهمزية :

قوم عيسى عاملتم قوم موسى   بالذى عاملتكم الحنفاء

صدقوا كتبكم وكذبتم كتبهم   إن ذا لبئس البواء

لو جحدنا جحودكم لا ستوينا   أو للحق بالضلال استواء ؟

ما لكم اخوة الكتاب أناسا   ليس يرعى للحق منكم إخاء

يحسد الأول الأخير ومازال   كذا المحدثون والقدماء

قد علمتم بظلم قابيل هابيل   ومظلوم الاخوة الاتقياء

وسمعتم بكيد أبناء يعقوب   أخاهم وكلهم صلحاء

حين ألقوه فى غيابة جب   ورموه بالإفك وهو براء

فتأسوا بمن مضى إذ ظلمتم   فالتأسى للنفس فيه عزاء (٢)

وبخلاف هذا موقف البوصيرى من اليهود ، فهو موقف اليأس من إيمانهم أو اقرارهم بالحق بعدما قتلوا الأنبياء ، وأشربت قلوبهم العجل فعبدوه فى حياة موسى ، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة . يقول :

أفيؤمنون به وممن جاءهم   بالبينات مقتل ومصلب

عبدوا وموسى فيهم العجل الذى   ذبحوا به ذبح العجول وعذبوا

و [illegible] إلى الأوثان بعد وفاته   والرسل من أسف عليه تندب

---

(١) الديوان ص ١٧٨ .

(٢) الديوان ص ١٤ .

وإذا القلـوب قست فليس يلينهـا خل يلوم ولا عـدو يعتـب (١)

ويتجه البوصيرى مجادلا أهل الكتاب فيما يعتقدون ، ويتصدى للنصارى فى قولهم بالتثليث ، واليهود فى قولهم بالبداء متسائلا من أين لهم ذلك،ولم يأت به نص أو كتاب :

خبرونا أهـل الكتابـين من أيـن أتاكم تثليثـكم والبـداء ؟!
ما أتى بالعقيدتـين كتـاب واعتقـاد لا نص فيـه ادعـاء
والدعاوى مـا لم تقيمـوا عليهـا بينات أبناؤهـا أدعيـاء (٢)

ثم يشرع فى تفنيد مقولة النصارى فى التثليث ، ساخرا من منقطهم فى ذلك متسائلا فى تهكم عن هذا الإله المركب وطبيعته فيقول :

ليت شعرى ذكـر الثلاثة والواحـد نقـص فى عـدكم أم نماء؟!
كيف وحـدتم إلهـا نـفى التوحيـد عنه الآبـاء والأبنـاء ؟!
أ إله مركب ؟! مـا سمعنا بإلـه لذاتـه أجـزاء
ألـكل منهـم نصيب مـن المـلك فهلا تميز الأنصباء؟!
أم هـم حللوا بهـا شركة الأبـدان أم هـم لبعضهم كفـلاء ؟!
أتراهـم لحاجـة واضطرار خلطوها ؟ وما بغى الخلطاء؟
أهو الراكب الحمار ؟ فيـا عجـز إلـه يمسـه الإعيـاء
أم جميع على الحمار ؟ ... لقـد جـل حمار بجمعهـم مشـاء
أم سواهم هـو الإلـه ؟ ... فما نسبة عيسى إليـه والإنتماء؟(٣)

(١) الديوان ص ٤٥ .
(٢) الديوان ص ١٥ .
(٣) الديوان ص ١٥ .

ويعجب البوصيرى من النصارى حين زعموا ألوهية عيسى — عليه السلام ويبدى دهشته الساخرة من هذا الإله الذى يأكل ويشرب وينام ، ويمسه الألم ويموت ،

وحين مات — كما زعموا — من الذى تكفل بتدبير أمر الكون ؟! :

أسمعتم أن الإلـه لحاجـــة يتناول المشروب والمأكـولا ؟
وينـام مـن تعب ويدعـو ربـه ويـروم من حـر الهجـير مقيلا
ويمسـه الألم الـذى لم يستطـع صرفا لـه عنـه ولا تحويـلا
يا ليت شعرى حين مات بزعمهم من كان بالتدبير عنـه كفيلا ؟!
هل كان هذا الكـون دبـر نفسـه من بعده أم آثر التعطيـلا ؟! (١)

وينتقل البوصيرى إلى اليهود فيسخر من مقولتهم فى البداء ، ومن تجويزهم على الله — سبحانه — مالا يجوز :

مثل ما قالت اليهـود وكـل لزمتـه مقالـة شنعـاء
إذ هـم استقروا البـداء وكم سـاق وبالا اليهـم استقراء
وأراهـم لم يجعلـوا الواحـد القهـار فى الخلـق فاعلا ما يشـاء
جـوزوا النسـخ مثلـما جـوزوا المسـخ عليهـم لـو أنهـم فقهاء (٢)

ويلاحقهم بالأسئلة المربكة التى تفضح كذب ادعائهم ، وتكشف زيف اعتقادهم فيقول :

فسلـوهم أكـان فى مسخهـم نسـخ لآيـات اللـه أم إنشـاء ؟!

---

(١) الديوان ص ١٣١ .
(٢) الديوان ص ١٦ .

وبـــداء فى قولهـــم نـــدم اللـــــه علـى خلـــق آدم أم خطـــــــــاء ؟!
أم محـــا الله آيـــــة الليـــل ذكـــر بعـــد سهـــو ليوجـــد الإمســاء ؟!
أم بـــدا للإلـــه فى ذبـــح اسحـــاق وقد كان الأمر فيه مضـــــاء؟!(١)

وإذا كان النصارى قد تألهوا عيسى ، فاليهود تألهوا أحبارهم ، وجعلوا من شأنهم التحريم والتحليل والإباحة :

ضـــل الذيـــن تألهـــوا أحبارهـــم ليحرمـــوا ويحللـــوا ويبيحـــوا
يا أمـــة المختـــار قـــد عوفيـــتم مما ابتلوا والمبتـــلى مفضـــوح (٢)

كذلك فهم قد وقعوا فى التجسيم ، فمثلوا الله بعباده ، وزعموا أن إسرائيل صارعه ، وزعموا أنهم رحلوا به فى قبة مضروبة ، وأنهم سمعوا كلامه — سبحانه — بلا واسطة .

وكفى اليهـــود بأنهـــم قـــد مثلـــوا معبـــودهم بعبـــاده تمثيـــــلا
وبأن اسرائيـــل صـــارع ربـــــه ورمى بـــه شكـــرا لإسرائيـــــلا
وبأنهـــم رحلـــوا بـــه فى قبـــــة إذا أزمعـــوا نحـــو الشـــآم رحيلا
وبأنهم سمعـــوا كـــلام إلههـــــم وسبيلهم أن يسمعوا المنقـــولا (٣)

ويظل البوصيرى يتعقب دعاوى اليهود ، ويكشف عوراتهم ، وما ارتضوه على موسى — عليه السلام — من نطق الخنا والفواحش إلى آخر ذلك من الخطل والزيف .

وفى الجانب المقابل حرص البوصيرى على أن يشيد بالإسلام ، وشريعته

---

(١) الديوان ص ١٦ .
(٢) الديوان ص ٥٧ .
(٣) الديوان ص ١٣٥ .

السمحة فهو دين الحق ، وما سواه باطل :

دينه الحق فدع ما سواه وخذ الماء وخل السرابا (١)

وشريعة الإسلام واضحة المحجة ، سمحة لا تكلف الناس من أمرهم عسرا لها كتاب أحكمت آياته ، يتحدى من يعاند :

شريعته صراط مستقيم فليس بمسنا فيها لغوب
عليك بها فان لها كتابا عليه تحسد الحدق القلوب
ينوب لها عن الكتب المواضى وليست عنه فى حال تنوب
ألم تره ينادى بالتحدى ولا أحد ببينة يجيب (٢)

وهو أيضا كتاب يخاطب العقل :

وأتاهم بكتاب أحكمت منه آيات لقوم يعقلونا (٣)

ورسول الإسلام لم يكلفنا بما نعجز عن إدراكه وفهمه ، لذلك لم نرتب ، ولم نضل :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم (٤)

والرسول بشر منا لا نخلع عليه صفات الألوهية ، وان كنا نفضله على سائر البشر :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم (٥)

---

(١) الديوان ص ٣١ .
(٢) الديوان ص ٣٧ .
(٣) الديوان ص ٢١٢ .
(٤) الديوان ص ١٩٣ .
(٥) الديوان ص ١٩٤ .

* بشر سعيد فى النفـوس معظـم   مقداره وإلى القلـوب محبب (١)

وهكذا نصب البوصيرى من نفسه مدافعا عن قضية الإسلام ، وطبيعى أن نتصور أن البوصيرى فى ذلك كان يقارع الحجة بالحجة ، وأن هناك من أهل الذمة من كان يتصدى له بالمناظرة والجدل بطريق أو بأخرى ، ولعل هذا هو السر فيما نراه من جنوح البوصيرى إلى الأسلوب المنطقى ، وغلبة النزعة العقلية على هذا الجانب من شعره .

ولعل ما يؤكد أن هناك من أهل الذمة من كان يتصدى بالرد والدفاع وتسفيه أقوال المسلمين قصيدة البوصيرى التى نظمها سنة ٦٥٤ هـ إثر حدوث حريق بالمسجد النبوى من هزة أرضية أسقطت سراجه ، ولعل هذا الحدث قد استغله أهل الذمة فى الترويج لدعاواهم ، وفى الحط من شأن الإسلام ، لذلك نرى البوصيرى يتجه إليهم مشيرا إلى ما أشاعوا وما روجوا :

دعوا معشر الضلال عنا حديثكـم   فلا خطأ منـه يجاب ولا عمـد
فلـو أنكم خلـق كريم مسخـتم   بقولـكم ، لكن بمن يمسخ القرد؟!
أتانا حـديث ماكر هنا بمثلـه   لـكم فتنـة فيها لمثلكـم حصد
وأعشى ضياء الحق ضعف عقولكم   وشمس الضحى تعشى بها الأعين الرمد
ولن تدركوا بالجهل رشـداً وإنمـا   يفرق بين الزيف والجيد النقد (٢)

ويبين البوصيرى أن هذه النار وإن كانت قد ذهبت بزخارف المسجد النبوى فإنها لم تذهب بمكانه فى النفوس ، بل ربما ازداد هيبة وجمالا ، ولعل

---

(١) الديوان ص ٤٢ .
(٢) الديوان ص ٦٤ .

البوصيرى بذلك يرد على ما كان يردده أهل الذمة إذ ذاك :

وإن ذهبت بالنـار عنه زخـارف   فما ضره منها ذهاب ولا فقـد
ألا ربما زاد الحبيب ملاحـة   إذا شق عنه الدرع وانتثر العقـد
وكم سترت للحسن بالحلى من حلى   وكم جسد غطى محاسنه البـرد
وأهيب ما يلقى الحسام مجـردا   وورونقـه أن يظهـر الصفح والحد
وما تلك للإسـلام إلا بواعـث   على أن يجل الشوق أو يعظم الوجد (١)

لا ريب — إذن — أن هذا التوتر الدينى وما صحبه من جدل قد ترك أصداء قوية فى أدب هذا العصر ، ولعلنا — من ثم — نستطيع أن نقف على سر من أسرار ذيوع المدائح النبوية فى هذه الحقبة وتسابق الشعراء إلى نظمها والاكثار منها .

إن هذه المدائح النبوية لم تكن هيمات دينية تسبح فى فراغ ، وإنما هى نبات يضرب بجذوره فى تربة المجتمع الإسلامى آنذاك ، وتغذيه التيـارات والصراعات والأحداث التى شغلت وجدان الناس وعقولهم .

ولعلنا بعد ذلك نستطيع أن نفسر من أمر هذه المدائح بعض أمور ظل الناس يتناقلونها وهم فى غفلة عما يكمن وراءها من مقاصد .

ولعل أول أمر نلحظه فيها أنها تلح دائماً على أن رسولنا — صلى الله عليه وسلم — أفضل الرسل ، أفضل من عيسى عليه السلام ، وأفضل من موسى ، فيقول البوصيرى :

كيف ترقى رقيك الأنبيـاء   يا سماء ما طاولتها سمـاء

---

(١) الديوان ص ٦٦ .

لم يساووك فى علاك وقد حال سناً منك دونهم وسناء (١)

وفى البرده يصفه عليه الصلاة والسلام بأنه فاق النبين طرا ، وكلهم واقف لديه عند حد لا يتجاوزه :

فاق النبيين فى خلق وفى خلق ... ولم يدانوه فى علم ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمس ... غرفاً من البحر أو رشفا من الديم
وواقفون لديه عند حدهم ... من نقطة العلم أو من شكلة الحكم (٢)

ويرى أنه عليه السلام وإن جاء آخرا فهو يسابق بفضله المسيح ونوحا :

إن جاء بعد المرسلين ففضله ... من بعده جاء المسيح ونوح
جاءوا بوحيهم وجاء بوحيه ... فكأنه بين الكواكب يوح (٣)

ويرى أن أم الرسول — صلى الله عليه وسلم — حين حملت به فإنها حملت بأفضل مما حملت به السيدة مريم :

يوم نالت بوضعه ابنة وهب ... من فخار مالم تنله النساء
وأتت قومها بأفضل مما ... حملت قبل مريم العذراء (٤)

وليس هذا مذهب البوصيرى وحده ، ولكنا نجد هذا الاتجاه عند معظم الشعراء ، فالعزازى يرى الرسول خير من نزل عليه جبريل ، وفى هذا ما فيه من تفضيل على سائر الأنبياء :

أوفى النبيين برهانا ومعجزة ... وخير من جاءه بالوحى جبريل (٥)

(١) الديوان ص ١ .
(٢) الديوان ص ١٩٣ .
(٣) الديوان ص ٥٥ .
(٤) الديوان ص ٣ .
(٥) فوات الوفيات ح ١ — ص ٩٦ .

ويرى ابن نباته أن دور عيسى لم يكن إلا تمهيدا ، وحسبه أن يكون مبشرا بمحمد عليه السلام :

تحزم جبريل لخدمة وحيه وأقبل عيسى بالبشارة يجهر
فمن ذا يضاهيه وجبريل خادم لمقدمه العالى وعيسى مبشر(١)

ولا يذهب بنا الظن أننا ننكر ذلك أو نحاول إنكاره فهذه قضية تثبت عقلا واستنباطا حتى وإن لم يقررها نص من كتاب أو سنة ، ولكننى أعتقد أن هذه القضية لم تثر فى القرون الإسلامية الأولى ، وما أظن إلحاح الشعراء عليها فى العصر الذى نتصدى له بالدراسة إلا ثمرة من ثمار الجدل الدينى الذى كان يموج به المجتمع آنذاك ، ولم تكن المدائح النبوية فى جملتها إلا تأكيدا لهذه القضية وإلحاحا عليها .

وأما الملحوظة الثانية فهى ما نجده من تركيز شعراء المدائح النبوية على إبراز المعجزات المادية للرسول - صلى الله عليه وسلم - فالبوصيرى فى كل قصائده تقريبا يركز على هذه المعجزات فى انشقاق القمر ، وحنين الجذع وسجود الشجر :

ودان البدر منشقا إليه وأفصح ناطقا عير وذيب
وجذع النخل حن حنين ثكلى له فأجابه نعم المجيب
وقد سجدت له أغصان سرح فلم لا يؤمن الظبى الربيب (٢)

ويحكى البوصيرى - أيضا - من أمر هذه المعجزات كيف شفى الرسول صلى الله عليه وسلم - ذلك المريض الذى أشفى على الموت :

(١) الديوان ص ١٨١ ، ١٨٢ .
(٢) الديوان ص ٣٧ .

وميت مؤذن بفراق روح ... أقام وسريت عنه شعوب (١)

ويشير إلى أن الموتى كلمت الرسول — صلى الله عليه وسلم — وتحولت العصا فى كفه سيفا ، وأضاء له العرجون فكأنه كوكب :

وتكلم الأطفال والموتى له ... بعجائب فليعجب المتعجب
والجذل من حطب غدا لعكاشة ... سيفا وليس السيف مما يحطب
وعسيب نخل صار عضبا صارما ... يوم الوغى إذ كل عين تقلب
وأضاء عرجون وسوط فى الدجى ... عن أمره فكأن كلا كوكب (٢)

وشارك سائر الشعراء فى الحديث عن هذه المعجزات المادية ، فالنصيبى القوصى يمدح الرسول مركزا على هذا الجانب :

وشق له القمر المستنير ... والشمس ردت وناهيك فضلا
وسبح فى راحتيه الحصى ... لرب العباد تعالى وجلا
وحن إليه حنين العشار ... جذيع قديم وقد كاد يبلى
وناول فى يوم بدر قضيبا ... لبعض الصحابة فارتد نصلا
وقد سجدت سرحة إذ رأته ... وأخرى أتته فلبته عجلى
وخبر عن كل شىء يكون ... بعد وعن كل ما كان قبلا (٣)

ويقول ابن نباته :

نبى زكا أصلا وفرعا وأقبلت ... إليه أصول فى الثرى تتجرر

---

(١) الديوان ص ٣٧ .
(٢) الديوان ص ٤٣ .
(٣) الطالع السعيد ص ٦١٧ .

وخاطبه وحش المهامه آنسا ... إليه وما عن ذلك الحسن منفر
له راحة فيها على البأس والندى ... دلائل حتّى فى الجهاد تؤثر
فبينا العصا فيها وريق قضيبها ... إذا هو مشحوذ الغرارين أبتَر (١)

ويقول القيراطى :

ومنهن عرجون حواه بكفه ... فعاد حساما قاطعا باهر الصقل
ومنهن أن الجذع حن لبعده ... كما أن محزون شكا لوعة الثكل
ومنهن تسبيح الحصا بيمينه ... فسبح عجباً عنده القوم فى الحفل
ومنهن إخبار الذراع بخبير ... بما فيه من سم له ساعة الأكل (٢)

والشواهد كثيرة ، ولسنا بحاجة إلى المزيد ، كما أننا لسنا بحاجة إلى الخوض فى أمر هذه المعجزات أو إقامة الجدل حولها ، وكل ما يعنينا هنا أن نفسر إلحاح الشعراء عليها ، واحتلالها حيزا كبيرا من مدائحهم النبوية .

ولا أظننى مغاليا إذا قلت : إن ذلك أيضا كان صدى من أصداء الجدل الدينى ، وأغلب الظن أن النصارى كانوا يعددون ما أجراه الله — سبحانه — من معجزات على يد عيسى من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمة والأبرص ، وأن اليهود كانوا يعددون ما وهبه الله لموسى من معجزات فى عصاه ، وكان على المسلمين أن يقابلوا هذا بالمثل ، فلم يكن لهم مندوحة عن التركيز على الجانب المادى من معجزات الرسول — صلى الله عليه وسلم — فكأنهم أرادوا أن يبينوا للنصارى واليهود أن رسول الإسلام كان له من المعجزات المادية ما يضاهى

---

(١) الديوان ص ١٨٢ .
(٢) الديوان ص ٢٩ .

معجزات عيسى وموسى ، ثم يتفرد بعد ذلك بالمعجزة الخالدة الباقية ألا وهى القرآن الكريم ، فهو بذلك أفضل الرسل على أى وجه كانت المقارنة بينه وبينهم ، ولعل ذلك كله كان يدور فى رأس ابن بنت الأعز حين مدح الرسول عليه السلام ، لذلك نراه يسلك سبيل المقارنة فيقول :

هل جاء قبلك مرسل بخوارق إلا وجئت بمثله أو أزيد
فعصا الكليم تبدلت أعراضها وكذا عصاك تبدلت بمهند
نبعت عيون الماء من حجر له والنبع فى الأحجار كالمتعود
إن البعيد من العوائد كلها نبع بدا بين الأصابع باليد(١)

---

(١) فوات الوفيات حـ ٢ ص ٢٨١ .

الفصل السادس

ملامح الشخصية المصريه والحياة العامه

ينبض أدب العصر المملوكى بروح الحياة المصرية ، ويكاد القارىء له يتمثل مصر المملوكية واقعا ملموسا يعيشه ، ويعايش فيه الناس فى طبائعهم ، وطرائق تفكيرهم ، وسلوكهم ، وعاداتهم ومعتقداتهم ، وما كانوا يحبون ، وما كانوا يكرهون ، بل إنه يرى هؤلاء الناس فى بيوتهم وأسواقهم وحرفهم فى أفراحهم وأحزانهم .

وصحيح أن الأدب — كما يقال — لمح وإشارة ، وتعبير عن لحظات يعيشها الأديب بحسه ووجدانه ، إلا أنه مع ذلك يفتح أمام خيال القارىء أبوابا لا نهاية لها من التأمل والتصور ، وإذا بهذه اللمحات الخاطفة والإشارات الشاردة تستحيل عالما زاخرا نابضا بالحياة والحركة .

وأول ما نقف عليه فى أدب هذه الحقبة الروح المصرية التى تتسرب إلى أقوال الأدباء ، مثلا شعبيا مما يردده الناس فى محاوراتهم ، أو تعبيرا مما يجرى على ألسنتهم فى غدوهم ورواحهم ، أو دعابة فكهة مما تتفتق عنه الروح المصرية الساخرة . فانظر مثلا إلى قول البهاء زهير :

إياك يدرى حديثا بيننا أحد ... فهم يقولون للحيطان آذان
من لى بنوى أشكو ذا السهاد له ... فهم يقولون إن النوم سلطان (١)

---

(١) الديوان ص ٢٦٥ .

فأنت تراه قد استعار المثلين الشعبيين «للحيطان آذان ، النوم سلطان» وهو بهذا قد وسم شعره بميسم مصرى ، وأصبح القارىء لا يخطىء فيه تلك السمة المصرية .

وانظر إليه مرة أخرى وقد استعار من أقوال العامة ما يصف به طول الليل :

لا رعاه الله ما أطوله ـــ تحبل المرأة فيه وتلد (١)

ثم انظر اليه يخاطب محبوبه :

تعيش أنت وتبقى ـــ أنا الذى مت حقا
حاشاك يا نور عينى ـــ تلقى الذى أنا ألقى (٢)

أتحس بعد ذلك أن هناك فاصلا زمنيا يفصل بينك وبين الشاعر ؟ وهذه التعبيرات «تعيش أنت ، يا نور عينى» أتختلف فى شىء عما نردده فى أيامنا؟..

وفى ديوان البهاء زهير أمثلة كثيرة على ذلك ، ولا يستطيع القارىء مهما كان علمه بالبهاء زهير وحياته إلا أن يحكم عليه بأنه مصرى أو هو على الأقل يصدر عن روح مصرية .

وهذه الروح المصرية لا نخطئها فى سائر شعراء العصر ، فها هو البوصيرى أيضا ينتقى لأدبه من أقوال العامة وأمثالها ما يسمه بهذه السمة المصرية ، وها هو يعرض ضائقته على أحد الوزراء ، ويصف له ما تعانى عائلته ، فيختار

---

(٢) الديوان ص ٧٥ .
(١) الديوان ص ١٨٧ .

من قول العامة «بالخيط والإبرة» إذا أرادوا مطابقة ما يحكى لما جرى مطابقة دقيقة :

أحدث المولى الحديث الذى — جرى عليهم بالخيط والإبره (١)

وها هو يختار اللفظة العامية «يستاهل» وهو يتحدث على لسان حمارته قائلا :

لو جرسوه على من سفه — لقلت غيظا عليه «يستاهل» (٢)

أما ابن دانيال الموصلى فيقول متهكما بالوزير ابن حنا :

يحتاج ذا التاج من يرصعه — بدرة تحت دالها كسرة
فمن رأى عنقه الطويل ولا — ينزل فيه يموت بالحسرة (٣)

أرأيت إلى قوله «ينزل فيه» ؟ أما نقول نحن حتى اليوم «نزل فيه ضربا» ؟

ويقول الزغارى :

قالت وقد أنكرت سقامى — لم أر ذا السقم يوم بينك
لقد أصابتك عين غيرى — فقلت لا عين بعد عينك (٤)

أرأيت إلى هذا القول الذى يكثر جريانه على ألسنة النساء بخاصة (أصابته العين) وكيف أجراه الشاعر على لسان محبوبته :

وتنفحنا من حين لآخر فى أدب هذه الحقبة روائح الحضارة المصرية

---

(١) الديوان ص ١٨٧ .
(٢) الديوان ص ١١٨ .
(٣) الديوان ص ١٩٠ .
(٤) فوات الوفيات ﺟ ٣ — ص ٢٥٩ .
(٥) النجوم ﺟ ١٠ — ص ٢٨٨ .

القديمة أسطورة وتاريخا ، ولتقرأ معي قول البهاء زهير :

تسلم باليمنى على إشـــــارة ... وتمسح باليسرى مجارى المدامع
وما برحت تبكي وأبكي صبابة ... إلى أن تركنا الأرض ذات نقائع
ستصبح تلك الأرض من عبراتنا ... كثيرة خصب رائق النبت رائع (١)

واقرأ معي قوله :

وذا العام قالوا أمرع الغور كلــه ... وما كان لولا دمعتى بمريع (٢)

أفترى معي أن هذه الدموع التي تخصب الأرض ، وتمرع الغور، وتهتز الأرض بفعلها فتنبت النبات الرائق الرائع ليست إلا رجعا لما ورد في أسطورة إيزيس وأوزوريس ؟ لعلنا لا نجانب الصواب إن ذهبنا إلى ذلك .

كذلك كان التاريخ المصرى القديم نبعا لخيال الشعراء ، فاستمدوا منه كثيرا من الصور ، ومن قصة موسى وفرعون التي جرت أحداثها على أرض مصر أخذ الأدباء بعض أخيلتهم ، وقد ألمح إلى ذلك الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى . (٣)

ونرى مثلا البهاء زهير يريد أن يبين لمحبوبته أن نظره لا يلتفت إلى سواها فيشبه نفسه بموسى حين حرمت عليه المراضع سوى أمه :

وغيرك إن وافى فما أنا ناظـــر ... إليه وإن نادى فما أنا سامـع
كأنى موسى حين ألقته أمه ... وقد حرمت قدماً عليه المراضع (٤)

---

(١) الديوان ص ١٥٥ .
(٢) الديوان ص ١٥٦ .
(٣) ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ص ١٤٦ .
(٤) الديوان ص ١٥٦ .

أما الجزار فيستحضر فى ذهنه القصة كاملة حين يمدح جمال الدين بن يغمور فيقول :

ولست أخاف السحر من لحظاتها   لأنى بموسى قد أمنت من السحر
فتى إن سطا فرعون فقرى وجدته   يغرقه من جود كفيه فى بحر
له باليد البيضاء أعظم آيـة   إذا اسودت الأيام من نوب الدهر (١)

فها هو موسى يبطل سحر السحرة ، وها هو فرعون وغرقه فى البحر ، وها هى آية اليد البيضاء ، كل أولئك ساقه الجزار فى سياق جديد ، ووظفه لمدح أميره موسى بن يغمور .

وليس بغريب أن تحظى قصة موسى بهذا الاهتمام فى عالم الأدب ، فهى بورودها فى القرآن الكريم صارت بمثابة برزخ يصل حضارة مصر الفرعونية بحضارتها الإسلامية .

وظلت آثار مصر الفرعونية مصدر دهشة وعجب للأدباء ، يذهب معها الخيال كل مذهب ، ويحار الفكر فى تفسير أسرارها ، وكشف معمياتها ، وأصدق ما يعبر عن ذلك قول عبد الوهاب المصرى فى الأهرام :

أمبانى الأهـرام كم من واعظ   صدع القلوب ولم يفه بلسانه
أذكرتنى قولا تقادم عهده   أين الذى الهرمان من بنيانه
هن الجبال الشامخات تكاد أن   تمتد فوق الأرض عن كيوانه

وأمام عظمة الأهرام وشموخها يحار فكر عبد الوهاب المصرى ، وتنثال عليه تساؤلات لا يجد لها إجابة .

---

(١) المغرب جـ ٤ - ص ١٢٥ .

هل عابد قد خصها بعبادة ... فمباني الأهرام من أوثانه ؟
أو قائل يقضي برجعة نفسه ... من بعد فرقته إلى جثمانه
فاختارها لكنوزه ولجسمه ... قبرا ليأمن من أذى طوفانه ؟
أو أنها للسائرات مراصد ... يختار راصدها أعز مكانه ؟
أو أنها وضعت بيوت كواكب ... أحكام فرس الدهر أو يونانه؟
أو أنهم نقشوا على حيطانها ... علما يحار الفكر في تبيانه ؟ (١)

ومن السمات المصرية الخالدة الفكاهة ، وقد أشار إلى ذلك كل من تصدى للشخصية المصرية بالدراسة ، فيقول الدكتور شوقي ضيف في معرض حديثه عن المصريين : «فمنذ برزوا على صفحة الزمن وهم يضحكون ويسخرون ويتهكمون ، ألهمتهم ذلك عصور الشدة والرخاء منذ كانوا يحملون صخور الأهرامات على كواهلهم ، ويرفعونها بصدورهم وسواعدهم ، ويحنو عليهم واديهم فيلقي في حجورهم بحبه وثماره» . (٢)

والدكتور شوقي ضيف يشير بذلك إلى أن الفكاهة كانت ثمرة من ثمار الحياة المصرية التي تتقلب بين المتناقضات من الشدة والرخاء ، واليسر والعسر فكأن هذه المتناقضات تخليط في سير الحياة يتفق تماما مع ما نراه في «النكتة» من تخليط .

أما الدكتور مصطفى الصاوي الجويني فيذهب إلى أن الفكاهة كانت «استعلاء على ما صادف شعب مصر من محن فهو لم يرسب في أعماقه الكوارث كي تعقد من شخصيته ، أو تجعلها متزمتة كدرة ، وإنما حاول بالنادرة

---

(١) ذيل ثمرات الأوراق لابن حجه ص ١٦٩ .
(٢) الفكاهة في مصر ص ٧ .

والنكتة أن يفرج عن كربه وأن ينفس عن حزنه» . (١)

والدكتور الجوينى بهذا يذهب إلى أن النكتة أو الفكاهة تعبير عن البساطة المصرية التى لا تختزن فى أعماقها ما يعقدها أو ما يكدرها .

وهكذا نرى الباحثين يذهبون فى تفسير ما اتسمت به شخصية مصر من فكاهة مذاهب شتى ، قد لا يهمنا فى هذا المجال أن نستقصيها أو نمحصها بقدر ما يهمنا هذا الإجماع على سمة فذة من سمات الشخصية المصرية .

والقارىء للأدب المصرى فى مختلف عصوره — لاشك — واقع على هذه السمة ظاهرة جلية ، يراها أحيانا سخرية لاذعة بالحكام الغرباء ، ويراها أحيانا نقدا متهكما لبعض الأوضاع الاجتماعية ، ويراها أحيانا أخرى دعابة خالصة بريئة لا يقصد بها سوى الترويح عن النفس ، والتخفيف من جد الحياة بخلطه بالهزل على حد قول ابن نباته :

إذا أبصرت جدا من زمان فخالطه بشىء من مزاح (٢)

هكذا كانت شخصية مصر منذ القدم ، وستظل إلى ما قدره الله للحياة على هذه الأرض ، سنة الله ولن تجد لسنته تبديلا .

وفى الفصول السابقة عرضنا ألوانا من سخريات الأدباء بالحكام وبالأوضاع الاجتماعية ، وألمحنا إلى أن هذه الألوان الساخرة كانت سلاحا فريدا فى مقاومة الظلم ، ومحاربة الفساد أو فى لفت الحكام إليه .

---

(١) ملامح الشخصية المصرية فى الدراسات البيانية ص ١٤٨ .
(٢) الديوان ص ١٠٣ .

على أن من هذه الفكاهة مالم يقصد به إلا الإضحاك ، ونلمس ذلك فى مثل قول ابن دانيال :

كم قيل لى إذ دعيت شمسا ... لابد للشمس من طلوع
فكان ذاك الطلوع داء ... سما إلى السطح من ضلوعى(١)

أو قوله :

تمر لى عابر مناما ... أحسن فى قوله وأجمل
وقال لا بد من طلوع ... فكان ذاك الطلوع دمل (٢)

فابن بل فى هذه الأبيات ركز على عنصر التورية فى كلمة «طلوع» وما تعطيه من معان متناقضة تثير الضحك ، كذلك نراه صاغ فكاهته على هيئةما نسميه اليوم بالقفشة فلم تستغرق «النكته» أكثر من بيتين ، وكأنه فطن إلى أن الايجازعنصر هام من عناصر النكتة ، إذ فى لمحة خاطفة يقف العقل أمام النتيجة التى تناقض المقدمة ، فلا يملك الإنسان إلا أن يضحك وقد اختلت أمامه معايير المنطق .

ومن ألوان الفكاهة تلك المداعبات البريئة التى كان يتبادلها الأدباء، والتى توحى بخفة الروح ، ومن ذلك ما كتبه الصاحب تاج الدين بن حنالى الوراق يعزيه فى حماره .

يفديك جحشك إذ مضى متردیا ... وبتالد يفدى الأديب وطارف
عدم الشعير فلم يجده ولا رأى ... نبتا وراح من الظما كالتالف
ورأى البويرة غير خاف ماؤها ... فرمى حشاشة نفسه لمخاوف

---

(١) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٣٤ .
(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٣٤ .

فهو الشهيد لكم بوافر فضلكم — هذى المكارم لا حماقة خاطف
قوم بموت حمارهم عظشا لقد — أزروا بحاتم فى الزمان السالف (١)

وحتى البوصيرى ذلك الشاعر المتصوف لم يستنكف عن الفكاهة ، بل إن ديوانه عامر بها ، وقد عده بعض أهل عصره من الشعراء الظرفاء ، ومن ألطف فكاهاته ما كتبه إلى ناظر الشرقية على لسان «المملوكة حمارة البوصيرى» وكان الناظر قد استعارها ، فأعجبته وطمع فى أخذها :

يأيها السيد الذى شهدت — أخلاقه لى بأنه فاضل
ما كان ظنى يبيعنى أحد — قط ولكن صاحبى جاهل
لو جرسوه على من سفه — لقلت غيظا عليه يستاهل
أقصى مرادى لو كنت فى بلدى — أرعى به فى جوانب الساحل
وبعد هذا فما يحل لكم — أخذى لأنى من سيدى حامل (٢)

ويكشف الأدب عن جوانب أخرى من الشخصية المصرية آنذاك، فنراها كما يمثلها — شخصية متعلقة بالخوارق تميل إلى تصديقها وحكايتها ، ومن ذلك ما يحكيه المقريزى عن المماليك الصالحية حين فروا بعد قتل زعيمهم أقطاى وضل اثنا عشر نفرا منهم فى تيه بنى إسرائيل ، وهناك وجدوا المدينة الخضراء التى يصفها المقريزى بقوله :

«فإذا مدينة عظيمة ، ذات أسوار وأبواب حصينة كلها من رخام أخضر فطافوا بداخل المدينة ، وقد غلب عليها الرمل فى أسواقها ودورها ، وصارت أوانيهم وملابسهم إذا أخذت تتفتت وتبقى هباء ، فوجدوا فى صوانى بعض

(١) الوافى بالوفيات جـ ١ ص ٢١٩ .
(٢) ديوان البوصيرى ص ١٨٩ .

البزازين تسعة دنانير ، قد نقش عليها صورة غزال حوله كتابة عبرانية ، وحفروا مكانا ، فإذا بلاطة ، فلما رفعوها وجدوا صهريجا فيه ماء أبرد من الثلج فشربوا وساروا ليلتهم» . (١)

وقد تكون هذه المدينة الخضراء أثرا من آثار القدماء ، ولكن ليس من شك أن الخيال لعب دوره فى تصوير هذه المدينة الخضراء ، وتفنن راويها ما شاء فى وصف رخامها وآثارها . ولكن الأغرب من ذلك قصة ذلك الثور التى أوردها المقريزى فى نهاية غلاء سنة ٦٩٦ هـ حيث يحكى أن رجلا خرج بثوره ليورده الماء ، ولكن الثور لم يرد الماء ، واكتفى أن نطق بلسان أسمع جميع من بالمورد «الحمد لله والشكر له . إن الله تعالى وعد هذه الأمة سبع سنين مجدبة ، فشفع لهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن الرسول أمره أن يبلغ ذلك ، وإنه قال يا رسول الله فما علامة صدق عندهم ، قال : أن تموت بعد تبليغ الرسالة ، وأنه بعد فراغ كلامه صعد إلى مكان مرتفع وسقط منه ومات» . (٢)

والعجيب بعد ذلك أن رجلا كالمقريزى — وهو من هو — يروى ذلك دون أن يأخذه ارتياب أو تشكك .

ولا ريب أن هناك من الساسة من فطن إلى هذه السمة فى العقلية المصرية — آنذاك — فأوعز إلى بعض القصاص أن ينسج على منوال ذلك بعض الحكايا التى تدخل فى روع الناس أن المماليك ارتقوا إلى الحكم على قدر مقدور منذ الأزل ، وفى ذلك ما فيه من حمل الشعب على الرضوخ لحكمهم والتسليم له . يقول المقريزى فى أحداث سنة ٦٧٢ هـ :

(١) المقريزى — السلوك جـ ١ — ٢ — ٣٩١ .
(٢) إغاثة الأمة ص ٣٨ ، ٣٩ .

«فى الحرم نقض باب القصر المعروف بباب البحر تجاه المدرسة الكاملية بين القصرين لأجل نقل عمد منه للبعض العمائر السلطانية ، فوجد فيه صندوق فى داخله صورة من نحاس أصفر ، مفرغ على كرسى شكل هرم ، ارتفاعه قدر شبر ، بأرجل نحاس ، والصنم جالس عليه ، ويداه مرتفعتان تحملان صحيفة دورها ثلاثة أشبار مكتوبة بالقبطى ، وإلى جانب الكتابة فى الصحيفة شكل له قرنان يشبه شكل السنبلة ، وإلى الجانب الآخر شكل ثان وعلى رأسه صليب ، ووجد مع هذا الصنم فى الصندوق لوح من ألواح الصبيان ، قد تكشط أكثر ما فيه من الكتابة ، وبقى فيه «بيبرس» فتعجب من ذلك» . (١)

وهذه الحكاية — لا ريب — فيها ظلال من الواقع ، ولكن عمل الخيال فيها واضح وبخاصة فى الخاتمة ، ولعلنا الآن نستطيع أن ندرك ماذا وراء ذلك من مقاصد .

وعلى أى حال فهذه الحكايا لون من ألوان القص الأدبى ، نستشف منها طبيعة العقلية المصرية — آنذاك — وشغفها بالخوارق والعجائب ، وأخذ كل ذلك مأخذ اليقين ، ونحن واجدون فى ثنايا كتب التاريخ والأدب ألوانا من هذا القص ، ولعل الفكر الصوفى كان له دوره فى توجيه العقل المصرى إلى ذلك ، ودفعه إلى الإيمان بالخوارق ، والتى سماها الصوفية «الكرامات» ورأوا أن هذه الكرامات امتداد لمعجزات الرسل ، كما يقول البوصيرى :

فانقضت آى الأنبياء وآياتك فى الناس ما لهن انقضاء
والكرامات منهم معجزات حازها من نوالك الأولياء (٢)

---

(١) المقريزى — السلوك — جـ ١ — ٢ — ص ٦٠٩ .
(٢) الديوان ص ٢٨ .

كذلك يعكس الأدب من سمات الشخصية المصرية «الطيرة» إذ كانوا يتشاءمون من أشياء ، ويتفاءلون بأشياء أخرى ، فمثلا كانوا يتطيرون من زيارة المرضى يوم السبت ، ولعل ذلك أثر من آثار اليهودية فى مصر ، ونرى ذلك فى قول البهاء زهير :

أأحبابنا حاشاكم من عيادة ... فذلك وهن فى القلوب مضيض
وما عاقنى عنكم سوى السبت عائق ... فنى السبت قالوا ما يعاد مريض(١)

وكانوا يتفاءلون ربما ببعض جمل أو أقوال ترد على اللسان ، ومازال العامة يسمون ذلك «الفال» ، ومازال الإيمان بالفأل دأب كثير فى مصر وبخاصة النساء ، ونرى صدى من ذلك عند سراج الدين الوراق ، فقد كتب يتقاضى صديقه عسلا ، وتفاءل بنجح طلبه أن وردت على لسانه كلمة «عسال» :

قبل يد الشرف التى هى قبلة ... أبدا لها تتوجه الآمال
واذكر له شوقا إليه يهزنى ... فكأننى متأود عسال
ولعل ذا فأل جرى نطقى به ... وأبوك يصدق فى نداه الفال (٢)

وشغف الناس فى هذه الحقبة بالنجامة ، وتحدثنا كتب التاريخ عن شغف بعض سلاطين المماليك بذلك ، وتتردد فى الأدب أصداء هذه الظاهرة ، فنى أبيات لابن نباته نرى كيف ربط الناس بين حركات الكواكب والأفلاك وبين ما يجرى على الناس من أحداث ، وذلك إذ يقول :

ومذ أثرت فيك الكواكب حكمها ... صددت فما يرعى بجفنى كوكب
يقولون إن الشهب فى كبد السما ... لها أسد يردى الأنام وعقرب
دع الأسد الأفقى يفترس الورى ... ودع عقرب الأفلاك للخلق يسلب(٣)

---

(١) الديوان ص ١٧٣ .
(٢) منتخب الوراق ص ٢٥٩ .
(٣) الديوان ص ٤٤ .

ويرسم ابن دانيال الموصلي صورة لواحد من المنجمين مشيرا إلى ما كان يحتال به على الناس وبخاصة النساء من تمائم وتعويذات زاعما أنها تعين الحامل على أن تضع حملها ، وتوقف النزيف ، وترد البصر ، وتجعل المرأة التي ترملت مطمح الخاطبين ، يقول ابن دانيال على لسان ذاك المنجم في وصف التميمة أو «الحجاب» :

ولقبته الحصن الحصين وإنه ... لحصن بآى الله بات منورا
غدا منه ليلى في التمائم جنة ... لمن كان منصور اللواء مظفرا
ومن فضله أن العدو إذا رأى ... لحامله أمسى به متأخرا
يلوح عظيما في النفوس مبجلا ... عزيزاً مهيبا في العيون موقرا
وكم حامل لما رأته تخلصت ... وأحضرها الطلق الذى قد تعسرا
وكم أربد بالسحر قد كان أكمها ... فلما رأى ما فيه في الحال أبصرا
وذات نزيف بالدماء رأت به ... عيانا وقد قامت من الدم أبحرا
وأرملة عطل من الزوج قد غدا ... به أمرها بالخاطبين ميسرا (١)

وهذه الصورة التي رسمها ابن دانيال للمنجم وما يأتي به من مزاعم مازال تطالعنا إلى اليوم في المجتمع المصرى وبخاصة في الريف . ومازال كثير من النساء يلجأن إلى مثل ذلك المنجم يطلبن منه ما كان يطلب النساء في زمن المماليك .

وإذا كان ابن دانيال قد رسم صورة لهذا المنجم كاتب التمائم ، فإن الصفدى يطالعنا في بعض شعره بصورة «الرمال» أو «ضارب الرمل» فيقول في رمال :

يضرب في رمله بكف ... هي النقا تحتها العقيق
حمرة خديه في بياض ... وما إلى وصله طريق

(١) خيال الظل ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

ويقول فى آخر :

أقــول اضرب لصبــك تحت رمل   عســاه ينــال مــا يرجــو ويبغى
فقــال الرمــل أخبر فى حســابى   بأنك لم تصل لعريش صدغى (١)

وإذا نفذنا وراء هذا الثوب الغزلى الذى يلف به الصفدى أبياته إذ يقوله متغزلا بضارب الرمل وجدنا أن هذه الأبيات تحمل كثيرا من مصطلحات الحرفة من أمثال «ضرب الرمل» ، «البياض» ، «الطريق» ، «الرمل أخبر فى حسابى» ، وهذه المصطلحات مايزال يتداولها أهل هذه الحرفة إلى يوم الناس هذا .

ويضيف ابن الإخوة خطا جديدا إلى صورة التنجيم والمنجمين فى معرض حديثه عما كان يتخذه هؤلاء من حوانيت يتجمع فيها الشباب بقصد رؤية النساء اللائى كلفن بكشف النجم وكتابة التمائم ، فيقول :

«وحينئذ يؤخذ عليهم وعلى كتاب الرسائل أنهم لا يجلسوا فى درب ولا زقاق ولا فى حانوت بل على قارعة الطريق فإن معظم من يجلس عنــدهم النسوان ، وقد صار فى هذا الزمان يجلس عند هؤلاء الكتاب والمنجمين من لا له حاجة عندهم من الشباب وغيرهم ، وليس لهم قصد سوى حضور امرأة تكشف نجمها أو تكتب رسالة أو حاجة لها فيشاكلها ويتمكن من الحديث معها بسبب جلوسه وجلوسها ، ويؤدى ذلك إلى أشياء لا يليق ذكرها» . (٢)

ونمضى مع أدب هذه الحقبة فنراه يعرض علينا صورا من الحياة المصرية آنذاك ، ونبدأ بصورة الزواج ، وكان للخاطبة دور كبير فى إتمام الزواج إذ كانت المرأة — على هذا العهد — محجبة خلف نقابها أو فى بيتها ، فــلا

---

(١) الحسن الصريح فى وصف مائة مليح . ورقة ٢٤ .
(٢) معالم القربة ص ١٨٣ .

مناص — إذن — أمام طالبي الزواج من اللجوء إلى الخاطبة .

وفي بابة طيف الخيال لابن دانيال نعثر على صورة «أم رشيد» الخاطبة وقد لفها ابن دانيال في ثوب من سخرياته ، إلا أنه مع ذلك يشير إلى ما كان لأمثال أم رشيد من معرفة بالنساء ، وإلى طرقها في ذلك ، كما يشير إلى جوانب من الفساد الخلقي في طباع هؤلاء الخاطبات ، فيقول على لسان الأمير وصال وقد عزم على الزواج :

« فأطلب لي أم رشيد الخاطبة ، وإن كانت كالتي تخرج بالليل حاطبة ، لأنها تعرف كل حرة وعاهرة ، وكل مليحة بمصر والقاهرة ، ولأنهن يخرجن من الحمامات متنكرات في ملاحف الخدامات ، وتعيرهن الثياب والحلي بلا أجرة ، أقود من مقود ، وأجمع من مسرد ، أقود من الأوز للقرط بالفسطاط وأجمع للرأسين من مسمار مقراض الخياط» . (١)

ويبدو أن هذه المهنة مارسها كذلك بعض الرجال ، وكان الرجل الذي يمارس ذلك يسمى «الدلال» ويحدثنا المعمار بخبر هام عن هذا الدلال الذي غشه وزوجه بعروس قبيحة فيقول :

لما جلوا عرسي وعاينتها   وجدت فيها كل عيب يقال
فقلت للدلال ماذا ترى   فقال ما أضمن إلا الحلال (٢)

أما صورة «العرس» التي يطالعنا بها أدب هذا العصر فهي لا تكاد تختلف عما نراه في أيامنا ، تتحدث «أم رشيد» الخاطبة في بابة ابن دانيال عما أعدته لحفل العروس فتقول :

---

(١) خيال الظل ص ١٦١ ، ١٦٢ .
(٢) فوات الوفيات جـ ١ — ص ٥٢ .

«مسيتم بالسعادة ، يا ولدى قد وقع الفاس فى الراس ، فأعمل عمل الناس أما أنا فقد درت المؤدنات ، وصرت فى الشوارع مثل «الصانعةيا بنات» ، وأطلقت من الضامنة ليلة الجمعة ، فاكثّر للجلا ولو عشرين شمعة ، وقد اكتريت زهر البستان ، والمغنية الورد الطرى الريان ، والماشطة أم شهاب الدمشقية ، والجلا فى قاعة المهتار بالبرقية ، فاحمل فى كمك للنقوط من الدراهم والأنصاف وإلا صفعونا بالدلاكش والأخفاف» . (١)

فها نحن نرى القاعة التى أعدت للعروس وهو صنيعنا اليوم من استئجار مسرح أو غيره ، ونرى المغنيتين «الورد الطرى الريان» و «زهر البستان» ، واكتراء أم رشيد لها من «الضامنة» وهو مايزال قائما إلى اليوم من استئجار «العوالم» أو مغنيات الفرح ، وليست الضامنة إلا من يطلق عليها العامة «أسطى العوالم» .. ثم الشموع والنقوط والماشطة وكل أولئك مانزال نراه فى أفراحنا ثم انظر معى إلى ما اختاره ابن دانيال من أسماء موحية للمغنيات ، وقارنه بالأسماء التى نسمعها اليوم لمغنيات الأفراح .

وينتقل ابن دانيال فيصف الزفة قائلا :

«فيدخل ويخرج فى زفة ، وقدامه المغانى والشمع منصفة ، ومن خلفه البوقات والطبول ، وهو راكب على فرس من أحسن الخيول ، ثم يترجل فى أدب وناموس وتبرز للجلا المواشط بالعروس ، وتجلى عليه بالخلعة والشربوش ، وتخطر مستورة الوجه بمنديل مذهب منقوش» . (٢)

صورة لم يطرأ عليها إلا تغيير طفيف ، ولا يكاد يستوقفنا فيها إلا ما برزت به «العروس» فى جلوتها من لباس الجنود المماليك فى الخلعة والشربوش ، أما فيما عدا ذلك فكأن ابن دانيال يصف لنا عرسا مما لانزال نشاهده فى الريف

---

(١) خيال الظل ص ١٧٤ .

(٢) خيال الظل ص ١٧٤ .

المصرى ، وربما كان فى ذلك — كما يقول الدكتور شوقى ضيف — بعض الدلالة على أن مصر بلد محافظ ، وأنها لا تتطور إلا بقدر محدود . (١)

ونجد فى أدب العصر إشارات إلى جهاز العروس ، إذ كان على والدها أن يقوم بإعداد منزل الزوجية ، ونجد البوصيرى يشير إلى ذلك ، ويستخدم لفظة «شوار» وهى ما تزال مستخدمة عند العامة حتى يومنا . وذلك إذ يقول :

وفتاة ما جهزت بجهاز   خطبت للدخول بعد شهور
واقتضتنى الشوار بغيا على من   بيته ليس فيه غير حصير (٢)

وندخل مع الأدب إلى رحاب الحياة العامة ، ونقف عند صورة الأعياد المصرية لنرى كيف تمثلت فى الأدب ، ولعل من أبرز هذه الأعياد عيدوفاء النيل ، وها نحن نقرأ تلك البشارة التى كتبها شهاب الدين محمود الحلبى بوفاء النيل ، فنجده يصف النيل الذى فاض وعم ، وقضى على المحل،وجرد على الجدب سيف الخصب ، ونجا الناس من الكرب ، يقول :

«والنيل قد عم بنيله الأرض حتى كلل مفارق الآكام ، وعم رءوس الربا وحمى الأرض من تطرق المحول إليها فأصبحت فى حرم ، وظهرت به عجائب القدرة . ومنها أن ابن الستة عشر بلغ إلى الهرم ، وبث جوده فى الوجود ، فلو صور نفسه لم يزدها على ما فيه من كرم ، وتلقت منه النفوس أبهج محبوب طرد ممقوتا ، ووثقت من حمرته بالغنى والمنى إذ لم تدر أياقوتا تشاهد منه أم قوتا» . (٣)

وجهد الشهاب هنا متوجه إلى الصنعة اللفظية من تورية وتجنيس ومقابلة ، لذلك ضاق إطاره عن أن يعرض صورا من بهجة الناس أو فرحهم ، وربما

---

(١) الفكاهة فى مصر ص ٦٧ .
(٢) الديوان ص ١٠٨ .
(٣) نهاية الأرب جـ ٥ ص ١٤١ .

رأيناه يشير إلى نظر الناس فى ابتهاج المحب إلى ماء النيل ، ولو استرسل شهاب الدين لصور لنا احتفال الناس بهذا العيد إلا أنه تغلب عليه الصنعة ، فيعود مرة أخرى موصدا الباب بهذا التجنيس بين الياقوت والقوت .

ثم نمضى معه إلى وصفه لمراسم حفل الوفاء الذى كان يحضره السلطان والأمراء ، ويحتشد الناس بين مغن ومصفق ومبتهج ، فنجده يقول :

«وجرى الأمر فى التخليق على أجمل عادات البدور ، وعلقت ستارة المقياس لا للإخفاء على عادة الأستار ، بل للإشاعة والظهور ، واستقر حكم المسرة على السنن المعهود ، وعاد الناس عيد سرورهم إذ ذاك يوم مجموع له االناس ، وذلك يوم مشهود ، وركب مولانا السلطان إلى سد الخليج والماء قد استطال عليه ، وسرت سرايا أمواجه إليه ، وصدمه بقوة ، فاندفع منكسراً بين يديه ، فانجبرت القلوب بكسره ، واستوفت الأنفس السرور بأسره ، وأيقن كل ذى عسر بحصول يسره» . (١)

ولا نرى إلا لوحة جامدة ، تصلبت فيها المشاعر ، وتحول الحديث إلى سرد مقتضب لا نحس فيه بأصداء البهجة والفرحة .

وإذا تركنا النثر إلى الشعر لم نلق ما ينقع الغلة أو يروى الظمأ ، فها هو برهان الدين القيراطى يصف النيل حال وفائه فيقول :

إذا زار بحر النيل زاد عجائبا — وحسنا وفضلا ما اختفى عن ذوى الفضل
حلا منه ماء سكرى مذاقه — بإجماع أهل الذوق والعقد والحل
يروق لإخوان الصفاء مكدرا — فأكداره عين الصفاء لمستجلى
وكم لعبت أمواجه وتراقصت — ودارت به تلك الجوارى على رجل

(١) نهاية الأرب جـ ٥ — ص ١٤٢ .

وحار قلوب الناس فى كسره كما ... بمقياسه قد حار مقياس ذى عقل (١)

والأبيات على ما تعطيه من إشارات لفيض النيل ، وحلاوة مائه ، وكسر خليجه ، وعظمة مقياسه ، لا نرى فيها صورة حية ، وماذاك إلا لأن القيراطى شغل نفسه باللفظ فكان حرصه على إيراد تورية أو تجنيس أو مقابلة أو إشارة فقهية أكثر من حرصه على نقل إحساس يملأ جوانحه تجاه النهر العظيم .

وإذا تركنا القيراطى إلى بدر الدين بن الصاحب وجدناه قد شغل نفسه هو الآخر بتضمين شطر من الشعر القديم ، أو آية من القرآن الكريم ، وأصبح نظمه كأنه تمهيد لذلك .

يقول لما هجم النيل على غفلة :

قد قلت لما أن تزايد نيلنا ... أو كاد ينزل ذروة المقياس
يا نيل يا ملك الحياة بأسرها ... ما فى وقوفك ساعة من باس (٢)

ويقول وقد أفرط النيل فى الزيادة :

طغى النيل عن حد عاداته ... وعلمنا الجهل فى العالمين
فصرنا نكشف عوراتنا ... وكنا نخوض مع الخائضين (٣)

ولا يرقى عن هذا المستوى قول شهاب الدين أحمد بن العطار حين وضعت سلاسل على قنطرة المقس لتمنع المراكب من السير فى الخليج ، بعد أن كثرت الفواحش فيها :

حديث فم الخور المسلسل ماؤه ... بقنطرة المقسى قد سار فى الخلق

(١) الديوان ص ١٦٨ .
(٢) الدرر الكامنة جـ ١ — ص ٢٦٤ .
(٣) الدرر الكامنة جـ ١ — ص ٢٦٥ .

ألا فأعجبوا من مطلق ومسلسل   يقول لقد أوقفتم الماء فى حلق (١)

فهو أيضا قد قصر جهده على بعض الألعاب البديعية من توجيه فى « الحديث المسلسل » ومن مقابلة بين المطلق والمسلسل .

ولا يكاد يلمع وسط هذا الركام سوى تلك الأبيات النابضة للبهاء زهير ، إذ يقول :

حبذا النيل والمراكب فيه   مصعدات بنا ومنحدرات
هات زدنى من الحديث عن النيل ، ودعنى من دجلة والفرات
وليالى فى الجزيرة والجيزة فيما اشتهيت من لذاتى
بين روض حكى ظهور الطواويس وجو حكى بطون البزاة
حيث مجرى الخليج كالحية الرقطاء بين الرياض والجنات (٢)

فها نحن نرى الصورة الحية لفيضان النيل ، ونتمثل نشوة الناس فى مراكبهم المصعدة والمنحدرة . وتبدو أمامنا الطبيعة وكأنها فى عرس بما تزينت به من نبات مختلف ألوانه ، وبما بدت فيه من جو صاف يحكى بطون البزاة .

أما ما سوى هذه الأبيات فليست سوى صور سطحية متعجلة تعنى بالصنعة أكثر مما تعنى بنقل الشاعر . فالشعراء فى تصويرهم للنيل ووفائه كانوا كما تصفهم بحق الدكتوره نعمات أحمد فؤاد « دار خيالهم مع الزبد ، لم يحلق إلى سماء النيل ، ولم يتعمق قراره . كانت عيونهم تنظر إليه نظرا ساذجا ، عيونهم وحدها دون أن تخفق قلوبهم ، أو تجيش مشاعرهم ، فكانت

---

(١) الخطط ج ٣ - ص ٤٣ .
(٢) الديوان ص ٤٨ .

النتيجة هذه المجموعة من الصور المادية ولا شيء غير» . (١)

ولا مجال للمقارنة بين هذا الذى نقرؤه من وصف أدباء العصر المملوكى للنيل ، وبين تلك الأغانى الفرعونية التى كان يرددها المصريون القدماء فى أعياد وفاء النيل ، ولعل السر أن الفراعنة كانوا ينظرون إلى النيل نظرة تألية فانطلقت أغانيهم تمجد هذا الإله مانح الحياة وواهب الخصب ، وليس كذلك نظرة أدباء مصر الإسلامية إلى النيل المخلوق الذى يجرى عليه ما يجرى على الخلق .

وعيد آخر كان يحتفل به المصريون فى العصر المملوكى ذاك هو عيد النوروز ، وجرت العادة على الاحتفال بهذا العيد فى أول «توت» من شهور السنة القبطية ، وقد دأب المصريون على ذلك منذ العصر الفاطمى ، وكان عيد النوروز عيد لهو ومرح ، يكثر فيه الناس من إشعال النيران ، والتراش بالماء ، والتصافع بالأنطاع ، ويركب فيه أمير هزلى يدعى بأمير النوروز يكتب المناشير ، ويندب مرسمين ، ويجمع الهبات من الناس ، وكان لا يجرؤ إنسان من ذوى الأقدار على الخروج فى هذا اليوم ، فإن خرج رشوا عليه الماء ، وأفسدوا ثيابه ، إلى غير ما كان يحدث فى هذا اليوم من تجاهر بشرب الخمر وعمل الفاحشة . (٢)

ونرى صورة لهذا العيد ولأميره فيما كتبه الجزار مداعبا صديقه الوراق ، وخالعا عليه إمارة النوروز إذ يقول :

تحصنت بالبحر المحيط من الرش ومن داخل إن تم ذلك بالفرش

---

(١) النيل فى الأدب المصرى ص ١٨٢ .
(٢) الخطط ج ٢ ص ١٢ .

وكم مرة أنغضت رأسك صابرا ... لجور صديق وهو متصل البطش
كأنك — لما لحت للعين — طائر ... يرى وهو بالأنوار والخوص فى عش
وبختك ما يخفى الصهيل نهاقه ... ومالك من سرج عليه سوى القش
تعوضت عن نطع بسيف كثلما ... تعوضت مختارا عن الطرف بالجحش
ولو أن عين الشمس كابدت الذى ... تكابده عدت من العمى لا العمش
أظن خفاف الترك إذ لان لمسها ... تقصر عن ثقل الخفاف من الحبش(١)

فى هذه الأبيات إيحاء بما كان فى النوروز من مساخر ، وتراش بالماء ، وضرب بالخفاف ، وفضلا عن ذلك فالأبيات تقدم لنا صورة هذا الأمير المزلى الذى يكلل رأسه بتاج من الخوص ، ويركب جحشا ليس عليه من سرج سوى القش ، ويتعاوره الناس ضربا بالأيدى والأنطاع والخفاف .

ويكتب ابن دانيال إلى صديقه البرهان ، وقد تعاورته الأكف فى يوم نوروز وهو أرمد فيقول :

صفع البرهان وما رجما ... فبكى من بعد الدمع دما
قد كان شكا رمدا صعبا ... فازداد بذاك الصفع عمى
ورمى النوروز أخادعه ... حتى باتت تشكو ورما
أدماه القوم بآخرة ... كانت حورا لا بل أدما
نزلوا سحرا فى ساحله ... فرأى الإصباح بهم ظلما
من كل فتى بالنطع بدا ... مثل القصار إذا احتزما
فسقاه بها صرفا سبعا ... وسقاه بها سبعين بما (٢)

ويشير ابن النقيب فى بعض أبياته إلى الوراق إلى ما كان يحدث فى هذا

---

(١) منتخب الوراق ورقة ٣٢٤ ، ٣٢٥ .
(٢) فوات الوفيات ج ٣ ص ٣٣٥ .

اليوم من اجتراح للأخلاق ، وذلك إذ يقول :

وهـكذا أنطاعهم قد شملت من ارتدى
فهتكوا الأخلاق حتى لم تجد من حردا
واطرحوا الكبر فما رأيت فيهم أصيدا
ولا نت الأجياد حتى قلت مالت جيدا (١)

وأغلب الظن أن المصريين نقلوا عادة الاحتفال بهذا العيد عن الفرس ، ولعل الجزار يشير إلى أصل هذا العيد الفارسي فى قوله مداعبا الوراق :

أذكرتنا أزدشيرا اذ ركبت وإذ أصبحت بالتاج تاج الخوص معصوبا
فاستوف غير ضجور بالإمارة ما على جبينك ما قد كان مكتوبا(٢)

ولا ندرى سر هذا العنف الذى كان يتخذه المصريون فى هذا العيد من صفع أمير النوروز وصكه على قفاه . أتراهم ينفسون فى هذا الأمير الهزلى عما يحملونه من مشاعر تجاه الأمير الحقيقى القابض على أزمة الحكم ؟!

كذلك ألمح الأدباء إلى ما اعتاده الناس فى المواسم والأعياد الدينية من مثل رمضان وعيد الفطر ، والنصف من شعبان إلى غير ذلك مما لا تزال نحتفل به حتى اليوم .

ومن أطرف ما يشير إلى ما اعتاده الناس فى رمضان وعيد الفطر أبيات الجزار التى يبثها شكواه من فقره وعجزه عن مجاراة الناس فى سننهم ، يقول موجها الخطاب إلى جمال الدين بن يعمور :

أيها الأمير قد أشكل المعنى وما زلت عارفا بالمعانى

(١) مسالك الأبصار جـ ١٢ ص ٢٢٥ .
(٢) فوات الوفيات جـ ٤ - ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

ظاهر البسندود لم أدر ماذا فيه جهلا وباطن الخشكنان
أتراني في العيد أجهل ذا المعنى كجهل الحلواء في رمضان
ما رأت عيني الكنافة إلا عند بياعها على الدكان
ولعمري ما عاينت مقلتي قطرا سوى معها من الحرمان
ولكم ليلة شبعت من الجوع عشاء إذ جرت بالجلواني
حسرات يسوقها الطرف للقلب فويل للفكر عند العيان
كم صدور مصفقات وكم من شبك دونها وكم من صواني
وإذا سحر المسحر ليلا ألتقي الأمر فيه بالعصيان
كلما بات وهو يأمر بالأكل أتى الفقر مقبلا ينهاني (١)

ولندع شكوى الجزار جانبا فهي لا تهمنا في هذا المجال ، وإنما الذي يهمنا هو تلك الإشارات التي وردت في أبياته إلى ما كان يصنعه الناس على عهده في رمضان من التفنن في صنع الحلوى وألوان الكنافة ، ثم إلى ذلك المسحر الذي يطوف ليلا ليوقظ النيام ، وفي الأبيات أيضا ذكر للبسندود والخشكنان وما أظنهما إلا لونين من الكعك الذي يستقبل به الناس عيد الفطر ، والخشكنان كما يصوره الجزار في قول آخر لون من الكعك المحشو :

ماذا يضر الخشكنان لو أنه في العيد يخبرني بما في قلبه (٢)

وهكذا نقف في شعر الجزار على صورة لم يطرأ عليها تغيير في مصر على مدى سبعة قرون ، فنحن لم نزل نمارس هذه العادات في الاحتفال برمضان وعيد الفطر ، بل إن الأغرب أننا نقع في شعر البوصيري على نفس الألفاظ

---

(١) المغرب حـ ٤ - ص ١٤١ ، ١٤٢ .
(٢) المغرب حـ ٤ ص ١٤٣ .

والمسميات التى يتداولها الناس فى أيامنا هذه ، واسمع للبوصيرى قوله واصفا حال عياله :

وأقبل العيد وما عندهم قمح ولا خبز ولا فطره
فارحمهم إن أبصروا كعكة فى يد طفل أو رأوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها بشهقة تتبعها زفره (١)

فالبوصيرى يذكر الكعك والتمر و«الفطرة» وهذا الأخير اسم ماتزال تطلقه العامة على ما يعد للعيد من صنوف الكعك والحلوى والتمر وغير ذلك .

وكما صور الأدب أفراح الناس وأعيادهم صور ما كان ينتابهم من محن ومجاعات .

ولعل انخفاض النيل كان دائما نذيرا بالغلاء والمجاعة ، هذا بالإضافة إلى شيوع الرشوة ، واضطراب أمر الحكام ، ونجد فى أدب العصر أصداء لما عاناه الناس فى ظل هذه الظروف من ندرة القوت ، وغلاء السعر ، وفى موجة من موجات الغلاء يعز رغيف الخبز ، وينظر إليه الجزار كأنه العاشق يرقب محبوبة بعيدة المنال ، ويندم على تلك الأيام التى لم يعرف فيها لهذا الرغيف حقه ، ولم يعطه ما يستحقه من الإجلال والإكبار :

قسما بلوح الخبز عند خروجه من فرنه وله الغداة بخار
ورغائف منه تروقك وهى فى سحب الثفال كأنها أقمار
من كل مصقول السوالف أحمر الخدين للشونيز فيه عذار
يلقّ عليه فى الخوان جلالة لا تستطيع تحدها الأبصار

---

(١) الديوان ص ١١٨ .

ما كــان أجلهلنــا بواجب حقــه لــو لم تبينــه لنــا الأســعار
فــكأن باطنــه بكفــك درهــم وكأن ظاهــر لونــه دينــار
كالفضــة البيضاء لكــن تغتدى ذهبــا إذا قويت عليــه النــار
كم قــال لى الخبــاز حــين شكوت إقــلالى لــه أكثرت يــا جــزار
إن دام هــذا السعر فاعــلم أنــه لا حبــة تبــقى ولا دينــار (١)

أما الوراق فيرى أن المعدم والمثرى أصبحا سواء فكلاهما لا يملك رغيف الخبز الذى عز كاللات والعزى :

إن كــان زى النــاس فــيما مضــى أن يشكروا مــن يحفــظ الخــبزا
فقــد تساوى النــاس فى حفظــه إذ عز عــز الــلات والعــزى (٢)

ومهما كان من أمر الغلاء فهو أمر ربما احتمله الناس ، ولكن الـذى لم يكن للناس قدرة على دفعه هو تلك الأوبئة الفتاكة التى كانت تجتاح البلاد من حين إلى آخر .

ويعطينا المقريزى صورة حية لأحد هذه الأوبئة التى حدثت فى مصر فى سلطنة العادل كتبغا ، يقول :

«وفشت الأمراض بالقاهرة ومصر ، وعظم الموتان ، وطلبت الأدوية للمرضى فباع عطار برأس حارة الديلم من القاهرة فى شهر واحد بمبلغ اثنين وثلاثين ألف درهم ... وطلب الأطباء ، وبذلت لهم الأموال ، وكثر تحصيلهم فكان كسب الواحد منهم فى اليوم مائة درهم ، ثم أعيا الناس كثرة الموت ، فبلغت عدة من يرد اسمه الديوان السلطانى فى اليوم ما ينيف عن ثلاثة آلاف

---

(١) منتخب الجزار ورقة ٢١٣ .
(٢) منتخب الوراق ورقة ٣٢ .

نفس ، وأما الطرحاء فلم يحصر عددهم بحيث ضاقت الأرض بهم ، وحفرت لهم الآبار والحفائر ، وألقوا فيها ، وجافت الطرق والنواحي والأسواق من الموتى ، وكثر أكل لحوم بنى آدم خصوصاً الأطفال ، فكان يوجد الميت وعنه رأسه لحم الآدمى ، ويمسك بعضهم فيوجد معه كتف صغير أو فخذه أو شيء من لحمه» . (١)

وتجسد عبارة المقريزى ذلك الموت الزاحف الذى يحصد الأرواح حصدا لا يبق منه دواء ، ولا يصده طب ، إنما هو يتغلغل إلى الشوارع والحارات والأسواق والمدن والقرى ، فأينما وليت وجهك فثم ريح الموت تنبعث من الأجساد الجائفة ، وأصبح كل حي يطلب النجاة بنفسه ، وأنى له القوت ؟! لقد نفذ كل شيء ولم يبق إلا أن يأكل الإنسان أخاه ، فهذا يلوك ذراع طفل وذاك يخبيء فخذا أو ساقا آدميا .

ومن الأوبئة الرهيبة ذلك الوباء الذى اجتاح الشرق فى عام ٧٤٩ هـ ، والذى عرف فى التاريخ باسم الوباء الأسود ، وذهب ضحيته آلاف مؤلفة من أهل مصر .

ولابن الوردى رسالة يصف فيها هذا الوباء الذى كان هو من ضحاياه .. ويبدأ الرسالة بوصف هذا الوباء الذى لم تسلم منه بلد ، ولم يق منه حصن ولا حرز :

« الله لى عدة ، عند كل شدة ، حسبى الله وحده ، أليس الله بكاف عبده ، اللهم صل على سيدنا محمد وسلم ، ونجنا بجاهه من طعنات الطاعون وسلم ، طاعون روع وأمات ، وابتدأ خبره من الظلمات ، يا له من زائر ، من

(١) إغاثة الأمة ص ٣٥ ، ٣٦ .

خمس عشرة سنة دائر ، ما صين عنه الصين ، ولا منع عنه حصن حصين ، سل هنديا فى الهند ، واستند على السند ، وقبض بكفيه وشبك على بلاد أزبك وكم قصم من ظهر ، فيما وراء النهر ، ثم ارتفع ونجم وهجم على العجم ، وأوسع الخطا إلى أرض الخطا ، وقرم القرم ، ورمى الروم بجمر مضطرم ، وجر الجرائر إلى قبرص والجزائر ، ثم قهر خلقا بالقاهرة ، وتنبهت عينه لمصر فإذا هم بالساهرة ، وسكن حركة الإسكندرية ، فعمل شغل القز الحريرية ، وأخذ من دار الطراز طراز الدار ، وصنع بصناعها ما جرت به الأقدار .

إسكندرية ذا الوبا سبع يمد إليك ضبعه
صبرا لقسمته التى أخذت من السبعين سبعه

ثم تيمم الصعيد الطيب ، وأبرق على برقة منه صيب ، ثم غزا غزة ، وهز عسقلان هزة» . (١)

ويمضى ابن الوردى فيصف فعل هذا الوباء فى الأنفس ، وهيئة المصاب به ، فيقول :

«ومن الأقدار ، أنه يتتبع الدار ، فمتى بصق واحد منهم دما ، تحقق كلهم عدماً ، ثم يسكن الباقين الأجداث بعد ليلتين أو ثلاث .

سألت بارىء النسم فى دفع طاعون صدم
فمن أحس ببلع دم فقد أحس بالعدم (٢)

---

(١) ديوان ابن الوردى ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
(٢) الديوان ص ١٨٦ .

ويختم ابن الوردى هذه الرسالة بعرض صورة مؤثرة للناس ، وقد تهيأوا للموت بعد أن أحسوا أنه لا عاصم من أمر الله ، فأخذ كل منهم يحسن عمله ، ويصالح خصمه ، ويلاطف إخوانه ، ويوصى بأهله ويودع جيرانه :

«ومن فوائده تقصير الآمال ، وتحسين الأعمال ، واليقظة من الغفلة ، والتزود للرحلة :

فهذا يوصى بأولاده — وهذا يودع جيرانه
وهذا يهيىء أشغاله — وهذا يجهز أكفانه
وهذا يصالح أعداءه — وهذا يلاطف إخوانه
وهذا يوسع إنفاقه — وهذا يخالل من خانه
وهذا يحبس أملاكه — وهذا يحرر غلمانه
وهذا يغير أخلاقه — وهذا يغير ميزانه
ألا أن هذا الوبا قد سبا — وقد كاد يرسل طوفانه
فلا عاصم اليوم من أمره — سوى رحمة الله سبحانه (١)

وقد سجل الشعراء المصريون مأساة هذا الطاعون الرهيب فى أشعارهم ، فيقول المعمار :

يا طالبا للموت قم واغتنم — هذا أوان الموت ما فاتا
قد رخص الموت على أهله — ومات من لا عمره ماتا

ويقول :

قبح الطاعون داء — فقدت فيه الأحبة

---

(١) الديوان ص ١٨٧ .

بيعـــت الأنفـــس فيـــه كــل إنســان بحبـــه (١)

ولا يفقد الشعراء روحهم المصرية الفكهة حتّى فى هذه اللحظات الحرجة التى ينهش فيها الموت الناس نهشا ، وينشب مخالبه وأنيابه ، فنسمع مثلا قول المعمار :

قــلت لمــن بالحشيش مشتغــل ويحــك مـا تخشى هــذه الكتبـه
فالنـــاس ماتــوا بكبـــة ظهـرت فقال : إنى أعيش بالكبـــه (٢)

ولا ريب أن الأطباء أو من كانوا يمتهنون مهنة الطب وجدوا فى هـذه الأوبئة فرصة سانحة للمغنم والكسب ، وقد أشار المقريزى إلى ذلك فى عبارته التى أوردناها آنفا ، ولكن ربما تكمل الصورة بهذا التعبير الحى الذى يصور به ابن دانيال الحكيم يقطنيوس فى بابة «طيف الخيال» وقد ذهب إليــه من يستدعيه ليلا فيجيبه الحكيم :

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، من هذا الطارق فى الليل الغاسق ؟ ومن الذى أزعجنى فى فراشى فى جنح الليل الغاشى ؟ وأقامنى من رقدتى وما انهضم الطعام من معدتى ، حتّى سقط نبضى ، وكدت من خفقان قلبى أقضى ، وما جرت العادة بأن يطلب الطبيب بالليل إلا بعد أن تحمل اليه الكواغد ، وتشد له البغال والخيل ، ولم يعد هذا فى أيام الوباء والطواعين ، والمرضى مطرحين على مصاطب الدكاكين ، وعلى أبوابنا الزحام ، والفوانيس بأيدى الخدام ،

---

(١) بدائع الزهور ص ١٦٤ .
(٢) بدائع الزهور ص ١٦٤ .

والجنائز فى الجوامع ، والحلل النفائس تجلى على الصفوف كالعرائس، والناس لا تنشف لهم دمعة ، والمقربون لا يخرجون إلا بالقرعة ، والمغسل لا يستقر فى الغسل ، والحمال متبرم بثقل الحمل ، والحفار لا يوقر قبرا ، ولا يتحاشى ثيبا ولا بكرا ، وقد شمل الإقليم ذا الوباء ، وعادت الأرواح والقوى كالهباء ، فذكر الله بالخير تلك الأيام ، فما كانت إلا كالأحلام» . (١)

فنحن نرى هذا الطبيب يتحسر على أيام الطواعين ، وعلى دولته الذاهبة أيام الوباء ، وكما قيل مصائب قوم فوائد عند قوم ، وهذه الفقرة التى أوردناها لابن دانيال — فضلا عن أنها تشير إلى انتفاع الأطباء — تضيف خطوطا جديدة إلى صورة الوباء من تزاحم للمرضى على حوانيت الأطباء ، ومن هون الموتى على الأحياء .

وإلى جانب هذه الأوبئة العامة تفشت فى الناس عديد من الأمراض ، أعان عليها الفقر والجدب ، ولعل أهونها مرض الجرب ، ويعرض الوراق علينا صورة طريفة لنفسه وقد أصيب بهذا المرض فيقول :

عوفيت من جرب به ... صرت المثقب والممزق
وأظافرى كالمشرفية فى يد الأبطال تمشق
أجرى دمى بيدى وأغضب حين يرفق بى وأحنق
عريان كالغصن اليبيس ... وإنما جفنى المؤرق

---

(١) خيال الظل ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

فكأن جسمي من دمى بأصابعي الركن المخلق (١)

ولعل من المناسب هنا أن نستطرد إلى استجلاء صورة الطب والأطباء فى الأدب المملوكى ، ولنبدأ بقراءة هذا التقليد الذى كتبه القاضى محمد بن المكرم رياسة الطب ، ويقول فيه :

«وليلق هذه التولية أحسن ملتى ، وليصرف لها وجها طلقا ، وليحكم فى أموره بالقسط ، ولينصف فى القبض والبسط ، ولينظر فى أحوال المتصرفين من الأطباء الطبائعية ، وليكشف عن أمور الكحالين والجرائحية وليقسرهم على قواعدهم التى رقوا إليها ، وليجرهم على عوائدهم إلا من ظهرت منه كبيرة وهو مصر عليها ، وليتقدم إليهم بالتثبيت والاتفاق على ما يستعملونه بالحديد وألا يتعرض أحدهم لعمل إلا وعليه من الحكماء المعروفين شهيد ، وليكشف أمور من يقعد على الطرقات ، ويعتمد فى أفعاله على الأمور الموبقات ، ممن يعمل بالحديد وغيره ، ولا يؤمن من شره ، ولا يطمع فى خيره ، فليمنعه من الجلوس ، وليصرفه عن أذى الأجساد وتلف النفوس .» (٢)

فهكذا نرى أن هذا العهد عرف ألوانا من التخصص فى الطب ، فهناك الأطباء الطبائعية ، ولعلهم يقابلون ما نعرفه اليوم من أطباء الأمراض الباطنية ، وهناك الكحالون (أطباء الرمد والعيون) ، وهناك الجراحون . ويشير التقليد إلى ما يستخدمه هؤلاء الأطباء من آلة الحديد ، كذلك يشير إلى أن هناك أدعياء يمارسون الطب دون أن يزكيهم أحد من كبار الأطباء .

وعرف ذلك العهد لونا من المستشفيات العامة ، ومن ذاك البيمارستان المنصورى الذى بناه قلاوون ، والذى يصفه البوصيرى بقوله :

---

(١) منتخب الوراق ص ٣٤٦ .
(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ — ص ٢٣ ، ٢٤ .

صحيح هـواء للنفـوس بنشـره معـاد ، وللعظم الرمـيم نشـور
يهب فيهـدى كـل روح بجسمـه كـأن صبـاه حـين ينفح صـور
فلـو تعـلم الأجسـام أن ترابـه مهـاد حيـاة للجسـوم وثـير
لسارت بمرضاهـا إليـه أسـرة وصارت بموتاهـا إليـه قبـور
وما عـاد يبـلى بعـد ذلك ميتـا ضريح ولا يشكـو المريض سرير
بجنتـه ورق تراسـل مـاءه بشـوق هديـل منهـا وهدير (١)

وهذه الأبيات توحي بنظافة المارستان ، وحسن تنسيقه ، والقيام فيه على راحة المرضى ، وجودة العـلاج .

ويشير الأدباء إلى بعض ما تعارف عليه الأطباء آنذاك من وسائل العلاج وصنوف الأدوية . فقد زعموا مثلا أن الرمان دواء من مرض السوداء ، ونستشف ذلك من قول ابن نباته فى معرض الغزل :

رب سـوداء مقـلة هيجـت لى داء وجـد أعظـم بـه مـن داء
ليت رمـان صدرها كـان يجنى فهو بعض الدوا من السوداء (٢)

كذلك كان الكى من وسائل العلاج الناجعة ، أو هو أعلى رتبة الطب كما يقول ابن نباتة أيضا :

ولقد كـوى قلبى المشيب فـما تهفـو العوائـد بى إلى الحـب
لا طب بعـد وقوعـه لهـوى والكى آخـر رتبـة الطـب (٣)

إلا أننا نرى أن السمة الغالبة هى سوء الظن بالأطباء ، فدائما يتندر بهم

---

(١) الديوان ص ١٠٣ .
(٢) الديوان ص ١٨ .
(٣) الديوان ص ٣٣ .

الأدباء ، ويصفون جهلهم وعجزهم فيسخر الجزار بأحد الأطباء وصف له فزاد داؤه :

فتحت على بابا بالسفوف ... وصلت به إلى الأمر المخوف
ولكن الحكيم أراد خيرا ... فجاء بغير ياء فى الحروف (١)

ويسخر محمد بن ابراهيم الأكفانى من طبيب آخر فيقول :

ولقد عجبت لعاكس للكيميا ... فى طبه قد جاء بالشنعاء
يلقى على العين النحاس يحيلها ... فى لحة كالفضة البيضاء (٢)

ويتهكم بعض الشعراء بطبيب يهودى فيقول :

قالوا اليهودى أخو حكمة ... لازالت الأمراض فى كأسه
لو كان ذا النحس أخا حكمة ... أزال دا الصفراء من رأسه (٣)

وانظر إلى هذا الطبيب الذى يصفه فخر الدين بن مكانس ، وكيف يصور جهله وشؤم طالعه فى سخرية لاذعة ، وذلك إذ يقول :

«فحين رآنى من الهريرة كالرعديد ، وشاهد ما بى من البرد ، قال : ما أراك إلا جليد ، فقلت له : معالجة أم محاجبة ؟ ومناصحة أم ممازحة ؟ ومطايبة أم مداعبة ؟ واستوصفته فجرى على المعهود منه فى الجهل عما يقول ، وعدم التمييز بين المعقول والمنقول ، ولكنى الظالم على نفسى ، والمشكك فى حسى ، فإنى أعهده لم يزل مميت الأحياء ، ومقفر الأحياء ، كم شاب عالجه فأكسبه الصرع الفالج ، ولأن يسمى مصارعا أليق به من معالج ، ثلاثة تدخل

(١) الغيث المنسجم جـ ٢ — ص ٣٣٣ .
(٢) الوافى بالوفيات جـ ٢ — ص ٦ .
(٣) مطالع البدور جـ ٢ — ص ١٠٩ .

فى دفعه ، طلعته ، والنعش ، والغاسل» . (١)

ويبدو أن سوء الظن بالأطباء كان له أساس من طب هذا العصر الذى كان يعتمد على أساليب بدائية ، أضف إلى ذلك هذه الأوبئة الفتاكة التى لم يكن للطب حيلة فى دفعها ، لذلك شاع بين الناس اللجوء إلى الصالحين والأولياء تبركا بهم ، والتماسا للشفاء ، وما زال ذلك دأب بعض المصريين إلى يومنا هذا وابن مكانس هذا الذى سخر بطبيبه وعجزه ، نراه يلجأ إلى واحد من هؤلاء ملتمسا الشفاء ، ولو اعتقد واحد فى حجر لنفعه . :

«وتطببت بالطب السوى ، واستعنت على ضعفى بتدبير الحكيم القوى ، وأمدنى شخص من أولياء الله ، وممن يجاب دعاه بدعائه ، فكان يعجبنى منه لفظه العربى ، ودعاؤه الأدبى ، أقامه الله لمترضاته ، وأعانه على مرضاته فحصل الشفاء ، وأماطت العافية العفاء ، ولله المنه على زوال المحنة» . (٢)

وكانت هذه المجاعات أيضا نذيرا باختلال الأمن ، وشيوع الفوضى ، فكثر السلب والنهب ، وتجرأ اللصوص ، وصاروا يهجمون البيوت فى أعداد وفيرة على هيئة مناسر .

ومن أطرف ما كتبه ابن دانيال الموصلى تلك القصيدة التى يصور فيها «منسرا» من هذه المناسر هجم عليه فى إحدى الليالى . ويبدأ فيصف هيئة هؤلاء اللصوص وقد تلثموا ، وحملوا معهم آلات الحديد لكسر الأبواب ، وفتح المغاليق ، وتسلحوا بالسيوف والرماح :

يا سائلى عن ليلتى بالمنسر   يغنيك شاهد منظرى عن مخبرى

---

(١) الوافى بالوفيات جـ ٢ ص ١٦

(٢) منثور الصاحب فخر الدين بن مكانس .. (الصفحات غير مرقمة)

خارت بسكنى الحور قوتى التى   كانت تفوق على شجاعة عنتر
نزلت بدارى عصبة فتاكة   هتكت حجابى بعد طول تستر
من كل منقفل اللثام ، مفتح   أقفالها بشبا الحديد الأخضر
وافى بكورى ولولا أن عرا   شمس الكسوف لكان غير مكور
بملثم ومكمم ومعمم   ومخرص وموشح ومؤزر
مزجوا القساوة بالجهالة وانبرى   كل يهددنى بلفظ حوترى

ثم يمضى ابن دانيال فيصف ما فعلوه به من وكز وضرب وصفع حتى كأنه أمير نوروز فى غير يوم نوروز :

طرقوا بساطى بالطوارق والقنا   متلاعبين بأبيض وسمر
لم أنتبه إلا بوكزة رامح   منهم أقامتنى إلى الحال الزرى
وبضربة من ذى حسام منتض   يفرى الفريسة من جهول مفترى
فى شر نوروز بدالى نطعه   بالسيف مقتربا يلاحظ منحرى
فجررت بعد الرفع فى أيديهم   وتصبت ذا نصب بحال مسمر

وشد ما أحسوا بالخيبة حين أخبرهم أنه أديب ثروته قصائد من الشعر إن شاءوا مدحهم بها ، وبعض كتب كصحيح الجوهرى ، أما ما سوى ذلك فبرذون وثياب ، وأما المال فلا مال .. ويستحيل إحساسهم بالخيبة إلى مضربة به وبشعره ، وعبث قاس بجسده بين بكاء صغاره ، وأسفهم على أبيهم الفقير الذى لا يملك ما يفدى به نفسه :

هذا يقول المال أين خبأته   فأجبته خوفا جواب مخبر
وأقول ما لى غير برذونى وأثوابى وجزء من صحيح الجوهرى
ومسودات الشعر أمدحكم بها   قالوا سبا لك فى حبرام البحترى
فبكت صغارى إذ رأونى بينهم   مثل الأسير وما أنا بالموسر

ولا يجد المسكين أمامه من سبيل للنجاة إلا أن يدلهم على جاره التاجر الثرى فربما وجدوا عنده بغيتهم من المال :

نادیتهم فی السطح عندی تاجـــر   متمول مثل الخواجا الصرصری(١)

وهذه القصيدة — فضلا عما فيها من طرافة وخفة روح — تسجل ما كان يتعرض له الناس فى مثل هذه الظروف من السطو والنهب واختلال الأمن .

ونترك حديث المجاعات والمحن والسطو والنهب ونعود مع الأدباء نوغل قليلا إلى قلب المجتمع .

وأول ما يلفت الناظر إلى المجتمع المصرى آنذاك هو تلك الأزياء الباهرة التى كان عصره المماليك من أبرز العصور عناية بها ، وكلفا بتزيينها وتطريزها وقد سرت عدوى التأنق فى الأزياء من المماليك إلى كل المجتمع المصرى .

وقد سجل الأدباء هذه الأناقة المملوكية ، فهذا شمس الدين بن الصائغ لا يخفى انبهاره بجمال هؤلاء الأمراء الذين يمشون فى الموكب بأقبيتهم الملونة فيقول :

إن جـــزت بالمـــوكب يومـا فـلا   تسأل عـــن السيارة الكنـــس
فثم آرام عــــلى ضمـــــر   لله مـا تفعــل بالأنفــس
بأحمــر هـــذا وذا أصفــر   وأخضر هــذا وذا سـندسى
فقـل لـــذى الهيئـــة ياذا الــذى   ينقـل مـا ينقـل عـن هرمس
قـولك هـــذا خطـأ باطـــل   أما ترى الأقمار فى الأطلس (٢)

---

(١) القصيدة بتمامها فى التذكرة الصفدية جـ ١٤ — ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) الوافى بالوفيات جـ ٢ — ص ٣٦٢ .

وتنوعت هيئات تلك الأقبية فمنها المفرج ، ومنها مطرز الكم ، فيقول الصفدى فى أحد المماليك وقد ارتدى قباءه مفرجا :

غـزال مـن الأتـراك شق قباءه فروجـا يحاكى حسنـه قمر الدجى
فواحسدى ذاك القبـا إذ رأيتـه على ذلك القد المليح تفرجـا (١)

ويقول فى آخر طرز كم قبائه :

ومليـح طـراز كميـة أضحى مثل خط العذار فى حسن رقـم
قـال : قلت الظبـاء مثـلى ومـا عاز ظباء الفلا سوى طرز كمى (٢)

ويشير محيى الدين بن عبد الظاهر إلى الحياصه وهى حزام الوسط ، وإلى الكزابند وهو قميص من الزرد بياقة عريضة ، ويقول إنهما يزريان بالمـئزر والعقد :

إن قـلت بـدر فـإن البـدر ذو كلف أو قلت ظبى فإن الظبى نفـار
لى فى حياصتـه لا شـد مـئزره وفى الكزابند لا فى العقد أشعار (٣)

ويشير الجزار إلى الشرابيش التى كانت غطاء الرأس المملوكى فى معرض غزله بأحد الأتراك فيقول :

واخجلـة العرب إن كانت عمائهم لم تحو ما قد حوت منه الشرابيش (٤)

---

(١) الحسن الصريح ورقة ٩ .
(٢) الحسن الصريح ورقة ٩ .
(٣) الديوان ص ٥٠ .
(٤) تأهيل الغريب ص ١٥٥ . (التواجى)

تلك إشارات الأدباء إلى بعض ألوان زى المماليك ، أما المعممون فكان لباسهم غير ذلك ، وأعلى ملابسهم رتبة هو ما كان يلبسه قاضى القضاة من طرحه يسدلها فوق عمامته ، ولذلك نرى ابن نباته يهنىء أحد الكتاب بخلعة خلعت عليه ، ويبشره بلبس الطرحة فى القريب قائلا :

يا سيد الوزراء اهنأ بها خلعـــا ... يقوم من قالها الأوفى بما يجـب
سحابة الطـرحة العليـاء طالعـــة ... وأول الغيث قطر ثم ينسكـب (١)

أما ما دون ذلك فهو عمامه وطيلسان ، يقول الجزار فى خلعة خلعت على من لا يستحقها :

غير خــاف عنــك الــذى نالــه الأسـود بالأمس من نــدا السلطـان
وتمشيـه بالعـمامة والثــــوب ... ومنديـل الـكم والطيلســـــان
خلعــة تخلــع القلــوب كما يخـلع مـرآة العقـل عنـد العيـــان (٢)

وحرص المماليك على أن يكون لكل طبقة سمت معين ، وزى خاص ، كما حرصوا أيضا أن تكون ملابس الإنسان على حسب قدره ، ودرجته ، وربما أملت عليهم ذلك طبيعتهم العسكرية .

وفى سنة ٧٧٣ هـ رسم السلطان الأشرف شعبان أن يلبس الأشراف عمائم موسومة بعلامة خضراء ، وكان لذلك صداه فى عالم الأدب ، فقال شمس الدين محمد بن إبراهيم المزين :

أطـراف تيجـان أتت مـن سـندس ... خضر كأعـلام عـلى الأشـراف

---

(١) الديوان ص ٦١ .

(٢) المغرب جـ ٤ - ص ١٤٩ .

والأشرف السلطـان خصهـم بهـا　　　شرفا لنعرفهم من الأطراف (١)

ويرى بدر الدين بن حبيب أن ذلك بشارة بما أعد لهم فى الجنة من لباس أخضر فيقول :

عمائم الأشراف قـد تمـيزت　　　بخضرة رقـت وراقت منظـرا
وهـذه إشـارة أن لهـم　　　فى جنـة الخلد لباسا اخضـرا (٢)

أما ابن حجلة التلمسانى فيقرن هذه العلامة بالرنك الذى يتخذه أمراء المماليك فيقول :

لآل رسـول الله جاه ورفعـة　　　بها رفعت عنـا جميـع النوائب
وقد أصبحوا مثل الملـوك برنكهم　　　إذا ما بدوا للناس تحت العصائب (٣)

على أن من الأدباء من كان يرى ذلك عملا لا ضرورة له ، فلأبناء الرسول صلى الله عليه وسلم — من النور فى وجوههم ما يغنيهم عن تلك العلامة الخضراء ، يقول ابن جابر الأندلسى :

جعلـوا لأبنـاء الرسـول علامة　　　إن العلامة شأن من لم يشهـر
نور النبـوة فى كريم وجوههـم　　　يغنى الشريف عن الطراز الأخضر (٤)

وكما أعطانا الأدب صورة للملابس فى مجتمع مصر المملوكية ، فانه يعطينا أيضاً صورة للأطعمة وما كان يستحب منها وما كان يكره ، فسيف الدين المشد يعرض علينا وصفا للوزنج شهى إذ يقول :

ولوزنج راقت وطـابت صفاتـه　　　كشعر حبيب أو شعار حبيـب

---

(١) النجوم الزاهرة ـ ١١ — ص ٥٦ .
(٢) النجوم الزاهرة ـ ١١ — ص ٥٧ .
(٣) النجوم الزاهرة ـ ١١ — ص ٥٧ .
(٤) النجوم الزاهرة ـ ١١ — ص ٥٧ .

شهى إلى كل القلوب وقد حوى　　مع السكر الغالى شهى قلوب (١)

وفى أبيات أخرى يشير إلى أصناف من الحلوى فى معرض غزله بحلوانى فهناك «أصابع زينب» ، وهناك «خدود الغوانى» ، وهناك «كعب الغزال» :

ولما تبدى حلاويكم　　بقد القضيب ووجه الهلال
أرانا بكفيه مع وجنتيه　　وساقيه أصناف حلو الجمال
أصابع زينب ضمت إلى　　خدود الغوانى وكعب الغزال (٢)

ويشير الجزار إلى لون آخر من الحلوى عرف بالقاهرية فى قوله :

ولى زوجة إن تشتهى قاهرية　　أقول لها : ما القاهرية فى مصر (٣)

ويصور البهاء زهير هذه الوجبة الشهية التى يسيل لها لعاب الجائع :

وقد شوينا خروفا　　وتحته جوزا به
والجوع قد نال منا　　فكن سريع الإجابة (٤)

وشغف ابن نباته بالملوحة ، وها هو يكتب رسالة يستهديها من صديق مماطل . فيقول :

«يا مولانا ما كأن الملوحة إلا قد اتخذت سبيلها فى بحار السراب سربا ، أو تعلمت من تلك الهمة فاتخذت إلى نهر المجرة سببا ، وجعل فضلها مقصورا على الأسماع ، وخلقت من الملائكة فلا يمكن على صورها الاطلاع ، ولا غروفانها ذات أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وتوقفت عن المنع والعطاء بين أمرين ، وحظيت من مولانا ومن الجناب الفخرى بمجمع البحرين ، وما أظن أن يتفق هذا الظن ، هذا ولو أنها من نسل حوت يونس عليه الصلاة -

---

(١) الديوان ص ٨ .
(٢) الديوان ص ١٠ .
(٣) المغرب ﺟ ٤ — ص ١٤٣ .
(٤) الديوان ص ٣٥ .

والتسليم ، وأن عظمها مما يسبح فى بطن آكله إلى يوم يحيى العظام وهى رميم» . (١)

أما الأطعمة المكروهة فيعرض الوراق ألوانا منها ، يقول :

وأحمق أضافنا ببقلة لنسبة بينها ووصله
فمن أقل أدباً من سفله قدم فى وجه الضيوف رجله(٢)

وهو يورى فى كلمة «رجلة» إذ يقصد الطعام المتخذ من نبات الرجلة .

ويقول فى ذم «اللبيس» وهو لون السمك :

لبئس اللبيس طعاما يعاب وقد صدقت لهجة العائب
ندمت لملقاه شاكى السلاح له شوكتا طاعن ضارب
فآكل كفى مع لحمه وأنتف مع شوكه شاربى(٣)

ويشير إلى كره الناس لـ «المقتلة الباردة» فى سياق تعريضه بأحد الأشخاص قائلا :

أبيت أرجيه فى حاجة فلم تنبعث نفسه الجامده
وفتل فى ذقنه والنفوس تعاف المقتلة البارده (٤)

وأغرم الناس على ذلك العهد بألوان من الأشربة منها المزر والفقاع ، وكانت حوانيتها منتشرة . افتن الباعة فى تزيينها وترخيمها ، وقد سجل لنا المقريزى صورة لحوانيت الفقاع فى قوله :

«وكانت من أنزه ما يرى ، فانها كانت مرخمة بأنواع الرخام الملون ،

---

(١) مطالع البدور جـ ٢ — ص ٦١ .
(٢) مطالع البدور جـ ٢ — ص ٥٨ .
(٣) منتخب الوراق ورقة ٢٥٩ .
(٤) مطالع البدور جـ ٢ ص ٥٨ .

وبها مصانع ماء تجرى إلى فوارات تقذف بالماء على ذلك الرخام حيث كيزان الفقاع مرصوصة ، فيستحسن منظرها إلى الغاية لأنها من الجانبين والنـاس يمرون بينهما» . (١)

ونعطف إلى التجارة والأسواق ، ومصر إذ ذاك مركز تجارى ممتاز فهى حلقة الاتصال بين الشرق والغرب ، وأرضها ملتقى قوافل التجارة ووفـود التجار ، وكان من ثمرة ذلك أن ازدهرت الحركة التجارية ، وأثرى كثير ممن امتهن التجارة ، وتحدثنا كتب التاريخ عن مدى النفوذ الذى كان لبعض التجار إلى حد صاروا يؤثرون فيه على سياسة مصر فى الداخل والخارج . (٢)

وقد عكست أسواق القاهرة هذا الازدهار التجارى، فاكتظت بالمعروض من البضائع ، وازدحمت بالحوانيت ، ولعل فى وصف المقريزى لسوق «بين القصرين» ما يعطى صورة لذلك ، يقول :

«فصار متنزها تمر فيه أعيان الناس وأماثلهم فى الليل مشاة لرؤية ما هناك من السرج والقناديل الخارجة عن الحد فى الكثرة ، ولرؤية ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين مما فيه لذة للحواس الخمس» . (٣)

ولم تنفرد القاهرة وحدها بهذا النشاط التجارى ، بل شاركتها مدن أخرى ولا ريب أن الاسكندرية بحكم موقعها على البحر المتوسط كانت مدينة تجارية هامة ، ونستشف صورة الحركة التجارية فى الإسكندرية من بعض أبيـات قصيدة النويرى السكندرى التى رثى بها الإسكندرية فى وقعة قبرص . وذلك إذ يقول :

---

(١) الخطط جـ ٢ — ص ٤٤٧ .
(٢) أنظر الدرر الكامنة جـ ٢ — ص ٨٤٣ وما كان من أمر التاجر الأفرنجى « سكران » فى العلاقة بين الناصر محمد والتتار .
(٣) الخطط جـ ٢ — ص ٤٤٠٠ .

لهف نفسى عـلى التجـار جميعـا   أصبحوا بعد العز فى اعـــدام
لهف نفسى عـلى حوانيت بـــر   وقماش مطـــرز الأكمـــام
كيف يخلـو جمـع الحوانيت منها   صفصفا بالخـراب مـأوى الهوام
لهف نفسى عـلى حـلى كثـــير   وستور الحرير ذى الارتسام (١)

والأبيات على ما فيها من ضعف — توحى بصورة لما كان عليه التجـار من ثراء وعز ، ولما كانت تكتظ به الحوانيت من سلع مختلفة ألوانها ، ومن أقمشة وحلى وحرير .

وكانت الدولة من جانبها تعمل على تشجيع التجارة لما تمثله من دعـامة قوية للاقتصاد المصرى ، وفى مثال كتبه فتح الدين بن عبد الظاهر سنة ٦٨٧هـ على لسان قلاوون نرى صورة من صور الإغراء للتجار بقدوم مصر ، إذ حرص الكاتب على بيان ما تتمتع به مصر من أمن ومن رخاء ومن جمـال طبيعة : «ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد النقلة إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها ، الظليلة افناؤها وأفياؤها ، فليعزم عزم من قدر الله له فى ذلـك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا إلى ذخيرة ، لأنها فى الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلاة لمن تعوض عن الوطن ، ونزهة لا يملها بصر» . (٢)

والسوق المصرية إذ ذاك لها طابعها المميز بشوارعها المسقوفة ، وحوانيتها المصطفة على الجانبين ، ونظام التخصص الذى اتسمت به إذ يجتمع أبناء كل طائفة ، وأهل كل تجارة فى مكان خاص بهم فهناك سوق الأكفانيين ،وسوق الكمكيين ، وسوق الطيوريين والوزازين والدجاجين إلى آخر ذلك ، هـذا

---

(١) الإلمام بما جرت به الأحكام ورقة ١١٨ .
(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ — ص ٦٦ .

فضلا عما تموج به السوق من باعة جائلين وما ينتشر فيها من حلقات حول أحد القصاص أو المكدين .

وقد سجل الأدب لنا أطرافا من حياة السوق ، وأول ما يطالعنا من ذلك صورة المحتسب ، وقد رسم البوصيرى صورة ساخرة للمحتسب وهو يطوف السوق يتبعه غلامه حاملا الدرة ، منبها الناس لمقدمه ، ومن خلفه جمهرة من الصغار تزف موكبه :

يمشى بها والصغار تنشده أميرنا زار بلا ركبه
وما يزال الغلام يتبعه بدرة مثل رأسه صلبه
وهو يقول : افسحوا لمحتسب قد جاءكم من دمشق فى علبه (١)

ويصوره وقد جلس يرغى ويزبد ، وقد احمرت مقلتاه ، ينهر التجار ويؤدبهم بينما هم يهرعون إليه لاسترضائه :

أجلس والناس يهرعون إلى فعلى فى السوق عصبة عصبة
أوجع زيدا ضربا وأشبعه سبا كأنى مرقص الدبه
ويكسب الغيظ مقلتى وخدى احمرارا كزامر القربه (٢)

أما القيراطى فيرسم صورة مثلى للمحتسب وهو يهنى قطب الدين بن عرب بالحسبة قائلا :

عز جليلهم على دقيقة إن غيره
كم تاجر ذراعه لغشه قد سمره
غادره تأديبكم بالآلة المسمرة

---

(١) الديوان ص ٥٢ .
(٢) الديوان ص ٥١ .

يذكـــر مستطيلهـــا   بجلـــده المـــدوره
وكم حـــلاوى صـــفت   حـــلواؤه المكـــدره
نقيـــة كأنهـــا   أعراضـــك المطهـــره
كم عقـــدوا عنابـــلا   مـــن قبـــل هـــذا كـــدره
ســـكره ســـواده   يحـــكى ســـواد ســـكره
واليـــوم فى دولتـــكم   أمورهـــا مقـــرره
مـــا عرفـــت فى عصركم   بهـــا أمـــور منـــكره
معايش النـــاس بهـــا   بطيبهـــا مفتخـــره
وكـــل ذى صناعـــة   أجـــاد فيهـــا نظـــره (١)

وهذه الأبيات — إذا تجاوزنا عما فيها من مدح — تعطينا صورة واضحة لما كان يمارسه التجار من ألوان الغش ، من تغيير الدقيق ، أو استخدام السكر الكدر ، كما أنها تصور لنا ما كان يلجأ إليه المتحسب من وسائل لتـأديب التجار المتلاعبين من تعزيز ، وجلد ، وتسمير ، ثم هى بعد ذلك تعطينا صورة لتلك الآلة التى كان يستخدمها المتحسب فى التأديب .

وإذا كان هذا شأن المحتسب وسطوته على التجار ، فقد كان هناك للجند وأمراء الدولة شأن آخر إذ درجوا على استغلال مراكزهم ، وفرض رسوم مقررة مسخرين فى ذلك نقيب كل طائفة ، ويصف عبد الملك الأرمنتى عمله بسوق الوراقة ، وما كان يعانيه من هؤلاء الجند ، ومن سطوة نقيب الوراقين الذى يسير فى حاجتهم ، وذلك إذ يقول :

أيا سائلى حـــالى بسوق لزمتـــه   يسمونه ســـوق الوراقـــة مـــا يجـــدى

---

(١) الديوان ص ١٠٤ .

خذ الوصف منى ثم لا تلو بعدها ... على أحد من سائر الخلق من بعدى
يكسب سوء الظن بالخلق كلهم ... وخسة طبع فى التقاضى مع الحقد
وينقص مقدار الفتى بين قومه ... ويدعى على رغم من القرب والبعد
وإن خالف الحكام فى أمر أمرهم ... يرى منهم والله كل الذى يردى
ولا سيما فى الدهر أن رسموا لنا ... بأربعة فى كل أمر بلا بد
ويكفيه تمعير النقيب وكونه ... يشنطط بين الرسل فى حاجة الجند
وإن قال انى قانع بتفردى ... فهذا معاش ليس يحصل للفرد
فبالله إلا ما قبلت نصيحتى ... وعاينت ما يغنيك عنه وما يجدى
وإن كنت مقهورا عليه لحاجة ... فصابر عليه لا تعيد ولا تبدى (١)

وأتقن التجار آنذاك فن التجارة ، وعملوا على اجتذاب عملائهم بشتى الوسائل ، ومن ذلك أنهم — فيما يبدو لى — كانوا يقيمون على بضائعهم غلمانا على جانب من الجمال يغرون العملاء ، ويجذبونهم إليهم ، ونسمع رجعا لهذه الظاهرة فى أشعار الشعراء حيث كثر تغزلهم بالحلوانيين والطباخين إلى غير ذلك . فمثلا يقول الصفدى متغزلا بمليح حلاوى :

إن هذا الظبى الحلاوى أمسى ... يتجنى على الكئيب ويحقد
لا تعارضه فى جفاه بشكوى ... دعه فى دسته يحل ويعقد (٢)

ويقول فى مليح طباخ :

إن طباخا به نضجت ... مهجات غير مرحومه
سلوتى عنه مزورة ... إن بدا والنفس مغمومه (٣)

---

(١) الطالع السعيد ص ٣٤٠ — ٣٤١ .
(٢) الحسن الصريح فى وصف مائة مليح ص ٢٦ .
(٣) الحسن الصريح ص ٢٦ .

ويقول المعمار فى شرابى :

لثمت عــذار محبــوبى الشــرابى ... فقــال تركت لثم الخــد عجبــا
حفظت اليانســون كـــا يقولـــوا ... ورحت تضيــع الــورد المربى (١)

ويقول فى طباخ :

هويت طباخـــا ســـلانى وقـــد ... قـــلا فـــؤادى بعـــد مـــارده
محترقـــا إذ لم يـــزل بالجفــــا ... يغـــرف لى أحمض مـــا عنـــده (٢)

ويقول الشاب الظريف فى عطار :

يا رب عطـــار بســـكر ثغـــره ... سكر المحب ولم يفـــق من سكـــره
عقـــد الشراب لـــذى السقام وكيفما ... عقد الشراب لجفنه من ثغـــره (٣)

وطرف آخر من حياة السوق يعرضه لنا ابن دانيال فى بابته «عجيب وغريب» ، حيث يصور لنا أنماطا من المحتالين والمشعبذين الذين يخدعـــون الناس بأقوالهم وحيلهم وألاعيبهم ، فمثلا هناك الواعظ المكدى الذى يخلب العقول بوعظه ، وهناك من أتى بأحقاق ومعاجين موهما أنها شفاء لكل مرض وهناك الحاوى ، وهناك مرقص الدب إلى غير هذه الصور التى التقطها ابـن دانيال من واقع مجتمعه . أنظر مثلا إلى تصويره «لحويس» الحوى الذى يزعم أن ما معه من ترياق يشفى من سم الأفاعى ، ويبدأ حويس بعرضه بعـــض الأفاعى مما يحمله معه فى سلاله ، واصفا خطرها ، قائلا :

«إن فى هذه السلال ، بساط الآجال ، وهلاك النساء مع الرجال ،وهذا الناشر مثل الأسد الكاشر ، الهجام الحجام ، بلية مصر والشام وهو الصل ،

---

(١) فوات الوفيات حـ ١ — ص ٥٢ .
(٢) فوات الوفيات حـ ١ — ص ٥٢ .
(٣) الديوان ص ٣٧ .

والموت المطل ، ويل لمن رآه على التلاع ، وفرش له عرفه كالشراع ، ونهشه بعضبه على عصبه ، بل يا سادة هذه الحية ، البلية الرقطاء الرملية ، تضرب خف الجمل ، فيموت الجمال ، وتتوارى مدفنة فى الرمال ، سمها رسيل الموت ، ونابها نائبة الفوت» . (١)

وبعد أن يبلغ إلى هدفه من إثارة خوف الناس من الثعابين والحيات ، مجسدا لهم أخطارها ، مهولا فى فعل سمومها ، يأخذ فى عرض ترياقه العجيب قائلا :

«هذا المخلص من النهوش والكسور ، والعضاض ، الشافى بعون الله تعالى من جميع الأعلال والأمراض ، ركبته لهذه الدواعى من قرص الإشقيل ، وقرص العنصل ، وقرص الأفاعى ، وأضفت إليه الفلفل الأبيض والأفيون »(٢)

ويستمر فى وصف هذا الدواء العجيب محاولا اقناع الناس بفوائده ، دافعا لهم إلى شرائه :

«اللهم لا تجعله فى ذخيرة لئيم ، ولا تحل عليه إلا عقدة كل كريم ، هاكم ، وهاتوا لها كم ، نفعكم الله بهذه الإفادة» . (٣)

وشخصية أخرى يعرضها ابن دانيال هى شخصية ميمون القراد ، ويبدأ ميمون فيصف قرده الذكى :

قرد يكاد من التفهم ينطق ... وتراه من حسن الرشاقة يعشق
ما جازدارا فى ذراها ظافرا ... إلا وكاد بسقفها يتعلق (٤)

(١) خيال الظل ص ١٩٩ .
(٢) خيال الظل ص ٢٠٠ .
(٣) خيال الظل ص ٢٠١ .
(٤) خيال الظل ص ٢٢٢ .

ويستمر ميمون فى وصف قرده فى عدة أبيات ، ثم يبدأ فيعرض علـى الناس بعض ألعابه ومهاراته :

بالله عليك يا ميمون   رقص السمينه كيف يكون

فرج عليك من قد حضر

ثم التقف هذى الأكر

وارقص لنا كالمزون

بالله عليك يا ميمون (١)

إن قارىء هذه البابة يشعر وكأنه يقرأ عملا لأديب معاصر ، فما تزال هذه الشخوص تطالعنا ، وما نزال من حين لآخر نبصر حلقة من الناس وقد التفت حول واحد من هؤلاء ، بينما راح يمارس فيهم فنون احتياله وشعبذته .

وكان ابن دانيال موفقا فى رسم هذه الشخوص ، واختيار اللغة التى تنطبق على كل واحد منهم وتلائمه ، وابن دانيال بتصويره هذا الجانب من الحياة المصرية يسدى «خدمات جليلة للمؤرخ والأديب لأنه يبرز لنا ناحية من نواحى حياة الشعب قلما يقع نظره عليها فى الكتب التاريخية ، وقد تكون هذه الناحية مصدراً من أجمل المصادر لفهم حياة الأمة فهما لا غبار عليه» . (٢)

ويعرض تاج الدين السبكى لصورة أخرى من صور الاحتيال ، هى صورة أولئك الشحاذين الذين يزحمون الطرقات ، ويلحفون فى الطلب ، ولهم فى ذلك أساليب تشمئز منها النفوس ، ويحمل السبكى على هؤلاء حملة شديدة ، وينصح بتأديبهم والضرب على أيديهم :

«وكثير من الحرافيش اتخذوا السؤال صناعة : فيسألون من غير حاجة ،

(١) خيال الظل ص ٢٢٣ .

(٢) د . فؤاد حسنين على ، قصصنا الشعبى ص ٨٨ نشر دار الفكر ١٩٤٧

ويقعدون على أبواب المساجد يشحذون المصلين ، ولا يدخلون للصلاة ، ومنهم من يقسم على الناس في سؤاله بما تقشعر الجلود عند ذكره . وكل ذلك منكر ، وبعضهم يستغيث بأعلى صوته : لوجه الله فلس . وقد جاء الحديث «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة» . وبعضهم يقول : بشيبة أبي بكر فلس . فانظر ماذا يسألون من الحقير ، وبماذا يستشفعون» . (١)

ويشير السبكي إلى ما يصطنعه هؤلاء من هيئة زرية ليستدروا عطف الناس فيقول :

«ومنهم من يكشف عورته ، ويمشي عريانا بين الناس ، يوهم أنه لا يجد ما يستر عورته ، إلى غير ذلك من حيلهم ومكرهم وخديعتهم» . (٢)

ذلك طرف من الحياة في الأسواق رأيناه كيف تمثل في أدب العصر نابضا حيا .

ونترك الأسواق بعجيجها وضجيجها إلى مكان آخر له شأنه في حياة الناس إذ ذاك وهو «الحمام» . وأهمية الحمام في العصر المملوكي «لم تقتصر على أنها مكان لنظافة البدن فحسب ، بل كانت مركزا اجتماعيا ، فالمريض إذا دخل الحمام اعتبر ذلك إعلانا لشفائه ، والعريس أو العروس يجب على كل منهما أن يدخل الحمام قبل الزفاف ، فيعتبر هذا الحدث عيدا من الأعياد العائلية الرائعة ، وفي الحمام اعتادت أن تجتمع النساء والصديقات فيتناقلن أخبار الناس ، ويقصصن على بعضهن كثيرا من أخبارهن وحياتهن المنزلية» . (٣)

وإذا رحنا نتلمس صورة الحمام في الأدب ، ربما لم نجد ما يشفي غليلا ،

---

(١) معيد النعم ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢) معيد النعم ص ١٢٨ .

(٣) المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٩٥ ، ٩٦ .

أو يبرد ظمأ ، ولا نسبق بالحكم ، وانما نترك النصوص تحكم على نفسها .

هذه رسالة كتبها محي الدين بن عبد الظاهر يستدعي بعض أصحابه إلى حمام يبدؤها بوصف الحمام ، وحسن بنائها ، وصفاء مائها ، فيقول :

«هل لك — أطال الله بقاءك إطالة تكرع بها من منهل النعيم . وتتملى بالسعادة على الزهر بالوسمي ، والنظر بالحسن الوسيم — فى المشاركة فى حمام جمع بين جنة ونار ، وأنواء وأنوار ، وزهر وأزهار ، قد زال فيه الاحتشام فكل عار ، ولا عار نجوم جاماته لا يعتريها أفول ، وناجم رخامه لا يغيره ذبول ، تنافست العناصر على خدمة الحال به تنافسا أحسن كل التوصل فيه إلى بلوغ أربه ، فأرسل البحر بماء جسده من جسده لتقبيل أخمصه إذ قصرت همته عن تقبيل يده ، ولما لم ير التراب له فى هذه الخدمة مدخلا تطفل وما علم أن التسريح لمن جاء متطفلا ، والنار رأت أن لا أحد بمباشرتها يستقل ، وأن فيها معنى بفرض الخدمة لا يخل ، لأن لها حرمة هداية الضعيف فى السرى ، وبها دفع القر ونفع القرى ، فأعلمت ضدها الماء فدخل وهو حار الأنفاس ، وغلت مراجله عليها. فلأجل ذلك داخله من صوت تسكابه الوسواس» . (١)

ويستمر ابن عبد الظاهر على هذه الشاكلة من التلاعب اللفظى فيصف لنا حسن الخدمة فى حمامه قائلا :

«ثم إن الأشجار رأت ألا شائبة لها فى هذه الحظوة ، ولا مساهمة بشيء من تلك الخلوة ، فأرسلت من الأمشاط أكفاً أحسنت بها وجوه الفرق ، ومرت على سواد الغدائر الفاحمة كما يمر البرق ، وذلك على يد قمقم بحقوق الخدمة ، ماهر فيما يعامل به أهل النعيم من أسباب النعمة ، خفيف اليد مع الأمانة ، موصوف بالمهابة عند أهل تلك المهانة» . (٢)

---

(١) تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور ص ١٦ .

(٢) تشريف الأيام والعصور ص ١٦ .

ولا تكاد تنبض الرسالة بالحياة إلا فى الجزء الأخير منها حين يتطرق الكاتب إلى وصف ما حوله من جمال حى متمثلا فيما يراه من غلمان يسبلون شعورهم ، ويأتزرون بمآزرهم ، وكل منهم يتودد إليه بالحديث :

«وبدور أسبلت من اللوائب غيهبا ، قد جعلت بين الخصور والروادف من المآزر برزخا لا يبغيان ، وعلمنا بهم أننا فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وتطوف علينا بها الولدان ، يكاد الماء إذا مر على أجسادهم يجرحها بمره ، والقلب أن يخرج إلى مباشرتها من الصدر وعجيب لامرىء لا يلقى الأمور بصدره ، إذا أسدل بعضهم ذوائبه ترى ماء عليه ظل يرف ، وجوهرا من تحته عنبر يشف ، يطلب كل منهم السلام ، وكان الواجب أن تطلب منه السلامة» . (١)

وإذا تركنا النثر إلى الشعر وجدنا بعض مقطعات قصيرة تشير إشارات خاطفة إلى شأن الحمام كمركز اجتماعى . فمثلا يقول شهاب الدين بن فضل الله

رب حمام وجدنا فيه أنواع النعيم
قد جمعنا الشمل فيه بصديق وحميم (٢)

وما ثم فى البيتين من جديد سوى تلك الإشارة السريعة لاجتماع شمل الأصدقاء .

ويقول نصير الدين الحمامى :

وكدرت حمامى بغيبتك التى تكدر فى لذاتها صفو مشربى
فما كان صدر الحوض منشرحاً بها ولا كان قلب الماء فيه بطيب (٣)

---

(١) تشريف الأيام والعصور ص ١٦ .
(٢) سلوك السنن فى وصف السكن لوحه ٢٥ .
(٣) سلوك السنن لوحة ٢٥ .

ولو كنا نتوقع من صفير الدين غير هذا ، فهو حماى ، أما كان أولى به أن يصور لنا طرفا مما يجرى فى حمامه ؟! أما استوقفه مشهد طريف أو قصة أو نادرة ؟

وانظر إلى قول صدر الدين سليمان الحنفى :

بجهنم حمامكم نارهـا   تقطع أكبادنـا بالظمـا
وفيـه عصفناة لهـم ضجـة   وإن يستغيثـوا يغاثـوا بمـا (١)

فهل قصر إلا روح فقيه ؟!

ولا يكاد يعيد على الحمام بعض حياتها إلا ابن دانيال فى قصيدته «زلقة الحمام» التى يصور فيها مطاردته الغزلة لأحد رواد الحمام ، يقول :

قـد سمعتم بزلقـة الحـمام   وفهمتم حديثهـا فى الأنـام
كان ما كان وانقضى غـير أنى   زلقـتى من غرائب الأيـام
جـزت فى خلـوة لحمام بـاب الخـرق والصبـح غرة فى الظـلام
ذا خمـار من قهـوة العشق صبـاً   ثمـلا مـن صبـابة وغـرام
فلقيت المعشـوق يخطـر لـدن الـقد   كغصن النقابلـين القـوام

هذا هو مسرح القصة ، وهذى أولى الخيوط ... الصباح الباكر ، خلوة الحمام .. ، المعشوق يخطر لين القوام .. ، ثم تتحرك الأحداث :

قلت : يا سيدى إلى ها هنا ؟! قال إلى ها هنا بحسن ابتسام ..

ثم يدخلان إلى الحمام ، ويخلع هذا الفاتن ملابسه فإذا هو :

لاح فى ليلتين مـن مـئزر الشعـر ومـن شعـره كبـدر التمـام
وعـلاه من لؤلـؤ الرشـح أسمـاط لآل نـثرا بغـير نظـام

(١) سلوك السنن لوحه ٢٥ .

حين نمت مكتومة الخال عنه   خبرا عن عذاره النمام
أقسم الورد أن خديه أبهى   منه إذ ظلبه رذاذ الغمام

ويبدأ ابن دانيال فى القاء شباكه فيدنو من قيم الحمام مخاطبا :

قلت سرح شعر الحبيب بإحسان ، وخلص جبلى بهذا الغلام
وبجفنى ما شاء ماء طهور   وسلوا عن صبابتى الحمامى

وحين يخرج الفتى يخرج ابن دانيال وراءه فيعثر أو يتظاهر بذلك فيعطف عليه الفتى ، ويغمره ببسمه تكون شفاء له من زلقته ، وينتهز الفرصة ابن دانيال فيغتصب بعض قبلات :

وتعثرت خلفه فى خروجى   والأمانى تنزل بالأقدام
ورآنى ملقى لديه صريعاً   فرقانى برقية الابتسام
فتجاننت من غرامى وقبلت انتهابا ما كان تحت اللثام
يا لها زلقة جبرت بها قلبى وإن كسرت جميع عظامى(١)

ولاشك أن ابن دانيال بقصيدته هذه أعطانا صورة حية لبعض ما كان يجرى فى الحمامات ، وكنا نود لو اقتفى سائر الأدباء هذا الصنع فنقلوا لنا بعض الصور الحية بدلا من هذا الوصف التسجيلى الذى لا يعطى صورة ولا تصورا .

وعلى ذكر الحمامات نذكر السقائين ، وكان لهم حق وقت قريب شأن كبير فى حياة الناس ، ومع ذلك تقل النصوص التى تتناولهم بالوصف ومن هذه النصوص القليلة أبيات للدماميني يصف فيها قربة الماء التى يحملها السقاء على ظهره فيقول :

---

(١) التذكرة الصفدية ورقة ٥٦ ، ٥٧ — ١٤ .

تشد وكم فى الأرض قار أمامها ... فصدق إذا ما قيل تملى وتكتب
وما هى فى التحقيق راوية وكم ... لها خبر فى الذوق يحلو ويعذب
مليحة شكل بألف «الحب» صبها ... زمانا ، وفى وقت لها يتجنب
ويبلغ منها للحياض حقيقة ... ولكن رأينا قلبه وهو طيب
يزيد مريدوها إذا ما تصوفت ... ويشكرها أهل الزوايا ويطنبوا
لها أربع لكن بساق رأيتها ... على السعى فى الأحياء بالنفع تدأب(١)

والأبيات صيغت على صورة لغز مما فتن به أدباء هذه الحقبة ، والدمامينى يشكل فى ألفاظه ، فبينما يصفها بأنها ليست راوية يبين أنها تروى وخبرها يحلو ويعذب ، وهى تملى وتكتب ، والقصد ملؤها بالماء وشدها على ظهر حاملها ، كذلك «الحب» وهو «الزير» كما كان يسميه أهل مصر يشكل به الدمامينى إذ يورد بعده كلمة «صب» معتمدا فى ذلك على ما تعطيه الألفاظ من معان متباينة . ولا شك أن هذه الصياغة سلبت الأبيات حياتها .

ولكن ربما كان فى أبيات الوراق التالية ما يلقى الضوء على السقائين ، وعلى دور خطير يقومون به إلى جانب مهنتهم .. ، يقول الوراق فى «فتوح» السقاء :

إن فتوحا جامع شمل الفتن ... أقود للآبى الحرون من رسن
كم ورد الماء لديه ورعى ... حشيشه فى بيته ظبى أغن
وتنزه العشاق فى بيت له ... بالماء والخضرة والوجه الحسن(٢)

تلك حياة الناس فى مصر المملوكية رأينا كيف تمثلت فى الأدب وأطلتنا على قصور الأدب فى تصويره لبعض الجوانب ، واستقصائه لجوانب أخرى

---

(١) مطالع البدور حـ ٢ — ص ٧٨ .
(٢) منتخب الوراق ص ٤٠٢ .

نستطيع أن نقول بصورة مجملة : إن الأدب نقل الينا نبض الحياة فى ذاك العصر ، وأعطانا صورة تكاد تكون واضحة المعالم للناس وحياتهم .

ولكن هناك مسألة ينبغى أن نشير إليها قبل أن نختم هذا الفصل ، وهى أن تلك الحياة التى صورها الأدب لا تكاد تتعدى الحياة فى القاهرة والفسطاط أما عن حياة الناس فى الريف والقرى ، والنجوع والكفور فليس ثم مايصورها اللهم إلا بعض إشارات خاطفة ، وردت إحداها فى شعر البوصيرى إذ يشير إلى الفلاح فى بعض أبياته قائلا :

واسلبهم نعماً قـد شاطروك بهـا　　كما يشاطر فلاح الفداديـن (١)

ويشير ابن دانيال فى أحد تشبيهاته إلى باعة العطور الذين كانوا يطوفون على أهل القرى يبيعونهم العطر بالنخال ، وذلك فى قوله :

كل يوم لى سفـرة ورحيـل　　للقـرى مثـل رحلـة الرحـال
فـوق جحشى الخرج المشـاق كأنى　　بائع العطر للنسا بالنخـال (٢)

وليس فى ذلك ما يستغرب فالنشاط الأدبى عادة يتركز فى العاصمة أو ما يضاهيها من مدن كبرى ، هذا فضلا عن أن القرية إذ ذاك كانت تعيش خارج إطار الضوء ، وكان الفلاح لا يكاد يذكر إلا وقت الحصاد حينا يحين الوقت ليأكل غيره ثمرة كده .

المرأة :

يحدثنا التاريخ عن النفوذ الذى وصلت إليه بعض نساء المماليك حتى إن بعضهن كان لهن دور كبير فى تسيير أمور البلاد ، وما زال تاريخ مصر

---

(١) الديوان ص ٢١٧ .
(٢) التذكرة الصفدية ج ١٤ ص ٨٧ .

يذكر اعتلاء «شجر الدر» عرش البلاد ، وامتلاكها لأزمة الحكم فى وقت من أحرج أوقات الصراع . كما تحدثنا كتب التراجم أيضا عن أن كثيرات من نساء العصر المملوكى كان لهن دور فى الحياة العلمية ، فمنهن المحدثات ، ومنهن الفقيهات ، ومنهن الواعظات ، إلا أننا لا نستطيع مع ذلك أن نقول : إن المرأة حظيت بمكانتها اللائقة فى المجتمع المملوكى ، ولعل رسالة الخليفة العباسى إلى أمراء مصر بشأن توليتهم «شجر الدر» من الذيوع بحيث لا نرى حاجة إلى إثباتها ، وهى على أى حال تعكس النظرة إلى المرأة فى تلك العهود ، التى كانت تراها مجرد أداة للمتعة ، وترى دورها ينبغى ألا يتعدى دور ربة المنزل القائمة على تدبير شئون المأكل ، وتربية الصغار .

وإذا رحنا نتلمس صورة المرأة ومكانتها الاجتماعية فى الأدب وجدنا ما يعكس هذه النظرة الأخيرة ، ويؤكدها ، فالرجل ينبغى دائما أن يكون هو المسيطر ، والمرأة ينبغى دائما أن تكون ظلا للرجل وتابعا . فهى لا تزيد عن كونها متاعا له وحرثا ، وإذا كان من واجبه أن يطعمها ، ويضمن معاشها فإن ذلك لا يعدو ما هو ملزم به تجاه ما يملكه من بهيمة الأنعام.

وانظر فى ذلك إلى عبارة ابن الاخوة فى سياق حديثه عن واجب الرجل :

«ومن ملك بهيمة وجب عليه القيام بعلفها ولا يحمل عليها ما يضرها كما فى العبد ، ولا يحلب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها لأنه خلق غذاء للولد فلا يجوز منعه منه ، وإن امتنع من الانفاق عليها أجبر على ذلك كما يجبر على نفقة زوجته» . (١)

هكذا ... !! الرجل ينفق على بهيمته كما ينفق على زوجته .. !! .. ولن يختلف الأمر كثيرا إذا عكسنا وضع كل من المشبه والمشبه به فى هذه

---

(١) معالم القربه ص ٢٧ .

الصورة .. !! .. فى كلا الأمرين تقرن الزوجة بالبهيمة ..

إذن فالرجل هو السيد المطاع .. والمرأة فداء له ، وربما تزدد ذلك فى بعض أشعار العصر ، واسمع لقول ابن نباته يعزى فى امرأة :

تفدى كرام الحمى منكم كرائمه ... يا آل بيت العلا والفضل والحسب
أما وقد بقيت عليا سما تكمو ... فما يضر زوال السبعة الشهب
جادت ضريحك للرضوان غادية ... يا أخت خير أخ يا بنت خير أب
يا نبعة الفضل مذ فاز التراب بها ... لم تسر من حجب إلا إلى حجب(١)

فابن نباته — وان كان يدعو لضريح هذه الفقيدة بالسقيا والرضوان — يرى أن فقدها وفقد أمثالها لا يضر طالما بقى سادة البيت ورجاله ، فكرائم النساء فداء لكرام الرجال على حد قوله . وهو بعد ذلك لا ينسب لهذه الفقيدة فضلا فى ذاتها ، وإنما فضلها مستمد من نسبها إلى أخ كريم وأب كريم — كما عبر عن ذلك بشطر من بيت المتنبى المعروف — ، وبن نباته يحدد فى هذه الأبيات ما ينبغى أن تكون عليه المرأة الفاضلة ، وذلك حين يصف هذه الراحلة بأنها لم تسر من حجب إلا إلى حجب ، وكأنه يرى أن المرأة ينبغى أن تلزم البيت فلا تخرج منه إلا إلى القبر . هذه هى الصورة المثلى للمرأة فى ذلك العهد ، أما أن تشارك بدور فى العلم ، أو الأدب ، أو أى لون آخر من ألوان الحياة ، فهذا مالا يطلب منها ، ومالا ينبغى أن تكونه .

وإذا كانت هذه هى النظرة السائدة ، فالمرأة ليست فى حل من نفسها ، وليس لها رأى ، والعار كل العار لو لم تخضع المرأة لرأى أهلها وأقاربها ، ولذلك نجد ابن نباته يعرض تعريضا فاحشا بتلك المرأة التى قررت الزواج بنفسها دون رأى عشيرتها وأقاربها :

---

(١) الديوان ص ٤٨ .

تزوج سيف الدين حسناء ناسبت إليه ، وأقصت معشرا وأقاربـا
ولم تستشر فى أمرها غير نفسهـا ولم ترض إلا قائم السيف صاحبا (١)

وربما انحدرت منزلة المرأة إلى حد من الهوان أبعد من ذلك فى بعض مجتمعات البدو ، إذ كانوا يعاشرون النساء دون زواج ، ولا يورثون البنات ، وهذا ما لم يأت به شرع أو دين ، ويستنكر السبكى ذلك أشد الاستنكار فى سياق حديثه عن أمراء العرب فى عهده فيقول :

«وكثير من العرب لا يتزوجون المرأة بعقد شرعى ، وإنما يأخذونها باليد وربما كانت فى عصمة واحد فنزل عليها أمير غيره ، واستأذن أباها ، وأخذها من زوجها . فهات قل لى : أى ولد حلال ينتج من هذه ؟! لا جرم أنهم لا يلدون إلا فاجرا ، ومن قبائحهم أنهم لا يورثون البنات ، ولا يمنعون الزنى فى الجوارى ، بل جواريهم يتظاهرن بالزنى مع عبيدهم . وكل ذلك من الموبقات العظائم» . (٢)

وطبيعى — بعد ذلك — أن نجد هناك من كان يكره إنجاب البنات ، وإذا بشر بإحداهن ظل وجهه مسودا ، ولعل الوراق يعكس ذلك فى قوله :

رزقت بنتـا ليتهـا لم تكـن فى ليلـة كالدهـر قضيتهـا
فقيـل : مـا سميتهـا قـلت لـو مكنت منهـا كنت سميتهـا (٣)

ويتلاعب الشاعر بكلمة «سميتها» فى البيت الثانى ، ويريد بها «سممتها» فى نهاية البيت ..

وهذه النظرة الساخرة للمرأة نجدها فى شعر القيراطى ، إذ يتهكم بامرأة

---

(١) الديوان ص ٦٢ .
(٢) معيد النعم ص ٥٥ .
(٣) فض الختام عن التورية والاستخدام ص ٢١٤ .

تعمل بالوعظ ، ساخرا منها ، وكأنه لا يرى فى مجال الوعظ مكانا للنساء ، واقرأ هذه الأبيات ، ولا يغرنك منها هذا الإطار الغزلى الذى جعله القيراطى حجابا على سخريته :

وعالمــة تفــتّى بقتــل محبهـــا ونجهــر أنى فى هواهـا أعـذب
وتغضب ان جاءت عـلى بصدهـا كما أنهـا تجـنى عـلى وأغضب
إذا وعظت قامت ملاحـة وجهها على منبر الأعطاف تدعو وتخطب
أتحقى عليهـا قصتى إذ رفعتهـا بخط دموعى وهى تقر وتكتب؟!
أيا جنـة ما رق رضوانهـا لنـا وقلبى بهـا فى نـاره يتقـلب
سأطلب باب النصر منها وكيف لا أرى ذاك فى قربى لها وهى زينب(١)

وما أغربها من واعظة تلك التى يقوم جمالها مقام علمها ، ويقوم محبوها مقام طالبى الإفادة .. !!

وإذا كان مجتمع مصر المملوكية قد أراد للمرأة ألا تشارك فى الحياة العامة ، وأراد لها ألا تتعدى حدود بيتها زوجة وأما ومربية للاطفال ، فهل نجد فى أدب هذا العصر ما يصور الزوجة فى حياتها المنزلية وما تقوم به من توفير الجو السعيد لأسرتها وأولادها ؟

والواقع أننا لا نرى فى الأدب من حياة المرأة المنزلية إلا الجانب السىء ، وكأن السخط وحده هو الذى يحرك قرائح الشعراء .. !! فالبوصيرى يعرض شاكيا — صورة امرأته التى راحت تشكو لأختها ما تعانيه من ضيق فحرضتها عليه حتى ضربت رأسه بحجر ، ويعرض البوصيرى ذلك فى صورة قصصية نابضة ، إذ يقول :

ويـوم زارت أمهـم أختهـا والأخت فى الغـيرة كالضـرة

(١) الديوان ص ٨٨ .

وأقبلت تشكو لها حالها وصبرها منى على العسرة
قالت لها : كيف تكون النسا كذا مع الأزواج يا غرة
قومى اطلبى حقك منه بلا تخلف منك ولا فتره
وإن تأبى فخذى ذقنه ثم انتفيها شعرة شعره
قالت لها : ما عادتى هكذا فإن زوجى عنده ضجره
أخاف إن كلمته كلمة طلقنى ، قالت لها : بعره
فهونت أمرى فى نفسها فجاءت الزوجة محتره
فاستقبلتنى فلهدتها فاستقبلت رأسى بآجره
وباتت الفتنة ما بيننا من أول الليل إلى بكره
وما رأى العبد له مخلصا إلا وما فى عينه قطره (١)

ويعرض البوصيرى لهذه الزوجة صورة أخرى ، إذ يصورها كارهة له لعجزه عن إشباع رغباتها ، ويصفها بأنها على الرغم من كبر سنها ، وتقوس ظهرها ، صبية الرحم ملأت له البيت بالأولاد ، ومازالت ، وكأنها تحمل فى الأحلام ، وتأتى كل ستة أشهر بغلام :

وبليتى عرس بليت بمقتها والبعل ممقوت بغير قيام
جعلت بإفلاسى وشيبى حجة إذ صرت لا خلفى ولا قدامى
بلغت من الكبر العتى ونكست فى الخلق وهى صبية الأرحام
إن زرتها فى العام يوما أنتجت وأتت لستة أشهر بغلام
أو هذه الأولاد جاءت كلها من فعل شيخ ليس بالقوام
وأظن أنهم لعظم بليتى حملت بهم لا شك فى الأحلام
أو كل ما حلمت به حملت به من لى بأن الناس غير نيام (٢)

(١) الديوان ص ١١٩ .
(٢) الديوان ص ٢٠٦ .

وإذا كان البوصيري قد ضاق بهذه الزوجة المشاكسة الولود فابن دانيال يضيق هو الآخر بزوجته الدميمة النكدة ، التي شكته ثم جاءت ومعها رسول الحكم ليأخذه إلى الحبس وفاء بحقها :

زوجة في النقار ديك ولكن لها في النساء صورة قرد
لكتني ببطن راحتها في ظهر خلقي وأصبحت تسعدي
طلبتني بالحق ، والحق إن صحف كانت فيه نكاية جلدي
ولعمري لو حاولت نقد أهل الغرب صكا لكنت أوفي بنقد
ثم جاءت برقعة الحبس عجلي برسول للحكم قناس جلد

ولا يملك الزوج المفلس إلا أن يأخذ في استعطاف زوجته ، أن تصبر عليه فهو شاعر وسوق الشعر كاسده ، وهو على استعداد أن يترك حرفة الأدب وينخرط في الجندية :

قلت لا تغضبي علي ولومي شؤم بختي وارعي حقوقي وودي
أنا إلا ذاك المكدي بالشعر وأين الكرام حتى أكدي
ولئن دام ذا الكساد على الشعر يقينا أقوم أصبح جندي (١)

وللوراق أبيات تشير إلى شكوى زوجته إلى أحد القضاة ويدعي بالرق مطالبة بحقها في الصداق ، وقد حاول الوراق أن يفلت ولكن الزوجة جبهته برق الصداق :

مذ أحضرتني زوجتي حاكما أنكرت ما قد كان من حق
فأخرجت رق صداق لها رد كلام للكل في حلقي
وكان ذاك الرق أصل البلا فلعنة الله على الرق (٢)

---

(١) التذكرة الصفدية ج ١٤ ص ١٠٠ ، ١٠١ .
(٢) فض الختام عن التورية والاستخدام ص ٢١٢ .

ولا ريب أن هذه الصور الساخرة استمدها الشعراء من واقع مجتمعهم ، ثم أضفوا عليها من روحهم الفكهة ، وحسهم الشعبي ، ما جعل لها هـذه الحيوية وهذا النبض ، وكأنا نراها تعيش بيننا .

وأما سوء الظن بالنساء فيبلغ مداه عند القيراطى ، إذ يراهن جميعا جبلن على النكران ، فوارك لا يركن إلى خليل ، وهن فى السخط هلاك مسلط على الزوج ، وفى الرضى فم مفتوح لا يشبع ، وانظر إليه ينصح صديقه كمـال الدين الدميرى ، ويحذره من النساء . :

فديتك لا تركن لنسوة عصرنـا ... فبرق الوفـا منهـن يا صاح خلب
وإن صـدن مولانا فهـن حبائل ... وقد يفلت الطير المصيد فيهـرب
وينجـو من الأشراك بعد وقوعه ... وإن عاد لا يرثى له حين ينشـب
وعيشك لا يرضى النساء معيشـة ... ولو أنهـا من جنة الخلد تجلب
وما زلن يكفرن العشير سجيـة ... وينكرن خيراً فيه سعي ومـدأب
وإن أحسن الدهـر امرؤ لحليلـة ... تقل لم أشاهد منك خيرا وتصخب
وإن قيـل منهـن الفقيهات فاتئد ... فما كان مصقول الترائب زينـب
وقبلك قـد جربتهـن فـلم أجد ... وحقك فيهن الـذى أتطلـب
تشاهدها فى حالة الغيظ مهلكـا ... وحـال الرضى لم يكفها منك مطلب
وما ذاك إلا أنهـن فـوارك ... يدير هواها عن ودادك لـولب

إلا أن القيراطى — مع ذلك — ما زال يحتفظ ببقية من الأمل فى أن يجد المرأة الصالحة ذات العقل والدين ، وذلك إذ يقول :

فياليت شعرى هـل ألاق حليلـة ... فلا أشتكى منهـا ولا أتعتـب
عـلى أن منهن الحليـلات زينـة ... ومن وجهها فى مطلع الشمس كوكب

ومنهن ذات العقل والدين والتى   لها شرف فى العالمين ومنصب (١)

وإذا كانت هذه صورة الزوجة كما عرضها أدب العصر ، وهى — كما ترى — صورة بالغة السوء . فماذا تكون عليه صورة زوج الأب ؟ لا ريب أنها أكثر سوءا ، ولا ريب أن هذا السوء ستغذيه مشاعر الكراهية والنفور من الأبناء ، فلا عجب إذا وقعنا على هذه الصورة التى يرسمها الجزار لزوج أبيه :

تزوج الشيخ أبى شيخة   ليس لها عقل ولا ذهن
لو برزت صورتها فى الدجى   ما جسرت تبصرها الجن
كأنها فى فرشها رمة   وشعرها من حولها قطن
وقائل : قل لى ما سنها   فقلت ما فى فمها سن (٢)

وفى أبيات أخرى يصفها بأنها قاتلة أبيه ، والعجيب بعد ذلك أن يوصى أبوه لها بالصداق وهى قاتلته :

أذابت كلى الشيخ تلك العجوز   وأردته أنفاسها المردية
وقد كان أوصى لها بالصداق   فما فى مصيبته تعزية
لأنى ما خلت أن القتيل   يوصى لقاتله بالدية (٣)

ذلك جانب من صورة المرأة زوجة رأيناه فى الأدب ، نعطف بعده إلى صورة الابنة ، وقد سبقت أبيات للوراق تشير إلى كراهة انجاب البنات ، ولكن ليس معنى ذلك أن الآباء كرهوا بناتهم ، فكراهة إنجاب البنات ربما كانت تصدر عن النظرة العامة للمرأة فى المجتمع ، أما أن يكره الأب ابنته بعد أن تدرج وتملأ عليه حياته فهذا ما ليس إليه سبيل ، وقد ترك الأدباء لنا

(١) الديوان ص ١١١ .
(٢) فوات الوفيات حـ ٤ ص ٢٩٢ .
(٣) فوات الوفيات حـ ٤ ص ٢٩٢ .

بعض آثار تبين تعلق الآباء ببناتهم ، وحبهن لهن ، ولا أدل على ذلك من هذه الأبيات التي يرثي بها شهاب الدين الحيمي صغيرته ، وهي تفيض بكثير من معاني اللوعة والأسى لفراق هذه الراحلة الصغيرة :

إني لأكـره أن أنـام فألتـقي بك في الكرى خوف الفراق الثاني

ويلـذ لي سكن الثرى إذ صرت ساكنة به ، والـدار بالسـكان

أصبحت جارتنـا الكريمـة إنما لم نحظ منك بـزورة الجـيران

وبعثت روحـك للجنـان فصار لي من أجل ذا شوقان للأوطـان

ويقول خالي القلب : تلك صغيرة لا تستحق أسى عـلى الفقـدان

يا صاح إن العين وهـي صغـيرة فضلت كبار جـوارح الإنسـان

والقلب يا هـذا عـلى صغر بـه مـأوى العلـوم ومـنزل الرحمن

وأبيـك إن أحق مفقـود بـأن تحـني الضلـوع لـه عـلى الأحـزان

ويعز فيه عند تخلفه العـزا من لم يسيء بيـد ولا بلسـان

لم تكتسب إثمـا بجارحـة ولم تملأ لها صدرا من الأضغـان (١)

أرأيت إلى هذا الأب وإلى مدى لوعته ؟ أرأيت إليه وقد كره النوم خوفا من أن يلقى طيف هذه الحبيبة ثم يعود مفارقا له ؟ ، أرأيت إليه يتشوق إلى الموت رغبة في لقاء صغيرته ؟ أرأيت أن صغرها كان يزيد في ألمه إذ يؤكد معاني الطهر والنقاء ؟ أتشك بعد ذلك أن هذا الأب كان يحب ابنته حبا جما ؟

وننفذ بعد ذلك إلى طرف آخر من صورة المرأة يتمثل في النظرة إليها محبوبة ، ولكن علينا أن نعرف أن التراث الأدبي أمد الأدباء بكثير من معانيه وأخيلتهم في هذا المجال ، ووضعهم فيما يشبه الإطار الـذي لا يكادون يخرجون عن سياجه إلا لماما ، بحيث لا تكاد تختلف صورة المحبوبة

---

(١) مسالك الأبصار جـ ١٢ ص ١٩٣ .

التي يقدمها لنا شعراء هذه الحقبة عن المحبوبة كما وردت في شعر القدماء من جاهليين وأمويين وعباسيين ، وهم في ذلك يستلهمون هذا التراث الضخم ، ويستمدونه مما يعبر عن أحاسيسهم ومشاعرهم ، إلا أننا مع ذلك لا نعدم أن نرى في ثنايا هذا الحشد من أغاني الغزل بعض ملامح العصر وسماته ، أو قل ذوق العصر في الحب ، ونظرته إلى الجمال ، وبعض ما طرأ على معايير هذا الجمال من تطور وتغيير .

وأول ما نلحظه هو ما كان لسوق النخاسة ، وما يقذف به كل يوم من جوار مختلفات الأجناس والألوان ، من أثر في صورة المحبوبة ، حيث كانت صورة الجارية الحسناء التي تتقن فن الحب هي المثال المستلهم في كثير من شعر الشعراء هذه الحقبة . فانظر مثلا إلى البهاء زهير يقدم لنا صورة هذه المحبوبة التي تتقن الغمز بالعين والحاجب :

أنا لا أبالي بالرقيب ولا بمنظــــره القبيــــح
غمــز الحواجب بيننــا أحلى من القول الصريح(١)

وانظر إليه يصور هذه الأخرى التي تتقن فن الرمز بالأنامل والعيون :

صب بأســرار الهــوى خوفا مــن الواشين رامــز
فأنامــل أبــدا تشــير وأعـين أبــدا تغامــز (٢)

واسمع له ثالثة يصف هذه المليحة التي تتقن فنون الاثارة ، من غناء مثير ومن حديث غنج :

وهيفــاء كمــا تهـوى تريـك القــد والخــدا
وتشجيــك بألحــان تذيـب الجلمـد الصلـدا

(١) الديوان ص ٥٧ .
(٢) الديوان ص ١٣٤ .

ولفظ يوجب الغسل على السامع والحدا (١)

وطبيعى أن مثل هذه الحسناء التى تتقن الغمز والرمز ، وتجيد فن الإثارة لا يمكن أن تكون إحدى الحرائر ، وليس من شك فى أن الشاعر استلهم صورتها من الجوارى اللائى امتلأت بهن القصور ، واكتظت بهن مجالس اللهو .

وأنت واقف فى أدب هذا العصر على كثير من أمثال هذه الصور وأنت واقع كذلك على كثير من أسماء الجوارى التى شاعت فى هذا العصر ، من مثل وردة ، وحدق ، وحكم الهوى ، ونسيم ، واشتياق ..

- فهذه «وردة» جارية مولدة تقع على اسمها فى شعر محيي الدين ابن عبد الظاهر إذ يقول :

بأبى دمية مولدة الحسن دعوها بوردة البستان

فى التصاوير مثلها ليس يلقى فيقولون وردة كالدهان(٢)

وأما «حدق» فهى صاحبة ابن فضل الله العمرى :

سكرت فى حب من أهوى معاطفه تطوى الضلوع على التبريح والحرق

قالوا فجد بدموع العين قلت لهم لا تسألوا ما جرى منها على حدق(٣)

وابن أبى حجلة يشكو من فرط صبابته بـ «حكم الهوى» :

حكم الهوى صدت فبت لأجل ذا ولهان من فرط الصبابة والجوى

يا عاذلى لا تلحنى فى حبها نفذ القضاء وهكذا حكم الهوى (٤)

(١) الديوان ص ٦٩ .
(٢) مطالع البدور جـ ١ ص ٢٦٢ .
(٣) مطالع البدور جـ ١ ص ٢٦٢ .
(٤) ديوان الصبابة ص ١١٤ .

ويحشد شاعر آخر بعضا من أسماء جوارى العصر فيقول :

إذا زار الحبيب على اشتياق   فقد زال العنا وقت الصباح
وان وافتك خمر مع نبيم   فقد دام السرور بالانشراح (١)

وتباينت النماذج التى تقذف بها أسواق النخاسة ، فمن سمراء إلى بيضاء ، ومن هندية إلى رومية إلى تركية ، وكان لذلك أثره فيما تقرأ من نتاج هذا العصر الأدبى ، فقد احتدمت المفاضلة بين محبى البيض ومحبى السمر ، ولكل منهم له ما يبرر ذوقه ، بل ربما مال الشاعر إلى جانب ثم عاد فمال إلى الآخر وليس فى هذا غرابة ، وليس فيه مجال للحكم عليه بالادعاء ، فالشاعر ملك لحظته ، وهو رهن بالموقف الذى امتلكه ، وبالصورة التى ملكت عليه فؤاده . ونضرب لذلك مثلا بالبهاء زهير ، فهو حينا يفضل السمر وينتصر لهن ، وحينا آخر يفضل البيض وينتصر لهن . فيقول فى تفضيل السمر :

السمر لا البيض هم   أولى بعشقى وأحق
وان تدبرت مقالى منصفا قلت : صدق
السمر فى لون اللمى   والبيض فى لون البهق (٢)

ويعود مرة أخرى فيفضل البيض :

ألا إن عندى عاشق السمر غالط   وأن الملاح البيض أبهى وأبهج
وإنى لأهوى كل بيضاء غادة   يضىء بها وجه وثغر مفلج
وحسبى أنى أتبع الحق فى الهوى   ولاشك أن الحق أبيض أبلج (٣)

وفتن بعض الناس بحب السود . ويقال إن الملك الصالح اسماعيل كان

(١) بدائع الزهور ص ١٥٦ .
(٢) الديوان ص ١٩٠ .
(٣) الديوان ص ٥٤ .

يميل إلى حب الجوارى الحبش ، وكان الشعراء يكثرون له فى هذا المعنى حتى قال بعضهم فى ذلك :

يكون الخال فى خد قبيح ... فيكسوه الملاحة والجمالا
فكيف يلام معشوق على من ... يراه كله فى العين خالا (١)

ويبدو أن الجمال التركى كانت له الغلبة فى المضمار ، ففتن الناس به ، ورأى الشعراء فى المرأة التركية صورة مثلى للجمال ، فكثر تغزلهم بالتركيات ، وإشادتهم بجمالهن ، ويصف محيي الدين بن عبد الظاهر إحداهن بوجهها الناصع وشعرها الفاحم ، وتبدو له كالملكة على كل ما فى الكون من مظاهر الجمال ، فالبدر لا يزيد على حامل لغاشية موكبها ، والنجوم ليست أكثر من حاشية لها ، وابن عبد الظاهر يستمد صورة مما يراه فى المواكب السلطانية ، وليس أنسب من أن تكون هذه المواكب مددا فى رسم صورة هذه الفاتنة التركية :

أنا فى حب مثلها لا أحاشى ... لا ولا أرتضى مقالة واشى
ظبية من بنات خاقان لكن ... شعرها منه قد رأينا النجاشى
غارت الشمس إذ رأتها نهارا ... لا ترى ظل شعرها لا تماشى
وإذا فى دجنة قد تبدت ... فلديها للبدر حمل الغواشى
أو تمشت فى الليل قلت تراها ... هى بدر له النجوم حواشى (٢)

ويستعير القيراطى معزفا قديما يعزف عليه هذا اللحن لطفلته التركية ، فيقول :

وطفلة من بنات الترك تاركة ... أخا الضنا لهواها غير تراك

---

(١) بدائع الزهور ص ١٥٦ .
(٢) ديوان ابن عبد الظاهر ص ٢٦ .

للقــان ينسب قــانى خـدها فلـذا تحت العصائب يبدو بين أتــــراك
مــالى ولم تــرع لى قلبــاً أقو ل لها (ليهنك اليــوم أن القلب مرعـاك)
وقفت قلبى فى محــراب حاجبهــا لما تهجد فيه طرف البــاكى (١)

وسادت معايير الجمال التركى ، فأصبح الوجه الأبيض والشعر الفاحم من تمام الجمال ، ولعلنا لحظنا ذلك فيما مر من أبيات ، كذلك صلوت العيــون الضيقة مثار فتنة الشعراء ، فيقول سيف الدين المشد :

أوقــع القلب فى أشد الوثـــاق ضيق العــين ضيق الأحداق (٢)

ويقول الوداعى :

وطــرف ضيـــق وبـــلاه مـــن طعنـــاته النجـــل(٣)

ويصور ابن نباته انبهار العذول بجمال هذه العيون الضيقة لدرجة كف فيها عن عذله فيقول :

بهت العذول وقــد رأى ألحاظهــا تركية تــدع الحليم سفيهــــــا
فثنى المــلام وقال دونك والأسى هذى مضايق لست أدخل فيها (٤)

على أن هناك نماذج أخرى من الجمال كانت ما تزال تشد الشعراء مــن حين لآخر ، فهناك الجمال البدوى ، وهناك الجمال المصرى ، فالوراق مثلا يشده جمال هذه الغادة البدوية الكحلاء ، فيفضلها على أهل الحضر ، وذلك فى قوله :

---

(١) الديوان ص ٣٦ .
(٢) الديوان ص ١٦ .
(٣) تأهيل الغريب ص ٢٧٩ . (النواجى)
(٤) الديوان ص ٥٤٥ .

ولى من البدو كحلاء الجفون بدت | فى قومها كمهاة بين آساد
بنت عليها المعالى من ذوائبها | بيتاً من الشعر لم يمدد بأوتاد
وأوقدت وجنتاها النار لا لقرى | لكن لأفئدة منا وأكباد
فلو بدت لحسان الحضر فمن لها | على الرءوس وقلن الفضل للبادى (١)

وكان ابن نباته فى كثير من شعره مشدودا إلى الجمال المصرى يشدو به ، ويعلى من شأنه ، واقرأ له قوله :

عطفت كأمثال القسى حواجبا | فرمت غداة البين قلباً واجبا
بلواحظ يرفعن جفنا كاسرا | فيثير فى الأحشاء شوقا ناصبا
ومعاطف كالماء تحت ذوائب | فاعجب لهن جوامدا وذوائبا
سود الغدائر قد تعقرب بعضها | ومن الأقارب ما يكون عقاربا
من كل ماردة الهوى مصرية | لم تخش من شهب الدموع ثواقبا
لم يكف أن شرعت رماح قدودها | حتى عقدن على الرماح عصائبا (٢)

وتحكى لنا كتب التاريخ أن المرأة فى هذا العصر أسرفت فى الزينة ، وبالغت فيما تبديه من فنونها ، حتى إن السلطة كانت تضطر بين الفنية والفينة إلى أمر النساء بلزوم بيوتهن ، أو وضع مقاييس محدده لما يرتدين من ثياب وعصائب . ففى سنة ٦٥٣ هـ أمر الملك عز الدين أيبك ألا تبرح امرأة بيتها ، وسجل أبو الحسين الجزار هذه الوقعة بقوله :

حنا الملك المعز على الرعايا | وألزمهم قوانين المروة
وصان حريمهم من كل عار | وألبسهم سراويل الفتوه (٣)

---

(١) تأهيل الغريب ص ٨٣ . (النواجى)
(٢) الديوان ص ٢٦ .
(٣) السلوك حـ ١ — ٢ ص ٣٩٧ —.

ويتحدث ابن تغرى بردى عن مبلغ اعتناء النساء بزينتهن فى عهد الناصر محمد ، فيصف ما كن يرتدين من طرح بلغ ثمن الواحدة عشرة آلاف دينار ، ويصور ما كن يتحلين به من خلاخيل ذهبية وأطواق مرصعة بالجواهر الثمينة(١)

ويقول ابن الإخوة مصورا إسراف النساء فى الزينة ، منكرا ما أحدثته من ملابس :

«والنساء فى هذا المقام أشد تهالكا من الرجال . ولهن محدثات من المنكر أخذنها كثرة الإرفاه والاتراف . وأهمل إنكارها حتى سرت فى الأوساط والأطراف ، فقد أحدثن الآن من الملابس ما لا يخطر للشيطان فى حساب ، وتلك لباس الشهرة التى لا يستتر منها إسبال مرط ولا أدنى جلباب ، ومن جملتها أنهن يعتصبن عصائب كأمثلة الأسنمة ، ويخرجن من جهارة أشكالها فى الصورة المعلمه» . (٢)

ويعطينا شعر هذه الحقبة إشارات خاطفة إلى هذه الزينة ، فالقيراطى مثلا يشير إلى حلى صاحبته ، ويشبهها وقد لبست عقودها بالغصن المثمر . وفى ذلك إيحاء بكثرة هذه الحلى :

قامت وقد لبست عقود حليهـــــا   فرأيت غصنا بالجواهر مثمـــرا(٣)

وابن نباته يشير فى تظرف إلى ما لصاحبته من الأساور والخواتم ، سالكا سبيل التورية :

دعونى فى حل من العيش مائســـا   ومرتقبا من بعده عفــو راحــم

---

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٩ — ص ١٧٦ .
(٣) معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ١٥٧ .
(٤) الديوان ص ٤٦ .

أمد إلى ذات الأساور مقلتى وأسأل للأعمال حسن الخواتم(١)

ويصف سيف الدين المشد خليخالا مما كان يتحلى به نساء عصره فيقول على لسان إحداهن :

ولى صديق أود صحبته أرق معنى من النسيم سرى
يرعى مغيبى وإن حضرت فما يزال يثنى على معتذرا
كتمته غيرة عليه وما أخاف منه الملال والغيرا (٢)

والشاعر يورى فى البيت الثانى بكلمة «يثنى» إذ يقصد انثناء الخليخال على الساق، وفى البيت الثالث يستخدم لفظ «كتمته» فيوحى بأكثر من معنى ؛ يوحى بامتلاء الساق ، كما يوحى بأن النساء كن يدنين الثياب حتى تحجب الخلاخيل .

واتخذ بعضهن المناديل المزينة التى نقشت عليها أبيات من الشعر ، فمما كان يكتب على المنديل قول بهاء الدين بن النحاس :

ضاع منى خصر الحبيب نحولا فلهذا أضحى عليه أدور
لطفت خرقتى ودقت فجلت عن نظير كما حكتها الخصور
أكتم السر عن رقيب لهذا بى يخفى دموعه المهجور (٣)

ويشير الشعراء إشارات خاطفة إلى بعض ما كان يفتن فيه نساء ذلك العصر من جعل شعورهن على هيئة خاصة ، فقد كان منهن من تفرق شعرها من فوق الجبين ، وتضفره عدة ضفائر واضعة بعضها فوق بعض ، ولعل فى قول الشاب الظريف إشارة لذلك :

---

(١) تأهيل الغريب ص ٢٠٢ . (النواجى)
(٢) الديوان ص ٦٧ .
(٣) فوات الوفيات ح٢ — ص ٢٩٦ .

زانت بطـرة شعرها المفـــروق فوق جبينها فى حسنها المجمـــوع
فعجبت من تلك الذوائب بعضها المحمـــول جاذب بعضها الموضـــوع (١)

وقد يرخى هذه الضفائر خلفهن ، كما يقول الشاب الظريف أيضا :

تــلاعب الشعـــر عـــلى ردفـــه أوقع قلبى فى العريض الطويل (٢)

وكان بعضهن يسدلن خصلا من الشعر على خدودهن تنساب هفهافة على غير نظام ، وإلى ذلك يشير سيف الدين المشدفى قوله :

يبلبـــل شعره عقـــلى إذا مـــا تبلبـــل حـــول صدغيـــه الحسان (٣)

وكان بعضهن يجعلن هذه الخصلات تستدير حول الخد على هيئة العقرب لذلك كثر حديث الشعراء عن الشعر المعقرب ، وعن عقارب الأصداغ التى تحمى ورد الخدود . يقول ابن النقيب :

فيـــا ورد الخـــدود حمتـــك عنّى عقارب صدغه فامـــن جناتك (٤)

وأشار الشعراء إلى ما كانت تتخذه المردة من خضاب مختلف الألوان ، فهذا ابن نباته يشير إلى خضاب صاحبته الأحمر :

خضبت بأحمـــر كالنضـــار معاصما كالماء فيهـــا رونـــق وصـــفاء
واهالهـــن معاصمـــاً مخضوبـــة سال النضار بها وقام المـــاء (٥)

ومرة أخرى يشير إلى خضاب أخضر :

---

(١) الديوان ص ٤٢ .
(٢) الديوان ص ٥٥ .
(٣) الديوان ص ٢٢ .
(٤) فوات الوفيات جـ ١ ص ٣٢٥ .
(٥) الديوان ص ١١ .

ولكنها مصرية ذات بهجـــــة   تتيـه بمرآهـا على غيرهـا مصر
سوالفهـا بيض وحمر خلودهـا   ذوائبهـا سود وأطرافها خضر(١)

وطبيعى أن تكون مثل هذه الإشارات سريعة خاطفة فى شعر الشعراء ، فشغل الشاعر الشاغل أن يعبر عن مواجده ، ومن ثم تكون مثل هذه الإشارات عرضية هامشية .

(١) الديوان ص ٢١ .

الفصل السابع

اللهو والمجون

١ — الصيد :

كان الصيد رياضة المماليك المفضلة ، وتسليتهم المحببة ، وكانت لمناطق معهودة من صعيد مصر وصحاريها وبراريها ، وكانت له — أيضا — مواسمه الموقوتة وأيامه المعروفة .

وحين يحل هذا الموعد الموقوت يخرج السلطان وكبار أمرائه فى موكب يبهر العيون ، يقصدون هذا المكان أو ذاك ، ومعهم عدة الصيد وآلته ، وهناك يضربون خيامهم ، ويقضون — ما شاء لهم الهوى ، وما انبسطت لهم المتعة — وقتا قد يطول وقد يقصر ، يصيدون الطير ، ويقنصون الوحش ، حتى إذا زهدت أنفسهم اللهو ، ومجت المتعة ، عاد موكبهم يزهو بما معه من ألوان الطير وصنوف الوحش .

وكان المماليك ينظرون إلى الصيد على أنه رياضة نبيلة تسمو بالنفس ، وتهذب الخلق ، ويرون أنه العمل الذى يليق بهم فى السلم إذا توقف عملهم فى ميدان القتال .

يقول تاج الدين البارنبارى فى رسالة يصف رحلة صيد للسلطان قلاوون

وفان فى ابتغاء النصر ملاذا تدركها كل ذات شرفت ، وتملكها السجايا التى تعارفت بالفخار واتلفت ، وتنالها النفوس التى مالت إلى العز ، وإلى

تلقائه صرفت ، ومنشؤها من حالتين : إما فى موقف عز عندما تلمع بروق الصفاح ، وتشيب من هول الحرب رءوس الرماح ، وتسرح جوارح النبال لتحل فى الجوارح ، وتصيد فى الأرواح ، وإما فى موطن سلم عندما تنبسط النفوس إلى امتطاء صهوات الجياد فى الأمن والدعة» . (١)

فالبارنبارى يقرن بين الصيد والحرب ، ويرى أن كليهما مبعثه شرف النفس ، ونبل السجايا .

على أن هذه الرسالة التى كتبها البارنبارى تعطينا — فضلا عن ذلك — صورة كاملة لرحلة صيد قلاوون ، وهذه بدروها توحى بما كان عليه الأمر فى سائر رحلات الصيد إذ ذاك .

فهى مثلا تشير إلى وقت الصيد الذى كان يخرج فيه قلاوون ، وإلى موكبه ، وإلى خروج الدهليز السلطانى حيث يمد ، وتحيط به خيام الأمراء :

«فيرسم — خلد الله سلطانه — فى الوقت الذى يرسم به من مشتى كل عام بإخراج الدهليز المنصور ، فينصب فى بر الجيزة بسفح الهرم ، فى ساعة مباركة ، آخذه فى إقبال الجود والكرم ، فتمد بالتأييد أطنابه ، وترفع على عمد النصر قبابه ، ويحاط بحراسة الملائكة الكرام رحابه ، وتضرب خيام الأمراء حوله وطاقا ، وتحف به مثل النجوم بالبدر إشراقا» . (٢)

ويصور البارنبارى ألوان الصيد ، وعدة كل لون وآلته ، فهناك صيد

---

(١) صبح الأعشى — ١٣ — ص ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٢) صبح الأعشى — ١٤ ص ١٦٦ .

الطير وأدواته الصقور والبزاة ، وهناك صيد الوحش وأداته الخيل والفهود والحوامى أى كلاب الصيد .

ويبدأ فيصف البزاة والصقور ، فهذا صقر متوقد العين ، كريم العنصر مدرب ، يحملونه على الأكف إيذانا بانطلاقه ، وهذا باز أشهب مفضض الصدر ، ذو منسر حاد أقنى ، ومخلب كأنه نصل السيف :

«وأعدت للصيد بزاته وصقوره ، من كل متوقد اللحظ من الشهامة ، محمول على الراحات من فرط الكرامة ، يتوسم فيه النجاح ، قبل خفض الجناح ، ويخرج من جو السماء ولا حرج ولا جناح ، وبازها الأشهب يجيء بالظفر ويذهب ، بصدر مفضض ، وناظر مذهب ، له منسر أقنى ، طالما أغنى ، كأنما هو شبا السنان ، وقد حباه الكماة طعنا

وصارم فى يديك منصلت	إن كان للسيف فى الوغى روح
متقد اللحظ من شهامته	فالجو من ناظريه مجروح

قد راش من النجح جناحه ، وقرن الله باليمن غدوه ورواحه ، ونصره فى حربه ، حيث جعل منسره رمحه ، ومخلبه صفاحه» . (١)

وتمضى الرسالة فتصور عملية الصيد ، ها نحن فى غبش السحر ، والطيور فى غفلة عما يراد بها ، لاهية فى التقاط الحب ، بينما السلطان يرقبها عن كثب ويهيء ذلك الباز الأشهب للانطلاق : وفى لحظة يصدر الأمر للأمراء الذين التفوا حول الطير بخفق الطبول ، فتذعر الطير ، وتحلق ، وينطلق النسر فى إثرها ، ينشب فيها مخالبه ، ويسد عليها سبل النجاة . يقول البارنبارى :

(١) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

«ويخرج (أى النسر) فى إغباش السحر ، وعليه سواد ، فيهابه الصادح فى الجو والباغم فى الواد ، ويأمر — خلد الله سلطانه — أمراءه فيضربون على الطير حلقة وهى لاهية فى التقاط حبها ، غافلة عما يراد بها ، فيذعرونها بخفق الطبول وضربها ، ومولانا السلطان — خلد الله ملكه — لنافرها مترقب ، ولطائرها بالجارح معقب ، فما يدنو الكركى مقرورا حتى يؤوب مقهورا ، ساقطا من سمائه إلى أرضه ، ومن سعته إلى قبضه ، فسبحان من خلق كل جنس وقهر بعضه ببعضه ، هذا والجارح قد أنشب فيه مخالبه ، وسد عليه سبله فى جو السماء ومذاهبه» . (١)

وينتقل البارنبارى إلى صيد الوحش ، فيصف ما أعد لذلك من خيل وفهود وحوامى : هذا فرس أحمر كأنه صبغ بالدم ، كريم العرق ، ينحدر كالصخر :

«ومن أحمر : كأنما صبغ بدماء الأعداء أديمه ، وكأنما هو شقيق الشقيق وقسيمه ، كرمت غرره وحجوله ، وحسنت أعراقه وذيوله ، مكر مفر كجلمود صخر حطته من على سيوله ، حكى لونه محمر الرحيق ، وله كل يوم ظفر جديد مع أنه عتيق» . (٢)

وهذا فرس أدهم غرته بيضاء كأنها صبح فى دجاه الحالك ، أو كأنها كوكب تخلف من الليل :

«ومن أدهم : مدرك كالليل ، منصب كالسيل ، كريم الناصية ، جواب قاصية ، كأن غرته صبح تنفس فى الدجى الحالك ، وكأنه من الليل باق بين

---

(١) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ١٦٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٦٩ .

عينيه كوكب» . (١)

وتنطلق الخيل ، وعلى أثرها الفهود ، سوداء كأن الليل تفرق فى أهبها ، حادة الناب والظفر ، قوية الوثبات ، شديدة البطش بالوحوش :

«وتليها الفهود الحسن منظرها ، الجميل ظفرها ، الكاسب نابها وظفرها تفرق الليل فى أهبها المجتمعة ، وأدركت العواصم فى هضابها المرتفعة ، وجوهها كوجوه الليوث المخادرة ، ووثباتها على الطريدة وثبات الفئة المؤمنة على الكافرة ، مقلصة الخواصر ، عزماتها على الوحش حواصر» . (٢)

ثم تليها الحوامى المدربة ضامرة الخواصر ، واسعة الوثبات . حادة الأنياب ، مفتولة السواعد :

«ثم الحوامى المعلمة ، والضوارى التى أضحت بالنجح متوسمة ، ما منها إلا طاوى الخاصرة ، وثباته طائلة غير قاصرة ، بنيوب كالأسنة ، وساعدين مفتولين تسبق بهما ذوات الأعنة» . (٣)

ثم تبدأ المعركة . فتجول الخيل ، وتصول الحوامى ، وتقنص الفهود ، بينما الوحوش تضطرب ذعرا ، وقد حيل بينها وبين الخلاص :

«وعندما تلتق حلقة العساكر ، يلحقها — خلد الله سلطانه — ومعه الجوارح الصائدة ، والحوامى الصائلة ، والأسهم النافذة ، والفهود الآخذة ، فتموج الوحش ذعرا ، وترى مسالكها قد سدت عليها سهلا ووعرا ، وضرب دون نجاتها بسور من الجياد والفرسان ، وحيل بينها وبين خلاصها بنبال وخرصان (٤).

---

(١) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ١٦٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٠ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٧١ .

والحقيقة أن رسالة البانبارى أعطتنا صورة حية مفصلة لرحلات الصيد وآلاته وأساليبه . وهى صورة تمثل لنا بوضوح هذا الجانب من حياة المماليك .

على أن من رحلات الصيد هذه ، ما كان يستخدم فيها البندق عوضا عن البزاة والصقور والخيل والفهود ، وأظن هذا اللون من الرحلات كان يتميز بالبرعة والقصر ، يخرج اليه قلة من الأمراء ، وقد لا يطول بهم المقام إلا يوما أو بعض يوم ، وكل ما معهم من آلة الصيد هى القسى والبندق . وكانت الرسائل التى تصف هذه الرحلات تسمى «قدمات البندق» على حد قول القلقشندى . (١)

وربما يحسن هنا أن نعرض لواحدة من هذه الرسائل لتكتمل لنا صورة عن فنون الصيد وأساليبه ، وللشهاب محمود رسالة فى صيد البندق يبدؤها محدثا عن شرف رياضة الصيد ونبلها ، ثم يعطف إلى وصف الأمراء الذين خرجوا للصيد ومعهم قسيهم وبندقهم ، فيحدثنا عن هذه الآلات ما شاء له خياله ، وما أمدته فنون القول :

«ومعهم قسى كالغصون فى لطافتها ولينها ، والأهلة فى نحافتها وتكوينها والأزاهر فى ترافتها وتلوينها ، بطونها مدبجة ، ومتونها مدرجة ، كأنها كواكب الشولة فى أعطافها ، أو أرواق الظباء فى التفافها ، لأوتارها عند القوادم أوتار ، ولبنادقها الحواصل أوكار ، إذا انتضيت لصيد ذهب من الحياة نصيبه ، وان انتصبت لرمى بغا لها أنها أحق ممن يصيبه ، ولعل ذلك الصوت زجر لبندقها أن يبطىء فى سيره ، أو يتخطى الغرض إلى غيره ، أو وحشة لمفارقة أفلاذ كبدها ، أو أسف على خروج بنيها من يدها ، على أنها

---

(١) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٨٢ .

طالما نبذت بنيها بالعراء ، وشفعت لخصمها التحذير بالاغراء :

مثل العقارب أذنابا معقـــــدة لمـن تأملهـا أو حقـق النظـــرا
إن مدهـا قمـــر منهـم وعاينـه مسافر الطير فيها أو نـوى سفـــرا
فهو المسىء اختيارا إذ نوى سفـرا وقد رأى طالعا فى العقرب القمرا

ومن البنادق كرات متفقة السرد ، متحدة العكس والطرد ، كأنماخرطت من المندل الرطب ، أو عجنت من العنبر الورد ، تسرى كالشهب فى الظلام وتسبق إلى مقاتل الطير مسددات السهام» . (١)

وبعد أن يرضى الشهاب محمود ذوقه البديعى فى وصف القسى والبنادق، مستقصيا فى ذلك إمكانات الألفاظ ، وما يولده التلاعب بها من صور مستمدة فى جملتها من موروثه الأدبى ، يأخذ فى وصف عملية الصيد ، ها هى عصابة من طير مختلف أجناسه ، يحثها القدر إلى مصرعها ، وها هم الأمراء كل فى مكانه متحفز مستوفز ، وها هو سهم الأمير الأول ينطلق فيهوى بطائر من طيور التمام أبيض الريش أسود المنقار ، طويل العنق ، سريع اللفتات،وحين سقوطه يهلل الجمع مكبرين :

«فسرت علينا من الطير عصابة ، أظلتها من أجنحتها سحابة ، من كـل طائر أقلع يرتاد مرتعا ، فوجد ولكن مصرعا ، وأسف يبتغى ماء جما،فوجد ولكن السم منقعا ، وحلق فى الفضاء يبغى ملعبا فبات هو وأشياعه سجدا لمحاريب القسى وركعا ، فتبركنا بذلك الوجه الجميل ، وتداركنا أوائل ذلك القبيل . فاستقبل أولنا تمام بدره ، وعظم فى نوعه وقدره ، كأنه برق كرع

(١) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ .

فى غسق ، أو صبح عطف على بقية الدجى عطف نسق ، تحسبه فى أسداف الدجى غرة نجح ، وتخاله تحت أذيال الدجى طرة صبح ، عليه من البياض حلة ووقار ، وله كدهن عنبر فوق منقار من قار ، له عنق ظليم ، والتفاتة ريم ، وسرى غيم يصرفه نسيم :

كلــون المشيب وعصر الشــباب ووقت الوصــال ويــوم الظفــر
كـأن الدجــى غــار مــن لونــه فأمســك منقــاره ثم فـــــر

فأرسل إليه عن الهلال نجما ، فسقط منه ما كبر بما صغر حجما ، فاستبشر بنجاحه ، وكبر عند صياحه ، وحصله من وسط الماء بجناحه» . (١)

وتتهاوى الطيور واحدا إثر آخر . فهذا «كى» تقارنه «إوزه» ، تتلوها «لغلغة» ، وفى إثرها «أنيسه» ، ومنها ما هو سريع النفار كالكركى . لذلك فهو محتاج من صائده إلى الحذر والحيطة ، والا فر منه . انظر إلى هذا الأمير كيف صنع :

«فوجد التاسع قد مر به كركى طويل الشفار ، سريع النفار ، شهى الفراق ، كثير الاغتراب ، يشتو بمصر ، ويصيف بالعراق ، لقوادمه فى الجو حفيف ، ولأديمه لون السماء طرأ عليها غيم خفيف ، تحن إلى صوته الجوارح ، وتعجب من قوته الرياح البوارح ، له أثر حمرة فى رأسه كوميض جمر تحت رماد ، أو بقية جرح تحت ضماد ، أو فص عقيق سفت عنه بقايا ثماد ، ذو منقار كسنان ، وعنق كعنان كأنما ينوس على عودين من آبنوس :

اذا بــدا فى أفــق مقلعــــا والجــو كالمــاء تفاويفــه
حسبتــه فى لجــة مركبــا رجــلاه فى الأفــق مجاديفــه

---

(١) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٢٩٣ .

فصبر له حتى جازه مجليا ، وعطف عليه مصليا ، فخر مضرجا بدمه ، وسقط مشرفا على عدمه ، وطالما أفلت لدى الكواسر من أظفار المنون ، وأصابه القدر بحبة من حمأ مسنون ، فكثر التكبير من أجله،وحمله على وجه الماء برجله» . (١)

وامتزجت رسائل الكتاب بأشعارهم كما رأينا فى صنيع الشهاب محمود ، أما ابن الصائغ الحنفى فيجعل من رسالته النثرية فى وصف البندق تمهيدا لأبياته التى تفيدنا فى معرفة ألوان الطير التى كان يصيدها الأمراء وسماتها . يقول :

فتارة كنت أصيد النسرا ... وبعده العقاب يحكى الجمرا
والكى والكركى صدت جهرا ... وصدت غرنوقا وعنزا قهرا
وكنت بالإوز فى انشراح

وتارة تما كبدر التم ... تتبعه أنيسة كالنجم
ولغلغ أسود مسك الهم ... وحبرح عن الرماة محمى
والضوع مع سبيطر سياح

وكم وكم قد صدت يوما مرزما ... أنزلته بالقوس من جو السما
جناحه يحكى طرازا معلما ... على بياض شية شبه الدما
كأنه ليل على صباح

حيث الصبا تشفع بالقبول ... وشملنا بجمع بالشمول
فى مجلس ليس به فضولى ... وجاءنا التوقيع فى الوصول
فسادكم يغفر بالصلاح (٢)

---

(١) صبح الأعشى ح ١٤ ص ٢٩٧ .
(٢) صبح الأعشى ح ١٤ ص ٢٨٧ .

ويورى الشاعر فى مخمسته الأخيرة فى كلمة «الوصول» فهو يقصد إيصالات الهبات ، وكذلك فى كلمة الصلاح إذ يقصد صلاح الدين المحيوى صاحب رحلة الصيد .

وربما كان نصيب الشعر المملوكى فى التعبير عن هذا الجانب قليلا ، فالصيد — كما رأينا — رياضة المماليك ، وهم الطبقة الأرستقراطية المنعزلة عن الشعب ، والشعراء على هذا العهد ارتباطهم بطبقات الشعب أكثر ، ومع ذلك فقد أسهم الشعراء الذين شاركوا فى بعض رحلات الصيد هذه ، بنصيب فى وصفها ، وقد وقعنا على بعض أبيات لسراج الدين الوراق يصف فيها رحلة صيد للملك الصالح علاء الدين يقول فيها :

عزمة صح فألها بالنجاح ... بين ذى مخلب وذات جناح
من فهود ومن صقور حداها ... يمنها فى غدوها والرواح
أرسلتها سعادة الملك الصالح فاستقبلت وجوه الصلاح
ملك ضرج الثرى بدماء ... حملت رنكها خدود الملاح
كل يوم من صيده عيد نحر ... فى وحوش وفى عدى كالأضاحى(١)

هذا جانب من جوانب اللهو فى مجتمع مصر المملوكية ، ولكنه — كما رأينا — لهو قاصر على طبقة المماليك ، لم يكد يشاركهم فيه سواهم .

٢ — المناقرة والمناطحة :

شاعت ألوان أخرى من اللهو فى مصر المملوكية منها لعب الحمام ، ومناقرة الديوك ، ومناطحة الكباش والثيران ، وعرف عن بعض سلاطين المماليك أنه أغرم بلعب الحمام . وكثر تهكم الشعراء به لذلك . وقد سبق أن

---

(١) منتخب الوراق ص ٢٧٥ .

أوردنا بعض شعرهم فى هذا المجال .

أما مناقرة الديوك ، ومناطحة الكباش فتصورها لنا بابة ابن دانيال «المتيم والضائع اليتيم» .

وفى هذه البابة يعرض ابن دانيال صورا من هذه الملاهى التى دارت بين المتيم واليتيم ، ويبدآن بمناقرة الديوك ، وكل منهما أعد ديكه للنقار ، أعد المتيم ديكه «أبو العرف صباح» وأعد اليتيم ديكه «صباح» ، ويشرع المتيم فى الإشادة بديكه قائلا :

ديـكى صبـاح مـن الجنـود　　حـذار مـن بأسـه الشـديد
إن كـان منقـاره (قصـيرا)　　فـإن كفيـه مـن حديـد (١)
كأنمـا عرفـه عقيـق　　يـرى عـلى وردة الخـدود
لـه إذا هاجـه نقـار　　مـن خصمـه وثبـة الأسود(٢)

ويجيب اليتيم هو الآخر مشيدا بديكه .

ويبدو أن عشاق هذا اللون من اللهو كانوا يسرفون فى العناية بتلك الديوك ، فيكسونها بالحرير ، ويزينونها بألوان من الحلى ، ونستشف ذلك من قول المتيم فى وصف ديكه :

أهـلا وسهلا بطلعـة الديـك　　كأنـه عـروة الصعاليـك
أتى بتـاج كأنـه مـلك　　بين دجـاج مثـل المماليـك
بطيلسـان مثـل الحريـر مـع التـبر عـلى منكبيـه محبـوك
رأيتـه إذ يسـير مـن تيهـه　　كأنـه الصالـح بـن رزيك (٣)

---

(١) فى نشرة حمادة « منقاره قطارا » وهى مصحفة .
(٢) خيال الظل ص ٢٤١ .
(٣) خيال الظل ص ٢٤١ .

ونستشف أيضا من هذه البابة طبيعة هذه المناقرة ، وكيفية الظفر فيها ، يقول ابن دانيال على لسان «زبهون» أحد شخوص البابة :

«وأحسن ما تفرج عليه السوقة والملوك ، مناقرة الديوك ، لأنها مناصلة ومناضلة ، ومقاومة ومنازلة ، وهذان الديكان قد وقفا للاصطدام، وأصرا على الإقدام ، فمن هرب من النقار ، والتجأ إلى الفرار ، وجب عليه ما تقرر وليس بعار إذا عاد المغلوب وتكور» . (١)

وربما على هذا النسق كانت تسير مناطحة الكباش والثيران ، يقول المتيم بعد أن هزم ديكه :

«ولئن هرب ديكي من صياح ، فدونك كبشي للنطاح ، وكل لاعب يعرف كبشي كأنه الأسد الوحشي ، يكاد ينطح البروج ، ويهدم بقرنيه سد يأجوج ومأجوج» . (٢)

وتبدأ المناطحة فيشيد كل منهما بقوة كبشه ، وجمال منظره ، ويشير إلى إلى موطنه ، ومن الطريف أن تأتى أم اليتيم فتبخر خروف ابنها من الحسد قبل اللقاء . وربما كان فى ذلك إشارة إلى بعض ما يصاحب مثل هذه المناطحات من مراسم وعادات .

٣ — النرد والشطرنج :

شاعت هاتان اللعبتان فى المجتمع المصرى آنذاك ، وأقبل عليهما العامة والخاصة ، وكان لهما من الاغراء ما لهما الآن فى مجتمعنا المعاصر .

وكان للعبتين مكانهما فى عالم الأدب فاستحوذتا على حيز فى أشعار

---

(١) خيال الظل ص ٢٤٢ .
(٢) خيال الظل ص ٢٤٢ .

الشعراء ، وفى أبيات لسيف الدين المشد نراه يصم اللائم فى لعبة «النرد» بالجهل ويمضى فيصف هذه اللعبة وصف خبير ، وكأنه أراد أن يجعل أبياته دليلا للاعبين . يقول :

ولائم فى الفصوص وافى　　يسب نقاشها بجهل
أجبته خل عنك هذا　　وامح أذاها بحسن نقل
وصانع الخصم إذ تراه　　مستظهرا دائما بخصل
فالنرد صيغت لذى احتياط　　مهذب الرأى رب فضل
فكم كوى «اليك» قلب غال　　ودود «الدو» فؤاد فحل
وسوس «الساء» كل عظم　　وجار «جار» بغير عدل
وبنج «البنج» من تراه　　وشوش «الشيش» كل عقل (١)

أما ابن دانيال فيصف إغراء هذه اللعبة ، وكيف أنها تلهى الإنسان عن كل شىء ، حتى عن أداء الفروض الدينية من صوم وصلاة ، وذلك إذ يقول

و «للبنج» فعل البنج فى اللب مابدا　　وألهاك عن صوم الفريضة والفطر
وكالخال نقش «اليك» يسبيك لونه　　فأنت به صب الفؤاد مدى الدهر
تروقك من شفع ووتر نقوشها　　وتلهيك مالاحت عن الشفع والوتر (٢)

وحظيت لعبة «الشطرنج» ببعض المقطعات الشعرية فى وصفها وبيان فنها ، فبدر الدين بن الصاحب يصف مهارته فى هذه اللعبة حتى إنه أتقن حفظها ، وصار بإمكانه أن يلعبها دونما نظر إلى رقعتها :

لى من الشطرنج علم　　أتقن الإدمان حفظه

---

(١) ديوان المشد ص ٥٥ .
(٢) التذكرة الصفدية جـ ١٤ ص ٩٨ .

ألعب الغائب منها فأراه طبق يقظه(١)

ويرى أنها لعبة أهل العقل والفكر ، وإن كان ينكر ما يراه من سلوك لاعبيها :

أميل لشطرنج أهل النهى وأسلوه من ناقل الباطل
وكم لى أهذب لعابها ويأبى الطباع على الناقل (٢)

أما ابن نباته فيرى فى رقعة الشطرنج ميدانا لإجالة الفكر ، فهى حديقة زاخرة بالجنى . وذلك إذ يقول :

لله فى الشطرنج فكرة لاعب إن غاب أو حضر اجتنيت حدائقه
شكرته نفس اللعب أو نفس النهى هاتيك صامتة وهذى ناطقة (٣)

ويشير ابن الصائغ الحنفى إلى شىء من فنون هذه اللعبة فى قوله :

لعبت فى الشطرنج فى غاية تقصر الأوصاف عن حدها
إن صاح فى الأقران لى بيدق تموت منه الشاة فى جلدها (٤)

وفى قول آخر ينزع إلى التأمل فيرى فى لعبة الشطرنج شبها من الدنيا ، التى يتعاور منها على الإنسان ليل ونهار ، وبؤس ونعيم ، وتفنى فى النهاية ولا يبقى إلا الخالق . وذلك إذ يقول :

تأمل ترالشطرنج كالدهر دولة نهارا وليلا ثم بؤسا وأنعما
محركها باق وتفنى جميعها وبعد الفنا تحيا وتبعث أعظما (٥)

---

(١) الدرر الكامنة حـ ١ ص ٢٦٤ .
(٢) الدرر الكامنة حـ ١ ص ٢٦٥ .
(٣) سلوك السنن فى وصف السكن لوحه ٢٤ .
(٤) خزانة الأدب لابن حجة ص ٣٩٦ —.
(٥) خزانة الأدب لابن حجة ص ٣٩٦ .

٤ — الألغاز والأحاجي :

وتمثل الألغاز والأحاجي لونا من التلهية شغف به الناس بعامة ، والمتأدبون بخاصة ، وقلما نجد شاعرا لم يضرب فى هذا اللون بسهم ، ولا شك أن هذا اللون لقى رواجا بين طبقات الشعب ، فالإنسان مفتون بهذا اللون فى كل العصور . (١) وما لنا نبعد وحياتنا المعاصرة تشهد بذلك ، فهذه صحفنا اليومية تخصص كل منها مكانا للكلمات المتقاطعة ، وهذه وسائل إعلامنا تستعين بـ «الفوازير» لتستقطب جمهورها ، وليس كل أولئك إلا ألوانا من الإلغاز شبيهة بما نراه من ألغاز وأحاجى هذه الحقبة التى نتصدى لها بالدراسة .

وقد يكون شغف الإنسان باللغز مجرد تلهية وقتل للفراغ ، وقد يكون له أساس وجدانى فى نفس الإنسان من رغبة فى الانتصار على المجهول ، واستكناه الأسرار الغامضة ، هذا بالإضافة إلى دور اللغز التعليمى ، ولا ريب أن هذه الألغاز أسهمت فى نشر بعض معارف هذا العصر بين جماهير الناس .

وألغز شعراء هذه الحقبة فى كل ما تقع عليه العين أو تدركه الحواس ، وامتدت هذه الألغاز إلى المسائل العلمية من نحو وفقه ، وعروض إلى آخر ذلك من معارف العصر .

وحملت الرسائل بين الأدباء وأهل الظرف كثيرا من هذه الألغاز ، ولإظهار المقدرة والبراعة كان بعض الأدباء يجيب عن اللغز شعرا ، ونورد هنا طرفا من هذه الألغاز محاولين التعرف على هذا الجانب من جوانب التلهية . يقول سيف الدين المشد ملغزا فى كلمة «فرح» :

---

(١) أنظر د . سهير القلماوى . ألف ليلة وليلة ص ٢٩١ .

ما اسم اذا ما فتحت آخره أصبح فعلا مقلوبه حرف
وهو حبيب لمن تأمله وليس فيما شرحته خلف (١)

فنحن نراه يدور حول حروف كلمة «فرح» وما تعطيه من معان تختلف باختلاف حركاتها ، وتختلف إذا قرئت طردا عنها إذا قرئت عكسا .

ويستغل الملغز كذلك ما يعطيه اللفظ من معان مختلفة ، وما يوحى به من دلالات متباينة ، وما يوجد بين استخدامه الفصيح واستخدامه العامى من فروق ، ومثال ذلك ما نجده فى لغز محيى الدين بن عبد الظاهر فى «كوز» :

وذى أذن بلا سمع له قلب بلا قلب
إذا استولى على حب فقل ما شئت فى الصب (٢)

فهو يستغل ما تعطيه كلمات الأذن والحب والصب من معان متباينة ، فيقصد أذن الكوز لا أذن الانسان ولذلك يصفها بأنها بلا سمع ، ويقصد بالحب الزير كما اصطلح على ذلك العامة بينما الذهن يذهب إلى العاشق ، ويقصد بالصب عملية صب المياه لا ما يتبادر إلى الذهن من وصف العاشق .

وأحيانا يدور الملغز حول صفات الشىء الذى يلغز فيه آتيا بدلالات غير ما تعارف عليه الناس ، مثال ذلك ما نجده فى قول العزازى ملغزا فى رمح :

ما عجوز كبيرة بلغت عمراً طويلا وتبتغيها الرجال
قد علا جسمها صفار ولم تشك سقاماً ولو عراها هزال
ولها فى البنين قدر وسهم وبنوها كبار قدر نبال (٣)

فالعجوز المعمرة يزهد فيها الرجال بينما يصفها الشاعر بعكس ذلك ،

(١) الديوان ص ٥٢ .
(٢) خزانة الأدب ص ٤٨١ .
(٣) شذرات الذهب جـ ٦ ص ٢١ ، ٢٢ .

والاصفرار والهزال دليلا المرض والسقم ولكن الشاعر جعلها دليلين على الصحة ، ومع ذلك فالشاعر يضع المفاتيح لمغاليق هذا اللغز من ذكره للسهم والنبال فى البيت الثالث .

ويستغل كل هذه الألوان برهان الدين القيراطى إذ يقول ملغزا فى باذهنج دائرا حول أوصافه ، ملبساً فى ألفاظه مستغلا إمكاناتها المختلفة ، مبعثرا مفاتيح لغزه خلال أبياته :

أهواؤنـــا المختلفـــة   قـد أصبحـت مؤتلفـه
فى شـــامخ بأنفـــه   علـى العـوالى أنفـه
وذى جنـــاح لم يطـــر   وكـل طـير ألفـه
جناحـه طـول المـدى   يبـدى علينـا رفرفـه
فى الريـح ضـاع قول من   علـى هـواه عنفـه
عليلـه الصحيـح كـم   شـفى قلوبـا دنفـه
وروحـه لطيفـة   وذاتـه منحرفـه
عـن قبـلة الديـن أرى   حـب الهوى قـد صرفه
ولم تكـن مـع الهـوى   أعطافـه منعطفـه
هـواه تحـت طوعـه   كيف يشـاء صرفـه
مـا زال غـير شاكـر   ساكنـه مـذ ألفـه
وكلمـا أسـرف فى   بـذل شكرنـا سرفـه
أنفاسـه كـم أودعت   مجلسنـا تلطفـه
كم رنحـت مـن غصـن   وقامـة مهفهفـه
معتلـه هـو الصحيـح عنـد مـن قـد عرفه(١)

(١) خزانة الأدب لابن حجة ص ٤٨١ ، ٤٨٢ .

وعلى مثل هذه الشاكلة سار هذا اللون من ألوان التلهية الذهنية ، التى رأى فيها الناس شحذا لملكاتهم الفكرية ، وتدريبا لها على غامض الأمـــور فضلا عما يتيح لهم ذلك من قتل الفراغ ، وإضاعة الوقت .

٥ — المجــون :

سرت فى المجتمع المصرى فى هذه الحقبة موجة من الخلاعة الماجنة ، وتفشى عديد من الأمراض الخلقية ، وتجاهر الخلاع بالمنكرات ، الأمر الذى كان يضطر الحكام من حين إلى آخر أن يفرضوا عقابا صارما على هذه الفئات المنساقة وراء الهوى والرغبة .

وقد وصل الأمر بالسلطان الظاهر بيبرس إلى أن يصلب واحدا من شاربى الخمر يدعى بابن الكازرونى ليكون عبرة لغيره ، كما أصدر أوامره بالنهى عن شرب الخمر والحشيشة وتعقب من يفعل ذلك ، وكان هذا التشدد مـن بيبرس مثارا لتعليقات الشعراء ، فمنهم الراضى عن هذا الصنيع ، ومنهـم الذى يتهكم فى خبث ، فناصر الدين بن المنير يبارك صنع بيبرس ، ويرى أنه أوصد باب مصر فى وجه إبليس ، وذلك إذ يقول :

ليس لإبليس عندنـــا طمـــــع   غـير بـــلاد الأمـير مرعـــاه
منعتــه الخمــر والحشيش معـــا   أحرمتــه مــــاءه ومرعاه (١)

وإلى مثل ذلك يذهب ناصر الدين بن النقيب فى قوله :

منــع الظاهــر الحشيش مــع الخمــر فــولى إبليس من مصر يسـعى
قــال مــالى وللمقــام بــأرض   لم أمتــع فيهـا بماء ومرعى (٢)

---

(١) فوات الوفيات حـ ١ ص ٢٤٥ .
(٢) المصدر نفسه حـ ١ ص ٢٤٥ .

ونحس الخبث فى قول ابن دانيال معقبا على صلب الكازرونى :

لقد كان حد السكر من قبل صلبه خفيف الأذى إذ كان فى شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبى ألا تب فإن الحد قد جاوز الحدا (١)

فكأن ابن دانيال يرى أن عقاب بيبرس لابن الكازرونى قد جاوز ما قضى به الشرع .

ومثلما تشدد بيبرس تشدد حسام الدين لاجين مما يدل على استشراء هذه الموجه من الخلاعة ، ويسجل ابن دانيال صنيع لاجين بقوله :

احذر نديمى أن تذوق المسكرا أو أن تحاول قط أمرا منكرا
لا تشرب الصهباء صرفا قرقفا وتزور من تهواه إلا فى الكرى
أنا ناصح لك إن قبلت نصيحتى اشرب إذا ما رمت سكرا سكرا
والرأى عندى ترك عقلك سالما من أن تراه بالمدام تغيرا
ذى دولة المنصور لاجين الذى قهر الملوك وكان سلطان الورى
إياك تأكل أخضرا فى عصره يا ذا الفقير يصير جسمك أحمرا (٢)

ولم يكن الحشيش والخمر هما كل ما تفشى فى الناس من منكرات ، فهناك ألوان أخرى من الشذوذ والبغاء ربما تصورها قصيدة ابن دانيال التى يصف فيها إبليس ، حزينا على زوال دولته بعد أن أبطل لاجين المنكرات :

رأيت فى النوم أبا مرة وهو حزين القلب فى مره
وعينه العوراء مقروحة تقطر دمعا قطرة قطره
يصيح وا ويلاه من حسرتى تلك التى ما مثلها حسره
وحوله من رهطه عصبة فهم على قلتهم كثره

---

(١) المصدر نفسه حـ ١ ص ٢٤٥ .

(٢) فوات الوفيات حـ ٣ ص ٣٣٥ .

ويعف القلم عن تسجيل بقية أبيات هذه القصيدة التى يصور فيها ابن دانيال ألوان المنكرات فى عصره ، مسجلا أدق الخلجات ، وأفحش التفصيلات ، من بغاء ، وشذوذ ، وفسق ، وتهتك . (١)

وعرف المجتمع المصرى فى هذه الحقبة أماكن كثيرة يخرج إليها الناس للقصف واللهو ، منها مثلا جزيرة حليمة التى كانت بين بولاق والجزيرة الوسطى ، والتى يصفها المعمار بقوله :

جزيرة البحر جنت ... بها عقول سليمه
لما حوت حسن معنى ... ببسطة مستقيمه
وكم يخوضون فيها ... وكم مشوا بنميمه
ولم تزل ذا احتمال ... ما تلك إلا حليمه (٢)

والمعمار يشير إلى ما كانت تشهده هذه الجزيرة من فساد ولهو ، ويرى أنها ما سميت «حليمه» إلا لصبرها على ذلك .

ويصور القيراطى ما كان يجترح من آثام فى قناطر الجيزة ، وذلك إذ يقول :

قناطر الجيزة كم قادم ... عليك ، يلقى فيك أقصى مناه
أتوك قوم لاطة فانحنى ... ظهرك للوطء وصب المياه (٣)

ويشير فخر الدين بن مكانس إلى عدة أماكن اللهو المعروفة إذ ذاك ، فيقول من موشحة :

---

(١) أنظر القصيدة كاملة فى التذكرة الصفدية حـ ١٤ — ص ٦٤ ، ٦٥ .
(٢) الخطط للمقريزى حـ ٣ ص ٩٩ .
(٣) ديوان القيراطى ص ٢٠٠ .

باكر إلى جزيرة الفيل التى　　تختال فى أفنانها كالجنبة
ولا تمل عن وجهها لوجهة　　صف حسنها لمائها والخضرة
وقف بشاطيها ولا تعدى
واجلس من المنية جنب الشاطى　　من فرش الروض على بساط
فهى من التدبيج فى أمراط　　عروسة تختال بالأقراط
ومن لآلى نورها فى عقد
والتاج يعلو فوق هام الزهر　　والسبعة الوجوه ذات النشر
وكل برج حولها كقصر　　فى كل برج ثم وجه بدر
يحل منها كل برج سعد
وعج على شبرا محل الراح　　واعجب من الغبوق والصباح
إذ كاسها يغنى عن المصباح　　واعقد لبنت الكرم والأفراح
على نهير النيل أهنا عقد
ورم نثار الحبب النفيس　　على زفاف بكرها العروس
وقر بالشمس عن ابليس　　واستهد للخمر من القسوس
واشرب سلافا نقدها بالنقد
وانظر إلى أنوار بئر البلسم　　فهى سبيل صحتى من سقمى
لكونها فيا يقال تنتمى　　إلى المسيح السيد بن مريم
محى بإذن الله ميت اللحد (١)

فهو يذكر جزيرة الفيل وبساتينها ، والمنية وما يكسو أرضها من رياض ونبات ، وشبرا وما عرفت به من خمر جيدة . وبئر البلسم التى يعظمها النصارى ثم يمضى فى الموشحة بعد ذلك فيشير إلى خمر أبى المنجا والقناطر قائلا :

---

(١) حلبة الكميت ص ٢٧١ ، روض الآداب ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

واشرب على بحر أبي المنجا فهو لمأسور الهموم منجا
ذو أرج به السرور يرجى فشعب بوان لديه يهجى
من حسنه وسغد سمرقند
وانزل على اليمن من القناطر بستان ملك الأمرا بهادر
المنجكى الملكى الظاهر كهف العلا ممهد العساكر
من حين كان مرضعا فى المهد(١)

ومن أماكن اللهو — أيضا — «بركة الرطلى» وقد وصفها المقريزى بقوله :

«وصارت المراكب تعبر إليها من الخليج الناصرى ، فتدورها تحت البيوت وهى مشحونة بالناس ، فتمر هنالك للناس أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف ، وتظاهر الناس فى المراكب بأنواع المنكرات ، من شرب المسكرات وتبرج النساء الفاجرات ، واختلاطهن بالرجال من غير إنكار ، فاذا نضب ماء النيل زرعت هذه البركة بالقرط وغيره ، فيجتمع فيها من الناس فى يومى الأحد والجمعة عالم لا يحصى» . (٢)

وكانت الديارات مرتادا لطلاب الخلاعة والمجون ، يجدون فيها بغيتهم من الخمر والأوجه الملاح ، وكان هناك من الديارات دير طموية فى الجيزة ، ودير الراهبات فى حارة زويلة ، ودير البنات فى حارة الروم ، ودير المعلقة ودير برباره . (٣) ويصور البهاء زهير واحدا من هذه الأديرة فى قوله :

ورهبان كما تدرى من القبط النحارير
وفيهم كل ذى حسن من الإحسان موفور

---

(١) حلبة الكميت ص ٢٧٢ ، روض الآداب ص ١٧٨ .
(٢) الخطط جـ ٣ ص ٦٢ .
(٣) أنظر الخطط جـ ٣ ص ٤١٤ ، ٤٢١ .

وتـــال للمزامـــــير بصـــوت كالمزامـــــير
وفى تــلك البرانيـــس بـــدور فى الدياجـــير
وجـــوه كالتصاويـــر تصـــلى للتصاويـــر
ومـــن تحـــت الزنانـير خصـــور كالزنابـــير
أتيناهـــم فـــما أبقـوا ولا ضنـــوا بمخـــور
لقـد مـر لنـا يـــوم مـن الغـــر المشـــاهير
عـلى مـا خلتـه مـن غـير ميعـــاد وتقـــرير
فقـل مـا شئت مـن قـول وقـدر كـل تقـدير (١)

ولا ريب أن هذا التيار اللاهى الماجن ترك أثره الواضح فى أدب مصر المملوكية ، ويمكننا أن نتلمس هذا الأثر فى جوانب ثلاثة : الأول أدب الخمر والثانى أدب الحشيشة ، والثالث أدب الشذوذ والغلمان .

أ الخمـــر :

أكثر شعراء هذا العصر وكتابه من الحديث عن الخمر ، ووصف مجالسها وسقاتها وكئوسها وآداب مجلسها ، ويهول القارىء ما يجده من حديث الخمر إذ أصبحت عنصرا هاما عند كل أديب ، وربما أدى ذلك إلى تساؤل عن السر فى ذلك . وأكبر الظن أن الشغف بالخمر ، والاستغراق فى عالمها لم يكن إلا هربا من الواقع ، فكما لاذ الصوفية بعالمهم الباطنى لاذ أدباء الخمر بعالمهم الحسى ، يتفيأون فيه ظلال اللذة ، ويجدون فى عالم الكئوس والأقداح ما ينسيهم الواقع ، أو ما يلتمسون عنده النسيان . وهم بعد ذلك قانعون بهذه الحياة ، لا يرهقون أنفسهم بطموح زائف ، ولا يرهقون أيامهم بمطالب خاوية . ويعبر سيف الدين المشد عن ذلك بقوله :

(١) ديوان البهاء زهير ص ١١١ ، ١١٢ .

قد قنعنا من الزمان البخيل ... بيسير الغنا وبعض الخمول
وأرحناه من كثير طلاب ... وطلاب الكثير غير جميل (١)

وسواء أكان أدب الخمر تعبيرا عن واقع يمارسه هؤلاء الأدباء فى حياتهم أم كان صورة فنية ، فإن الأمر فى الحالين لا تختلف دلالته النفسية ، إذ هو تعبير عن فقدان التكيف مع الواقع ، ورفضه ، ومحاولة الهرب منه والغيبة عنه ، ولا تختلف معاقرة الخمر فى صورتها الواقعية عنها فى صورتها الفنية ، فهى فى كلتا الحالين تنأى بصاحبها عن الواقع ، وتعزله عن مشاكله . وإلا فما ظنك بانسان يضطرب عصره بجسام الأمور وهو غارق فى حديث الخمر ووصف مجالسها ؟ وهل هو إلا انسان يريد أن يخدر ذهنه بهذا الحديث لزهده فى سواه ، أو لتمرده عليه ؟

وما قولك فى هذا الذى يرى الحياة ليست إلا السكر الطافح الذى لا يقوى الإنسان معه على تحريك أعضائه على حد قول سيف الدين المشد :

ألا فاسقنى الصهباء بالكاس والطاس ... ولا تخش من سكرى فما فيه من باس
فما العيش إلا أن أبيتن طافحا ... من السكر ما تشتال رجلى ولا راسى (٢)

ربما ستقول : إنه من باب رياضة القول . وهبه ذاك ، أفليس فيه اشارة إلى ما يثقل مشاعر الشاعر وفكره ، بحيث يود أن يهرب من سعير العقل ولو استحال إلى جثة هامدة .

ونظرة سريعة إلى شعر الخمر فى هذا العصر تقفنا على هذه الحقيقة : فكلهم يشير إلى أن الكأس دواء لهمومه ، ومفتاح لبهجته ، فيراها صدر

---

(١) ديوان المشد : ٦٢ .
(٢) ديوان المشد : ٤٤ .

الدين ابن الوكيل كيمياء السعادة ، القيراط منها يذهب قنطارا من الحزن :

وليست الكيميا فى غيرها وجدت ... وكل ما قيل فى أبوابها كـذب
قيراط خمر على قنطار من حـزن ... يعود فى الحال أفراحا وينقلب (١)

ويحبها سيف الدين المشد لأنها على حد قوله تفرحه فى زمان المحن ، وهو يسعى إليها لأن العاقل لا يرفض السرور :

أحـب المـدام لأن المـدام ... تفرحـنى فى زمـان المحـن
وكل امرىء عاقل فى الـورى ... يحب السرور ويشنا الحـزن(٢)

أما ابن نباته فيراها تقطع الطريق على الهم ، لذلك يلجأ إليها كلما حزبه الأمر ، ليجد متعته بين الخمر والساق :

إنى اذا آنست هـما طارقـا ... عاجلت باللـذات قطـع طريقـه
ودعوت ألفـاظ المليـح وكأسـه ... فنعمت بين حديثه وعتيقـه (٣)

وكلما لاح له جيش الهموم زحف بها عليه ، كأن الكئوس رايات :

راح زحفت على جيش الهموم بـها ... حتى كأن سنا الأكواب رايات(٤)

ويراها بدر الدين البشتكى صابون الهموم :

وكنت إذا الحـوادث دنستـنى ... فزعت إلى المدامـة والنـديم
لأغسـل بالكئوس الهـم عـنى ... لأن الخمـر صابون الهمـوم (٥)

---

(١) حلبة الكميت : ص ١٠٦ .
(٢) ديوان المشد : ٦٨ .
(٣) حلبة الكميت ص ١٤ .
(٤) حلبة الكميت ص ١١٠ .
(٥) حلبة الكميت ص ١١٠ .

ويصفها ابن أبي حجلة بأنها تخفض الهم الناصب ، وتعيد المسرة إلى الحزين

إن أنشبتْ فيك الهموم مخالبـا ... فاخفض برفع الكأس همّا ناصبـا
ما قطبتْ منها الندامى ليلـة ... إلا وماتوا بالمسرة قاطبـا (١)

ونرى فى شعر الخمر اشارات إلى ألوان الفساد التى يعج بها المجتمع فيقول سيف الدين المشد معرضا بفساد أخلاق الناس :

إذا أخذ الصاحون فى ذم صحبهم ... تناولت شكرى للمنادم والكاس (٢)

وسخر هؤلاء الشعراء بعالم الحروب والسياسة ، فابن نباته يرى هذا الذى يشغل نفسه بوصف الحروب ، وما فيها من خيل وفرسان رجلا يضيع عمره فى الوساوس وعليه أن يترك الخيل بكميتها ونهدها إلى نهود الغوانى ، وكميت الراح :

يا واصف الخيل بالكميت وبالنهد ... أرحنى من طول وسواس
لا نهد إلا من صدر غانيـة ... ولا كميت إلا من الكاس (٣)

وإلى مثل ذلك يذهب فخر الدين بن مكانس حين يقول :

أوتارنـا لرميننـا يا صـاح ... أوتار عيدان الغنا الفصاح
والقوس قوس حاجب الملاح ... والبندق المسكى من التفاح
لست نخضنم للأذى ألد

ثم تمضى فيقول :

تقول لحظى من بنى سنان ... ينبيك عن مقاتل الفرسان

(١) تأهيل الغريب للنواجى ص ٢٢ .
(٢) ديوان المشد — ٣٤.
(٣) حلبة الكميت ص ٧ .

فالـه بـه عـن موقف الطعـــان   وإن ذكـرت الخيل فى الميـدان
فاشرب كميتـًا واغـل فـوق نهدى (١)

وامتدت السخرية فى شعر الخمر إلى عالم المناصب والجاه ، فالقيراطى يسخر بقاضى القضاة قائلا :

حبـذا مجلـس أنـــس   ضمنـا بعـد شـتـات
مجلـس يرقـص فيـه   طربـا قاضـى القضـاة (٢)

ويبعث ابن مكانس إلى صديقه سراج الدين الإسكندرانى الذى ابتعد عن مجلسهم ، مؤثرا أحد المناصب فيقول :

لم ذا هجرت بنى الآداب فابد لنـا   م اعتذارك لا أهـل ولا ولـد
قد صرت توحشهم بعداً وإن قربوا   وكنت تؤنسهم قرباً وإن بعدوا
تركت عشرتهم لمـا رغبت إلى   جاه طويل عريض زانه مـسد
ما هكذا تفعل الدنيا بصاحبهـا   فالناس بالناس والإخوان تنتقد (٣)

ثم بعد ذلك يأخذ فى الفحش معرضا بهذا الجاه الطويل العريض .

بل ذهبت السخرية إلى أبعد من هذا فامتدت إلى المقدسات ، فهـذا القيراطى يحج للصهباء ، ويقيم الصلاة للهو :

نأتى إلى اللـذات من أبوابهـا   ونحـج للصهبـاء مـن ميقاتهـا
يا صاح قد نطق المزار مؤذنـا   أيلبق بالأوتـار طـول سكاتهـا
فخذ ارتفـاع الشمس من أقداحنا   وأقم الصلاة اللهو فى ميقاتهـا (٤)

(١) حلبة الكميت ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
(٢) ديوان القيراطى ص ٧٥ .
(٣) ديوان ابن مكانس ص ٥٤ .
(٤) تأهيل الغريب للنواجى ص ٤٤ ، ٤٥ .

ويرى ابن مكانس أن كأسه حبلى بروح كريمة بشربها ملك الأفراح ، فهي البتول ؛ وهي البيت العتيق الذى ينبغى الحج إليه ، والطواف به :

وكأس غدت حبلى بروح كريمة ... بها ملك الأفراح جاء مبشرا
بتول إذا الندمان أهدى رفيقة ... نذرت لها ما فى فؤادى محررا
هى الخمر بوحا باسمها واتركا الكنى ... على مذهب الشرع النواسى واجهرا
وحجا إلى البيت العتيق بعرفه ... وطوفا به لكن على الشرب تؤجرا (١)

وفى أبيات أخرى يجعل من توقد الكأس نارا ، مستوحيا فى ذلك صورة النار المقدسة التى آنسها موسى عليه السلام ، مبينا أن هذه النار هى التى ينبغى أن يسعى إليها العارف لا نار الوغى التى يسعى اليها الفدم الغبى :

وتأنس منها نار أنس فعج بها ... ولايك منها حظ سعيك لن ترى
فتلك التى يعشو لها كل عارف ... ونار الوغى يعشو لها الفدم والقرى (٢)

وهذه المجاهرة بشرب الخمر هى — بلا ريب — تحد للمجتمع ولقيمه الخلقية وهذا التحدى — كما يرى الدكتور النويهى — لون من ألوان الانتقام من النفس ، أو هو تملص صبيانى من المسئولية الخلقية سببه العجز عن مواجهة الحياة ، وتقبل أحمالها الثقيلة ، ولذلك يود شارب الخمر أن يعود طفلا لايسأل عما يفعل . (٣)

ولعل هذا هو السر فيما نراه من طلب هؤلاء الشعراء الاستغراق فى السكر وفالخمر كما هو معروف تضعف الحاسة الخلقية ، وسورتها تكسب جرأة على

---

(١) ديوان ابن مكانس ص ٤٩ ، ٥٠ .
(٢) ديوا ابن مكانس ص ٤٨ ٤٩ .
(٣) نفسية أبى نواس ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ د . محمد النويهى .

تحدى المجتمع ، والخروج على آداب السلوك المفروضة ، وهى جرأة رُبما لا يجدها الفرد فى حالة صحوه . (١)

إذن فما اللائم والعاذل اللذان يتحدث عنهما شعراء الخمر إلا تجسيدا لتقاليد المجتمع وآدابه وقيمه التى لا ينبغى أن يصغى لصوتها شارب الخمر ، فهو ثائر عليها ، رافض لها .

يقول سيف الدين المشد :

فخذهـا واعطنيهـا مستمرا ... ولا تصغى لمن فيها يلـوم (٢)

ويقول :

لا تسمعـن قـول مـن ... لحـا ومن يسمع يخـبل
وقـل لـه عـنى اتئـد ... قد سبق السيف العـذل (٣)

ولو ذاق اللائم الخمر لما لام على حد قول صدر الدين بن الوكيل :

ومعنف فى الخمر لو قد ذاقهـا ... ما لا منى لكنـه ما ذاقهـا (٤).

ورأى طلاب الخمر فيها تعويضا عن الثروة والمال ، وماذا يطلبون ؟! الذهب ؟ .. الفضة ؟ .. العقيق ؟ ! إن كل أولئك فى الكأس ، الخمر ذهب وعقيق : وحبابها در ...

أصبحت من أغنى الورى ... وطائـرا بالفـرح
الخمـر عندى ذهب ... أكتـا لـه بالقـدح (٥).

---

(١) المرجع نفسه ص ١٥١ .
(٢) ديوان المشد : ٣٨ .
(٣) ديوان المشد : ٨٤ .
(٤) حلبة الكميت : ١١ .
(٥) حلبة الكميت ص ٩٢ .

ويقول :

صب فى الكأس عقيقا فجرى   وطفا الدر عليه فسبح
نصب الساقى على حافاتها   شبك الفضة فاصطاد الفرح (١)

ويقول ابن نباته :

عوض بكأسك ما أتلفت من نشب   فالكاس من فضة والراح من ذهب
واخطب إلى الشرب أم الدهر إن نسبت   أخت المسرة واللهو ابنة العنب (٢)

ولا يندم ابن الوكيل على ماله الضائع إذا وجد الخمر :

ان فاتنى الذهب المصكوك وانقرضت   عقود در عليها عذلى عتبوا
فالخمر تبر تريني الدر من حبب   ترد ما فاتنى وانقاد لى الطرب
راح بها راحتى فى راحتى حصلت   فتم عجبى بها وانقاد لى العجب
إذ يتبع الدر من حلو مذاقتها   والتبر منسبك فى الكأس منسكب
فالخمر بحر سرورى والحباب به   در طفا ولآلى البحر قد رسبوا (٣)

وعلى هذا يمكننا القول بأن هؤلاء الشعراء رأوا فى الخمر ومجالسها دنياهم المنشودة ، وعالمهم المفقود ، فإذا عزت الخمر ، وعز مجلسها فعلى الدنيا السلام كما يقول سيف الدين المشد :

إنما الدنيا مدام   وفتاة وغلام
فإذا ما عز هذا   فعلى الدنيا السلام (٤)

---

(١) حلبة الكميت ص ٩٤ .
(٢) تأهيل الغريب للنواجى ص ٢٥ ، الديوان ص ٢١ .
(٣) حلبة الكميت ص ١٠٦ .
(٤) ديوان المشد : ٤٣ .

وعلى هذا أيضا يمكن أن نضع أيدينا فى أدب الخمر على الصورة المقابلة للواقع ، أو الصورة المفقودة فيه ، فإذا كان الواقع يرزح تحت الاستبداد والقهر فإن الخمر تعطى شاربها إحساسا بالحرية والسيادة والنبل . إنه يحس أنه يحلق فوق الواقع ، بل يحس أنه سيد الكون يملك أزمته ، كما يقول بدرالدين بن الصاحب فى رسالته التى بعث بها إلى فخر الدين بن مكانس يحدثه عن الخمر :

«نديمها يحسب أنه جالس على السحاب ، وأنه أمير على كل أمير مهاب ،
كأن الشمس والقمر فى يديه ، بل كأنهما دينار ودرهم لإنفاق يعود عليه .
له همم لا منتهى لكبارها   وهمته الصغرى أجل من الدهر

رومية لها بالكيمياء معرفة ، مع أنها بأدب المطالب متصفة ، فتارة تقلب الأحزان أفراحا ، ومرة تكتال لك من الذهب أقداحا ، نديمها يجد فى نفسه مخايل المملكة ، ويكاد من شهامته يمد على الدنيا من لؤلؤها شبكه» . (١)

ويذهب ابن مكانس إلى قريب من ذلك فى قوله :

إذا ما أديرت فى حشا عسجدية   بها كل ذى تاج وقصر تصورا
فحسبك نبلا فى السيادة أن ترى   نديميك فى الكاسات كسرى وقيصرا(٢)

وإذا كانت علائق الناس فى دنيا الواقع تقوم على الغش والختل والخداع فإن الندامى فى مجلس الخمر على العكس من ذاك ، يجمعهم الود ، ويؤلف بينهم الأنس ، فهم اخوان الصفا كما يقول ابن مكانس :

---

(١) حلبة الكميت ص ٨٢ ، ٨٣ .
(٢) الديوان ص ٤٧ .

حي الرواويق يحيى من صفـــا　　　　أولئك الأشباح إخوان الصفا (١)

وهم — وإن داعب بعضهم بعضا بألفاظ ربما خرجت عن حدود اللياقة — لا ينطوون على حقد وشحناء كما يقول :

باكرتها فى سراة مـن أصاحبنـــا　　　　لا ينطوون عـلى حقـد وشحنـــاء
تداعبــوا بمعانى شعــرهم فـأروا　　　　ود الأحبة فى ألفاظ أعـداء (٢)

وهم متأنقون ، مضيئو الوجوه ، تراهم فتحسبهم الكواكب الزهر ، أو الأزهار المتفتحة ، تنساب كلماتهم عذبة كالماء الزلال ، ويتحركون فى خفة النسيم ، لا يعرف الهم إليهم سبيلا ، إنما هم بين لحن شجى ، أو شعر رائق أو نادرة طريفة ، لا يعربدون ، بل ترى لهم سكينة ووقارا كلما دارت عليهم الكأس ، ثم هم لا يكلفون جليسهم فوق طاقته . يقول سيف الدين المشد :

ونـــداى مثـــل الكـــواكب زهـــر　　　　تجتلى النفس منهـــم أزهـــارا
يتجـــارون كالـــزلال نشـــاوى　　　　ويهبـــون كالنســـيم ســـكارى
يـــوردون الأخبار طـــورا وطورا　　　　ينشـــدون الألحـــان والأشعـــارا
كلـــما دارت الكئـــوس عليهـــم　　　　ألبستهـــم سكينـــة ووقـــارا
لا تراهـــم مكلفـــين جليســـا　　　　صرف راح ولا كئوسا كبارا (٣)

ونزوع هؤلاء الندمان إلى التأنق والجمال فى الملبس والمجلس إنما هو فيما اعتقد رد فعل لما يحسونه من قبح الواقع ودمامته بما استشرى فيه من ألوان الزيف والفساد ، ولذلك فهم فى نزوعهم ذلك إنما يسعون إلى خلق واقع

(١) حلبة الكميت ص ٢٧٣ .
(٢) حلبة الكميت ص ٢٣٣ .
(٣) ديوان المشد : ٢٧ .

جديد ، ويعيشون فيه ولو سويعات معدودة ، ويحتمون بظلاله الحالمة من هجير الحياة ، وكأنهم لا يريدون لمجالسهم تلك أن يتسرب إليها شيء من حقائق الحياة المزعجة ، ومن ثم نراهم يضعون آدابا معينة لمجالسهم ، وسمتا مخصوصا ينبغي أن يلتزم به الندمان .

يقول النواجي في صفة النديم :

«وينبغي أن يكون حسن البزة ، نبيل الهمة ، نظيف الكف ، نقي الظفر ، متعاهدا لتقليمه ، وتخليل أصابعه ، وغسل يديه ومعصميه ، وتسريح لحيته عطر البشرة ، نظيف الوجه والشارب والأنف ، نقي الجبين ، مستعملا للسواك نظيف الثياب ، خصوصا عمامته ، لأن العين كثيرا ما تقع عليها ، مسبول الذيل وأطراف الأكمام ، نظيف الخفي من الملبس كالقلنسوة والسراويل والتكة والخف والمنديل متطيبا بالبخور الغالية» . (١)

ويذهب فخر الدين بن مكانس إلى أبعد من هذا في أرجوزته «عمدة الحرفا وقدوة الظرفا» التي نظمها في آداب النديم ، فيبين للنديم ما ينبغي أن يقوله من كلام :

وقل من الكلام ... ما لاق بالمدام
كرائق الأشعار ... وطيب الأخبار
واترك كلام السفله ... والنكتة المبتذلة

ويحذره من أن يكون ثقيلا على إخوانه :

وان دعوك الإخوة ... إلى ارتشاف القهوة

---

(١) حلبة الكميت ص ٢٩ .

فلا تصفع ذقنك ولا تزرهم بابنتك
ولا بجار الدار ولا بشخص طارى
ولا بخل تألفه ولا صديق تعرفه
ولا تقل لمن يحب ضيف الكرام يصطحب
فهذه أمثال غالبها محال

ثم يختم أرجوزته بتحذير من منادمة الأتراك ، فيصور التركى إذا لعبت برأسه الخمر ، مسقطا عليه كل مشاعر الناس تجاه هذا الجنس . وكأنه يرى أن مجلس الخمر ، ذلك الحلم المجسد ، يجب أن يخلو من مثل هذا التركى ، فحسبه وحسب أبناء جنسه ما يعربدون فى دنيا الناس :

وإن صحبت تركى فاصبر لأكل الصك
هذا إذا تلطفا ولم يكن فيه جفا
وإن يكن ذا عربده أو نزعة منكده
يقوم للجلوس بالسيف والدبوس
أبشر بقتل القوم وشؤم ذاك اليوم
إن رام منك المسخره فانهض إلى المبادره
واعمل له معرصا وإلا قتلت يا خصا
وسه واتمسخر وقد وإن خلصت لا تعد
فالشؤم فى اللجاج والحر لا يداجى
وهذه الوصيه للأنفس الزكيه
أختارها لنفسى والحوق وجنسى (١)

(١) الأرجوزة بتمامها فى حلية الكيت للنواجى ص ٣٤ — ٣٧ .

وهرع هؤلاء الشعراء إلى الطبيعة بحدائقها وطيورها وزهورها يلتمسون فيها الجمال البكر ، أو البكارة المفقودة فى واقعهم ، أو قل يحتمون بصدرها من قيظ العالم ورمضائه كما يقول فخر الدين بن مكانس مخاطبا تلك الشجرة التى قصدها هو وأصحابه للشراب :

وكم نزلنا مقيلا منك ما حمى الهجير إذ حيث لا مرأى لحرباء
نظل من فيئك الفضفاض فى ظلل ... من الغمام يقينا كل ضراء
يا طبة بدواء القيظ عالمة ... أنت الشفاء من الرمضا الذى الداء(١)

فلا عجب إذن ألا تحلو الخمر إلا فى رحاب الطبيعة ، تحت أشجارها ، وعلى مسمع من غناء أطيارها . يقول سيف الدين المشد :

دعانا لشرب الراح بين الحدائق ... فواقع طل فى كئوس شقائق
وغنت لنا الأطيار فوق غصونها ... فأغنينا من معبد ومخارق
فقمنا إليها نجتليها مدامة ... كأن سناها فى الدجى لمع بارق
يطوف بها من خده وعذاره ... جديدان لكن أبليا كل عاشق(٢)

ونقف فى شعر القيراطى على صورة ذلك الروض الذى غردت طيوره ، وشدت بأغانيها المطربة :

وللروض الزهر عود ... تحت ورق غردات
تتغنى بأصول ... فى فروع الشجرات
حبذا تلك أصول ... سمعت فى الورقات

---

(١) حلبة الكميت ص ٢١٢ .
(٢) ديوان المشد ص ١١ .

وشدا من أصبهـــان بالأغـــانى المطربـــات
قبـلك إذ حـرك عـودا عازفـــا بالنغـــات
أنـت مفتـاح سـرورى يـا سعيـد الحركـات (١)

ولكى تم للمجلس بهجته حرص أولئك الشرب أن يصحبوا إلى مجلسهم السقاة والمغنيات من الغلمان الملاح ، والجوارى الحسان ، يقول سيف الدين المشد فى واحد من هؤلاء السقاة :

ساق تجلى كأنـه قمـــر يحمل شمسا أقديه من ســاق
شمـر عن سـاقه غلائلـــه فقلت مهلا واكفف عن الباق
لما رآنى وقد فتنت بـــه من فرط وجدى وعظم أشواق
غنى وكأس المدام فى يـــده دارت حروب الهوى على ساق (٢)

ويورى المشد فى كلمة «ساق» فى البيت الأخير إذ يقصد ساق الخمـــر الذى فتن به الندمان .

ويصور شهاب الدين محمود ساقيا آخر لين الأعطاف ، مضىء الوجه ، ساحر النظرة :

وقام فانثنت الأغصان تأمـــل أن تحكـى معاطفـه لينـا فلم تطق
وجاء يسعى بها حمـراء قابلهـــا بوجهه فبدت شمسان فى أفـــق
بكر حبتها ثنايـاه الحباب كمـــا خداه ألقت عليها حمـرة الشفـق
وقال دونكها إن شئت من قدحى أو من لمى شفتى اللعساء أو حدق (٣)

---

(١) ديوان القيراطى ص ٧٥ .
(٢) نهاية الأرب جـ ٢ / ص ١٠٠ .
(٣) روض الآداب ص ٨٢ .

وبعد فتلك إطلالة على أدب الخمر . ومحاولة لسبر غوره ، ولعلنا نكون قد وصلنا إلى تصور يفسر لنا لم احتل هذا اللون حيزا غير قليل من أدب هذا العصر .

(ب) الحشيشة :

وكان للحشيشة شأنها فى مجالس اللهو ، أقبل على تعاطيها طلاب الخلاعة ورأوا فيها عوضا عن الخمر ، وسموها مدامة حيدر نسبة إلى فقير صوفى من خراسان يدعى الشيخ «حيدر» زعموا أنه كان أول الواقفين على سرها . (١) وسموها أيضا «خمر الفقراء» لرخص ثمنها إذ ذاك ، وربما كان من أسباب إقبال طلاب المجون عليها أن المذاهب الإسلامية لم تنص على تحريمها كما نصت على تحريم الخمر .

ومع ذلك فقد تشدد بعض سلاطين المماليك فى محاربة الحشيشة ، وتعقب مدمنيها ، لما لها من آثار سيئة عليهم إذ تنهك قواهم : وتضعف صحتهم ،ويشير محيى الدين بن عبد الظاهر إلى هذا الأثر السيء فى رسالته التى كتبها فى إبطال الحشيشة بعد الخمر ، وذلك إذ يقول :

«وأن أم الخبائث ما عقمت ، وأن الجماعة التى كانت ترضع ثدى الكأس عن ثديها ما فطمت ، وأنها فى النشوة ما خيب إبليس مسعاها ، وأنه لما أحرج المنع عنها ماء الخمر أخرج لها من الحشيش مرعاها ، وأنها استراحت من الخمار ، واستغنت بما تشتريه بدرهم عما كانت تبتاعه من الخمر بدينار ،وأن ذلك فشا فى كثير من الناس . وعرف فى عيونهم ما يعرف من الأحمرار فى

---

(١) د. محمد كامل حسين . دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ص ١٠٤ .

الكاس ، وساروا كأنهم خشب مسندة سكرا ، وإذا مشوا يقدمون عقولهم رجلا ويؤخرون أخرى ، ونحن نأمر بأن تجتث أصولها وتقتلع ، ويؤدب غارسها حتى يحصد الندامة مما زرع . وتطهر منها المساجد والجوامع ،ويشهر مستعملها فى المحافل والمجامع ، حتى تتنبه العيون من هذا الوسن ، وحتى لا تشتهى بعدها خضراء ولا خضراء الدمن» . (١)

فابن عبد الظاهر يشير فى هذه الرسالة إلى اقبال الناس على الحشيشة بعد تحريم الخمر ، ويشير إلى رخص ثمنها ، ويصف ما تفعله الحشيشة بمدمنها من تخدير حتى يمشى مختلط العقل ، مرتعش الخطو ؛ كما تشير هذه الرسالة إلى أن الناس كانوا لا يتورعون عن تعاطى هذا المنكر فى المساجد .

ويذكر ابن دانيال ذلك الاصفرار الذى تتركه الحشيشة فى وجوه أصحابها ، وذلك فى معرض حديثه عن محبوبه الذى أدمنها فيقول :

حبى ما عابه اصفرار … كلا ولا شأنه انسطال
وما ارتعى للحشيش إلا … لتعلموا أنه غزال (٢)

وسبق القول بتفشى هذا الداء فى مجتمعات الصوفية ، وربما رأى بعض جهلتهم فيها ما يعنيهم على ما يطمحون إليه من مواجد وأحوال .

ويبدو أن هذا الداء انتشر أيضا فى مجتمعات النساء ، وربما دل على ذلك ما نراه من قول ابن الوردى فى مليحة مسطولة :

مليحة مسطولة … إن لمتها فيما جرى

---

(١) ثمرات الأوراق لابن حجة ص ١٢٧ .
(٢) التذكرة الصفدية ﺟ ١٤ ص ٩٨ .

تقـــول كـل ظبيـــة ... ترعى الحشيشَ الأخضرا (١)

وهكذا نرى للحشيشة نصيبها من نتاج هذا العصر الأدبي ، إذ حظيت من حديث الشعراء بقسم لا بأس به ، فتغنوا بها كما تغنوا بالخمر ، ووصفوا فعلها وسطوتها بشاربها ، فابن الوحيد الزرعي يبين أن فعلها لا يقل عن فعل الخمر ، وذلك إذ يقول :

وخضراء لا الحمراء تفعل فعلها ... لهـا وثبات فى الحشا وثبـــات
تؤجج نارا فى الحشا وهى جنـــة ... وتبدى مرير الطعم وهى نبات (٢)

ويحذر ابن دانيال صحبه من سطوة الحشيشة ، وما تتركه من سكر فيقول :

أقول لصحبي والحشيشة قد سطت ... عليهم ، وأبدت منهم أعينا حمرا
خذوا حذركم من سكر خمرة حيدر ... فقد جاء حقا فى كتيبة الخضرا (٣)

وأصبحت المفاضلة بين الحشيشة والخمر محورا لشعر بعض الشعراء فمنهم من ذهب إلى تفضيل الخمر معددا محاسنها ، مصورا مقابح الحشيشة ، ومنهم من ذهب إلى عكس ذلك .

فممن ذهب إلى تفضيل الخمر ابن البقى ، ونراه يأخذ فى ثلب الحشيشة ، ويصف جنايتها على صاحبها ، وذلك فى قوله :

لحـا الله الحشيش وآكليهـــــا ... لقد خبثت كما طاب السلاف
كما يصبي كـذا تضنى ، وتشقى ... كما يشقى ، وغايتهـا الجـــراف
وأصغر دائهـا والـداء جـــم ... بغـاء أو جنـون أو نشـاف (٤)

---

(١) روض الآداب ص ٢٥٥ .
(٢) الوافى بالوفيات ج ٣ / ص ١٥١ .
(٣) التذكرة الصفدية ج ١٤ ص ٦٠ .
(٤) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٤٥ .

وإلى ذلك أيضا ذهب ابن الأرمنتى فى قوله :

وامـل لى حتى تراق ميتـــا ... إن موت السكر للنفس حياهـــا
ليس فى الأرض نبـات أنبتـت ... فيـه سر حبر العقـل ســواها
رامت الخضراء تحكـى سـكرها ... فتلوها بعد تقطيع قفاهـــا (١)

أما الذين ذهبوا إلى تفضيل الحشيشة فمنهم ابن دانيال . إذ يقول :

قـل للذى ترك الحشيشة جاهـلا ... ولـه بكاسـات المـدام ولــوع
إن المدامـة إن أردت تطوعـــا ... لهى المحـرم والحشيش ربيـع (٢)

وربما تصور لنا هذه المفاضلة ما كان يدور من جدل بين أرباب اللهو من أصحاب الحشيشة ، وبين أربابه من أصحاب الخمر ، فيذهب كل فريق إلى تحبين مذهبه وتقبيح مذهب مخالفيه . ومن أطرف ما قيل فى ذلك قصيدتان للنور الاسعردى، ذهب فى إحداهما إلى ذم الخمر ، وتفضيل الحشيش، وذهب فى الأخرى إلى تفضيل الخمر وذم الحشيش . فيقول فى الأولى مفضلا الحشيش

لك الخير لا تسمع كـلام مفنـد ... ودونك فى فتيـاك غـير مقـلد
سألت عن الخضراء والخمر فاستمع ... مقـالة ذى رأى مصيب مســدد
وحقك ما بالخمر بعـض صفاتهـا ... أتشرب جهرا فى رباط ومسجد؟!
عليك بها خضراء غير مبالــغ ... بأبيـض ورق أو بأحمـر عسجـد
ولكن على رغم المـدام هديـــة ... تنزه عـن بيـع بغـير الزهـد

ثم يأخذ فى ذكر مناقب الحشيشة فيبين كيف أن لونها يحكى لون الجنان، وكيف ... بأسرار الجمال ، وكيف تتيح للروح أن ترقى فى معراج التجرد

---

(١) الطالع السعيد ص ٦٨٦ ، ٦٨٧ .
(٢) التذكرة الصفدية جـ ١٤ ص ٦٠ .

فضلا عن ذلك فهى خفيفة على المعدة ، لا تتعب البدن ، ولا تسبب القىء ، ولا تستخف العقل ، لا يزهدك فيها يسر ، ولا يصدك عنها عسر ، فهى زهيدة الثمن ، سهلة المحمل ، والأهم من ذلك أنه لا حد عليها ، ولا أذى على شاربها ، لا تدهمه كبسات الحياة ، ويسلم من جور الولاة ، أما الخمر فهى كالمارج المتوقد ، مدنسة الدنان بالقار ، كم داسوها بأرجلهم عند عصرها ، وكم تعرض شاربها للإثم والأذى :

رياضية تحكى الجنان اخضرارها ... وخمرهم كالمارج المتوقد
مدامهم تنسى المعانى وهذه ... تذكر أسرار الجمال الموحد
هى السر ترق الروح فيها إلى ذرى المعالم فى معراج فهم مجرد
بل الروح حقا لا يحل بربعها ... هموم ، ولا يحظى بها غير مهتدى
ولا داسها العصار عمداً ودنس الدنان بمختوم من القار أسود
ولا تتعب الأبدان عند نزالها ... وفى القىء إذ تبدو كزق ممدد
ولا تستخف الناس عقلك بينهم ... لعمرى ولا تدعى لديهم بمفسد
وفى طرف المنديل يوما وعاؤها ... ويعتاض عن حمل الزجاجة باليد
وتشربها فى العسر واليسر دائما ... ولا تتقى فيها لينالى التعبد
وتأمن كبسات الحياة وكيدهم ... وتسلم من جور الولاة ولا تدى

ويمضى الاسعردى فيصف تطويع الحشيشة للمعشوق النافر ، مفضلا مجلسها على مجلس الخمر ، ولا سيما إن كان النديم ذاك الغزال المتأود القد ، المجيد للغناء ، الفاهم لأسرار الشعر :

وان ذاقها المعشوق وافاك خلسة ... من الحاسد الواشى على غير موعد
ومن فضلها فى الطيب جودة هضمها ... وهيهات يحصى فضلها لمعدد

ولا سيا إن كان فيها منادى غزال كغصن البانة المتأود
ينادم بالشعر اللطيف وتارة يغنى فيزرى بالحمام المغرد

إلا أن الاسعردى يعود فى قصيدته الثانية فينقض كل ذلك ، ويصم أصحاب الحشيشة بأنهم دواب ، ويبين أن الحشيشة تكسو صاحبها المهانة ، وتترك آثارها على وجهه المعتل ، وتفسد ذهنه . أما الخمر فهى تكسو الذليل مهابه . وتجلو الهم ، وتورد الخدود ، ومنافعها لا تحصى ، ويكفيك من أمرها أنها شراب الملوك ، وموصوفة الشعراء ، ومجلسها عامر بالألحان ، مغرد الأوتار :

فديتك نور الحق قد لاح فاهتد نديمى وكن فى اللهو غير مقلد
أترضى بأن تمسى شبيه بهيمة بأهل حشيش يابس غير أرغد
فدع رأى قوم كالدواب ولا تدر سوى درة كالكوكب المتوقد
مدام إذا ما لاح للركب نورها وقد ضل ليلا عاد بالنور يهتدى
حشيشتهم تكسو المهيب مهانة فتلقاه مثل القاتل المتعمد
ويبدو على خديه مثل اخضرارها فيضحى بوجه مظلم اللون أربد
وتفسد من ذهن النديم خياله فينظر مبيض الصباح كأسود
وخمرتنا تكسو الذليل مهابة وعزا فتلقى دونه كل سيد
وتجلى فتجلولهم كل منادم ويروى بها من شربها قلبه الصدى
وتبدو فيبدو سره وتسره فيشبهها لونا بخد مورد
وفيها على رغم الحشيش منافع فقل فى معانيها وصفها وعدد
وفى غيرها للناس كل مضرة فحدث بكل السوء عن وصفها الردى
وحقك ما ذاق الحشيش خليفة ولا ملك فاق الأنام بسؤدد
ولا جد فى وصف لها قط شاعر بتنميق ألفاظ كألحان معبد

ولم تضرب الأوتار فى مجلس لهــا وماذاك إلا للشراب المــورد (١)

ومهما كان من أمر فقد تركت الحشيشة ظلها على أدب هذا العصر ، وحركت قرائح بعض الشعراء بقول لا يخلو بعضه من متعة .

(حـ) الشذوذ والغلمان :

تفشت هذه الظاهرة فى المجتمعات الإسلامية منذ منتصف القرن الثانى الهجرى ، وتصدى لها بالتحليل الدكتور محمد النويهى فى معرض حديثه عن نفسية أبى نواس ، وأشار إلى ذيوعها فى كثير من الحضارات الإنسانيــة كالحضارة المصرية القديمة ، والحضارة الإغريقية ، ورأى أن أهل تــلك الحضارات ربما رأوا فى ميل الرجل للرجل قيما نبيلة ، ووضعوه فى مرتبة أرفع من حب الرجل للمرأة . (٢) وحينما انتهى الدكتور النويهى إلى الحضارة ــ الاسلامية فى القرن الثانى ، وما ابتليت به من هذا الداء عزا ذلك إلى بلــوغ هذه الحضارة طورا من النضج يبدأ بعده الانحلال يتطرق إليها نتيجة لأسباب كثيرة ، منها اختلاط عدد كبير من الأجناس البشرية المختلفة فيما بينها اختلافا عظيما . (٣)

ويعترض أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هداره على الدكتور النويهى فى محاولته ــ من طرف خفى ــ أن يبرر شذوذ أبى نواس بأنه شىء نبيــل متحضر ؛ ويذهب إلى أن هذا الشذوذ لا يمثل التحضر ، وإنما يمثل قمة الفساد المادى وبداية السقوط والانحدار ، (٤) ويرى أن أسباب تفشى هذه الظاهرة

---

(١) القصيدتان فى فوات الوفيات جـ ٣ ص ٢٧٣ — ٢٧٥ .
(٢) نفسية أبى نواس ص ٧٢ .
(٣) المرجع نفسه ص ٨٧ ، ٨٨ .
(٤) الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ص ٣٢٤ ط ١٩٧٨ .

وفرة الجوارى وشيوع التهتك والخلاعة بينهن مما أدى إلى الزهد فى المـرأة ومحاولة اقتناص اللذة من طريق آخر ، هذا فضلا عن مجالس الشراب وما كان فيها من سقاة على جانب من الجمال والخلاعة . (١)

ومهما يكن من أمر فقد تفشت هذه الظاهرة ، وأخذت فى النمو والانتشار وكانت هناك عوامل تغذيها وتمدها بالحياة . يقول أستاذنا الدكتور محمـد زغلول سلام فى معرض حديثه عن الغزل بالمذكر فى العصر الأيوبى : «وربما كان سبب انتشار هذا اللون من القول يرجع إلى سبى الحروب من غلمان الفرنج ، وما كان يجلبه تجار الرقيق من أطفال الأتراك من أصقاع آسيا ، وأصبح هؤلاء بملاحتهم موضع القربى من الناس ، حتى الأمراء والسلاطين ، بل الفقهاء والعلماء لم يزعهم الدين والتقية عن أن يصطحبوا الغلمان الصبـاح الوجوه فى مجالسهم» . (٢)

فإذا وصلنا إلى العصر المملوكى رأينا هذه الظاهرة قد بلغت ذروتها ، ورأينا الروافد التى تغذيها متدفقة نشطه ، فهناك أسواق النخاسة التى تقذف كل يوم بأجناس وأجناس من الغلمان ، وهناك سبى الحروب ، وهناك الطوائف الوافدة مثل الأويراتية ، تلك الطائفة التترية التى وفدت على مصر فى عهـد كتبغا ، فأسكنها الحسينية ، وعرف غلمانها بالجمال حتى كان يقال : البـدر فلان ، والبدر فلان ، وقد بهر هذا الجمال واحدا من المتصوفة هو تقى الدين السروجى ، ففتن به ، وتدله بحى الحسينية وسكانه ، ونرى صورة من هـذا التدله فى قوله :

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٢٥ .

(٢) الأدب فى العصر الأيوبى ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ط ١٩٨٠ .

يا ساعي الشوق الذى مذ جرى | جرت دموعى فهى أعوانه
خذلى جوابى عن كتابى الذى | إلى الحسينية عنوانه
فهى كما قد قيل وادى النقا | وأهلها فى الحسن غزلانه
امش قليلا وانعطف يسرة | يلقاك درب طال بنيانه
واقصد بصدر الدرب دار الذى | بحسنه تحسن جيرانه
سلم وقل : «يخشى من كى مش | أشت »حديثا طال كتمانه
«كفلكم كرم ساوم امش اط كبى» | فحبه أنت وأشجانه
واسأل لى الوصل فإن قال«يوق» | فقل «أوات» قد طال هجرانه
وكن صديقى واقض لى حاجة | فشكر ذا عندى وشكرانه (١)

وقد ذهب السروجى إلى ترصيع أبياته ببعض الألفاظ التركية التى يفهمها معشوقه التترى .

ولعل الغريب أن ظاهرة الشذوذ لم تعد تقتصر على ميل الرجال للرجال ، بل تعدى الأمر ذلك إلى النساء فمالت المرأة للمرأة ، الأمر الذى دفع سيف الدين المشد أن يصرخ فى أسى :

بطل التناسل فى الورى | من غير شك وامتراء
فإذا الرجال مع الرجال | كما النساء مع النساء
مما يدل على الفناء به | وحسبك من فناء (٢)

ولاشك أن زهد الرجل فى المرأة يقابله زهد المرأة فى الرجل ، أو بحثها عن طريق أخرى تشبع نهمها الجنسى ، وقد سجل ابن دانيال فى كثير من

---

(١) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩٩ .
(٢) الديوان : ١٢ .

أشعارة ظاهرة الشذوذ الجنسى بين النساء ، ولكن القلم يعف عن كتابة شيء من هذه الأشعار لما تفيض به من عهر وتهتك .

وربما كان من أسباب هذه الظاهرة بين النساء وجود مجتمعات نسائية خاصة تمثلت فى الأديرة الخاصة بالنساء ، وبعض الخوانق ، وبعض المدارس وقد ألمح إلى هذه الظاهرة فى مدارس النساء ابن الطفال فى واحدة من مشهور بلاليقه يقول فيها :

فى ذى المدرسـه   جماعة نسـا
إذا أمسى المسـا   ترى فرقعـه

......

نسا ذا الزمـان   عجيب يا فـلان
يكونوا ثمـان   يصيروا اربعة (١)

وقد وقف بعض الأدباء من ظاهرة الشذوذ الجنسى موقف التهجين ، وسلطوا عليها ألسنتهم الساخرة التى تسلك إلى النقد مسلكا فيه التفكه الممتزج بالإنكار . ومن مثل ذلك ما نراه فى قول سيف الدين المشد ساخرا بأحد الكتاب :

وغانيـة باتـت تـلاعب كاتبا   بـه ابنة زادت على كل معهود
فقالت له لما رأتـه مؤنثـا   ثكلتك ما هذا الفعال بمحمـود
فقـال : لقد جربت هذا وهـذه   فما لذ لى غير الفحول من السـود
تعوضت عن سلمى بسالم واننـى   فؤادى عن سعدى بسعد ومسعود (٢)

---

(١) الطالع السعيد ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ .
(٢) الديوان : ٣٤ .

ويسخر ابن دانيال بو احدمن هؤلاء فتن بعبد أسود فيقول :

عائبت أبيض لون تحت أســوده … فقال حسبك ما قالوه فى المثــل
وإن علانى من دونى فلا عجب … لى أسوة بانحطاط الشمس عن زحل (١)

ويمعن الوراق فى السخرية برجل فتنه أيضا حب العبيد فيقول :

ما كنت أعرف فى فلان حالــة … تدعو لحب الأســود الغربيــب
حتى رأيت محل سعد عنــده … فرأيت كل غريبــة وغريــب
ورأيتــه فرحــا به فى غايــة … ومقطبــا لى غايــة التقطيــب
فسألت بعض الحاضرين فقــال لى … حاشاك يعزب عنك فهم أديب
أو ليس سعد أسودا غض الصبــا … أولست أبيض فى خليع مشيــب
فأجبتــه حتى كــلامى عنــده … يلغى وسعد لم يــكن بأديــب
وكلامــه المسمــوع قــال أطــاتما المسموع عنــد الشيخ إلاالنوبى (٢)

ويجعل ابن الصائغ الحنفى من نفسه محور السخرية فى نقده لهذه الظاهـرة وذلك إذ يقول :

قــال لى خــلى تــزوج تســترح … من أذى الفقر وتستغنى يقينــــا
قلت دع نصحك واعــلم أنــنى … لم أضع بــين ظهـور المسلمينا (٣)

ويشير المعمار — فى تهكم — إلى ظاهرة احتراف الشواذ لهذه الطريــق ، متخذين منها سبيلا للكسب فيقول :

قــلت لــه : هــل لك من حرفــة … تعش بها بــين الورى أو سبــب

---

(١) روض الآداب ص ٢٨٧ .
(٢) فوات الوفيات ح ٢ ص ١٤٣ .
(٣) روض الآداب ص ٢٨٦ .

فقال يغنيني ردف الـــــــذى   أسموه عشاق تليل الـذهب (١)

ونفهم من قول بدر الدين البشتكي ما كان يلجأ إليه هؤلاء الشواذ من تزين وتجمل ، ولهم فى ذلك أساليبهم وطرقهم :

أقــول لنــاتف خديــه مهــلا   أترضى اللائطين مدى الدهــر
فـدع نتف العـوارض عنــك كيما   تنــال بلحيــه مثــل الحريـر(٢)

والأمر الذى لاشك فيه أن هذه الظاهرة تركت آثارا قوية على الـذوق الجمالى للعصر ، وانعكس ذلك بدوره على الأدب ، فرأينا أن التغنى بجـمال الغلمان ، أو التغزل بالمذكر قد احتل مساحة واسعة من غزليات هذا العصر . ولا نبالغ إذا قلنا : ان المرأة قد تضاءل نصيبها من الغزل إذا قيس بما انساق إليه الأدباء من الفتنة بالجمال المذكر ، ويكفى للدلالة على ذلك أن نشير إلى أن هناك بعض المصنفات الأدبية وضعت خصيصا لذلك ، فالصفدى يقصـر مصنفه «الحسن الصريح فى وصف مائة مليح» على التغزل بالغلمان ، والشهاب الحجازى يفرد فى كتابه «روض الآداب» بابا كاملا يضمنه غزل المذكر هذا فضلا عما تناثر منه فى سائر الأبواب . وندر أن نرى شاعرا أو كاتبا لم يدل بدلوه فى هذا المجال ، قل إنه من باب رياضة القول ، قل : إنه من قبيـل التظرف والتفكه ، قل كيفما شئت ، ولكنا فى النهاية لا نستطيع إلا أن نقرر أن ذلك لم يكن إلا استجابة لذوق العصر ، ومجاراة لقيمه الجمالية السائدة .

إذن فقد حل التغزل بالمذكر محل التغزل بالمرأة فى كثير من نتاج هذا العصر ، فافتتح به الشعراء قصائدهم ، وأفردوا له المقطعات ، والقصائد الخاصة به ، وتباينت

---

(١) فوات الوفيات جـ ١ ص ٥٢ .
(٢) المنهل الصافى جـ ٣ / ورقه ٥٢ .

مناحي القول فيه ، كما تباينت مناحي القول في الغزل الأنثوي ، فهناك منه الحسي الذي ينشد المتعة واللذة ، وهناك ما يحلق في آفاق عذرية يبكي الصد والهجران ، ويجد في اللقاء حياة ، وفي البعد موتا وهلاكا .

فمن اللون الحسي ما نقرؤه من قول سيف الدين المشد ، يخاطب صاحبه في لهجة داعرة متبذلة :

لا تعربد فمالك اليوم حظوه   أنت تدري بأن عندي قوه
لا تقل انني كبرت وكرشت   وقد صار عند نفسي نخوه
أنت ذاك الذي عهدت زمانا   تتمشى معي إلى كل دعوه
كم رقدنا في كل مسلخ حمام   وصرنا من بعد ذاك لخلوه
أنت قم خاضعا لدي وإلا   قمت من ساعتي أخذتك عنوه (١)

فها نحن نراه يريد أن يغتصب اللذة اغتصابا . غير متورع أن يذكر صاحبه بما قد يكون نسيه من أمر هذه العلاقة الفاحشة .

وفي أبيات أخرى له يصرح بحاجته ، ويطلب من صاحبه قضاءها :

يا هلالا إذا بدا   وقضيبا إذا خطر
وهزارا إذا شدا   وغزالا إذا نظر
بي إلى فيك حاجة   أنا منها على خطر
قبلة ثم نهلة   من رضاب به حصر
فاقضها أقض سيدي   من زماني بها وطر (٢)

وكثيرا ما يكون السقاة في مجالس الشراب موضوعا لهذا اللون الحسي من

(١) الديوان : ٤٦ .
(٢) الديوان : ٢٣ .

الغزل ، وهم يطوفون بالكئوس على قوم أذهبت عقولهم الخمر ، ونرى مثلا لذلك فى قول ابن نباته :

كأنها فى أكف الطائفين بها ... نار تطوف بها فى الأرض جنات
من كل أغيد فى دينار وجنته ... توزعت من قلوب الناس حبات
مبلبل الصدغ طوع الوصل منعطف ... كأن أصداغه للعطف واوات
ترنحت وهى فى كفيه من طرب ... حتى لقد رقصت تلك الزجاجات
وقمت أشرب من فيه وخمرته ... شربا تشن به فى العقل غارات
ويترل اللثم خديه فينشدها ... هى المنازل لى فيها علامات (١)

أما ذلك اللون الآخر الذى يبدو وكأنه يحلق فى آفاق عذرية فنسمع صدى منه فى قول القيراطى :

فى لام خدك عذال الهوى باءوا ... بإثم من لا له لام ولا باء
وحاربونى فمذ لاحت لأعينهم ... واو من الصدغ يجلو عطفها فاء
جاءوا يرومون سلوانى بجهلهم ... عن الحبيب فراحوا مثلما جاءوا
قالوا اسل عنه أما شاهدت عارضه ... فى الخد أخضر قلت النفس خضراء
وكيف يقبل منهم عاشق عذلا ... والعاذلون لأهل العشق أعداء
نحا عذول أطال اللوم فى قمر ... فإنه بين أهل العشق عواء
من لى بأهيف سحار اللحاظ له ... ميل إلى تلف المضنى وإيماء
للغصن فى الروض إطراق لديه كما ... للنرجس الغض من جفنيه إغضاء
وفى محياه إن شاهدت طلعته ... نار وماء ولا نار ولا ماء
وللزمان اندراج فى محاسنه ... فالثغر والشعر إصباح وإمساء

---

(١) الديوان : ٦٨ .

عشاق عينيه ترميهم بأسهمها　　فما تصيبهم إلا بما شاءوا
ساجى اللواحظ لولا سحر مقلته　　ما كان لى بثياب السقم إخفاء
وسنان قلت إذا أشكو له سهرى　　يا ناعس الطرف ما للعين إغفاء
انظر إلى بعين قد قتلت بها　　وداونى بالتى كانت هى الداء (١)

فالقيراطى وإن كان قد ألم بصفات معشوقه الجسدية من لين العطف ، وسحر معيون ، وتورد الخد ، لم يهبط فى علاقته إلى أرض الشهوة ، وانما حاول أن يحلق فوق مطالب الجسد ، مبينا صدق عاطفته ، وطول سهره ، وسقمه الذى يخفيه ، وهذه الأنفاس هى التى تلفحنا فيما نقرؤه من أشعار العذريين ، وهذه الروح الضارعة هى روحهم .

وكما ترك حب الغلمان آثاره الواضحة على شعر هذا العصر ترك آثاره أيضا على النثر ، فصار الغلمان محورا لبعض الكتابات النثرية ومما وقعنا عليه فى ذلك مقامتان إحداهما لعلاء الدين بن عبد الظاهر ، والثانية للصفدى .

ولا تكاد تختلف المقامتان فى مضمونها العام ، فكل منها تدور حول التدله بأحد الغلمان ، والاستغراق فى هواه ، وما شاب هذا الهوى من صدود وهجران .

ويبدأ علاء الدين مقامته بوصف هذا العاشق الذى برح به العشق ، وكيف أنه ظل عمره يترقب حبيبا ينعم به حتى ظفر بغالته ، وابتسم له الزمان . يقول :

«حكى أليف الغرام ، وحليف السقام ، وقتيل العيون ، وصريع الجفون وفريسة الأسود ، والمصاب بنبال الحدق السود عن قصته فى هواه ، وقضيته

---

(١) الديوان ص ٤٢ ، ٤٣ .

التى كان فى أولها غناه ، وفى آخرها عناه ، قال : لم أزل فى مدة العمر أترقب حبيبا أتلذذ بحبه ، وأتنعم بقربه ، وأحيا بانعطافه ، وأسكر من ريقه بسلافه ، وأستعذب العذاب فيه ، وأرشف خمر الرضاب من فيه ، وأقتطف ورد السرور من وجنتيه وأجتنيه ، وأكتسى به لطفا ، واكتسب بمصاحبته ظرفا ، حتى ظفرت يداى بمن رق وراق ، ولطفت حدائق معانيه حتى كادت تخفى عن الأحداق» .

ويأخذ هذا العاشق فى وصف محاسن محبوبه من لحاظ كحيلة ، ومقبل شهى ، وخد وردى ، وخصر رقيق ، فى عبارة امتزج فيها الشعر بالنثر ، ثم يمضى فيصف كيف كان لقاؤه بهذا الحبيب ، وكيف تحققت آماله بهذا اللقاء :

«وانعطف على انعطاف الغصن الرطيب ، وتمازجت قلوبنا حتى أشكل على أينا الحبيب ، وفزت منه ببديع جمال تلذ به النفوس ، ورشفت من رضابه أحلى ما ترشفه الأفواه من شفاه الكئوس» .

إلا أن الأمر لا يسير على هذا النمط ، فسرعان ما تتبدل الحال ، ويرمى الدهر العاشق بسهام الفراق ، فينحل مريره ، ويخور جلده ، ويستسلم لدموعه وأسقامه .

«فتجرعت بعد الشهد علقما ، ولم أستطع أفتح من الحزن فما ، وهمت فى ساحة الشوق والالتياح ، وفضحتنى الأدمع التى طال بها على المحبين الافتضاح

لا جــزى الله دمع عينى خـيرا ‏ وجزى الله كـل خـير لســانى
نم دمعـى فليس يكـتم شيئـاً ‏ ووجدت اللســان ذا كـــتمان
كنت مثـل الكتـاب أخفـاه طى ‏ فاستدلـوا عـليه بالعنـــوان

فإذا هو مر المذاق ، وأمنع الدمع فيقول : وهل خبأتنى لأعظم من يوم الفراق» .

ويصب العاشق جام غضبه على هذا الرقيب الذى يترصده ، ويصفه بالغلظة والفظاظة والمرح والبهتان .

«وبليت برقيب قد سلب الله من قلبه الإيمان ، وسلطه على بغلظ الطباع ، وفظاظة اللسان ، كأنه شيطان ، لا بل هو بعينه ، لكنه أربى عليه فى بهتانه ومينه ، يحاق على الكلمة الواحدة ، ولا يسمح بأن طرفى يمتد إلى تلك المحاسن التى غدت بها القلوب واجده» . (١)

وتنتهى هذه المقامة ولم يزل العاشق يعالج غمرات العشق ، ويتودد لمعشوقه أن يزور فيزور عنه ، وفى كل مرة يلفق أعذارا ، ويعد من جديد والعاشق لا يزداد إلا خبالا .

أما مقامة الصفدى التى سماها «لوعة الشاكى ودمعة الباكى» فهى تدور أيضا حول عشقه لأحد الغلمان الأتراك ، وماعاناه من جراء هذا العشق من لوعة وأسى ، وتمتاز مقامة الصفدى بأنها أكثر طولا من مقامة علاء الدين ، وهذا الطول أفسح المجال للصفدى أن يصف خلجات نفسه ، وأن يعبر عن أحاسيس شتى تجاه هذا الغلام التركى ، كذلك فهى أكثر حياة بما تضمنته من حوار بين العاشق وصاحبه ومعشوقه ، كما أن الصفدى مزج فيها بين مظاهر الطبيعة ومشاعره ، فصارت الطبيعة على حد قول أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام «تسر لسروره ، وتضحك لضحكه ، وجمال الطبيعة جزء من جمال المحبوب ، أو جمال المحبوب جزء من جمال الطبيعة ، ومن مظاهر الجمال المحيط به» . (٢)

---

(١) المقامة كاملة فى نهاية الأرب جـ ٨ ص ١٤٠ – ١٤٩ .
(٢) الأدب فى العصر المملوكى جـ ٢ / ص ٩٤ .

ولننظر إليه مثلا يصف لقاء محبوبه ، وكيف يمزج بين الطبيعة وبين مشاعره :

«فبينما نحن فى هذه اللذة التى وصفت ، والعيشة التى راقت وصفت ، والحالة التى طابت وحلت ، والخلوة التى من الخيال والخبال خلت إذا جانب الروض قد سطع بالأنوار ، وتمايل السرور من المسرار ، وصفق النهر طربا وغنى الحمام وصبا ، وتبسمت الأزهار فرحا وإعجابا ، وتعانقت الأغصان بعد أن كانت غضابا . وشممنا أرجاً فاق فى الآفاق على المسك الأذفر ، ولولا التماسك لطار القلب من الخفقان وفر ، فحدقنا لنحو تلك الحدائق لننظر ما هذا الأرج الفائق ، واذا نحن بغلمان عدد الكواكب السيارة قد أهالوا الشمس فى الهالة» . (١)

وانظر إليه مرة أخرى يخلع مشاعره القلقة على ما حوله من مظاهر الطبيعة فإذا النهر يتوجع ، وإذا النواعير مذعورة كأنها تئن من لوعة الفراق ، وإذا الحمائم تبكى وتذرى الدموع :

«فوصلنا إلى المنزة الأنيق ، والمحل الذى هو باللطافة والمحاسن خليق ، فما وقفنا على حس ولا أثر ، ولا ظفرنا بحس ولا خبر ، بل الماء يجرى ، ويتوجع بخريره ، والنواعير تئن لنواح بلبله وشحروره ، فاجرى من النواحى نوح النواعير دمعى ، فأطرقت للماء طرفى ، وأصغيت للدولاب سمعى ، وأنا أتعجب من تلك الناعورة المذعورة ، وانظر الماء فوق كتفها وهى عليه دائرة ، فعلمت أنها تئن من لوعة الفراق» . (٢)

---

(١) لوعة الشاكى ودمعة الباكى ص ٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥ .

ثم يصف الحمائم قائلا :

«والحمائم تبكى على موائس الأغصان فى الرياض ، وتذرى دموع الحمول فى تلك الخمائل والغياض» . (١)

ولعلنا بعد ذلك نتبين فى هاتين المقامتين امتزاج الحسية بالعذرية ، فبينا العاشق يلتقى بمحبوبه فينال منه وطره ، نراه فى مواطن أخرى وقد سما بحبه ، واستعذب العذاب فى سبيله ، ورأى أن الموت فى سبيل هذا الحب مطلب أسمى وبغية كبرى .

ومهما كان من أمر فذلك ذوق العصر ، وهذه أصداء ما شاع فيه من شذوذ رأيناها واضحة فى أدبه ، حتى كاد ينفرد الغلام بانتاج هذا العصر الغزلى ، مقصيا المرأة عن عرشها الذى تربعت عليه طيلة العصور .

٦ - الغناء والرقص :

عرف مجتمع مصر المملوكية كثيرا ممن حذق فن الغناء وبرع فيه ، ومن أشهر الأسماء التى لمعت «البليبل» ، واتفاق» تلك المغنية التى بهرت بغنائها سلاطين المماليك مع أنها كانت سوداء قبيحة ، ومع ذلك تزوجها أكثر من واحد منهم لحلاوة صوتها وحسن غنائها . ومن الذين برعوا فى الغناء أيضاً أحمد بن كامل الثعلبى القوصى ، يقول عنه الإدفوى : «يعرف شيئا من الموسيقى» وذكر من نظمه أبياتا كان يغنيها هى :

منى إليك تحيه وسلام	ما ناح قمرى وفاح خزام
وتأرجت فى أيكها قمرية	وشدا على أعلى الغصون حمام

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦ .

فلئن عـداني عـن زيـارة داركـم عـاد ، وحالت بيننـا اللـوام
فأنـا محبـكم الـذي مـا غـيرت عهدي الليالي لا ولا الأيـام (١)

ومن المغنين الذين برعوا في الغناء أيضا مغن يعرف بالفصيح قال فيه الوداعي :

وليلـة مـا لهـا نظـير في الطيب لـو ساعفت بطـول
كم نوبـة للفصيـح فيهـا أطرب مـن نوبـة الخليـل (٢)

وقد أحصى أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام عديدا من أسماء المغنين والمغنيات في العصر المملوكي ، وبين أن المماليك ورثوا محبة الفنون والغناء والموسيقى من أسلافهم الفاطميين والأيوبيين . كما أشار إلى تنوع الموسيقى والغناء في ذلك العهد فهناك الأغاني الحضرية ، والموسيقى الممتزجة بأصول عربية وفارسية وتركية ، وهناك الأغاني الشعبية ، وكل كان له عشاقه ومحبوه (٣)

ولعل المعمار كان يشير إلى ذلك اللون من الغناء الذي يمتزج بأصول فارسية وهو يصف أحد المغنين بقوله :

ومشـبب أبـدى لنـا قـولا بنغمتـه الشهيـه
متغاشـم فكأنـه متكـلم بالفارسيـة (٤)

وأكثر شعراء هذا العصر من الحديث عن الغناء ، والمغنين ، وعن الطرب وآلاته ، ونلاحظ أن ذلك في معظم الأحيان ارتبط بمجالس اللهو ، فيقرن

---

(١) الطالع السعيد ص ١٠٨
(٢) مطالع البدور جـ ١ ص ٢٣٤ .
(٣) الأدب في العصر المملوكي جـ ١ ص ٢٨١ — ٢٨٥ .
(٤) مطالع البدور جـ ١ ص ٢٣٥ .

محمد بن على الواسطى بين لذة الخمر ولذة الغناء ، فكأن الشرب سـكروا بالغناء لا بالخمر ، وذلك إذ يقول :

أغـنى مغنينـا عـن الـراح إذ غـنى فلم يبق مـن الشرب صاح
غيبـنا بالحسـن عـن حسـنا كأنمـا جـاء بمـاء وراح (١)

وإلى مثل ذلك يذهب ابن الصائغ الحنفى فى وصفه لمغنية إذ يقول :

غنت فأغنت عن كئوس الطـلا بالسكر من لذات تلك اللحـون
فقلت إذ هيمـنى صوتهـا فى مثل ذا الحلق تروح الذقون (٢)

وما ألطف هذا التناسب فى الشطر الأخير بين الحلق والذقون ، والذى مهد له الشاعر بالتورية فى كلمة «الحلق» .

وانظر إلى هذا المجلس الثمل الذى يصوره القيراطى راقصا على أنغام العود ، حتى الشمع قائم على ساقه ، وحتى الكأس تدور على كعبها :

أطربنـا العـود إلى أن غـدا مقامنـا يرقـص مـع صحبـه
فشمعنـا قـام عـلى ساقـه وكأسـنا دار عـلى كعبـه (٣)

وتلحظ أيضا أن النساء استأثرن بالحظوة فى مجال الطرب ، وأن كثيرات منهن برعن فى العزف على آلاته المختلفة ، فهناك من أتقنت العزف على العود وهناك من أتقنت عزف المزمار ، وهناك ضاربة الدف إلى غير ذلك ، وكل ذلك نراه بوضوح فيما نقرؤه من شعر هذا العصر ، فهذا سيف الدين المشد يصف تلك العوادة التى تحتضن عودها فى حنان ، وتضبط أوتاره فى مهارة :

---

(١) الدرر الكامنة ﺟ ٤ ص ١٧٣ .

(٢) خزانة الأدب ص ٣٩٥ .

(٣) خزانة الأدب ص ٣٨٤ .

وحاضنــة صــنما ناطقـا وتكـرم مثـواه مثـل الولـد
تدغـدغ أحشـاءه صالحـا وتعـرك آذانـه إن فسـد (١)

ويقول فى جارية تغنى على الدف :

وجاريـة قرعـت طارهـا وغنت عليـه بصوت (رطيب)*
فعاينـت شمـس الضحى أقبلت وبدر تقدمها عن قريـب (٢)

ويقول ابن نباتة فى مجموعة من الغوانى يضربن الدفوف والعيدان :

وغـوان تغـنى عـن الطيـب والحـلى لهـذا تسـمى الحسان غـوانى
ضاربات الدفوف فى جيش لهـو طاعنات الهمـوم بالعيـدان (٣)

وطبيعى فى مثل هذه المجالس أن يكون للجمال نصيبه فى إحداث اللذة إلى جانب الصوت الحسن ، وأن تمتزج لذة السماع بلذة النظر ، ولعل هـذا الامتزاج يظهر بوضوح فى أبيات ابن نباته التى يصف فيها عوادة بقوله :

بروحى هيفاء المعاطف حلـوة تكاد بألحاظ المحبين تشرب
لقد عذبت ألفاظهـا وصفاتهـا على أن قلبى فى هواها معـذب
تجاسر عـود اللهـو يشبـه صوتها فمن أجل هذا أصبح العود يضرب
وأجرى دمـوع العاشقين بلعبهـا فقال الأسى دعها تخوض وتلعب(٤)

وانظر كيف امتزجت لذة السمع بلذة البصر فى قوله :

---

(١) الديوان ص ٥٢ .
* فى الديوان (رخيم) .
(٢) الديوان ص ٨٥ .
(٣) الديوان ص ٥١١ .
(٤) الديوان ص ٥٥ .

الكأس فى كف غادة رود ... قم يا أخا النسك غير مطرود
تحثها بالغناء غانية ... تعرب فيه عن لحن داود
إن شئت كالغصن ذات منعطف ... أو شئت كالطير ذات تغريد
تكاد إن مس عودها يدها ... تجرى مياه الدلال فى العود (١)

فاللذة كما ترى ليس مبعثها الغناء وحده أو العزف وحده ، وإنما هى أيضا ناشئة عن جمال الخلقة فى تلك العوادة الهيفاء ، أو فى تلك المغنية ذات الدل .

كذلك يعكس لنا شعر هذا العصر ما كانت تلجأ إليه بعض المغنيات من حركات خليعة ، وتأوهات مثيرة تلهب أوار الشهوة لدى السامعين ، وانظر إلى وصف ابن دانيال لهذه المغنية ضاربة الدف :

ذات القوام الذى يهتز غصن نقا ... لو مر يوما عليه طائر صدحا
تبدى على الدف كالجمار معصمها ... لنقره ببنان يشبه البلحا
غناؤها برقيق الغنج تمزجه ... فما ينقط إلا كل من رشحا (٢)

والتورية واضحة فى كلمة «ينقط» .

وكان لجمال الشكل أيضا دوره فى الإعجاب بالمغنين ، ولا ننسى فتنة أهل هذا العصر بالغلمان ؛ فلا عجب إذا وصف المغنى بالأوصاف نفسها التى وصفت بها المغنيات . واقرأ معى قول القيراطى :

غنى على العود شاد سهم ناظره ... أضحى به قلبى المضنى على خطر

---

(١) الديوان ص ١٦٠ .
(٢) خزانة الأدب ص ٢١٠ .

ونا إلى وجست كفه وترا   فراحت الروح بين السهم والوتر (١)

فليست الفتنة فى الغناء فحسب ، ولكنها أيضا فتنة هاتين العينين اللتين ترشقان الناظر إليها بالسهام .

وكما أشاد الشعراء بالمغنين والمغنيات أصحاب الصوت الجميل سخروا من هؤلاء الذين يزعجون الناس بأصواتهم المنكرة . وألحانهم القبيحة . يقول محمد بن على الواسطى فى وصف عواد وزامر :

شبهت ذا العواد والزامر إذ   ضاقت علينا بهما المناهج
بعقرب يضرب وهو ساكت   وأربد ينفخ وهو خارج (٢)

ويقول سيف الدين المشد فى ذم عواد عابثا بحروف لفظة «عواد» ومعناها

عوادنا قد طمست عينه   فصار بالتصحيف قوادا
ما عاد الا لقياداته   لأجل ذا سمى عوادا (٣)

وشارك الرقص الغناء فى مجالس الطرب ، ونقع فى شعر صفى الدين الحلى على صورة لجوار يرقصن بالشراب وذلك فى قوله :

والراقصات وقد شدت مآزرها   على الخصور كأوساط الزنابير
يخفى الردا سقمها عنا فيفضحها   عقد البنود وشدات الزنابير
اذا انثنين بأعطاف يجاذبها   موارد عص من الكثبان معطور
رأيت أمواج أرداف قد التطمت   فى لج بحر بماء الحسن مسجور
من كل مائسة الأعطاف من مرح   مقسومة بين تأنيث وتذكير

---

(١) مطالع البدور جـ ١ ص ٢٤٧ .
(٢) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ١٧٣ .
(٣) الديوان : ٤٧ .

كـأن فى الشيز بمناهـا إذا ضربت　　صبـح تغلغل فيـه قلب ديجـور
ترعى الضروب بأيديها وأرجلهـا　　وتحفـظ الأصل من نقـص وتغيير
وتعرب الرقص مـن لحن فتلحقه　　ما يلحق النحو من حذف وتقدير (١)

ويرى أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام فى هذه الصورة «لمحات جديدة لهذا الفن فى ذلك العصر فقد كان من عادة الراقصات أن يشددن أوساطهن بالزنانير ، وأنهن كن يتثنين بأعطافهن . ويهززن بأعجازهن ، وأنهن كـن يتخذن أحيانا زى الغلمان وهيآتهم «ويقول : «وربما تخلف عن ذلك العصر ما نراه أحيانا من عمد بعض الراقصات «البلديات» فى مصر إلى لبس ملابس الرجال والرقص فيها» . (٢)

وشارك الرجال فى الرقص أيضا ، ويصف الدشناوى أحد الراقصين بقوله :

يا من غدا الحسن إذ غنى وماس لنا　　مقسما بـين أبصـار وأسمـاع
قاسوك بالغصن رطباً والهزار غنا　　وما تقاس بميـاس وسجـاع
قد تسجع الورق لكن غير داخلـة　　وترقص البان بل فى غير إيقاع (٣)

والدشناوى يشير إلى حركات هذا الراقص المتسقة مع إيقاع غنائه بحيث تتوزع متعة المشاهدين بين الرقص والغناء .

---

(١) الديوان ص ١٤٧ .
(٢) الأدب فى العصر المملوكى جـ ١ ص ٢٩٠ .
(٣) الطالع السعيد ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

الفصل الثامن

الذوق الأدبي

لا ريب أن الذوق الأدبي لأى عصر ، والمعايير الجمالية السائدة فيه هما المدخل الصحيح للوقوف على أسرار الصنعة الأدبية ، ولا ريب أن الأديب حينما ينشيء أدبه ، منظوما كان أم منثورا إنما يحاول إرضاء ذوق عصره ، ويصدر عن المعايير الجمالية السائدة فيه ، وقد يتفرع الذوق الأدبي إلى ألوان متباينة ، ويتشعب شعبا مختلفة حسب الأنماط الثقافية فى المجتمع وتبعا لذلك يتباين الإنتاج الأدبي حسبما يتجه إليه الأديب من هذه الأنماط .

وبالنسبة للعصر المملوكي فإننا نرى الذوق الأدبي فيه ينقسم لونين متباينين يمكن أن نطلق على أولهما «اللون الخاص» كما يمكن أن نطلق على ثانيهما «اللون العام» . ولا يعني هذا أننا نقسم أدباء العصر فريقين ، كل فريق له لونه المميز فربما تراوح إنتاج الأديب الواحد بين هذا وذاك ، فهو حينا يرضى ذوق الخاصة ، وحينا آخر يتجه بأدبه إلى ذوق العامة ، وقديما أشار بشار إلى هذا حينما سئل عن تفاوت أسلوبه بين شعره الذى يقوله فى الحماسة والفخر وبين ما يقوله لجاريته ربابة .

وفطن نقاد العصر المملوكي لهذه الحقيقة ، وعرفوا أن لكل لون متطلباته ومقتضياته الذوقية ، فشمس الدين النواجي فى مقدمته يوجه النصح إلى الأديب قائلا : «ولا تخاطب العامة بكلام الخاصة ولا بالعكس» . (١)

(١) مقدمة فى صناعة النظم والنثر ص ٤٥ .

إذن فنحن فى أدب العصر المملوكى أمام لونين من الذوق يمكن أن ننظر إلى كل منهما فى ضوء ما خلفه العصر من إنتاج أدبى ونقدى وبلاغى .

أولا — اللون الخاص :

ونعنى به اللون الذى يمثل ذوق الصفوة من متأدبى العصر ، والتى كانت تمثل جمهورا محدودا من كتاب الديوان والفقهاء والمدرسين ومن يمت إلى هذا المجال بنسبة من طلاب العلم وهواة الأدب .

ويمكن أن نقول إن ثقافة هذه الصفوة كانت عربية إسلامية تمثلت فى الإلمام بالتراث العربى شعره ونثره ، والتزود بالقرآن الكريم والحديث النبوى والوقوف على أيام العرب فى الجاهلية والإسلام ، ومن هذه الثقافة تشكل الذوق الأدبى لهذه الطبقة من المتأدبين ، هذا الذوق الذى ترك آثاره الواضحة على أدب هذا العصر .

والأدب الذى يمثل ذوق هذه الطبقة تلمس فيه حرص الأديب على الارتقاء بعبارته ، والتأنق فى لفظه ، وعلى التهذيب والتشذيب فيما يعالجه من عمل أدبى .

ويكاد الشعر الذى يمثل هذا الذوق ينحصر فى جملة الأغراض التقليدية التى درج عليها الشعراء من مديح وغزل ورثاء إلى آخر ذلك ، كذلك يكاد ينحصر النثر فى جملة من الفنون التى تعارف عليها الكتاب من رسائل رسمية أو إخوانية ومن مفاخرات أو مقامات . ويمكننا أن نحدد فى أدب هذا اللون بعض سمات هى :—

١ — الانجذاب إلى التراث :

نرى فى أدب هذا اللون انجذابا للقديم ، ونحس أن الأديب كان ينظر إلى

التراث على أنه المثل الأعلى الذى ينبغى أن يحتذيه ، وإذا بدأنا بالشعر أمكننا أن نلحظ هذه الظاهرة فى عدة أمور :

أ - ترسم معظم الشعراء لنهج القصيدة العربية حيث نراهم ما يزالـون يستفتحون قصائدهم - وبخاصة فى المديح - بالنسيب ثم يخلصون منه إلى المدح وهم فى ذلك يسيرون على سنن معروف وطريق ممهد ، وكثيرا ما تحدث النقاد عما ينبغى على الشاعر فى نسيبه وكيف يخلص منه إلى المدح ، ونقع فى شعر شعرائنا على شواهد عديدة على هذه الظاهرة ، فالعزازى مثلا يبدأ قصيدته فى مدح أبى المعالى ناصر الدين محمد أحد ملوك حماه من قبل سلطان مصر بمقدمة غزلية يقول فيها :

فقـن الظبـاء سوالفـا ونحـورا والخيزران معاطفـاً وخصورا

وتمضى هذه المقدمة فى عشرين بيتا ثم يخلص إلى المدح بقوله :

وإذا سـألت لخلـة أو فاقـة فاسأل خطيراً كى تنـال خطيرا

بل إن العزازى فى هذه القصيدة لم يفته أن يصف لنا الناقة التى حملته إلى ممدوحه فيقول :

وأتيت مـن فسطاط مصر نحـوه أطـوى الفـلاة أصائلا وبكورا
من فوق حائلة النسوع إذا تـبرت لا تسأم التغليس والتهجـيرا
تفـنى مناسمهـا الفلا وتشق مـن تحت الظلام بصدرها الديجـورا
وكـأنى فى كورهـا متوسـد للبرق متنـا والنعـائم كـورا
حتى انتهيت إلى ابن محمود الندى فحمدت قصدى أولا وأخـيرا(١)

هكذا لم يكد العزازى يحيد عن نهج القصيدة الجاهلى .

---

(١) ديوان العزازى ص ٨ ، ٩ ، ١٠ .

ونترك العزازى إلى ابن نباتة فنراه أيضا يستهل قصائده بالنسيب، ونأخذ مثلا على ذلك قصيدته فى مدح الناصر حسن :

بدت فى رداء الشعر باسمة الثغـــر فعوذتها بالشمس والليل والفجر (١)

وتستغرق المقدمة الغزلية ثمانية عشر بيتا .

ولا يقال ما الناصر حسن وذوق الصفوة وهو مملوك أعجمى ، فالشاعر فى مثل هذا الموقف لا يعنيه ذوق الناصر حسن بقدر ما يعنيه ذوق من يحيط به من كبار الكتاب ومالكى مقاليد الإنشاء .

وعلى هذا النهج أيضا سار القيراطى فى مدائحه ، ومثل لذلك قصيدته فى مدح ناظر الجيش :

لطلعة البدر جزء من محياك وللصبـــاح نصيـــب مـــن ثنايـــاك

فالمقدمة الغزلية تستغرق خمسة وأربعين بيتا يخلص الشاعر بعدها إلى المـدح (٢)

ب — وآية أخرى من آيات الانجذاب إلى التراث نراها فى ولوع الشعـراء بمعارضة القصائد التى ذاعت فى عالم الشعر ، فنرى العزازى يعارض معلقـة عمرو بن كلثوم بقصيدته التى يمدح بها المماليك الصالحية والتى يبدؤها بقوله :

بدأنـا باسـم رب العالمينـــا وثنينـا بخـير المرسلينـا (٣)

ومن القصائد التى شغف بها المتأدبون فى هذا العصر قصيدة كعب بـن زهير فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

بانت سعـاد فقلبى اليـوم متبول متيم إثرهـا لم يفـد مكبـول

---

(١) ديوان ابن نباته ص ١٩٥ .
(٢) انظر ديوان القيراطى ص ٣٥ .
(٣) ديوان العزازى ص ٦٤ .

وقد عارض هذه القصيدة أكثر من شاعر ؛ عارضها البوصيرى بقصيدته التى سماها وذخر المعاد فى وزن بانت سعاده ، والتى يبدؤها بقوله :

إلى متى أنت باللذات مشغـــول   وأنت عن كل ما قدمت مسئول (١)

وعارضها العزازى بقصيدته :

دمى بأطلال ذات الخال مطلـــول   وجيش صبرى مهزوم ومفلول (٢)

وعارضها ابن نباتة بقصيدة يقول فيها :

ما الطرف بعدكم بالنوم مكحـول   هذا وكم بيننا من ربعكم ميـل (٣)

وشغلت قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية كثيرا من المتأدبين إذ عدوهـا مثلا أعلى فيما ينظم من أشعار الحماسة والحرب ، وربما زاد من شغل النـاس بهذه القصيدة أن العصر كان عصر حروب وغزوات ، وأنهم كانوا فى تشوق إلى انتصار باهر كذلك الذى تصوره بائية أبى تمام ، وقد سبقت الإشارة فى الفصل الثانى من هذا البحث إلى معارضة شهاب الدين محمود لهذه القصيدة بقصيدته التى يصف فيها فتح عكا :

الحمـد لله زالت دولـة الصلـب   وعز بالترك دين المصطفى العربى (٤)

وكما كانت قصيدة أبى تمام البائية مثلا أعلى فى الحماسة كانت قصيدته التى قالها فى رثاء محمد بن حميد الطوسى مثلا أعلى فى الرثاء وهى التى يبدؤها بقوله :

---

(١) الديوان ص ١٧٢ .
(٢) فوات الوفيات ج ١ / ص ٩٥ .
(٣) الديوان ص ٣٧٢ .
(٤) تاريخ ابن الفرات ج ٨ ص ١١٥ .

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

لذلك احتذاها بعض الشعراء ، فعارضها صفى الدين الحلى بقصيدته التى رثى بها الناصر محمد :

وفى لى فيك الدمع إذ خاننى الصبر وأنجد فيك النظم إذ خذل النثر (١)

أما المتنبي فكان له شأن عظيم فى نظر هذه الصفوة ، ويدل على ذلك ما نراه من معارضات الشعراء لقصائده ، فالعزازى يعارض قصيدته الميمية :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمى وحالى عنده سقم

بقصيدة يمدح بها قلاوون يقول فيها :

أمضيت ما خطه من نصرك القلم فيالها نعمة من دونها النعم (٢)

وسبقت الإشارة إلى معارضة شهاب الدين محمود قصيدته الميمية الأخرى

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

بقصيدة يمدح بها «بيبرس» يقول فيها :

كذا فلتكن فى الله تمضى العزائم وإلا فلا تجفو الجفون الصوارم (٣)

ويعارض ابن نباته قصيدته :

أرق على أرق ومثلى يأرق وجوى يزيد وعبرة تترقرق

بقصيدة يقول فيها :

---

(١) الديوان ص ٣٧٧ .
(٢) الديوان ص ٧٠ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٧ / ص ١٧٠ .

ما بتُّ فيك بدمع عينى أشـــرق   إلا وأنت من الغزالـة أشـرق (١)

ويطول الحديث إذا تتبعنا كل المعارضات ، ولكن حسبنا ذاك للتدليـل على هذه الظاهرة . وطبيعى فى مثل هذه المعارضات أن ينسج الشاعر على منوال من يعارضه ، ويدور حول معانيه وأفكاره ، أو بعبارة أخرى هو رهين هذا النموذج الذى يحتذيه بأخيلته وقوافيه وألفاظه .

وأغلب الظن أن مثل هذه المعارضات كانت تروق لأذواق الصفـــوة المتأدبة ، إذ يرون فيها امتحانا لمقدرة الشعراء ، كما كان الشعراء يرون فيها إثباتا لمقدرتهم على النظم ، وتأكيدا لبراعتهم . وليس أدل على صحة هـذا القول مما يذكره العزازى فى مقدمة قصيدته النونية التى عارض بها معلقة عمرو بن كلثوم إذ يبين أن الذى دفعه إلى نظم هذه القصيدة جماعة من أمراء الدولة الظاهرية ، اقترحوا عليه أن يعارض عمرو بن كلثوم بقصيدة يذكر فيهـا وقائع الترك وغزواتهم (٢) ، وكأنهم بذلك يسبرون غور الشاعر ويختبرون ملكته ، والشاعر بدوره يقبل ذلك ليضع إسمه إلى جانب اسم شاعر عظيـم كعمرو بن كلثوم .

ح — وشبيه بهذه الظاهرة ظاهرة التضمين وسماها نقاد العصر بالإيداع ، وتتمثل فى أن يودع الشاعر شعره بعض شعر غيره ، وقد عد نقاد العصر ذلك الصنيع من مظاهر الجمال ، وصنفوه ضمن ألوان البديع . يقول ابن حجـة : «والإيداع الذى نحن بصدده هو أن يودع الناظم شعره بيتا من شعر غيره أو نصف بيت أو ربع بيت بعد أن يوطىء له توطئة مناسبة» (٣) ، ويعرض ابن

---

(١) الديوان ص ٣٣٨ .

(٢) انظر الديوان ص ٦٤ .

(٣) خزانة الأدب ص ٤٦١ .

حجة طرائق الشعراء فى ذلك ثم يبين الرتبة العليا منه فيقول : «وأحسن الإيداع ما صرف عن معنى غرض الناظم الأول ، ويجوز عكس البيت المضمن بأن يجعل عجزه صدرا ، أو صدره عجزا ، وقد تحذف صدور قصيدة بكمالها وينظم المودع صدورا لغرض اختاره وبالعكس» . (١)

واستجابة لهذا المطلب الجمالى راح الشعراء يفتنون فى إيداع شعرهم بعض الشعر القديم ، فيأخذ زكى الدين بن أبى الاصبع بيت المتنبى :

تذكرت ما بين العذيب وبارق ... مجر عوالينا ومجرى السوابق

ويجعل كل شطر منه عجزا لبيت نظم هو صدره فيقول :

إذا الوهم أبدى لى لماها وثغرها ... تذكرت ما بين العذيب وبارق
ويذكرنى من قدها ومدامعى ... مجر عوالينا ومجرى السوابق (٢)

ويودع البوصيرى فى أحد أبيات بردته شطرا من بيت للمتنبى فيقول :

ولا أعدت من الفعل الجميل قرى ... ضيف ألم برأسى غير محتشم (٣)

وقد يودع الشاعر فى شعره أكثر من بيت لأكثر من شاعر ، ويرى أن البراعة فى أن يوطىء لذلك بتوطئة واحدة كما فعل شهاب الدين محمود، وعد ذلك من آى افتنانه فيقول : وقد ضمنت بيتين بتوطئة واحدة وهما :

وبتنا على حكم الصبابة مطمعى ... زفيرى وأشجانى ، وشربى المدامع
وخل يعاطينى كئوس ملامة ... وينشدنى والهم للقلب صادع
أتطمع من ليلى بوصل وإنما ... تقطع أعناق الرجال المطامع

(١) خزانة الأدب ص ٤٦١ .
(٢) خزانة الأدب ص ٤٧٣ .
(٣) ديوان البوصيرى ص ١٩١ .

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة　　　من الرقش فى أنيابها السم ناقع (١)

والبيتان اللذان يعنيها هما الأخيران وأولها للبعيث ، والثانى للنابغة »

ويأخذ ابن نباته بعض بيت للمتنبي بعد أن يصرفه عن غرضه الأول ، فيقول :

بوجهك من ماء الملاحة مورد　　　لظام وشرب العامرى سراب
إذا زرتنى فالروح والمال هين　　　وكل الذى فوق التراب تراب(٢)

وينظم صدورا لأبيات يأتى لها بأعجاز من شعر الحطيئة وطرفه وذلك فى قوله :

إذا جئته تعشو إلى ضوء كأسه　　　تجد خير نار عندها خير موقد
تحدثك الأنفاس فيه عن الها　　　ويأتيك بالأخبار من لم تزود
فشم بارقا قد خولتك ولا تشم　　　لخولة أطلالا ببرقة ثهمد (٣)

وهكذا غدا التضمين سمة من سمات الجمال ، وحرص الشعراء على تطريز شعرهم ببعض أقوال من سبقهم من الشعراء إظهارا لسعة الباع ، وطول النظر فى التراث ، ولا ريب أن مثل ذلك الصنيع كان يروق لذوق الصفوة المتأدبة التى فتنت بالقديم أيما فتنة ، حتى إننا نرى شاعرا من شعراء هذه الحقبة يفخر بأن نصف شعره من شعر غيره إذ يقول :

أطالع كل ديوان أراه　　　ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى　　　فشعرى نصفه من شعر غيرى(٤)

---

(١) حسن التوسل ص ٦٢ .
(٢) ديوان ابن نباته ص ٦٢ .
(٣) ديوان ابن نباته ص ١٢٨ .
(٤) خزانة الأدب ص ٤٧٢ .

د — وآية رابعة من آيات الانجذاب إلى القديم نراها فى اصطناع بعض الشعراء الجزالة والفخامة ، وخروجهم علينا بثوب غير ثوب عصرهم ، ومن ذلك ما نراه من قول عمر بن عيسى مجير الدين اللمطى :

وما الشعر مما أرتضى كنيتى بـــه ... لعمرى ولا وصفى به فى المحافـــل
ولا قلتـــه كى أبتغى بمقالـــــه ... هنالك أن أجزى عليـــه بنائـــل
ولكن دعتنى شـيمة مضريـــــة ... إلى قوله معروفة فى القبائـــل (١)

فهل يتميز قول اللمطى عن قول شاعر جاهلى ؟

واسمع معى للعزازى يمدح بيبرس :

شكرنا أبا الفتح الجميل ثنـاؤه ... علـى أنعم فى ظلـه نستديمهـــا
تملك أعنـاق الـورى متيقظـا ... فنامت رعاياه وحيـط حريمهـا
وألقت إليـه النـاس فضل قيادهـا ... ودان له معوجهـا وقويمهـــا
تـداوى قلوب عز منهـا شفاؤها ... بإحسانه أوصـح منها سقيمها (٢)

فانظر إلى إيثار الشاعر ذكر الكنية على عادة العرب وإن كانت كنية من وحى المناسبة ، وانظر إلى استخدامه تلك التعبيرات التى تسربت إليـه من محفوظه القديم : «تملك أعناق الورى — حيط حريمها — ألقت إليه النـاس فضل قيادها» ، ثم انظر إلى البحر الطويل الذى اختاره الشاعر وكيف ائتلف مع هذه الجزالة فبدت الأبيات وكأنها تطل علينا من زمن سحيق .

هـ — ونقع فى شعر هذا اللون على كثير من التلميحات التى تشير إلى أعلام العرب وأيامهم ، كما نقع على بعض ما كان يستخدمه العرب من أمثال

(١) الطالع السعيد ص ٤٤٩ .
(٢) ديوان العزازى ص ٦٢ .

فهذا العزازى يشير إلى عدة من أبطال العرب فى مدحه لبيبرس إذ يقول :

فلدع عمرو بن ود وابن معـــدى   وبسطاما وعنـترة المجينـــا
ولا تطلب لبيـــبرس نظـيرا   فذلـكم بعيـد أن يكونـا (١)

ويمدح الأتراك فيشير إلى زيد الفوارس وتفوقهم عليه :

من كل أغلب لـو رآه مقبـــلا   زيـد الفـوارس فر عنـه مدبرا (٢)

ويصف صعوبة مسلك الجيش فيقفز إلى ذهنه السليك بن السلكة وعنترة :

والجيش قـد أشرعت كتائبـــه   مـن حولـه السمهريـة اللدنــا
فى مسلك لـو سرى السليك بـــه   لضل فيه أو عنـتر جبنـا (٣)

وما تزال بعض العادات العربية الجاهلية تطفو من حين إلى آخر على ذاكرة العزازى فنجده يذكر ضرب القداح فى مدحه لقلاوون :

ولكنك المنصور والملك الـــذى   عزائمـه بالنصر فـاز قداحها (٤)

ونترك العزازى إلى مجير الدين بن اللمطى فنراه يردد بعض الأمثال العربية فى شعره ، فيقول :

صمـى صمام فقـد شالت نعامتهم   وغـودروا بين سمع الأرض والبصر

ويقول :

أنـا ابـن بجدتهـا فى كنـه حالهـم   فاسأل جهينـة كى يأتيك بالخبر
حلبت يا صاح در الدهر أشطـره   قدمـا فأدركت طعم الشهد والصبر

---

(١) الديوان ص ٦٤ .
(٢) الديوان ص ٧٥ .
(٣) الديوان ص ٩٨ .
(٤) الديوان ص ٧٢ .

فهم سواسية فيما علمت كأسنان الحمار فكن منهم على حذر (١)

فهو يستخدم من أمثال العرب (صمى صمام) بمعنى تمادى أيتها الداهية ، ويشير إلى قولهم (وعند جهينة الخبر اليقين (ويستخدم قولهم)سواسية كأسنان الحمار) إذا أرادوا تسوية قوم فى نزوعهم إلى الشر ، كما يستخدم قولهم (ابن بجدتها) و (حلب در الدهر) إذا أرادوا وصف انسان بالحنكة والخبرة .

وفى شعر القيراطى نسمع رجعا لبعض هذه الأمثال ، فهو مثلا يقول فى معرض الغزل :

لا تذكر الغزلان عند لحاظهـــا أبدا فكل الصيد فى جوف الفرا (٢)

وكل الصيد فى جوف الفرا مثل يضربه العرب للدلالة على نفاسة الصيد وعظمه أو للدلالة على بلوغ المآرب كله .

وفى بيت آخر يشير إلى المثل العربى «عند الصباح يحمد القوم السرى» فيقول :

ولقد سريت بليل أسود شعرهـا وحمدت عند صباح مبسمها السرى (٣)

هـ — وربما رسخ فى ذهن هذه الصفوة المتأدبة أن المعانى أتى عليهـا القدماء ، ولم يعد أمام المحدثين سوى أن يعيدوا صوغ هذه المعانى من جديد أو تجديدها بما يضيفون إليها من فضلة قول أو بما يولدونه من بعض المعانى الفرعية ، وهذا ما راح نقاد العصر يروجون له تحت مصطلحات بديعية — كحسن الاتباع والتوليد . يقول ابن أبى الاصبع معرفا حسن الاتباع :

---

(١) الطالع السعيد ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .
(٢) ديوان القيراطى ص ٤٦ .
(٣) ديوان القيراطى ص ٤٦ .

«هو أن يأتي المتكلم إلى معنى اخترعه غيره فيحسن اتباعه فيه بحيث يستحق بوجه من وجوه الزيادات التي توجب للمتأخر استحقاق معنى المتقدم إما باختصار لفظه ، أو قصر وزنه ، أو عذوبة قافيته وتمكنها ، أو تتميم لنقصه ، أو تكميل لتمامه ، أو تحليته بحلية من البديع يحسن بمثلها النظم ، ويوجب الاستحقاق» . (١)

ويتكلم ابن حجة عن التوليد فيقسمه إلى توليد من الألفاظ وتوليد من المعاني ، ويرى أن التوليد من المعاني «هو الأجمل والأستر ، وهو الغرض هاهنا ، وذلك أن الشاعر ينظر إلى معنى من معاني من تقدمه ويكون محتاجا إلى استعماله في بيت قصيد فيورده ويولد منه» . (٢)

والأمر برمته لا يعدو أن يكون التفاتا إلى القديم ، وجريا على سننه ، واقتباسا منه ، على أن يكون للشاعر في هذا الاقتباس شخصيته المميزة ونهجه المعروف .

ونحن مع شعراء هذا اللون الخاص من اللوق نقف على كل ذلك ، فشاعر يأخذ من القديم وليس له إلا فضل الصياغة ، وشاعر يحاول أن يضيف أو يولد بما يوجب له المعنى ، وفي كلا الحالين فالأمر لا يعدو دورانا في فلك القديم ، فانظر مثلا للعزازي يصف أسرى الفرنج فيستمد التراث صوره :

هذى ملوككم تنقاد صاغرة   وذى قرابينكم تنساق في قرن
لها التفات إلى أوطانها أسفا   كما تلفتت الأنعام للعطن (٣)

---

(١) تحرير التحبير ص ٤٧٥ .
(٢) خزانة الأدب ص ٤١٩ .
(٣) الديوان ص ٥٩ .

فالانسياق فى قرن ، والتفات الأنعام إلى العطن صور استقاها الشاعر من محفوظه ، وليس له فيها إلا جهد الصياغة .

ويحاول العزازى أن يولد ، فيكون جهده أن يفك صورة قديمة ، وقد صور الشعراء العرب فعل السيوف بالرقاب بصورة الحصد ، ويأتى العزازى فيحل هذه الصورة إلى عناصر جزئية قائلا :

وغزوهم وهم نبات وآبوا   وهم من شبا السيوف حصيد (١)

وإذا كان جهده فى هذا هو فك الصورة القديمة إلى عناصر جزئية ، فهو فى مكان آخر يوجه جهده إلى جمع مجموعة من الصور ، وتكون آية ابتكاره أن جمعها على هذا النسق الذى لم تجتمع عليه . يقول متغزلا :

ثم اتخذن من المدام مراشفا   ونظمن من حبب المدام ثغورا
ونظرن غزلانا وفحن خمائلا   وخطرن أغصانا ولحن بدورا (٢)

فكل صورة من هذه الصور ، على حدة ، متداولة — ، وإنما الجديد هو تواليها على هذه الهيئة .

أما البوصيرى فيشبه النقوب فى حصن المرقب بأنها أثاف عليها قدور هى بروج الحصن ، وصورة الأثاف والقدور صورة قديمة التقطها البوصيرى من التراث :

وساموه خسفا من نقوب كأنها   أثاف لها تلك البروج قدور (٣)

---

(١) الديوان ص ٦١ .
(٢) الديوان ص ٨ .
(٣) الديوان ص ٩٧ .

ويشبه آيات الرسول — صلى الله عليه وسلم — وظهورها بظهور نار القرى على جبل :

دعني ووصفي آيات له ظهـــرت ظهور نار القرى ليلا على عـــلم(١)

وليس له فى هذه الصورة إلا فضل الصياغة .

ويمدح الترك فيعيد هذه الصور القديمة إذ يصفهم بأنهم بيض الوجـــوه تسعى لأبوابهم القصاد ، وطالبوا المال :

بيض الوجـوه بجن الليل إن ركبوا إلى الوغى وبضىء الصبح إن سفروا
تسعى لأبوابهم قصـــــاد مالهـــم وجاههم زمراً فى إثرهم زمر (٢)

ولعل البوصيرى قد وقع على ضالة ثمينة فى «بيض الوجوه» حيث ناسبت هذه الكناية القديمة أوصاف ممدوحيه من الأتراك .

وهذا الصنيع نفسه نطالعه عند شهاب الدين محمود فلا يزيد جهده عن الصوغ الجديد ومحاولة التوليد ، وقديما قال عنترة :

ولقد ذكرتك والرمـــاح نواهـــل منى وبيض الهند تقطر مـــن دمى
فـــوددت تقبيـــل السيوف لأنهـــا لمعـــت كبـــارق ثغـــرك المتبسم

وموضع الشاهد هنا تشبيه لمعان السيوف بالثغر الباسم . ويأتى شهاب الدين محمود فيتلقف هذا التشبيه ويولد منه صورة مجددة ؛ مضيفا إلى اللثم العناق والمصافحة ، ولعله قد وقع عليها عند شاعر آخر ، ثم ألف بين هذا وذاك فى قوله واصفا قتلى إحدى المعارك :

---

(١) الديوان ص ١٩٦ .
(٢) الديوان ص ٨٩ .

فأهووا إلى لثم الأسنة فى الوغـــى   كأنهم العشاق وهـــى المباســـم
وصافحت البيـض الصفـــاح رقابهم   وعانقت السمر القدود النواعم (١)

وشبه شعراء العرب الدماء بالبحر ، وجاء شهاب الدين محمود فوسع من الصورة شيئا ما ، وجعل الدماء خضابا لسوق السبايا :

وخاضت البيض فى بحر الدماء فـــما   أبدت من البيض إلا ساق مختضب (٢)

ووصف الشعراء المسالك الموحشة بأنها تضل فيها الرياح أو يضل فيهـا القطا ، فأخذ ذلك شهاب الدين محمود فى وصفه الطرق المؤدية إلى قلعـة الروم ، مضيفا إلى تعثر الرياح زل الذر ، وإلى ضلال القطا خشية العقاب ، وعدم استقرار النسر :

إذا خطرت فيها الرياح تعـــثرت   أو الذر يوما زل عن متنه الـــذر
يضـل القطـا فيهـا ويخشى عقابهـا العـــقاب ، ويهفـو فى مراقبهـا النسر (٣)

وتعاور الشعراء على تشبيه الثريا بأنها راحة تشبر الدجى يعبرون بذلك عن طول الليل ، فأخذ ذلك صدر الدين بن الوكيل وزاد عليه بأن وصف الثريا بأنها جذماء :

بكف الثريا وهـى جذما تقـــاس لى   شقاق دجى مدت من الشرق للغرب
ولو ذرعوها بالـذراع لمـا انقضت   فما تنقضى يا ليل أو ينقضى نحبى (٤)

وقد يذهب الشاعر فى محاولة التوليد هذه إلى أن يستبدل شيئا بشىء ، أو

---

(١) النجوم الزاهرة ﺟ ٧ / ص ١٧١ .
(٢) تاريخ ابن الفرات ﺟ ٨ / ص ١١٧ .
(٣) فوات الوفيات ﺟ ١ / ص ٤١٥ .
(٤) الغيث المنسجم ﺟ ١ / ص ٣١٩ .

أن يخرج من التخصيص إلى التعميم ، أو أن يضيف إلى القول الأول ما يتشابه معه ويجرى على نسقه ، إلا أن القارىء البصير بالتراث لا يخفى عليه المثال الذى يحتذيه الشاعر مهما حاول أن يموه ، أو يضفى على قوله الأصالة والجدة ، واقرأ معى قول شمس الدين الطيبى يصف أحد انتصارات الناصر محمد :

برق الصوارم للأبصار يختطف والنقع يحكى سحابا بالدما يكف
أحلى وأعلى وأغلى رقة وسنا من ريق ثغر الغوانى حين يرتشف
وفى قدود القنا معنى شغفت به لا بالقدود التى قد زانها الهيف
ومن غدا بالخدود الحمر ذا كلف فإننى بالخدود البيض لى كلف
ولامة الحرب فى عينى أحسن من لام العذار الذى فى الخد ينعطف
كلاهما زرد هذا يفيد وذا يردى فشأنهما فى الفعل مختلف
والخيل فى طلب الآثار صاهلة ألذ لحنا من الأوتار تأتلف
ما مجلس الشرب والأرطال دائرة كموقف الحرب والأبطال تزدلف(١)

ولعلنا على الفور نذكر قول أبى تمام :

ما ربع معمورا يطيف به غيلان أبهى ربى من ربعها الخرب
ولا الخدود وقد أدمين من خجل أشهى إلى ناظر من خدها الترب
سماجة غنيت منا العيون بها عن كل حسن بدا أو منظر عجب(٢)

هى هى الصورة وإن حاول الطيبى أن يموه علينا بذكر القدود ولام العذار وألحان الأوتار وأرطال الخمر ، وكل ما فعله هو أنه أذاب هذا الإيجاز البديع الذى نراه فى شعر أبى تمام حتى تميع فى أبياته وفقد النبض والحياة .

---

(١) المنهل الصافى حـ ٣ / ورقة ١٦٧ .
(٢) ديوان أبى تمام حـ ١ / ص ٥٦ ، ٥٧ .

و - وكان للثقافة الدينية أثرها القوى فى تشكيل ذوق هذه الصفوة والقرآن الكريم هو جوهر هذه الثقافة وكتابها المعجز ، وقد راح الأدباء يحتذون بيانه منذ أن نزل به الوحى ، فلا غرابة أن يصبح الاقتباس من القرآن الكريم ، والاغتراف من فيض بيانه وتصويره ديدن أدبائنا يرونه معيارا من معايير الفصاحة والبلاغة ، وكان للشعراء طرائقهم فى ذلك فهم فى بعض الأحيان يضمنون شعرهم النص القرآنى بلفظه كما نرى فى صنع محي الدين بن عبد الظاهر إذ يقول :

يا دمعى الساعى بى فى الهوى ... اجر فهل ساع وما تجرى
وأنت يا قلبى الذى قد ... خرجت مثل الصبر عن أمرى
إنسان عينى إن غدا خاسرا ... للدمع فالإنسان فى خسر (١)

ويحس القارىء أن الأبيات الثلاثة ربما كانت تمهيدا للاقتباس القرآنى فى الشطر الأخير .

ومثل هذا الصنيع نجده فى قول ابن نباته :

والذى زاد مقلتيك اقتدارا ... ما أظن الوشاة إلا غيارى
بهم مثل ما بنا من جفون ... ساجيات تهتك الأستارا
كلما جال لحظها ترك الناس سكارى وما هم بسكارى(٢)

وقد يلجأ الشاعر إلى حل النظم القرآنى ومزجه بعبارته كما نرى فى قول البوصيرى يمدح قراسنقر :

---

(١) تشنيف السمع بانسكاب الدمع للصفدى ص ١٦٨ .
(٢) الديوان ص ١٩٠ .

وأقبلت تحيي الأرض من بعد موتها ... وفى الجود ما يحيي الموات وينشر
فأخرجت مرعاها وأجريت ماءها ... غداة بحار الأرض أشعث أغبر
فها هى تحكى جنة الخلد نزهة ... ومن تحتها أنهارها تتفجر (١)

وانظر إلى قوله فى مدح ايدمر عز الدين :

يكفيه حمل الأمانات التى عرضت ... على الجبال فكادت منه تنفطر (٢)

وفى أحيان أخرى يلتقط الشاعر بعض ألفاظ من السياق القرآنى ، ويمزجها بألوان من التصوير أو البديع كما نرى فى قول ابن نباته :

يتيم ابتسامك ما يقهر ... فسائل دمعى لا ينهر
وإنسان عينى إلى كم كذا ... بحين من الدهر لا يذكر (٣)

فالشاعر يورى فى كلمتى «يتيم وسائل» اللتين التقطها مع غيرهما من السياق القرآنى «فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر» ولكنه يقصد يتيم الدر الذى يشبه أسنان المحبوبة حين تبتسم ، ويقصد سائل الدمع ، وفى البيت الثانى نراه يورى أيضا فى كلمة «انسان» متكئا بشدة على التعبير القرآنى «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا» .

وكانت معانى القرآن وصوره ، وما جاء به من قصص مددا لا ينفد للشعراء ، فراحوا يستمدون منها ، ويأتون منها بقبس فى أشعارهم ، فها هو البوصيرى يشبه هواء البيمارستان المنصورى بالصور الذى يعيد الحياة للأجسام حين ينفخ :

---

(١) الديوان ص ١١٣ .
(٢) الديوان ص ٨٨ .
(٣) الديوان ص ٣٠٣ .

يهبّ فيهدى كل روح بجسمـــــه   كـأن صباه حين ينفخ صـور(١)

ويستمد محي الدين بن عبد الظاهر صورته من الجنة والنار وهو يصف وجنة المحبوب :

بى ظبى إنس من الأتراك وجنتـــه   كجنة الخلد إذ حفت بها النار (٢)

وإلى قريب من هذا ذهب ابن نباته فى خطاب محبوبه :

يا مليحا طـــرفى بـه فى نعــــيم   وفؤادى فى النار ذات الوقود (٣)

ويتكىء القيراطى على القصص القرآنى ، وتحمل صوره إشارات إلى احداث هذا القصص ، فينتزع إحدى صوره من مناجاة موسى عليه السلام لربه إذ يقول :

لما درت أنى الكليم مـن الجـــوى   جعلت جوابى فى المحبة لن ترى(٤)

وفى صورة أخرى يلمح إلى ما ورد فى سورة أهل الكهف عن ذى القرنين فيقول فى مدح أولاد الناصر حسن :

إن يبلغوا فى الفضل مطلع شمســـه   فلقـد رأينـا منهم الاسكندرا (٥)

ويوسعنا أن نسوق العديد من الشواهد ، ولكنا ما سعينا إلى إحصاء أو حصر وإنما كان هدفنا أن نشير إلى أثر الثقافة الدينية فى تكوين الذوق الأدبى لصفوة المتأدبين من أهل العصر .

---

(١) الديوان ص ١٠٣ .
(٢) الديوان ص ١٧ .
(٣) الديوان ص ١٥٣ .
(٤) الديوان ص ٤٦ .
(٥) الديوان ص ٤٦ .

وظاهرة الانجذاب إلى التراث تتمثل فى نثر هذا العصر كما تمثلت فى شعره ، ويكاد القارىء للفنون النثرية التى تمثل هذا اللون الخاص من الذوق يرى أنها لا تختلف عن الفن الشعرى إلا بالوزن والقافية ، أو قل إن نثر هذا الذوق شعر محلول . و «حل الشعر» سمة بارزة فى كتابات هذا العصر ، وهى أيضا العلامة البارزة على انجذاب الكتاب إلى القديم بحيث يمثل محفوظ الكاتب من التراث شبه رصيد ينفق منه وقت الحاجة .

يقول شهاب الدين محمود :

«وأما الحل فهو باب يتسع على المجيد مجاله ، ويتصرف فى كلام العارف به رويته وارتجاله ، وملاك أمر المتصدى له أن يكون كثير الحفظ للأحاديث النبوية والآثار والأمثال والأشعار لينفق منها وقت الاحتياج إليها .» (١)

والقاضى الفاضل الذى ترسم جل كتاب هذا العصر خطاه ، وعدوه المثل الأعلى للفن الكتابى كما نلمس من ثنائهم عليه وإطرائهم لفنه (٢) ذهب فى الاتكاء على محفوظه من الشعر القديم إلى شأو بعيد حتى صرنا فى بعض قطعه النثرية نستطيع أن نعد ما له من كلمات يصل بها بين أشطار من الشعر يستمنحها من محفوظه ، فأنظر إليه مثلا يكتب إلى صديق له :

«وصل كتاب مولاى بعد ما (أصات المنادى للصلاة فأعتما) ، فلما استقر لدى (تجلى الذى من جانب البدر أظلما) فقرأته (بعين إذا استمطرتها أمطرت دما) وساءلته (فساءلت مصروفا عن النطق أعجما) ، ولم يرد جوابا) وماذا عليه لو أجاب المتيما) . (٣)

(١) حسن التوسل ص ٩١ .
(٢) انظر نهاية الأرب للنويرى حـ ٨ / ص ١ ، ٢ .
(٣) نهاية الأرب حـ ٨ / ص ٤٧ .

ولا ريب أن تفشى مثل هذه الظاهرة فى الكتابة النثرية يجعل منهـا عملا أقرب إلى التلفيق ، ويجعل القطعة النثرية تبدو وكأنها الثوب المرقع الـذى لا جهد فيه للكاتب إلا وصل هذه الرقع ، والتأليف بينها على نحو من الأنحاء .

والحق أن كتابنا لم يبلغوا شأو القاضى الفاضل وتضلعه فى حل المنظوم فى ذاك الشاهد الذى عرضناه ، ولكن جهدهم انحصر عند حل بعض الأبيـات الشعرية وإذابتها فى عباراتهم دون اسراف ، وإذا كان القاضى أشبه بالخازن المبذر فإن كتابنا كانوا أشبه بخازن مقتصد .

وعلى أية حال فظاهرة الحل الشعرى كانت سمة جمالية من سمات الكتابة فى هذا العصر ، واقرأ معى لضياء الدين أبى العباس أحمد القرطبى الأنصارى من رسالة له لابن دقيق العيد :

«لا زالت إمامته كافلة بصون الشرائع ، واردة عن دين الله وكفالة أمة رسول الله أشرف الموارد وأعذب الشرائع ، آخذة بآفاق سماء الشرف فلها قمراها والنجوم الطوالع ، قاطعة أطماع الآمال عن إدراك فضله وما زالت تقطع أعناق الرجال المطامع» . (١)

فنحن نرى القرطبى يعمد إلى قول البعيث :

طمعت بليـــلى أن تريـــع وإنمـــا   تقطـع أعنـاق الرجـال المطامـــع

وإلى قول جرير :

أخـذنا بآفـــاق السماء عليــــــكم   لنـا قمراها والنجـوم الطوالــــع

فيحلها ويذيبها فى نثره .

---

(١) نهاية الأرب جـ ٨ / ص ٥٢ .

وكان للكتاب مهاراتهم فى حل المنظوم ، فبيت واحد من الشعر يمكن إنفاقه فى وجوه عدة ، ويمكن أن يقلبه الكاتب حسبما يقتضيه الموقف فيحله وينفق منه مرة فى العتاب ، وأخرى فى الشكوى ، وثالثة فى الوصف حسبما يتفتق ذهنه ، وتؤدى إليه مهارته .

ويفخر شهاب الدين محمود أنه استطاع أن يفعل مثل هذا ببيت ابن الرومى :

وحديثها السحر الحلال لو أنه   لم يجن قتل المسلم المتحرز

فإنه حله وأتى به فى وصف السيف فقال :

«وكفى السيوف فخرا أنها للجنة ظلال ، وإلى النصر مآل ، وإذا كان من بيان الحديث سحرا فان حديثها عمن كلمته هو السحر الحلال» . (١)

ثم عاد فنقله إلى وصف البلاغة قائلا :

«البلاغة تسحر الألباب حتى تحيل العرض جوهرا ، وتخيل الهواء المدرك بالسمع لانسجامه وعذوبته فى الذوق نهرا ، لكنه سحر لم يجن قتل المسلم المتحرز(٢)

وتقود هذه السمة إلى أخرى وثيقة الاتصال بها هى استرجاع الصور القديمة ، يستعين بها الكاتب على ما يتناوله من موضوعات ، والكتاب فى ذلك لا يختلفون عن الشعراء . فانظر إلى محيى الدين بن عبد الظاهر يصف إحدى حملات «بيبرس» :

«قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزمات الشريفة السلطانية ، وأنها استصحبت

---

(١) حسن التوسل ص ٩٢ .
(٢) حسن التوسل ص ٩٢ .

ذلك حتى تصفحت المهالك ، وسرنا لا يستقر بنا فى شىء منها قرار ، ولا يقتدح من غير سنابك الخيل نار ، ولا نمر على مدينة إلا مرور الرياح على الخمائل فى الأصائل والأبكار ، ولا نقيم إلا بمقدار ما يتزيد الزائر من الأهبة أو يتزود الطائر من النغبة ، نسبق وفد الريح من حيث ننتحى ، وتكادمواطىء خيلنا بما تسحبه أذيال الصوافن تمحى ، تحمل همنا الخيل العتاق ، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق» . (١)

ولا جديد فى هذا التصوير فقد لجأ الكاتب إلى ما تعاور عليه الأدباء قبل ذلك من تشبيه السرعة بمرور الريح ، ومن أن البرق يكبو اذا حاول اللحاق بالركب ، فضلا عما نراه بلفظه من شعر تأبط شرا «نسبق وفد الريح من حيث ننتحى» أو ما نراه محورا تحويرا طفيفا عن قول الحريرى فى مقامته المغربية «فلم أجلس إلا لمحة برق خاطف ، أو نغبة طائر خائف» . (٢)

كذلك نلمس فى النثر ما لمسناه فى الشعر من كثرة التلميحات إلى أيام العرب فى الجاهلية والإسلام ، واقرأ معى مرة أخرى لمحيي الدين بن عبدالظاهر فى تعنيف ذاك الذى تنقص من قدره :

«أم هل أبالى بك إلا مبالاة البازى بالحمام ؟ والليث بالتفاف الخيس ؟ ومتى كانت همدان تفخر على كليب أو تحذر منها الكيد ؟ أم متى خاف الأسد من أبى زبيد ؟ وهل بالت قريش بتأليب أبى سفيان ؟ أم هل فزعت مازن يوما من استباحة ذهل بن شيبان ؟ وبحمد الله ما أحوج الزمان إلى زياد ، ولا ألجأ إلى تلقيه بوجه مكفهر كأن عليه أرزاق العباد . ولست — لحاك الله —

---

(١) صبح الأعشى حـ ١٤ ص ١٤٠ .
(٢) مقامات الحريرى ص ١٥١ .

من بني صريم الذين تلقتهم التهائم والنجود ، ولا من بني عمرو الذين لبيوتهم سمت صعب الصعود ، ولا فيك ما في أبي قابوس من حزم ونائل ، ولا لديك ما لدى من إذا قال لم يترك مقالا لقائل» . (١)

في هذه الفقرة كثير من التلميحات والإشارات لأحداث قبلية جاهلية ، ولأحداث إسلامية ، كما أن فيها ذكرا لبعض أعلام العرب في جاهليتهم وإسلامهم .

أما ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم ونثر آية فهي تجل عن الإحصاء في نثر الكتاب ، يقول علاء الدين بن عبد الظاهر في التقليد الذي كتبه على لسان الخليفة المستكفي للسلطان بيبرس :

«فقد عول أمير المؤمنين على يمن آرائك التي ما برحت الأمة بها في المعضلات تستشفي ، واستكفي بكفايتك وكفالتك في حياطة الملك فأضحى وهو بذلك المستكفي ، وهو يقص عليك من أنباء الوصايا أحسن القصص»(٢)

فانظر كيف نثر القول القرآني «نحن نقص عليك أحسن القصص» .

ويقول فخر الدين بن مكانس في وصف زيادة النيل :

«فلو زدت في أيام غيره من الملوك المترفين ، وفيمن يؤثر ملاذ نفسه على مصالح المسلمين ، كنت أيها الملك بلغت قصدك ، وفعلت في أبناء مصرك جهدك ، وكنت من الملوك إذا دخلوا قرية انتعلوا فيها الأهلة ، وأفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة» . (٣)

(١) رسالة ابن عبد الظاهر الى ابن النقيب ص ٣ .
(٢) نهاية الأرب ‍ـ ٨ / ص ١٣٣ .
(٣) صبح الأعشى ‍ـ ١٤ / ص ٢٨١ .

فابن مكانس ينثر فى قوله الآية القرآنية «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة» .

ذاك هو النثر وانعطافه إلى التراث .

وإلى هنا نكون قد استجلينا ظاهرة الانجذاب إلى التراث فى الأدب شعره ونثره ، ونحن لا ننكر دور التراث فى تكوين الأديب ولا فى تكوين القارىء وتشكيل ذوقه ، ولا ريب أن التراث يمثل إطارا ذهنيا للصنعة الأدبية ، ويوجه عمليتى الإبداع والتذوق كلتيهما (١) ، ولكن الذى ننكره أن يكون هذا التراث قيدا يحد من قدرة الأديب ، ويثقل خطوه ، ويجعله دائماً ملتفتا إلى الوراء . ولكن ينبغى أيضا ألا نتسرع فنجزم بأحكامنا على أدب هذا اللون فنكون قد فرضنا ذوقنا المعاصر على أدب عصر آخر . له معاييره الجمالية ومقاييسه الفنية التى تختلف عن معاييرنا ومقاييسنا .

وربما كان تحرى أسباب هذه الظاهرة أجدى للأدب ودرسه من أن ننعى على هؤلاء الأدباء ذوقهم الذى راق لهم ، وراق لمتأدبى عصرهم .

ولا يمكن أن نرد هذه الظاهرة إلى سبب واحد . فهناك جملة أسباب تشابكت وتضافرت فى أن تصل بالذوق الأدبى إلى هذا .

ومن هذه الأسباب ما يتصل بالنقاد والبلاغيين الذين راحوا يملون على الشعراء ما يجب أن يتبعوه من نهج القصيدة العربى . وما ينبغى عليهم أن يسلكوه من أساليب فى أغراضهم المختلفة . وهذا ربما دفع الشعراء والكتاب إلى مضيق لم يكن ثمة خروج منه إلا بالرجوع إلى الوراء .

---

(١) انظر الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة . مصطفى سويف ص ١٤٩ وما بعدها .

ومن هذه الأسباب أيضا ما يتصل بالدين ، وعلينا ألا يغيب عن أذهاننا أن العصر عصر حروب طاحنة كلها تبغى النيل من الإسلام وحضارته، وربما كان احتضان القديم والعكوف عليه يتم بدفع الحفاظ على الإسلام وحضارته والتشبث بأمجاده الزاهية التى تشرق من هذا التراث .

وسبب آخر دينى أيضا هو القرآن الكريم وما ضمنه من حياة متجددة ومستمرة للتراث الأدبى العربى جاهلية وإسلامية إذ فى ضوء هذا التراث يفهم المسلمون كتابهم ، ويدركون مرامى كلمة ، ومقاصد آية .

ثم إن هناك أيضا مسألة الازدواج اللغوى ، حيث فشت العامية ، وبعد البون بينها وبين اللغة الفصحى ، وربما كان من آثار ذلك على حد قول الدكتور الأهوانى «أن يرتبط الشاعر بالماضى أكثر من ارتباطه بحاضره ، وأنه يظل ينظر إلى التراث القديم نظر اكبار وتقديس إلى حد يجعله أسير هذا التراث لا يستطيع انفكاك منه ، ولا الخروج عليه ، وان ادعى أحيانا غير ذلك وسر هذا الارتباط هو ما يعتقده الشاعر بحق من أن اللغة التى يتعلمها تعلما ، ويتكلف التعبير بها تكلفا كانت عند أصحاب التراث الأول سليقة وطبيعة» . (١)

٢ — الشغف بالبديع :

وهذه سمة ثانية من سمات هذا اللون الخاص من الذوق الأدبى ، حيث تسلط البديع ، وأصبح مطلبا ينشد لذاته ، وراح بلاغيو العصر يفتنون فى اختراع ألوانه ، والتوسع فى فنونه ، حتى وصل به ابن أبى الاصبع إلى مائة

---

(١) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر ص ٢٧ .

وخمسة وعشرين لونا ، ووصل به ابن حجة فى بديعيته إلى ما يقرب من مائة وأربعين لونا .

ولا ريب أن ابن أبى الاصبع وابن حجة فهما البديع بمعناه العام فأدرجا تحته كل ألوان البلاغة العربية ، كما أنهما أدخلا فيه أشياء من مباحث النحو وأخر من مباحث العروض . ولكن هذا يدل على مبلغ تسلط الذوق البديعى على متأدبى هذا العصر . وحسبنا أن نرى تلك الأنواع المختلفة للجناس التى أخذ يفرعها ابن حجة فى خزانته ، فهناك المركب ، والمطلق ، والملفق ، والمذيل ، واللاحق ، والتام ، والمطرف ، والمصحف . والمحرف ،واللفظى ، والمقلوب ، والمعنوى . اثنا عشر لونا ، هذا بخصوص الجناس وحده .

ويكفى أن نعرف أن فنا شعريا قائما بذاته فى هذه الحقبة اتخذ البديع غرضا له ، ذلك فن البديعيات ، حيث ذهب المشغوفون بهذا الفن إلى نظم قصائد فى مدح الرسول — صلى الله عليه وسلم — ضمنوا كل بيت من أبياتها لونا من ألوان البديع ،فعرفنا بديعية العميان ،وبديعية صفى الدين الحلى،وبديعية ابن حجة التى شرحها فى خزانته . وظهرت أيضا بديعيات مسيحية اتخذت من مدح المسيح عليه السلام — لها لعرض الفنون البديعية . (١)

ومهما كان من أمر هذه البديعيات وما فيها من التعمل والتكلف فإنها تعكس ذوق العصر الذى شغف بالبديع أيما شغف .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هناك من نقاد هذا العصر من نادى بالتحرر . وثار على الكثافة البديعية (٢) ، ولكنى لا أظن الأمر كذلك بقدر

(١) انظر : الصبغ البديعى فى اللغة العربية د. أحمد ابراهيم موسى ص ٣٨٠ .
(٢) د. عبده قلقيلة . النقد الأدبى فى العصر المملوكى ص ٤٢٨ وما بعدها .

ما أظنه انتصارا للون بديعي على آخر ، فالصفدى مثلا شغف بالجناس وصنف فيه مصنفا وسمه بجنان الجناس جمع فيه كثيرا من شعره الذى تضمن هـذا اللون البديعى ، بينما راح ابن حجة يتهكم على الصفدى وذوقه ، ويـرى فى الجناس لونا من ألوان العقادة ، ويقول : «وما أظرف ما وقع له (الصفدى) مع الشيخ جمال الدين بن نباته ، وذلك أنه لما وقف على كتابه المسمى بجنان الجناس وقد اشتمل على كثير من هذا النوع سماه «جنان الخناس» . (١) ، ويقول عن الصفدى وغرامه بالجناس فى موضع آخر :

«وكان الشيخ صلاح الدين يقسمن ورمه ويظنه شحما فيشبع أفكاره منه ، ويملأ بطون دفاتره ، ويأتى فيه بتراكيب تخف عندها جلاميد الصخور».(٢)

ولكن ابن حجة وقد حط من شأن الجناس ، وحط أيضا من شأن ألوان بديعية أخرى كالطباق والتشريع (٣) ينتصر للتورية أيما انتصار ، ويراها الغاية القصوى من غايات البديع ، ويرى أنه لا بأس بالجناس ولكن على أن يمتزج بالتورية .

فالأمر اذن ليس أمر ثورة على الكثافة البديعية ، ولكنه تعصب للـون بديعى على آخر .

ثم ما ظنك بذوق يرى الإبداع فى الشعر متمثلا فى قدرة الشاعر فى الكلمة الواحدة على الإتيان بضربين من البديع ، وفى البيت الواحد على إيراد جملة منه (٤) أذلك ذوق ثائر على الكثافة البديعية ؟!

---

(١) خزانة الأدب ص ٢٧ .

(٢) خزانة الأدب ص ٢٦ .

(٣) انظر خزانة الأدب ص ٨٧ ، ١٤٠ ، ١٤٩ .

(٤) انظر خزانة الأدب ص ٤٥٢ .

إذن فلا مناص من التسليم بتسلط البديع على ذوق متأدبي العصر ، ولكن كيف تم ذلك ؟ وكيف ارتفع للبديع هذا اللواء ؟ تلك هي المسألة .

وقد راق لبعض الباحثين أن يعزو الأمر كله إلى قضية اللفظ والمعنى ، وأنه منذ القرن الخامس ازداد أنصار قضية اللفظ ، حتى فهم الأدباء أن العمل الأدبي صنعة لفظية ولا غير . (١) وهذا تعليل سليم إلا أنه يقف عند العرض الظاهري ، وربما كان الأمر أبعد من ذلك .

إن ظاهرة البديع — في ظننا — ترتبط ارتباطا جوهريا بطبيعة الفن الإسلامي الذي يقوم على المنظور الروحي المسطح ، هذا المنظور الذي لا يهتم بالبعد الثالث للصورة ومن ثم يميل إلى التجريد ، كما أنه يميل إلى ملء الفراغ بعناصر كثيفة حتى لا يبقى مجال لعبث الشر المتمثل في إبليس ، وربما تمثل لنا ذلك في فن الرقش العربي «الأرابسك» حيث «نرى العناصر الهندسية المجردة تلتحم بانسجام مطلق ... وهذه العناصر مفروشة في جميع أنحاء رقعة التصوير لا تترك مجالا لثغرة» . (٢)

وإذا علمنا أن هذا الفن العربي «الأرابسك» يقوم على قوانين من النظام ، والتساوي ، والتوازي ، والتوازن ، والتلازم ، والتكرار ، والتغير أمكننا — كما يرى الدكتور عز الدين إسماعيل بحق — «أن نجد مفتاح الدرب الضيق الذي يفضي بنا إلى الأساس المشترك في الفن العربي ، حيث نتبين — فيما بعد — أن الشعر الجميل في عرف النقاد والبلاغيين العرب ينطوي في أساسه على صورة أو عدة صور ميلودية ، ... وعندئذ سنجد تلك القوانين التي تكمن

(١) د. أحمد ابراهيم موسى — الصبغ البديعي في اللغة العربية ص ٣٢٣ .
(٢) جمالية الفن العربي د. عفيف بهنسي ص ٤٦ .

خلف الإيقاع والميلودي تتمثل بأسمائها أحيانا (النظام - التساوي - التكرار) أو تتمثل بأسماء أخرى فى أبواب البديع التى عرفها العرب» . (١)

لا غرابة إذن أن يتسلط الذوق البديعى على الصفوة المتأدبة التى يعد الفكر الإسلامى رافدا هاما من روافد ثقافتها ، ولا غرابة فى أن يصبح البديع مطلبا يقصد لذاته .

وفى شعر هذا اللون يبدو لنا افتتان الشعراء فى عرض الألوان البديعية ؛ إذ راحوا يتلاعبون بالألفاظ والحروف تلاعبا ينم عن كثير من المهارة والحذق

وإذا كان الجناس لم يرق لابن حجة فليس معنى ذلك أن يخلو منه الشعر فابن حجة يصدر عن ذوقه الشخصى ، وربما كان الجناس من أظهر الألوان البديعية فى شعر هذا اللون الخاص واقرأ معى قول صدر الدين بن الوكيل فى مدح قراسنقر :

شمس سما فوق السماء محلـــه   وسنا سناه البـدر فى هالاتــه
بالسيف والقـلم ارتـقى فمضى ذا   لعداتـه ومضى ذا لعداتـه
فالعـلم بـين بنانــه وسنانــه   والحلم من أدواتـه ودواتـه (٢)

فنحن نرى فى هذه الأبيات عدة ألوان من الجناس : الجناس الخطى بين (سما وسنا) والجناس المحرف بين (عداته وعداته) وجناس التصريف بين (بنانه وسنانه) والجناس المطرف بين (أدواته ودواته) .

وفى شعر هذا اللون سيترامى لنا الجناس بلون أو بآخر عند كل الشعراء، فمن الجناس المطلق قول العزازى :

---

(١) الأسس الجمالية فى النقد العربى ص ١٢٢ .
(٢) المنهل الصافى - ٣ / ص ١٣ .

هل من جناح إن جنحت إلى الهوى وعشقت سحار الجفون غريرا (١)

ومنه قول البوصيرى :

فاصرف هواها وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولى يصم أو يصم

وقوله :

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم (٢)

ومن هذا اللون ما نراه فى قول القيراطى :

وطفلة من بنات الترك تاركة أخا الضنا لهواها غير تراك
للقان ينسب قانى خدها فلذا تحت العصائب يبدو بين أتراك (٣)

ومن الجناس المركب المفروق قول شهاب الدين محمود :

ولم أر مثل بشر الروض لما تلاقينا وبنت العامرى
جرى دمعى وأومض برق فيها فقال الروض فى ذا العام ربى (٤)

ومن المذيل قول ابن نباته :

فاح نشرا وبدا فالبدر من حسد خاف ونشر الروض خافت
مثلما قد أقبلت من مصرها أنجم العلم فنجم الشام شامت (٥)

ولم يقف جهد الشعراء فى الجناس عند هذا الحد ، بل راحوا ينظمون

---

(١) الديوان ص ٨ .
(٢) الديوان ص ١٩١ ، ١٩٢ .
(٣) الديوان ص ٣٦ .
(٤) خزانة الأدب ص ٢٨ .
(٥) الديوان ص ٧٨ .

القصائد ، ويجانسون بين قوافيها ، فتبدو القافية وكأنها كلمة واحدة مردده ، ومن ذلك ما نراه فى قول محمد بن أحمد الكندى الدشناوى :

قد كان حالى بكم حاليا لكنها العين أصابت فحالى
فلذة العيش وقد بنتم عن نظر المشتاق عين المحال
والسقم لا يبرح عن جسمه كأنه خصم بدين محال
يا سادة ذبت عليهم أسى لما حدا حاديهم بالرحال
وأوجبوا حزنى كما حرموا على نومى والتسلى محال (١)

وتمضى القصيدة على هذا النسق .

ولم يكن الشغف بفنون البديع الأخرى أقل من الشغف بالجناس ، وإننا واقعون فى شعر الشعراء على العديد من ألوان البديع التى عرفها العصر .

فمن المطابقة قول البوصيرى فى مدح قلاوون :

فغفلته عن شدة الحزم يقظة وغيبته عما يريد حضور (٢)

ومن اللف والنشر قول العزازى :

ملك كأن براحتيه للعدى والسائلين إماتة ونشورا (٣)

وقول محيي الدين بن عبد الظاهر :

وجياد من الأداهم والشهب ترينا ليلا وصبحا مبينا (٤)

ومن الترديد قول القيراطى :

---

(١) الطالع السعيد ص ٤٩٤ .
(٢) الديوان ص ٩٩ .
(٣) الديوان ص ٩٥ .
(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ / ص ٣٢ .

الناصر بن الناصر الملك الذى ... قهر الملوك مؤيدا ومظفرا (١)

ومن التقسيم قول العزازى :

فالبيض تلمع والخرصان دامية ... والخيل تصهل والفرسان تصطدم (٢)

ونطوى هذه الفنون البديعية سريعا لكى نصل إلى التورية تلك التى ازداد بها الشغف ، وحملت رايتها المدرسة المصرية ، وشهد لشعراء مصر بالسبق كل من تحدث عن التورية . يقول الصفدى

«ولكن إذا سلكت محجة الإنصاف ، وظهرت حجة الحق التى هى أكمل الأوصاف وجد شعراء الديار المصرية فى هذا النوع المخصوص من أحد وأجود ، ومتكلمهم إذا قام بالتورية أقعد ، ومقاصدهم على ذلك أسعف وأسعد» . (٣)

وأشار ابن حجة فى أكثر من موضع من خزانته إلى تفوق المدرسة المصرية كما أشار إلى أقطابها البارزين من أمثال محيى الدين بن عبد الظاهر والوداعى وابن نباته .

ويبدو أن غرام المصريين بالتورية غرام قديم ، فهناك من أدباء مصر الفرعونية من نظم نشيدا فى وصف مركبة الملك معددا أجزاءها ، وكان يذكر اسم جزء من المركبة ثم يعود فيكرره بمعنى آخر . (٤)

والشواهد على التورية لا تحصى ، ولكن لا بأس أن نورد هنا بعض

---

(١) الديوان ص ٤٦ .

(٢) الديوان ص ٧١ .

(٣) فض الختام عن التورية والاستخدام ص ١٤٥ .

(٤) انظر ملامح الشخصية د. الصاوى الجوينى ص ١٦١ .

نماذجها ، فمن توريات محي الدين بن عبد الظاهر قوله :

إياكـم أن تنـكروا جعفـــرا ذاك الخيـــالى وأصحابـــــه
فنيـل مصــر كـم لــه جعفـر مخيـل يخـرج فى بابـــه (١)

فهو يورى فى البيت الثانى فى كلمة «جعفر» إذ المعنى القريب جعفـر الذى اخترع خيال الظل بينما هو يقصد معناها البعيد وهو «النهر» ، كـذلك يورى فى «بابه» إذ يتبادر إلى الذهن بابة خيال الظل ، بينما هو يريد شهر بابة من شهور السنة القبطية .

وكثرت توريات ابن نباته ، وهو أحد أقطاب مدرسة التورية ، وأورد ابن حجة فى خزانته كثيرا من تورياته ، ونورد هنا سوى ما أورده ابن حجة قوله موريا فى مدح علاء الدين بن فضل الله :

ذو الفضل قد دعيت رواة فخاره فى الخافقين دعـاءه المتناسبـــا
فالبيت يدعى عامرا ، والجد يـد عى ثابتا ، والمال يدعى السائبا (٢)

فهو كما ترى فى البيت الثانى فى كلمات (عامر ، ثابت ، سائب) .

ويورى فى كلمة «المبرد» قائلا :

وإن كان فيك الحسن أصبح كاملا لقد أصبح اللاحى عليك مبردا(٣)

والقيراطى يشارك ابن نباته فى غرامه بالتورية ، ومن تورياته قوله :

وراع قــدك لمــا صــال عاملـه بناظـر منـه فتـان وفتـــاك (٤)

---

(١) فض الختام عن التورية والاستخدام ص ١٨٤ .
(٢) الديوان ص ٢٧ .
(٣) الديوان ص ١٤١ .
(٤) الديوان ص ٣٥ .

فهو يقصد ناظر المحبوب لا ما يتبادر إلى الذهن من منصب (الناظر) الذى رشح له بقوله (عامل) .

وتمتزج التورية بالجناس فى قوله :

شكوت لحظاً لها شاكى السلاح لقد عجبت لما غدا المشكو والشاكى(١)

والشاهد فى كلمة «الشاكى» آخر البيت .

ومن توورياته قوله مادحا :

عريق مجد فقد ما أصل سؤدده من آدم لخصال المجد حواء (٢)

وكان للبديع شأنه عند الصوفية ، ولعله توافق مع ما كانوا يعتقدونه عن المعانى المخبوءة وراء الحرف ، ومع ما زعموه أن للحروف عالما ، وأنها أمم وأجناس . ومنذ القدم حفلت كتب القبالة التى أثرت فى الفكر الصوفى بكلمات ركبت على نسق خاص ، وبجناسات تصحيفية تستجلب بها القوى الخفية.(٣) هذا إلى جانب ما لبعض فنون البديع من قيمة موسيقية تزيد من تأثير الشعر فى مجالس السماع ؛ حيث تتحول هذه التركيبات البديعية فى أفواه المنشدين إلى ما يشبه التعاويذ والرقى السحرية . ومن هنا نرى سر حرص شعراء الصوفية على التجنيس بألوانه المختلفة . فاسمع مثلا لقول عفيف الدين التلمسانى :

للقضب بالدوح أجياء وأجياد تدنو إليك وتنأى حين تنئاد
وللحباب على شطى جداولها للسيف والعقد نضاء ونضاد

---

(١) الديوان ص ٣٧ .
(٢) الديوان ص ٤٣ .
(٣) انظر : الرمز الشعرى عند الصوفية د. عاطف جوده نصر . الفصل الخاص برمزية الاعداد والحروف ص ٣٩٠ وما بعدها .

فهات كأسك أو لطفاً يقوم بــــه   مقــام كاســك نتــق حين نقاد
فما المدامة أحلى من حديثــك إذ   يجلوه للسمع إنشاء وإنشــاد (١)

أرأيت كيف رصع التلمسانى أبياته بفنون من الجناس منها المذيل، ومنها التام، ومنها جناس التصريف.

ثم انظر كيف ائتلفت ألوان الجناس بإيقاع البحر الكامل عند الشيخ عبد العزيز الديرينى، وتولد عن ذلك موسيقى لها إيقاع خفى جاذب:

تجافــانى الكــرى لمــا جفــانى   كــأنى بالكــرى أحــزان عانى
أردد كالكــرى بــين المعــانى   حليف الشوق لا يحتاج فكــرا
تملت وما مدامى غير ظــلم   وجوب البيــد مختلطــا بظــلم
لئن حكمت عواذلنــا بظــلم   لقــد جاءوا بما أبدوه نكــرا (٢)

وإذا كان هذا شأن الجناس، فقد كان للطباق والمقابلة شأن آخر، وقد استعان بها الصوفية على التعبير عن مواجدهم الغريبة التى تلتقى فيها الأضــداد حيث يحس الإنسان البعد والقرب فى آن واحد. والنعيم والشقاء ممتزجين، والوصل والهجر يجاذبانه أطراف روحه. وانظر كيف التقت الأضداد فى قول الحيمى، وكيف أصبح الوجد مجدا، والذل عزا، والفقر غنى:

وجــدى بـكم مجــدى وذلى عــزتى   والافتقــار إليــكم استغنــانى
يــا أهــل ودى يــا مــكان شكايتى   يا عز ذلى يا مــلاذ رجــائى (٣)

وانظر كيف أصبحت الخيانة وفاء فى حس التلمسانى:

---

(١) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى. د. على الصافى حسين ص ٢٧٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٨٢.
(٣) الأدب الصوفى ص ٣٦٠.

وقد وقفت لعقلى فى شهودكـــم   إذ ختته والوفا وصف لخائنـــه(١)

وانظر إلى عبد العزيز بن أبى الأفراح وهو يتلاعب بألفاظ الوجود والفناء والدنو والنأى :

وجدت بقائى عند فقد وجودى   فلم يبق حد جامع لحـــدودى
فأصبحت مـــنى دانيـــا بمعـــارف   وقد كنت عنى نائيا لجمودى (٢)

كذلك ألم شعراء الصوفية ببعض الألوان البديعية الأخرى كالتورية إلا أنهم مزجوها بمعان عرفانية ، وصبغوها بصبغة رمزية ، ونرى ذلك فى قول ابن أبى الأفراح :

وإن أمرتنى نتأتى غير نسبـــتى   فصالح آبائى نذيــر ثمـــودى
سألقى عصاى فى رحاب تجـــردى   ليأتى من نحو القبـــول رفودى(٣)

ومما شاع فى شعر هذا اللون الخاص استخدام مصطلحات العلوم ، ولا يغيب عنا . أن معظم متذوقى هذا اللون كانوا من الفقهاء ، أو ممن تغلب عليهم النزعة التعليمية لذلك لا غرابة أن يفنّن الشعراء فى التلاعب بمصطلح العلوم من نحو وفقه وبلاغة إلى آخر ذلك ، ولا غرابة أيضا أن يعجب بـذلك بلاغيو العصر ونقاده ويضعون له اسما بديعيا هو التوجيه .

وشغف البوصيرى بعلم النحو فراح يستمد منه كثيرا من صوره ، ويتلاعب بعديد من مصطلحاته . فانظر إلى قوله فى مدح الرسول عليه السلام :
خفضت كل مقام بالإضافـــة إذ   نوديت بالرفع مثل المفرد العلم (٤)

(١) الديوان ص ١٥ .
(٢) الأدب الصوفى ص ٣٨١ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٨١ .
(٤) الديوان ص ١٩٧ .

وإلى قوله فى مدح أيدمر عز الدين :

لكل شرط جـزاء من مكارمه   وكل مبتدأ منها له خبر (١)

وإلى قوله فى مدح قراسنقر :

فيا مصدر الفضل الذى الفضل دأبه   فما اشتق إلا منه للفضل مصدر (٢)

أما أحمد بن هبة الله الأرمنى فراح يتلاعب بمصطلحات البلاغة من استعارة ومجاز قائلا :

صفات علا مهما أضيفت إلى اسمه   غدت حللا للفخر وهو طراز
فنسبتها إلا إليه استعارة   وإطلاقها إلا عليه مجاز (٣)

ويتلاعب ابن نباته بمصطلحات العروض فى قوله :

أى فرع نما فمد ظلالا   سابغاً ذيلها على الطلاب
وافر المكرمات منسرج اللفظ   طويل الثنا مديد الثواب(٤)

ويقول أيضا فى مدح علاء الدين بن فضل الله مضيفا إلى مصطلحات العروض مصطلحات علم الحديث :

ذو البيت إن حدثت عنه العلا خبرا   جاءت بإسنادها عنه أبا فأبا
بيت أفاعيله فى العلم وازنة   فما تراه غداة المدح مضطربا (٥)

---

(١) الديوان ص ٨٩ .
(٢) الديوان ص ١١٩ .
(٣) الطالع السعيد ص ١٣٦ .
(٤) الديوان ص ٣٩ .
(٥) الديوان ص ٢١ .

ويتغزل القيراطى فيتلاعب بألفاظ التجريح والتعديل من مصطلحات علم الحديث :

جـرى بتجريح جفنى بالبكا قلم ... من حيث علك البارى وسواك(١)

وفى أشعار الصوفية تتردد أيضا مصطلحات العلوم ولكنها تصطبغ بصبغة عرفانية رمزية يكتنفها غموض شديد كما نرى فى قول عفيف الدين التلمسانى :

رفعنـا عـن الإعـراب رفع محمد ... لقـام ولـما عنـه ينـفى محمـدا
إذا لم يكن مـا قام يطلب فاعـلا ... سـواه رفعنـاه بـه فتأكـدا
فإلا وإن دلت على الفرق ظاهـرا ... فتحقيق حكم الرفـع بجعلها سدى(٢)

هذا عن البديع والشعر ، فإذا تركنا الشعر إلى النثر وجدنا أن الأمر هو هو ووجدنا كل هذه الالوان البديعية تتراءى فى أعمال الكتاب مضافا إليها السجع بما افتن فى تفصيل ألوانه وأنواعه بلاغيو العصر ، فهناك المتوازى، والمتوازن والمرصع ، وهناك حدود ومقادير للفقر المسجوعة وما يحسن من ذلك وما لا يحسن(٣).

وأصبحنا نقرأ العمل النثرى رسالة كان أم مفاخرة أو مقامة فنراه — كاللوحة التى افتن صاحبها فى توشيتها فهنا جناس محرف ، وهنا جناس خطى وهنا تورية وهنا طباق والسجع ملتزم مع هذا وذاك ، واقرأ معى لصلاح الدين الصفدى من مقامته لوعة الشاكى ودمعة الباكى ما يقوله على لسان غلامه :

«وقال : أنت حياك الله ورقاك ، وسلمك من دواعى الهوى ووقاك، ولا أسهر لك جفناً من جفاء الحبائب ، ولا أوقعك من هجر المحبوب فى مصائد المصائب ،

(١) الديوان ص ٣٥ .
(٢) الديوان ص ٢٠ .
(٣) انظر ص ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ حسن التوسل .

ولا أحرق لك قلبا بنار البعد والفراق ، ولا لك أغرق جفنا بسيل المدمع المهراق ، ولا شغل فكرك بتجنى الحبيب وصده ، ولا أذاقك منه مرارة هجره وألم بعده ، ولا أوقعك من تجافيه فى بحار الأرق والسهر ، ولا سلبك رونق الوصال والاجتماع ، ولا راعك بيوم التفرق والوداع ، بل عطف الله عليك الأعطاف» . (١)

فمع التزام السجع كان الصفدى مشغوفا بالجناس ، فأخذ يعرض علينا فنوتا منه بين (رقاك ووقاك) وبين (مصائد ومصائب) وبين (أحرق وأغرق) وبين (عطف وأعطاف) . كذلك نلمح ما أتى به من طباق بين الوصال والاجتماع وبين التفرق والوداع .

وكما شغف محيى الدين بن عبد الظاهر وابن نباته بالتورية فى شعرهما ، شغفا بها فى نثرهما أيضا فنقرأ لمحيى الدين بن عبد الظاهر من قوله فى خطابة صداق السعيد بركة بن بيبرس :

«ونسج صهارة يتم بها — إن شاء الله — كل أمر سديد ، ويتفق بها كل توفيق تخلق الأيام وهو جديد ، ويختار لها أبرك طالع ، وكيف لا تكون البركة فى ذلك الطالع وهو السعيد» . (٢)

ونقرأ لابن نباته قوله فى وصف النيل :

«هذا وطالما قابلنا بوجه جميل ، وسمعنا عنه كل خبر خير ثابت ويزيد كما قال جميل» . (٣)

فهو يورى فى كلمتى ثابت ويزيد .

---

(١) لوعة الشاكى ودمعة الباكى ص ١٠ .

(٢) صبح الاعشى حـ ١٤ ص ٣٠١ .

(٣) صبح الاعشى حـ ١٤ ص ٢٧٥ .

ذلك شأن البديع وسطوته على هذا اللون الخاص من الذوق ، ولا ريب أن فيه ما يستسيغه القارىء العصرى كما أن فيه أيضا ما تتكره أذواقنا ولكن ما لذوقنا وذوق هؤلاء وهم يصدرون عن مفهوم فى الأدب غير مفهومنا .

٣ — الأغراب والذهنية :

سبق أن أشرنا إلى اعتقاد ساد النقاد والبلاغيين والأدباء من أن القدماء أتوا على المعانى ولم يبق للمحدثين شىء . وأشرنا إلى أثر هذا الاعتقاد على الأدب إذ دفع الأدباء إلى مضيق لم يكن أمامهم لتفاديه سوى الارتداد إلى الوراء . وربما حاول بعضهم أن ينفذ منه فلم يكن أمامه سوى الإغـــراب والذهنية .

الإغراب والذهنية اذن كانا محاولة من الأدباء لكسر الجمود أو للابتكار حسب مفهومهم للأدب وللأبتكار فيه . وربما قر فى خلدهم أن الابتكار هو أن يأتى الأديب بما لم يسبقه إليه غيره .

وراح البلاغيون يؤصلون لهذا الاتجاه ، فيقول ابن أبى الاصبع فى باب النوادر «ومن الإغراب قسم آخر ، وهو أن يعمد الشاعر إلى معنى متداول، معروف ليس بغريب فى بابه فيغرب فيه بزيادة لم تقع لغيره ليصير بها ذلك المعنى المعروف غريبا طريفا . وينفرد به دون كل من نطق بذلك المعنى»(١)

ويأتى بعد ذلك «ابن حجة» فيفسر ما قال ابن أبى الإصبع إذ يقول :

«وبيان ذلك أن تشبيه الحسان بالشمس والبدر مبذول معروف قد ذهبت طلاوته لكثرة ابتذاله ، وكأن سابق المتقدمين وقبلة المتأخرين القاضى الفاضل أنفت نفسه من المثابرة على هذا الابتذال ، وكثرة تشبيه الحسان بالبدر فقال :

---

(١) تحرير التحبير ص ٥٠٨.

تبراءى ومـرآة السماء صقيلـة   فأثـر فيهـا وجهه صورة البدر

سبحان المانح» . (١)

هكذا أصبح الإغراب مرادفا للطرافة ، وأصبحت آى الابتكار أن يشغل الشاعر أو الناثر ذهنه بتلفيق صورة غريبة لم يسبق إليها ، وهذا — حسب مفهومنا الحديث — منعطف خطير فى عالم الأدب ، ومصدر الخطورة فيه أنه يوجه اهتمام الأديب إلى تفريعات جزئية كتصيد تشبيه أو تلقط استعارة أو إغراب فى لون من ألوان البديع ، ولم يدرك الأدباء أن الابتكار غير هذا ، وأن أساس الابتكار أولا وأخيرا هو الأصالة ، وهى أن يترجم الأديب عن نفسه بصدق ، وهذا الصدق لا يتوقف على لفظة أو صورة جزئية وإنما هو نبض يسرى فى أوصال العمل الأدبى كله ، ويؤلف منه صورة فريدة تحمل طابع الأديب ، وتصور ذاته ، وهذا — فيما أعتقد غاية ما يطمح إليه أديب من ابتكار ، ولكن هذا شىء ومفهوم العصر المملوكى شىء آخر . إن العمل الأدبى عندهم لم يكن بناء وجدانيا صرفا بل هو بناء ينفسح فيه المجال للجهد الذهنى إلى آخر مداه .

وكان صدى هذا المفهوم فى عالم الشعراء ما نراه من جرى الشعراء إلى الإغراب ، ومن ثم يتحول الشعر فى أيديهم إلى عمل ذهنى بحت يفقد حرارته وتأثيره ، وقد يفيدنا فى ذلك نص طريف للصفدى يمثل تجربته شاعرا يحاول أن يأتى بالجديد ، ويقول ما لم تقله الأوائل ، فبعد أن يقدم بما يفيد أن الشعراء ابتذلوا معنى الدمع بالحمرة فحاول بعضهم الخروج عن ذلك بنقل الحمرة إلى سواها من الألوان يقول :

---

(١) خزانة الأدب ص ٢٧٦ .

«وكنت قد كلفت نظم شيء في الدمع الأخضر فاتفق لي هذا المعنى فنظمته وهو :

يقول عذولي ما لدمعك أخضرا ... جرى في هوى ظبي غلا في نفاره
فقلت صفا دمعي وقابلت صدغه ... فأبصرت فيه لون آس عذاره

ثم يقول :

«وتبرعت بالنظم في الدمع الأصفر فقلت :

وقائلة ما بال دمعك أصفرا ... فقلت لها ما حال عن أصل مائه
ولكن خدي اصفر من سقم الهوى ... فسال به والماطون انائه

ثم يقول :

«فقيل لي لم يبق إلا الدمع الأزرق فقلت :

قالت وقد نظرت لزرقة أدمعي ... أكذا يكون بكاء صب شيق
فأجبتها قد مات في جفني الكرى ... فجرت دموعي في الحداد الأزرق(١)»

هذا هو الجديد الذي أتى به الشاعر الصفدي ! ! وماذا نطلب منه ؟ ألم يأت بما لم يأت به غيره ؟ ألم يستبدل اللون الأصفر والأخضر والأزرق باللون الأحمر الذي درج الشعراء عليه ؟! ألم يعمل ذهنه ويكد عقله في إيجاد العلة المناسبة لأصفرار الدمع واخضراره وزرقته ؟ وهل لنا أن نحاسبه على مفهومه للتجديد وعصره يستملح ذلك ويستطرفه ، فمرة يكلفونه بالنظم في الدمع الأخضر . ومرة يقول قائلهم : لم يبق إلا الدمع الأزرق .

---

(١) تشنيف السمع في انسكاب الدمع ص ١١ ، ١٢ .

ولم يقف الصفدى عند هذا الحد ، بل راح يؤصل لهذا المفهوم الذهنى ناقدا أيضا ، ونسوق هنا أيضا تعليقه على أبيات ابن دقيق العيد :

كم ليلة فيك وصلنا السرى لا نعرف الغمض ولا نستريح
واختلف الأصحاب ماذا الذى يزيل من شكواهم أو يريح
فقيل لى : تعريسهم ساعة وقلت : بل ذكراك وهو الصحيح

يقول الصفدى :

«انظر إلى هذا النظم ما ألطف تركيب ألفاظه وأحلاه وكونه استعمل طريق الفقهاء فى البحث فى ذكر اختلاف الأصحاب وأنه قيل كذا وكذا وقيل كذا وقلت : كذا وهو الصحيح كأنه إمام الحرمين وقد ألقى درسا فى مسألة فيها خلاف بين الأصحاب ، وقد رجح ما رآه عنده من الدليل ، وما رأيت أحسن من هذا» . (١)

على هذه الأسس الذهنية أقام الصفدى نقده ، وبنى تذوقه للشعر وبصرف النظر عن قبولنا أو رفضنا لما يقوله الصفدى ناقدا ، ولتجربته شاعرا ، فهو نموذج نهتدى به فى فهم تجارب سائر الشعراء فى عصره ، والوقوف على سر هذه الذهنية فى كثير من شعرهم . إنها — إذن — محاولة الإتيان بالجديد .

انظر مثلا إلى محيى الدين بن عبد الظاهر يحاول أن يأتى بصورة جديدة ؛ يحاول أن يفضل محبوبته العصرية على البدويات اللاتى تغزل بهن شعراء العرب لقد كانت المرأة البدوية — كما عرف من قراءته — تسكن فى خيمة من الشعر ومحبوبته المعاصرة مرخاة الشعر ، هذه فرصة ملائمة لن يدعها الشاعر تفلت من يده ، فليشبه شعر محبوبته بالبيت ، وهى صورة غريبة طريفة ؛ وهى

---

(١) الغيث المنسجم ج ١ ص ١٨٧ .

فرصة أيضا ليحدث الجناس بين شعر المحبوبة وشعر الخيمة :

ولا بيتها شعر بلى اذا تمشطـــت وأرخت عليها شعرها بيتها الشعر (١)

ولاشك أن هذا الابتكار أجهد الشاعر ولم يصغ المعنى إلا بمشقة فوقع فى الركاكة والتفكك من استخدام الحروف والظروف القلقة فى أماكنها .

وانظر إليه مرة أخرى يقول :

شكــرا لنسمــة أرضــكم كم بلغـت عـنى تحيـــة
كم قــد أطالـــت بـل أطـا بــت فى رسائلهـا الذكيـــة
لا غــرو أن حفظـت أحـا ديث الهوى فهى الذكيـة (٢)

ونحاول مرة أخرى أن نتتبع فكر الشاعر فى صياغته لهذه الأبيات ، لا ريب أنه بعد أن كتب البيت الأول شعر أنه لم يأت بجديد ، هذا معنى متداول ابتذله الشعراء ، فليولد منه — إذن — وليضف إليه ، فليجنح إلى البديع ويجانس بين أطالت وأطابت فى البيت الثانى ، ولكن مازال يشعر أنه لم يأت بجديد ، وأخيرا ها هو يقع على ضالته فى البيت الثالث ، فيتصيد تلك التورية فى كلمة «الذكية» ويعلل لها هذا التعليل الذى — لا ريب — سيعجب متفقهى عصره وهم يرون فيه انعكاسا لبعض بيئتهم العلمية .

وانظر اليه مرة ثالثة يصف شبابه فيقول :

وناطقــة بالنفــخ عـن روح ربها تعبر عما عندنا وتترحـــم
سكتنا وقـالت للقلوب فأسمعت فنحن سكوت والهوا يتـكلم (٣)

---

(١) الديوان ص ٢١ .
(٢) سلوك السنن فى وصف السكن لوحة ١٩ .
(٣) جلوة الذاكرة وخلوة الخاطرة للصفدى ص ٤٣ ، ٤٤ .

سبحان المانح !! على حد قول ابن حجة ، أرأيت إلى هذا الابداع ؟ أرأيت كيف جعل الشاعر الهواء يتكلم ؟ وكيف أشكل على القارىء إذ ساق معناه هذا فى تورية غريبة فى كلمة «الهواء» ؟

وتمثلنا لابن عبد الظاهر يلقى الضوء على كثير مما نراه من محاولات الشعراء إذ ذاك للاتيان بالجديد . إنهم مندفعون نحو الإغراب ، وهذا الإغراب يقودهم إلى الذهنية ، واقرأ معى قول ابن نباتة :

وخاطر خنث الأشواق تعجبه ... سوالف الترك فى عطف الأعاريب
كأننى لوجوه الغيد معتكف ... ما بين أصداغ شعر كالمحاريب
كأننى الشمع لما بات مشتعل الفؤاد قال لأحشاء الأسى ذوبى (١)

وليس بخاف ما فى هذه الأبيات من كد الذهن وعمل العقل ، فالشاعر شغل بجمع النظير إلى نظيره ، لقد وصف نفسه بأنه معتكف فشبه الأصداغ بالمحاريب ، وأتى فى البيت الثالث بالشمع فكان لزاما عليه أن يذكر الاشتعال والذوبان .

وربما اتجه جهد الشاعر إلى تلفيق صورة متخيلة يلم شعثها من هنا وهناك ، ونحن نقرأ فنحس مقدار ما أتعب الشاعر عقله فى تلفيق الصورة ، وانظر إلى ابن نباته يصف الناعورة فيلفق هذا التشبيه الغريب :

ناعورة بمنازل البحر اقتضت ... فى حالة التشبيه بث عجائب
فلك يدور على المجرة مطلقاً ... أسنى الكواكب وهى ذات ذوائب (٢)

وهكذا يتحول العمل الشعرى إلى عمل عقلى ، وكأن الشاعر لا يتوجه بشعره إلى وجدان القارىء وحسه وإنما يتوجه به إلى عقله ، فلا عجب أن

---

(١) الديوان ص ٢١ .
(٢) الديوان ص ٦١ .

نقرأ للقيراطى فى مدحه لابن الشهيد :

فى لام خدك عذال الهوى باءوا بإثم من لا له لام ولا باء

ونقرأ له من القصيدة نفسها :

بقاف أقسم لولا نون حاجبه لم يغن صاد ولا باء ولا راء

نعم ولولا معانى ابن الشهيد سمت لم يحل ميم ولا دال ولا حاء (١)

هكذا تصير مهمة الشاعر أن يتلاعب هذا التلاعب الذهنى بالحروف ، فيحل الألفاظ وتصير مهمة القارىء أن يعيد جمع شتاتها .

بل إن الأمر تحول إلى عملية رياضية حسابية ، إذ أصبح على القارىء أن يكون ماهرا فى الجمع والطرح ليفهم الشعر ، وإلا كيف نفهم قول محمد بن عبيد الله بن جبريل فى فتح حصن «عكار» :

إن سلطان البرايا زاده الله سعاده

قتل الأعداء رعبا وله بالنصر عاده

حصن عكار فتوح وهو عكا وزياده (٢)

أرأيت أنه ينبغى على القارىء أن يطرح عكا من عكار ليعلم أن عكار تساوى عكا مضافا إليها حرف الراء ؟!

ومن هذا القبيل قول محيى الدين بن عبد الظاهر :

حصن عكار ما صفا قط يوما من الكدر

كيف يصفو الذى ثلا ثة أرباعه عكر (٣)

---

(١) الديوان ص ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) المنهل الصافى ج ٣ / ص ١٢٤ .
(٣) الغيث المنسجم ج ٢ ص ٣٣٢ .

ويتمثل هذا الجهد الذهنى الرياضى أيضا فيما نراه من شغف بعض الشعراء بما عرف فى البديع إذ ذاك بالقلب ، وهو أن نقرأ الكلمة طردا وعكسا ، وراح الشعراء يمزجون ذلك بألوان بديعية أخرى كما نرى فى قول عفيف الدين التلمسانى :

أسكرنى باللفظ والمقلة الكحلاء والوجنة والكاس

ساق يرينى قلبه قسوة وكل ساق قلبه قاس (١)

ومنه قول الصفدى :

كيف يطير الفؤاد من جزع وكل سار قلبه راسى (٢)

وحسبنا أن نقرأ ما وصف به الصفدى كده فى صياغة هذا البيت من طول التفكير والعكوف على الدفاتر . (٣)

ومن الذهنية أيضا ما شاع بين الشعراء آنذاك من نظم القصائد على حروف المعجم فالبيت الأول يبدأ بالألف والثانى بالباء والثالث بالتاء. وهكذا كما نرى فى صنيع محمد بن أحمد الدشناوى إذ يقول فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

أبيت سوى مدح خير الورى فأصبح نظمى وثيق العرا

بروحى صفات تحلى القريض وتسبكه ذهبا أحمرا

ثعين القريحة أنى ونت وتبرز ألفاظها جوهرا

ثراء الفقير امتداح البشير فمهما اطرا المدح فيه طرا (٤)

(١) الغيث المنسجم جـ ٢ ص ٤٠٤ .
(٢) الغيث المنسجم جـ ٢ ص ٤٠٥ .
(٣) أنظر الغيث المنسجم جـ ٢ / ص ٤٠٥ .
(٤) الطالع السعيد ص ٤٩٠ .

وتمضى القصيدة على هذا النسق حتى حرف الياء

ومن قبل الدشناوى كتب الجزار معشراته التى وسمها بالضراعة الناجحة والبضاعة الرابحة فى مدح الرسول عليه السلام ، وكل معشر من هذه المعشرات يلتزم فى بداية أبياته حرفا من حروف المعجم ، فيقول مثلا فى المعشر الذى يلتزم حرف الهمزة :

إمام الورى المنعوت من آل هاشم　　لنا ولرسل اللـه فيك رجـاء
إذا بعث الله النبيين فى غـد　　وضمهم للهاشمى لـواء

ويمضى على هذا النسق عشرة أبيات تبدأ كلها بحرف الألف ، ثم ينتقل إلى حرف الباء فيصنع الصنيع نفسه ، وهكذا حتى يأتى على حروف المعجم (١)

وتتمثل الذهنية أيضا فيما عرف على هذا العهد بفن «الشتويات» ونرى فيه كيف أصبح الشعر رياضة ذهنية أو قل لونا من ألوان التسلية العقلية يستعين به الشاعر على إيناس وحدته فى ليالى الشتاء ، فيختار بحرا من بحور الشعر العصية ويختار قافية من القوافى الصعبة ، ويحاول أن يروض ملكته بالنظم على ذاك البحر وهذه القافية واصفا الشتاء برعده وبرقه ومطره ، ولشهاب الدين بن فضل الله العمرى عدة قصائد فى هذا الفن ، نسوق بعض قصيدة منها بعث بها إلى ابن نباته :

البرق فى كانونه قد نفخ　　والثلج فى جيب الغوادى نفخ
قد زجر الرعد بآفاقه　　كأنه مما دهاه صرخ
هذا وقوس النوء فى أفقه　　كأنما قد نصبوا منه فخ

(١) أنظر الضراعة الناجحة والبضاعة الرابحة . أبو الحسين الجزار .

قد شد عقدا عاليا أو بنى ... قنطرة فى الحال ثم انفسخ
والأرض كالمنقوش أو هذه ... خميرة من فوقه قد لطخ
لم تبق أرض قد زكا زرعها ... حتى طواها ثم رد السبخ
قد نسخ الليل بأضوائه ... لا صحت يا قوم هذى النسخ
وامتلأ الوادى بإمداده ... كأنه القربة مما انتفخ (١)

ولا ينبغى أن نجهد أنفسنا بعد ذلك فى تلمس نبض أو عاطفة وراء هذه الأبيات ، فبحسب الشاعر أن راض نفسه على هذه القافية الصعبة . وربما أداه ذلك إلى العكوف على المعجم زمنا ليقف على تلك الكلمات التى تنتهى بحرف الخاء . ومثل هذا — حسب مفهومنا الحديث — لا يعد من الشعر فى شىء وإنما هو عمل الذهن ، وكد العقل .

وإذا تركنا الشعر إلى النثر وجدنا الأمر لا يختلف ، ووجدنا أن الإغراب والذهنية سبيل الكتاب كلما حاولوا الابتكار ، ونراهم أيضا يصنعون صنيع الشعراء نفسه من محاولة اقتناص الصور الغريبة من استعارة أو تشبيه ، أو الإغراق فى البديع وألوانه لحد يصل به قولهم إلى الغموض ، وليس أدل على ذلك من قول الشهاب محمود فى وصف النيل :

«وسره نبأ النيل الذى عم نيلا ، وجر على وجه الأرض ملاءة ملأته ، فشمر المحل للرحلة ذيلا ، وجرد على الجدب سيف خصبه فسال محمر دمه على وجه الصعيد سيلا . وجرى وسرى فى ضياء إشراقه وظلمة تراكمه إلى الأرض التى بارك به حولها ، فجل من أجراه نهارا ، وسبحان من أسرى به ليلا» (٢)

فنى هذه السطور تلمس مدى جرى الكاتب وراء البديع ، وهذا أوقعه

(١) ديوان ابن نباته ص ١٢١ .
(٢) نهاية الأرب جـ ٥ / ص ١٤١ .

كما ترى فى التكلف الممجوج الذى نراه فى قوله «عم نيلا» وفى قوله «ملاءة ملأته» . وانظر أيضا إلى هذا اللف والنشر الذى جعل عبارته شديدة الغموض والإبهام فهو يقصد أن يقول : وجرى فى ضياء إشراقه ، وسرى فى ظلمة تراكمه إلى الأرض التى بارك الله به حولها . فكيف صاغه ؟ قال «وجرى ، وسرى فى ضياء إشراقه وظلمة تراكمه إلى الأرض التى بارك به حولها» .
وراح الكاتب يحاول الابتكار فى التصوير فشبه الخصب بالسيف ولكنه شعر أنه لم يأت بجديد ، فلجأ إلى التفصيل ذاكرا كيف سال محمر دم الجدب على وجه الصعيد ، قاصدا بدم الجدب ماء النيل ، وفى ذلك ما فيه من العنت ومجافاة الذوق السليم ، ولكنه عمل الذهن .

وانظر معى أيضا إلى قول محيى الدين بن عبد الظاهر مهنئا بفتح طرابلس «والغزو الذى لا تخص تهامة ببشراه بل جميع والنجود والتهائم ، ذوو الصوارم والصرائم ، وأولو القوى والقوائم ، وكل ثغر عن ابتهاج أهل الإسلام باسم ، وكل بربر بتوصيل ما ترتب عليه من ملاحم ، وكل بحر عذب يمون كل غاز لا يحبس عن جهاد الكفار فى عقر الدار الشكائم ، وكل بحر ملح كم تغيظ من مجاورة أخيه لأهل الشرك ومشاركتهم فيه فراح وموجه المتلاطم» . (١)

أرأيت إلى هذه الذهنية ، اننى أكاد أحس بفكر الكاتب المجهد وتكاد تلفحنى أنفاسه اللاهثة وهو يجرى وراء هذه الألوان البديعية وهذه الصور المتكلفة .

أرأيت إلى هذا التكلف فى تلفيق الجناس بين (تهامة والتهائم) ؟ ،

(١) نهاية الأرب جـ ٨ / ص ١٥٦ .

و(الصوارم والصرائم)و (القوى والقوائم) و (بروبر) ، ثم أرأيت إلى هـذا السخف فى التورية فى كلمة (ثغر) وكيف أخذ بمط العبارة ويطيل فيها ليأتى بكلمة (باسم) مرشحا لتوريته . ثم أرأيت كيف أفضت به هذه النزعة العقلية إلى تفكك العبارة وغموضها ؟

وفى هذه الرسالة نفسها نقع على صورة أخرى غاية فى السخف ، ولكن لاشك أن ابن عبد الظاهر خيل اليه أنه وقع على كنز عظيم حين راح يشيد بجهود الأشرف خليل قائلا :

«وارسال أعنة الأقلام فى ميادين الطروس ، وإدارة حرباء وصف خير حرب إلى مواجهة خير الشموس» . (١)

وسنغفر له تشبيه الأقلام بالخيل ، والطروس بالميادين مع نبوها عن الذوق ولكن ما حرباء الوصف هذه التى سيديرها الكاتب إلى خير الشموس ؟!

وبعد ، فإذا كنا قد قسونا بعض الشىء على هؤلاء الأدباء شعراءونائرين فما ذلك إلا أننا نطل على أدبهم من مفهوم حديث ، ونتذوقه بذوق عصرى لم نستطع التجرد منه ، وربما كان الإنصاف يقتضينا ألا نحاسبهم الا بمفهوم عصرهم ، وبالذوق الذى يصدرون عنه ، ويلبون متطلباته الجمالية .

والحقيقة أن هؤلاء الأدباء — فى إطار مفهومهم عن الأدب — نقلوا لنا نبض عصرهم ، وعالجوا قضاياه الهامة .

وحتى إن حاسبنا هؤلاء الأدباء بمفهوم عصرنا عن الأصالة فسيبقى من أدبهم جملة صالحة : سيبقى كثير من شعر المتصوفة ، وسيبقى عديد من المدائح النبوية . وسيبقى حشد من الأغزال نحس فيها نبض الشعراء ، وأحاسيسهم

---

(١) نهاية الأرب جـ ٥ / ص ١٥٧ .

المغتربة إذ تبدو المحبوبة وكأنها تجسيد لأمل ضائع أو حلم منشود .

وفى ميدان النثر سيبقى لنا كثير من المقطعات الرائقة التى تحمل الروح المصرى ، وسيبقى بعض تلك المفاخرات التى أسقط الكتاب عليها إحساسهم بقضايا عصرهم .

ولا أظننا فى حاجة لأن ندعم قولنا هذا بالشواهد ، فقد مر بنا فى ثنايا هذا البحث أمثلة لكل ذاك .

ثانيا : اللون العام :

ونقصد به ذلك اللون الذى يمثل ذوق الجمهور العريض من الناس ،وقد اتجه الأدباء إلى العامة يترضون أذواقهم منذ أمد ليس بالبعيد ، بعد أن فقدوا حظوتهم فى بلاط الخلفاء والملوك والسلاطين ، وبعد أن جلس على كرامى الحكم غرباء عن اللسان العربى ، لا يفهمون أدبه . وإن فهموه فنادراً ما يتذوقونه ، وليس أدل على ذلك من هذه الشكوى التى تتردد صارخة فى شعر مصر المملوكية من كساد سوق الأدب ، وفساد الأذواق ، وضيعة الشعر فنسمع قول الجزار :

كيف لا أشكر الجزارة ما عشت حفاظا وأهجر الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجينى وبالشعر كنت أرجو الكلابا(١)

ونسمع قول الوراق :

أصون أديم وجهى عن أناس لقاء الموت عندهم الأديب
ورب الشعر عندهم بغيض ولو وافى به لهم حبيب (٢)

---

(١) المغرب ج ٤ / ص ١٣٥ .
(٢) خزانة الأدب ص ٣٠٣ .

إذن فلم يكن هناك مناص أمام الأدباء من أن يتجهوا بأدبهم إلى الشعب ، وهم فى ذلك لابد وأن يرضوا أذواق العامة ، ويجعلوا من أدبهم تعبيرا عن وجدانهم وحاجاتهم ، واهتماماتهم ، وهذا الأدب وإن كنا نفقد فيه تلك القيم العليا التى حرص الشعراء والأدباء الذين عاشوا فى بلاطات الحكام على التغنى بها ، فإننا لن نفقد فيه صدق التعبير وواقعية الأداء ، وارتياد الأدباء لمجالات جديدة كانوا قبل ذلك عازفين عنها أو قل مترفعين عليها . (١)

وهذا الأدب جدير بوقفة متأنية ندرك فيها سماته ومعاييره التى يصدر عنها ، والحقيقة أن درس هذا التيار الشعبي فى الأدب يؤدى كما يرى فريدرش فون دير لاين — إلى ادراك أسس الأدب بصفة عامة . وبدونه يتحرك الباحث خلال تصورات مضطربة وتعسفية . (٢)

ويمكن أن نقف فى أدب هذا اللون على ظواهر محددة :

١ — التمرد على التراث :

وفى ميدان الشعر نلمس هذه الظاهرة بوضوح ، وربما أحس شعراء العصر المملوكى أن التراث الشعرى القديم بما توصل إليه شعراؤه من طرائق وأساليب لم يعد صالحا للتعبير عن اهتمامات العامة ومتطلبات حياتهم وأذواقهم ومن ثم انقلبوا ساخرين بالتراث مستهينين ، وأتت هذه السخرية خبيثة ماكرة متمثلة فى «الإيداع» ذلك اللون البديعى الذى أتاح للشاعر إيداع البيت أو بيتين لشاعر آخر فى شعره ، وأخذ الشعراء فى شعر هذا اللون العام يودعون شعرهم من التراث القديم ، ولكنهم — وهنا الخبث والمكر — يمهدون لهذا الإيداع

(١) أنظر : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . آدم متز .. ترجمة (أبو ريده) حـ ١ ص ٣٩٢

(٢) انظر الحكاية الخرافية ترجمة دكتورة نبيلة ابرهيم ص ٢٢٤

بسياق فاحش بذيء يعكس الاستهانة بكل هذا القديم .

ومازلنا نذكر قول نقاد العرب إن أمدح بيت هو بيت جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فانظر لابن نباتة كيف بدد هذه الهالة حينما عبث بهذا البيت مودعا إياه بعض شعره .

أقول لمعشر جلدوا ولا طوا وباتوا عاكفين على الملاح
لأنتم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح (١)

وشبيه بهذا ما نراه من عبث الوراق ببعض شعر بشار :

نشطت لسريتي فانثنى متاعي من بعد ما قد عزم
فقلت تنام ولى مقلة مسهدة من بهذا حكم
فقال : أما قال بشاركم فنبه لها عمراً ثم ثم (٢)

وانظر قوله «أما قال بشاركم» ؟ وما يوحي به من سخرية :

وقال نقاد العرب إن امرأ القيس أشعر الشعراء إذا ركب ، وعدوا معلقته واحدة من أحسن سبع قصائد قالها شعراء العرب ، فانظر معي إلى فخر الدين بن مكانس يزيح عنها هذا الجلال وهو يداعب صديقه صاحب الأنف الكبير

كأن الفسا إن فيس مع ريح أنفه نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل
ترى شعرات الأنف سدت خلوده لما نسجته من جنوب وشمال
وقد درست بالأنف آثار وجهه فهل عند رسم دارس من معول
كأني بمولانا على وصف أنفه تولى بأعجاز وناء بكلكل

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ١٢٠

(٢) الغيث المنسجم حـ ١ ص ١١٢

وجرد شعر الأنف منه وجاءنا   بمنجرد قيد الأوابد هيكل (١)

وكان ذلك دأب الشعراء كلما أرادوا الغض من القديم والحط من شأنه ، فابن حجة يغض من قول النابغة :

كالأقحوان غداة غب سمائه   جفت أعاليه وأسفله ندى

زعم الهمام ولم أذقه بأنه   يروى بريقته من العطش الصدى

ويرى أن افضل منه قول القائل :

ورب ظبي آنس   حشاشتى ملكته
نادمته أعجبته   حدثته أطربته
أسقيته أسكرته   حركته نبهته
مددته كشفته   بلا طويل نكته

ويقول : «لعمرى إنه أمكن وألطف وأظرف» . (٢)

والمسألة كلها تمرد على التراث ، إذ لم يعد ذوق العامة يراه صالحا للتعبير عن حياته .

وفى الكتابات النثرية التى تنحو منحى شعبيا نقف على شيء من هذا التمرد وقد اتخذ شكل تندر وسخرية بالنحاة والمتقعرين والفقهاء ، فشرف الدين بن أسد يكتب مقامة هزلية يتندر فيها بذلك النحوى الذى ذهب إلى بعض الأساكفة يصلح نعله قائلا :

«وقد دعتنى الضرورة إليك ، وتمثلت بين يديك لعلك تتحفنى من بعض حكمتك ، وحسن صنعتك بنعل يقيني الحر ، ويدفع عنى الشر ، وأعرب

---

(١) خزانة الأدب ص ٤٧٢

(٢) خزانة الأدب ص ٣٥

لك من اسمه حقيقا لأتخذك رفيقا . فيه لغات مؤتلفة ، على لسان الجمهور مختلفة : فمن الناس من كناه بالمداس ، وفى عامة الأمم من لقبه بالقدم ، وأهل شرتوزه سموه بالسرموزة ، وإنى أخاطبك بلغات هؤلاء القوم ، ولا إثم على ولا لوم» .

ويحار الاسكافى فى أمر هذا النحوى المتقعر ، ويتفكر مدة ، ثم يجيبه قائلا :

«أخبرك أيها النحوى أن البشر سنجورى شطبطاب المتفوقل ، والمتقبقب من جانب الشنزشنكل ، والديوك تصهل كنهيق زقازيق الصولجانات» .

وهذا كلام لا معنى له ، ولكن الإسكاف يريد أن يرد على صاحبه الذى يتحدث بحديث صار لا معنى له أيضا . وتبلغ سخرية الإسكاف بصاحبه مداها فى قوله :

«أعيذك بالزحزاح ، وأبخرك بحصى لبان المستراح ، وأرقيك برقوات مرقاة قرقرات البطون لتخلص من داء البرسام والجنون» . (١)

ويورد تاج الدين السبكى إحدى النوادر التى تتندر بها العامة على الشيخ زكن الدين بن القويع أحد متكلمى الأشعرية فيروون «أن شحاتا سأله وهو فى الطريق ، فأجابه : يفتح الله . فقال : يا شيخ قد فتح الله تعالى عليك ، إذا جادت الدنيا عليك فجد بها . فوقف ابن القويع ، فقال : ولم قلت : إنها جادت على ، وإن سلمنا أنها جادت فلم قلت : إنه يجب على الجود بها ! وإن سلمنا أنه يجب فلم قلت : ما جدت ، وما انحصرت القسمة فيك .» (٢)

وما أظن ابن القويع صنع ذلك ، ولكنه التمرد على التراث يسقطه العامة

---

(١) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٠٢–١٠٤

(٢) معيد النعم ص ٩٦

على أمثال هذه الشخصيات التي تعد تجسيدا له .

٢ — السهولة :

وهذه ظاهرة أخرى نلحظها فى أدب الذوق العام ، وإذا بدأنا بالشعر فإننا نجد هذه الظاهرة فيه قد استرعت نظر بلاغيى العصر ونقاده ، فراحوا يتحدثون عنها ، فهى أحيانا تأتى عندهم مرادفة للانسجام ، وأحيانا أخرى هى العفوية التى يرى القارىء معها الأسلوب وكأنه «كلام مسترسل غير مرو ولا مفكر» . (١)

وقد تحدث نقاد العصر أيضا عن الطريق الغرامية ، وعن البهاء زهير صاحب هذه الطريق ، وقالوا : إن ابن سعيد المغربى حينما قدم إلى مصر والتقى بالبهاء زهير وتذاكرا فى الغراميات . أنشد البهاء زهير :

«يا بان وادى الأجرع» وقال : أشتهى أن يكمل لى هذا المطلع ، ففكر ابن سعيد المغربى وقال : «سقيت غيث الأدمع» ، فقال البهاء زهير : والله حسن ، ولكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول : «هل ملت من طرب معى» . (٢)

ومن هذا الحوار القصير نستطيع أن نتبين ملامح الطريق الغرامية التى يدعو إليها البهاء زهير من إيثار السهولة ولين الألفاظ ، والبعد عن فخامة السبك ، وقعقعة الحروف ، ومن ثم فالطريق الغرامية ليست إلا لونا من ألوان اتجاه السهولة يختص بالغزل ، وأظن البهاء زهير كان ينحو فى ذلك منحى شعبيا .

وفى تتبعنا لاتجاه السهولة فى شعر هذا اللون العام يمكن أن نجدد بعض الملامح والسمات .

---

(١) تحرير التحبير ص ٤٣٢ .

(٢) خزانة الأدب ص ١٠ .

(أ) واقعية التعبير :

ونقصد بها أن الشاعر يتخير لفظة مما لا يعزب على أفهام العامة، لايحاول أن يعلو بعبارته أو يتأنق فى لفظه ، وتقترب لغة البهاء زهير فى بعض غزلياته اقترابا شديدا من لغة العامة فانظر إلى قوله :

جاء الرسول مبشرى ... منها بميعاد الزياره
أهدى إلى سلامها ... وأتى بخاتمها أماره
وأشار عن بعض الحديث وحبذا تلك الإشارة
ان صح ما قال الرسول وهبته روحى بشاره (١)

وانظر إلى قوله :

قد طال فى الوعد الأمد ... والحر ينجز ما وعد
ووعدتنى يوم الخميس فلا الخميس ولا الأحد
وإذا اقتضيتك لم تزد ... عن قول إى والله غد (٢)

وقد سبقت الإشارة إلى التقاط الشعراء بعض أمثلة العامة ونظمها فى شعرهم ، وشبيه بذلك ما نراه من التقاط الشعراء بعض عبارات العامة وتفصيحها إن صح هذا التعبير ، ومن ذلك ما نراه من قول ابن الصائغ :

نادى منادى الوفاء مصرا ... إذ علقوا ستره علامه
من الغلا قد سلمت حقا ... فبت فى الستر والسلامه (٣)

ومنه قوله أيضا :

---

(١) الديوان ص ١٠٧ .
(٢) الديوان ص ٧٩ .
(٣) خزانة الأدب ص ٣٩٦ .

لعبت في الشطرنج في غايـــة   تقصر الأوصاف عن حدهـــا
إن صاح في الأقران لي بيـــدق   تموت منه الشاة في جلدهـــا (١)

فالشاعر استخدم «بت في السّتر والسلامه»، و «تموت منه الشاة في جلدها وهما من تعبيرات العامة ولكنه أعربها.

ومن ذلك أيضا ما نراه من قول نصير الدين الحمامى :

أقــول للــكأس اذ تبـــدى   بكف أحــوى أغــن أحـــور
أخربت بيــتى وبيت غــيرى   وأصل ذا كعبك المـــدور (٢)

فانظر استخدام الشاعر للتعبير «أخربت بيتى» وانظر قوله «وأصل ذا كعبك المدور» أليس ذلك مما يجرى على الألسنة ؟

ومن ذلك قوله أيضا :

ومذ لزمت الحمام صــرت فى   خلا يداوى من لا يداريـــه
أعـرف حـر الأشيا وباردهـــا   وآخــذ المـاء من مجاريـــه (٣)

فقد استخدم تعبير العامة «اخذ الماء من مجاريه».

ويلتقط ابن نباته التعبير العامى «سلخ جلده» فيعربه فى شعره قائلا :

رب أديب رأى كتابـــــا   فقـــال مــاذا المليــح عنــدك
فقـلـت فى الحــــال يا كتـابى   غيبه وإلا سلخــت جلــدك (٤)

و كذلك يفعل بقول العامة «على عينك يا تاجر» فى قوله :

---

(١) خزانة الأدب ص ٣٩٦
(٢) خزانة الأدب ص ٣٠٨ ..
(٣) الدرر الكامنه ﺟ ٥ / ص ١٦٧ .
(٤) الديوان ص ١٧٠ .

وتاجر قلت لـه إذ رنـا رفقـا بقلب صـبره حائـر
ومقلـة تنهب طيب الكـرى منهـا عـلى عينـك يا تاجر(١)

وانظر أيضا إلى قول المعمار :

بـرت زويلـة اذ أمسى يقـول لنا باب لها قول صدق غير مكذوب
إذا وعـدت حراميا بسفـك دم فى الحال علق من وعدى بعرقوب(٢)

والعامة تقول «معلق من عرقوبه» .

ولم يكن هذا الصنيع من الشعراء إلا سعيا وراء اصطناع لغة لا تعزب عن ذوق جمهورهم ، ولا تند عن أفهامهم ، حتى إننا نرى من شعر هـذا اللون ما لا يميزه عما اصطنعه العامة من «مواويل» إلا الإعراب ومثال لذلك قول سيف الدين المشد :

وزائـر زارنى والليـل معتكـر وقـال بالباب طـراق نعم أولا
فقلت من فرط وجدى فى محبتـه يا نور عينى ويا روحى نعم أولى(٣)

وسعيا إلى هذا الاقتراب من ذوق العامة راح الشعراء يستخدمون أيضا الكلمات العامية .

واقرأ معي للبوصيرى متهكما بأحد المستخدمين قوله :

قـالت البغلـة التى أوقعتـه أنـا مـالى عـلى الغبون مـرارة
إن هـذا شيخ لـه بجـوا ريـه مع النـاس كـل يوم جهارة
قلت لا تفترى عـلى الشاعر الفقيـه ، قـالت : سـل الفقيـه جمـاره

(١) الديوان ص ٢٥٤ .
(٢) سلوك السنن لوحه ٣ ، ٤ .
(٣) الديوان ص ٩٩ .

لو أتاه في عرسه شطر فلس   لرأى البيع رجلة وشطاره
قلت هذا شاد الدواوين . قالت   ما أولى هذا على الخراره (١)

فني هذه الأبيات استخدم البوصيري كثيرا من الألفاظ العامية مثل «رجلة» بمعنى رجولة ، و «شطارة» بمعنى مهاره ، ثم كلمة «خرارة» . ولا يفوتنا هذا التعبير الذي التقطه البوصيري من أفواه العامة «أنا مالي على الغبون مراره»

وأخذت كلمات كثيرة من قاع المجتمع المصري تطفو على سطح التعبير الشعري . فهذا ابن دانيال يذكر «القفه» و «قرص الجله» في معرض حديثه عن فقره :

ذاب قلب الطاحون شوقاً وللقفة دمع لما بذى ألف غسله

ورأيت الأطفال من عدم الخبز تلظى ولو على قرص جله(٢)

وانظر إلى هذه الألفاظ التي يستخدمها وهو يصف حال الخلاع حينما أبطل حسام الدين لاجين المنكرات :

وكل قواد له ضرطة   من شدقه يتبعها شخره
يسطو على العاشق في سومه   مغاليا لما اقتضى جزره
يقول والكيفاخ من خلفه   وعنده في قوله شمزه
زن ألف دينار اذا رمتها   إن كنت ما ترضى بها بعره (٣)

واستخدم الشعراء بعض ألفاظ تركية وفارسية . وقد مر بنا شيء من ذلك في أبيات للجزار ، وأخرى لتقي الدين السروجي ، ونضيف إلى ذلك

---

(١) الديوان ص ٨٤ .
(٢) التذكرة الصفدية حـ ١٤ ورقة ٥٣ .
(٣) التذكرة الصفدية حـ ١٤ ورقه ٦٤ .

بعض شواهد من شعر سيف الدين المشد ، فمثلا نراه يستخدم «البغلطاق» فى قوله :

ولما بدا فى بغلطاق مقندس　　غزال حكى ضوء الهلال جبينه(١)

ومرة أخرى نراه يستخدم لفظة «خشداشيه» التى تعنى الزملاء :

يأيها المولى الأمير الذى　　يرعد قلب الجيش من خاشيه
إن كان مملوك قضى نحبه　　الله يبقيك لخشداشيه (٢)

ويستخدم لفظتى «اللوالك» و «الشباشك» فى قوله :

قفاه صلب ماسك　　فلتتعب اللوالك
ما ذاك مما تشتكى　　من صفعه الشباشك(٣)

ولعل هذه الألفاظ وغيرها كانت من الألفاظ التى تسربت إلى العامية المصرية من المماليك ، وامتزجت بلغة الناس .

وكان من أثر اقتراب الشعراء من الذوق العامى أن بعض الشعراء صاروا لا يكترثون باللحن يقع فى عبارتهم ، ولا يعبأون بالخروج على قواعد اللغة ، وصار كل هدفهم إرضاء ذوق العامة حتى ولو كان ذلك على حساب النحو واللغة . فسيف الدين المشد يحذف نون الأفعال الخمسة دون ناصب أو جازم فى قوله :

قامت تؤنبنى وتزعم أننى　　نامى الوداد فقلت : ما أنساك
كم تصنعى حيلا لخلفك موعدا　　الصبح موعدنا فما أمساك

(١) الديوان ص ١٠٠ .
(٢) الديوان ص ١٠٢ .
(٣) الديوان ص ٧٧

ولقد ظننت بأن عندك رقة فتخيبي ظني فما أقساك (١)

ويدخل «كأن» على الجملة الفعلية وهى مختصة بالجملة الإسمية فى قوله :

ومبجل أهدى لنا رزءا ولقبه بأزر
لم يدر ما هو فى الطعام كأن أخفاه بلغز (٢)

أما ابن دانيال فلا يحذف عين الفعل الأجوف حال جزمه كما نرى فى قوله :

ذى تنادى حريفها لا وداع لا عناق لا ... لا لا تبوس (٣)

ويحذف الحسين بن هبة الله الأسفونى أيضا نون الأفعال الخمسة دون ناصب أو جازم كما فى قوله :

ومن نحسهم لا أكثر الله منهم يسبوا أبا بكر ولم يشتموا عمر (٤)

وربما كانت بعض هذه الأمور النحوية واللغوية راجعة إلى تأثير لهجات القبائل العربية التى سكنت مصر ومعظمها يمنى ، فإن من هذه القبائل من كان يحذف النون فى الأفعال الخمسة دون ناصب أو جازم ، كما أن منها من كان يلحق علامة التثنية أو الجمع بالفعل إذا أسند اليه مثنى أو جمع . (٥)

(ب) واقعية التصوير :

وراح الشعراء فى شعر هذا اللون من الذوق يستمدون مادة صورهم وأخيلتهم من واقع المجتمع المحيط بهم ، ومن مجريات أحداثه ، فيستمد البهاء

---

(١) الديوان ص : ٨٤
(٢) الديوان ص ٤٢ .
(٣) خيال الظل ص ١٥٣ .
(٤) الطالع السعيد ص ٢٢٧ .
(٥) انظر : تاريخ اللغة العربية فى مصر د. أحمد مختار عمر ص ١٢٧ — ١٢٩ .

زهير صورته من لعبة النرد فى حديثه عن خامل الرجال :

لا تطرح خامل الرجال فقـــد   تضطر يوما إلى ارادتـــــه
فاليـك فى النرد وهو محتقـر   خير من الشيش عند حاجته (١)

ونراه فى أبيات أخرى يستمد صورته من دار الإمارة ومراسمها ودفاترها فيقول :

مـا القـلب إلا داره   ضربت لـه فيهـا البشائـر
يـا تاركـى فى حبـه   مثـلا مـن الأمثـال سائـر
أبـدا حديثى ليس بالمنسـوخ إلا فى الدفاتـر (٢)

ويستمد سيف الدين المشد مادة صورته من المواكب السلطانية فيقول :

وبـدرتم جاءنـا زائـرا   كالشمس إذ تبدو مـن المشـرق
يلمـع خـداه عـلى قـده   كطلعـة تعلـو على سنجق (٣)

أما الجزار فيستمد كثيرا من صوره من عمله بالجزارة ومن ذلك قوله :

حسبى حرافـا بحرفـتى حسـبى   أصبحت فيهـا معـذب القلب
موسخ الثـوب والصحيفـة مـن   طـول اكتسابى ذنبا بـلا ذنـب
خـلا فـؤادى ولى فـم وسـخ   كأننى فى جـزارتى كـلبى (٤)

بل إنه استمد مادة بعض صوره من حرف أخرى ، فنراه مثلا يستمد صورة من مهنة القصار وهو يصف حاله التعسه :

أكلف نفسى كـل يـوم وليلـة   هموما عـلى مـن لا أفـوز بخـيره

---

(١) الديوان ص ٥١ .
(٢) الديوان ص ١٢٤ .
(٣) الديوان ص ٦٥
(٤) فوات الوفيات حـ ٤ / ص ٨٦ .

كما سود القصار فى الشمس وجهه حريصا على تبييض أثواب غيره(١)

أما ابن نباته فراح يستمد صوره من ألوان السكر وهو يثنى على صديقه «على» بقوله :

حلا ثنائى على على كما حلا جوده المواتى
فرحت ذا سكر بياضى وراح ذا سكر نباتى (٢)

ويأخذ مادة صورة أخرى من بعض الأعياد القبطية فيشبه قلة حلاوة خطابه بحلاوة خميس العدس :

كتاب مع المطل أحضرته قليل الحلاوة إذ يلتمس
كأن حلاوة إحضاره حلاوة يوم خميس العدس(٣)

وراح القيراطى فى شعره الذى يخاطب به ذوق العامة يستمد صوره من الحياة المحيطة ، فمرة يستمدها من أحوال النيل كما فى قوله :

جفنى وجفن الحب قد أحرزا وصفين من نيلك يا مصر
جفنى له يوم الوداع الوفا وجفنه الساجى لى الكسر(٤)

ومرة أخرى يستمدها من حياة المماليك ورتبهم ومراسمهم كما نرى فى قوله :

يا أمير الجمال قل فالمراسيم تتبع
أنا مملوكك الذى لك قلبى غدا تبع(٥)

(١) شذرات الذهب ج ٥ / ص ٣٦٥ .
(٢) الديوان ص ٨١ .
(٣) الديوان ص ٢٦٥ .
(٤) خزانة الأدب ص ٣٨٢ .
(٥) خزانة الأدب ص ٣٨٢ .

ومرة ثالثة يستمدها من دوائر الخدمة السلطانية وما بها من وظائف ، وجرايات فيقول :

خدمت بالأغزال أبوابه لما تبدى حسنه الباهر

ولى من الدمع على خدمتى جراية أطلقها الناظر (١)

ولسنا نعنى بواقعية التصوير مجرد استمداد الشاعر مادة صوره الجزئية من واقع المجتمع ، بل نعنى به أيضا أن الشعراء راحوا يصورون فى أعمالهم واقع مجتمعهم فى شتى المجالات . فصوروا الجوع والفاقة والخامرين،ووصفوا حياة الحرافيش ، وأبرزوا واقع التحلل الخلقى والاجتماعى . وقد أوردنا فى ثنايا هذا البحث نماذج لكل هذه الألوان .

(ح) العزوف عن البديع :

وكان الميل إلى السهولة دافعا للشعراء فى مخاطبتهم ذوق العامةأن يعزفوا عن البديع ، وما يترتب عليه من عقادة التركيب وغموضه أحيانا ، وقد أدرك نقاد العصر هذا الاتجاه عند أصحاب المنزع الشعبى فابن حجة فى معرض حديثه عن المدرسة الغرامية يقول : «فإنهم ما أثقلوا كاهل سهولته بنوع من أنواع البديع اللهم الا أن يأتى عفوا من غير قصد» (٢) . وألمح إلى ذلك الباحثون المحدثون ، ومنهم من وسم هذا الاتجاه الشعرى بمدرسة المعانى (٣) .

ولسنا ننكر أننا سنقع فى بعض هذا الشعر على ألوان من البديع ولكننا سندرك أن الشاعر ما لجأ إليها إلا تظرفا وتفكها ، فالظرف هو المدخل إلى البديع ، أو قل هو المدخل الذى يدخل منه البديع إلى شعر هذا اللون ، فعبد

---

(١) خزانة الأدب ص ٣٨٢ .

(٢) خزانة الأدب ص ٢٣٦ .

(٣) الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى د. عبد اللطيف حمزةص ٢٨٦ .

الكريم السهروردى القوصى يأتى بجناس فى هجائه بعض التجار حيث يقول :

طلبت منك جوزة منعتنى من قربها
وكم طلبت زوجة منك فلم تبخل بها(١)

فالجناس بين (جوزه(و (زوجه) لم يدفع الشاعر إليه — فيما أظن — إلا التطرف والتفكه .

وعلى هذا أيضا نأخذ هذه المجانسة التى ذهب إليها يوسف بن هلال العلاف فى قوله :

كم قلت للحائك الظريف وفى راحته طاقة يخلصها
هل لك فى رد مهجة لفتى ليس له طاقة يخلصها (٢)

ومن هنا أيضا كان شغف الشعراء فى شعر هذا اللون العام بالتورية دون غيرها من فنون البديع . لأن التورية بما تحدثه من مفارقة ترتبط بالفكاهة ارتباطا وثيقا .

وكثيرا ما راق للشعراء فى تورياتهم أن يستغلوا بعض الكلمات ذات — الدلالات المزدوجة بين الفصحى والعامية ، كأن يكون للكلمة مدلول فى الفصحى وآخر فى العامية ، وتكون المفارقة بين الدلالتين موطن الفكاهة وآية الظرف ، فابن دانيال مثلا يلعب على مدلولى كلمة «ينقط» فى كل من الفصحى والعامية فى قوله :

غناؤها برقيق الغنج تمزجه فما ينقط إلا كل من رشحا (٣)

ونرى هذا الصنيع أيضا فى تورية القيراطى بكلمة «وصل» :

(١) الطالع السعيد ص ٣٣٤ .
(٢) الدرر الكامنة حـ ٥ / ص ٢٣٧ .
(٣) خزانة الأدب ص ٣١٠

قلت : صلى فقد تقيدت في الحب بأسر والأسر في الحب ذل
قال : يا من تجيد علم القوافي لا تغالط ما للمقيد وصل (١)

وهذا ما صنعه المعمار بكلمة «محاشم» مستغلا في ذلك ما لها من مدلول في الفصحى وآخر في العامية :

وإن من الخدام من ليس يرتجي مكارمه فالبعد عنه غنائم
ولا تك ممن يتهمهم بحشمة فليس له بين الرجال محاشم (٢)

وقريب من هذا ما نراه في قول شهاب الدين العطار :

طلبت رزقا قيل رح ناظرا جيوش سيس قلت رأى تعيس
لو أن ذي الحكام في سلطة ما طلبوا أني أبقى بسيس(٣)

والحقيقة أن الشعراء فتنوا بالتورية فتنة شديدة سواء في شعرهم الذي يمثل الذوق العام أم في شعرهم الذي يمثل الذوق الخاص . ولكن فتنتهم بها في الشعر الذي يمثل الذوق العام كانت أشد ، وارتباطها بالفكاهة والظرف كان أوضح وأبرز . ولا ريب أنهم في ذلك كانوا يرضون ذوق العامة من أهل مصر الذين عرفوا بميلهم إلى الفكاهة :

ومن غلبة الظرف على فن التورية ما نراه من استغلال بعض الشعراء لألقابهم وصناعاتهم في هذا الفن . وقد أكثر من ذلك سراج الدين الوراق حتى قيل له : لولا لقبك لذهب نصف شعرك . ويتضح من توريات الوراق بلقبه (السراج) ميله إلى ارضاء ذوق العامة بما يخلقه من فكاهة متجددة ، فانظر إليه مثلا يوري به وقد أصابه الرمد فرأى أن السراج تحول إلى فانوس :

شعريتي مذ رمدت قد حبست طرفي عنكم فصرت محبوسا

(١) الغيث المنسجم حـ ١ / ص ٥٣ .
(٢) خزانة الأدب ص ٣٨٧ .
(٣) خزانة الأدب ص ٤١١ .

الحمد لله زادني شرفاً ... كنت سراجا فصرت فانوسا (١)

ومرة أخرى يورى بهذا اللقب فى معرض الحديث عن عجزه :

طوت الزيارة إذ رأت ... عصر الشباب طوى الزيارة
ثم انثنت لما انثنى ... بعد الصلابة كالحجارة
وبقيت أهرب وهى تسأل جارة من بعد جاره
وتقول يا ستى استرحنا لا سراج ولا مناره (٢)

ومرة ثالثة يورى بلقبه فى مجال فخره بنزاهته وبعده عن الهجاء :

أثنى على الأنام أنى ... لم أهج خلقا وإن هجانى
فقلت لا خير فى سراج ... إن لم يكن دافىء اللسان (٣)

وراح الحمامى أيضا يستمد كثيرا من تورياته من عمله فى إحدى الحمامات ومثال لذلك توريته فى كلمتى «ذا العذر» و «الجنب» فى قوله :

لى منزل معروفه ... ينهل غيثا كالسحب
أقبل ذا العذر به ... وأكرم الجار الجنب (٤)

وذهب ابن دانيال هذا المذهب فيما استمده من توريات من عمله كحالا كقوله :

يا سائلى عن حرفتى فى الورى ... وضيعتى فيهم وإفلاسى
ما حال من درهم انفاقه ... يأخذه من أعين الناس (٥)

---

(١) خزانة الأدب ص ٣٠١ .
(٢) خزانة الأدب ص ٣٠٢ .
(٣) فض الختام عن التورية والاستخدام ص ١٢٨ .
(٤) فض الختام ص ١٣٠ .
(٥) فض الختام ص ١٣١ .

وهكذا نرى أن الشعراء فى شعر هذا اللون تمسكوا بالتورية ، وعزفوا عما سواها من ألوان البديع ، أما عزوفهم عما سواها فرغبة فى السهولة ، وأما شغفهم بالتورية فلارتباطها بالظرف والفكاهة وهما من سمات الشخصية المصرية

(د) غلبة الأوزان القصيرة والمقطعات والمقطوعات :

وتتمثل السهولة أيضا فى عزوف الشعراء فى شعر هذا اللون عن الأوزان الطويلة ، وإيثارهم الأوزان القصيرة ومجزوء البحور الطويلة ، ونظرة سريعة فى ديوان البهاء زهير تثبت صحة هذا الزعم ، ففى شعره الذى ينزع منزعا شعبيا نراه يؤثر البحور القصيرة أو مجزوء البحور الطويلة ، فنراه مثلا يختار البحر المجتث فى قوله :

تعيـش أنـت وتبـقى ... أنـا الـذى مـت حقـا
حاشـاك يـا نـور عينى ... تلـقى الـذى أنـا ألـقى
قـد كـان مـا كـان منى ... واللـه خـير وأبـقى (١)

ويختار مجزوء الرجز فى قوله :

أحبابنـا حاشاكـم ... مـن غضـب أو حنـق
أحبابنـا لا عـاش مـن ... يغضبـكم ولا بـقى
هـذا دلال منـكم ... دعـوه حـتى نلتـقى (٢)

والشواهد كثيرة فى الديوان .

وهذه الظاهرة نراها أيضا فى شعر الجزار فنراه يختار البحر المجتث فى قوله مخاطبا ناصر الدين بن المنير :

---

(١) الديوان ص ١٨٧ .
(٢) الديوان ص ١٨٨ .

قد اعتبرت البرايا فتوة وفتاوى
فمنهم من يساوى شيئا ومن لا يساوى
هم الدراهم فيها محاسن ومساوى
من لم يكن ناصريا فإنه عكاوى (١)

ويكتب على بحر الهزج هذه الأبيات التى يفخر فيها بعمله فى الجزارة :

ألا قل للذى يسأل عن قومى وعن أهلى
لقد تسأل عن قوم كرام الفرع والأصل
ترجيهم بنو كلب وتخشاهم بنو عجل (٢)

ويختار ناصر الدين بن النقيب مخلع البسيط لينظم عليه هذه الأبيات الغزلة

حدثت عن ثغره المحلى فمل إلى خده المورد
خد وثغر فجل رب بمبدع الخلق قد تفرد
هذا عن الواقدى يروى وذاك يروى عن المبرد (٣)

ويختار مجزوء المديد لينظم عليه هذه الأبيات :

سلك الشوق بقلبى بعدكم صعب المسالك
ورمى قلبى بنيرا ن ولا نيران مالك
هذه بعض صفاتى طالع العبد بذلك (٤)

وتشيع الأوزان القصيرة والمجزوءة فيما نراه من شعر فخر الدين بن مكانس الذى يمثل هذا الذوق ، فيقول مثلا على مجزوء الرجز :

---

(١) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٥٠ .
(٢) فض الختام ص ١٢٧ .
(٣) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .
(٤) خزانة الأدب ص ٢٥٥ .

أهـلا وسـهلا ومـرحبا بوجـه القمـر
يبدر قلوب الورى يهدى له بالبدر
إنسان مقلته سنا ه يغش البصر
برق ولكنه لم يبد الا سحر (١)

وإيثار الشعراء مثل هذه الأوزان كان ترضيا لذوق العامة ، ونشدانا لشيوع مثل هذه الأشعار فى أوساطهم . فهى خفيفة على السمع ، سهلة الحفظ فيها رشاقة ، وليس فيها توعر البحور الطويلة وثقل وقعها .

ويمت إلى السهولة ما نراه من ايثار الشعراء لعدم التطويل ، فشاعت المقطعات القصيرة . وشاعت أيضا اللقطات السريعة التى لا تتعدى البيتين أو الثلاثة ، يسجل فيها الشاعر حادثة من الحوادث . أو خاطرا من الخواطر ، وغالبا ما تصطبغ بالفكاهة ومن مثل هذه اللقطات ما نراه من قول محيى الدين بن عبد الظاهر يسخر بأخد العور :

وأعور العين ظل يكشفها بلا حياء منه ولا خيفه
وليس يلفى الحياء عند فتى عورته لا تزال مكشوفه (٢)

وتكثر فى شعر ابن دانيال اللقطات التى كثيرا ما تكون تعليقا ساخرا على الأحداث . ومثال لذلك قوله معلقا على قتل ابن البقى بعد اتهامه بالزندقة :

لا تلم البق فى فعله إن زاغ تضليلا عن الحق
لو هذب الناموس أخلاقه ما كان منسوبا إلى البق (٣)

وقوله حين أبطلت المنكرات :

(١) الديوان ص ١٤ .
(٢) المنهل الصافى ج ٢ ورقة ١٨٥ .
(٣) فوات الوفيات ج ١ / ص ١٥٣ .

الخمر يا ابليس إن لم تقم وتوسع الحيلة فى ردها
لانفقت سوق المعاصى ولا أفلحت يا إبليس من بعدها (١)

ومن اللقطات ما يصاغ صياغة النادرة إذ يبدأ بداية جادة ثم تمضى إلى النهاية فتكون المفارقة التى تثير الضحك ، ومن ذلك قول فخر الدين بن مكانس :

كم مرة قالت أمى تريد كثرة رزقى
يا رب وسع عليه فكان لى ثقب علق (٢)

ولا ريب أن هذه اللقطات كانت تلقى رواجا لدى العامة بما تتميز به من روح الفكاهة ، وسرعة الخاطر ، ثم إنها بعد لا تحتاج إلى كبير جهد فى حفظها وروايتها .

تلك ظاهرة السهولة بجوانبها المختلفة فى ميدان الشعر ، فاذا انتقلنا إلى ميدان النثر وجدناها متمثلة فى الكتابات النثرية التى تنحو منحى شعبيا ، وينحو تاج الدين السبكى فى كثير من كتابه «معيد النعم ومبيد النقم» هذا المنحى ، وبخاصة حينما يتوجه بقوله إلى الطبقات الدنيا من الشعب كأصحاب الحرف من جزارين وحاكة وأساكفه ومكارين . فيقول مثلا متوجها بالحديث إلى المكارى :

«ومن حقه التحفظ فيمن يركبه من الدواب ، ولا يحل لمكار يؤمن بالله وباليوم الآخر أن يكرى دابته من امرأة يعرف أنها تمضى إلى شىء من المعاصى فإنه إعانة على معصية الله تعالى ، وكثير من المكارية لا يعجبه أن يكارى إلا الفاجرات من النساء ، والمغانى منهن لمغالاتهن فى الكراء ، فإنهن يعطين من

(١) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٢٤٦ .
(٢) الديوان ص ٢١٥ .

الأجرة فوق ما يعطيه غيرهن فتغره الدنيا» . (١)

ويقول موجها الحديث إلى سائس الدواب :

«ومن حقه النصح فى خدمتها ، وتنقية العليق لها ، وتأدية الأمانة فيه ، فإنه لا لسان لها يشكوه إلا إلى الله تعالى . وقد كثر من السواس تعليق حرز مشتمل على بعض آيات القرآن على الخيل رجاء الحراسة ، مع أنها تتمرغ فى النجاسة» . (٢)

وفى هذا القول نرى السبكى لا يحاول الارتقاء بعبارته . ولا التأنق فى لفظه ، ولا يتعب فكره بتصيد تشبيه أو استعارة أو تلفيق لون من ألوان البديع ، وإنما هو أسلوب فيه عفوية وتلقائية . هدف السبكى منه مجرد الإفهام والموعظة الحسنة ، وربما استخدم السبكى اللفظة العامية إذا كانت أعون على قصده .

وتتمثل لنا السهولة أيضا فى بعض الروايات الصوفية التى تحكى الخوارق والكرمات وهى تمثل فنا من فنون النثر فى هذا اللون العام من الذوق إذ قصد بها أصحابها أن تشيع فى أوساط العامة . وعبارة هذه الروايات لا تتميز فى كثير من الأحيان عن لغة العامة إلا بالاعراب . وقد مر بنا جانب من هذه الروايات

٣ ــ التحامق والافحاش :

ألمحنا فيما سبق إلى أن الفكاهة سمة بارزة فى الشخصية المصرية ، وفى أدب أدبائها ، ونضيف هنا أنها أشد بروزا فى الأدب الذى يخاطب ذوق العامة . إلا أننا نلاحظ فى هذا الأدب الذى يمثل الذوق العام أن الأديب كثيرا ما يجعل

---

(١) معيد النعم ص ١٤٠ .

(٢) معيد النعم ص ١٤٤ .

من نفسه موضع السخرية فيصور نفسه فى صورة الجاهل أو الأحمق أو الأبله الذى لا يكاد يعى شيئا وهذا ما نقصده بالتحامق .

وفى شعر الجزار أمثلة لهذا التحامق ، وقد مرت بنا أبيات له يصور فيها جهله ، أو يصور فاقته جاعلا من نفسه محور الإضحاك . ولكن هذا التحامق يصل إلى مداه عند ابن دانيال الموصلى . فانظر إليه يصور حاله مع زوجه التى شوشت عليه عقله حتى ما عاد يدرى من أمر نفسه شيئا :

بك أشكو من زوجة صيرتـــنى غائبـا بيـن سائـر الحضـــار
غيبتـنى عـــنى بمـا أطعمتنى فأنـا الدهـر مفكـر فى انتظار
غبت حتى لـو أنهـم صفعـونى قلت كفوا بالله عن صفع جارى
فنهارى مـن البـلادة ليـــل فى التساوى والليل مثل النهـــار
دار رأسى عن بـاب دارى فباللــه أخبرونى يـا سـادتى أيـن دارى
ملكتـنى عبـــارة وعبـــارا حين زادت بالدردبيس عبـارى
أيـن مـخ الجهـال مـن طبع مخى فى التساوى وأين مخ الحـمـار
غفـر الله لى بمـا رحت للبحـــر مـن البـرد أصطلى بالنـــار
وتجـردت للسباحـــة فـى الآل لظنى بـه الزلال الجـــارى
ولكم قـد عصبت رجـلى برؤيـا أوطأتـنى حلـما عـلى مسمار (١)

ويستمر ابن دانيال فى تحامقه هذا فى أبيات طويلة فيصف نفسه بالنسيان حتى إنه ينسى أنه ينسى ، ويشبه نفسه بسطل الشرائحى ، ثم يصور هـــذه المعركة التى أدارها مع صورته فى مياه الزير وهو يظن الصورة شخصا آخر ، ولا ريب أن مثل هذا التحامق كان يعجب العامة ، وربما كان مصدر ذلك

---

(١) فوات الوفيات ـ ٢ / ص ٣٣٦ .

ضيقهم بالعقل وقيوده أمام ضغوط من الكبت والإرهاق عجز العقل عن كشفها أو النفاذ منها .

وقريب من التحامق الصفاع الذى فتن الشعراء بتصويره ، ونعتقد أن الصفاع كان يمثل لونا من مداعبات العامة الغليظة ، وقد رأينا صدى من هذا الصفاع فى أبيات الجزار التى وصف بها النيروز ، وفى شعر المعمار نسمع صدى آخر له فيقول مثلا :

وصاحب أنـزل بى صفعـة   فاغتظت إذ ضيع لى حرمتى
وقال فى ظهرك جاءت يـدى   فقلت لا والعهد فى رقبتى (١)

ويقول فى أبيات أخرى :

ومفتن يهوى الصفا   ع ولم يكن إذ ذاك فـنى
سلمته عنـقى الدقيـ   ـق فراح ينخلـه بغبن
بما كـان مـنى بالرضى   لكنـه مـن خلف أذنـى
لـولا يـد سبقـت لـه   لأمرتـه بالكـف عنى(٢)

أما الإفحاش فكان دأب الشعراء فى شعرهم الذى اتجهوا به إلى العامة ، وقد يأتى هذا الافحاش خفيفا يكنى فيه الشاعر عما يريد ذكره من عورات كما نرى فى قول الوراق مداعبا الجزار :

ركبت أنـثى ولم تعتـد سوى ذكر   ما لى أراك على المركوب مقلوبا
مخالفـا قـد تبدلت العنـان بذيـال   يظل فويـق الأرض مسحوبـا
وثم ميم وصـاد إن قرأتهمـا   قرأت معنى وكم فسرت مكتوبا(٣)

(١) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٥١ .
(٢) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٥١ .
(٣) فوات الوفيات جـ ٤ / ص ٢٨٣ .

غير أن هناك من الشعراء من لم يتورع عن ذكر العورات بأسمائها ، والأفعال بأوصافها . وممن أسرف فى ذلك ابن دانيال الموصلى والمعمار وفخر الدين ابن مكانس ، وطبيعى أن الافحاش يمثل ذوق العامة . وميلهم إلى ذكر العورات وطربهم لسماع أوصاف الأفعال الفاضحة ، والشعراء فى ذلك كانوا يصدرون عن هذا الذوق ، ويعبرون عنه .

هذا عن الشعر ، أما فى النثر فربما أعوزتنا النصوص التى تمثل هذه الظاهرة تمثيلا كاملا ، وهذا طبيعى لغلبة المنظوم على المنثور فى أدب هذا اللون من الذوق .

وعلى أى حال فاننا نقف فى بعض ما لدينا من نصوص نثرية على ميل الأدباء إلى الإضحاك ، واسرافهم فى الافحاش ، وعدم تورعهم عن ذكر العورات ، وكما كان ابن دانيال ميالا إلى الافحاش فى شعره ، كان كذلك فى نثره ، وانظر إليه فى بابته طيف الخيال ينطق الأمير وصال بهذا التهديد لشاعره ضربعر :

«وهذا ظاهر الحال ، ولأعلمن على انقلاب دسته ، ولأكسرن يده وأدسها فى استه» . (١)

وانظر إليه يصف على لسان أم رشيد الخاطبة العروس التى سيتزوجها الأمير وصال :

«يا ولد عندى صبية ، كأنها الشمس المضية ، إلا أنها نفرت من زوجها الأول من ألم الافتضاض ، وداوتها القوابل بدواء مضاض ، وكانت بسلامتها.. قد ألفت السحاق ، وتعودت به من دار معلمتها أم إسحق ، والعهد هى

(١) خيال الظل ص ١٦٠ .

معذورة إذ نفرت من البعل ، وألقت النعل على النعل» . (١)

وإذا كان ابن دانيال قد التزم السجع فى نثره هذا ، فما أظن ذلك منه كان شغفا بالبديع بقدر ما هو محاولة لإثارة المفارقة بين هذا القول الهازل ، وبين السمت الذى يتخذه كتاب الديوان فى نثرهم ، وربما كان فى هذا أيضا سخرية بالكتاب وأدبهم .

الفنون المستحدثة

أ ـ الموشح :

الموشح فن شعرى من الفنون الشعبية التى كانت وليدة مجالس الأنس والطرب ، وخرجة الموشح خير شاهد على صلة هذا الفن الشعرى بالذوق العام ، فقد اشترط فيها أن تكون «حجاجية من قبل السخف ، قزمانية من قبل اللحن ، حارة محرقة منضجة من ألفاظ العامة ولغات الدآصة» . (٢)

وإذا عرفنا أن الخرجة فى الموشح هى المركز الذى يسبق إليه الخاطر ، أو هى «الذنب الذى ينصب عليه الرأس» كما يقول ابن سناء الملك (٣) ، أدركنا مدى صلة فن الموشح بذوق العامة ومزاجهم .

وقد نظم الموشح عديد من الشعراء المصريين ومنهم على سبيل المثال العزازى ، ونصير الدين الحمامى ، وابن دانيال الموصلى ، وصدر الدين بن الوكيل ، وابن الفوية ، وفخر الدين بن مكانس .

وقد ذهب بعض هؤلاء الوشاحين إلى معارضة بعض الموشحات المشهورة

---

(١) خيال الظل ص ١٦٣ .
(٢) دار الطراز ص ٣٠ .
(٣) دار الطراز ص ٣٢ .

فنرى ابن دانيال الموصلى يعارض موشح أحمد الموصلى الذى يقول فيه :

بى رشـأ عندمـا رنـا وسـرى   باللحظ للعاشقين إذ أسرا   قيد

بما بأجفـانه مـن الوطـف

ومـا بأعطافـه مـن الهيـف

ومـا بأردافـه مـن الـترف

ذا الأسمـر اللـون ردنى سمـرا   وفى فؤادى من قده سمرا   أملد

فيقول ابن دانيال :

غصن من ألبـان مثمـر قمـرا   يكاد من لينه إذا خطرا   يعقد

بديـع حسـن سبحـان خالقـه

مسـك ذكـى الشـذا لناشقـه

أبيـض ثغـر يبـدى لعاشقـه

نمـل عـذار بحـبر الشعرا   وفوق شعر يستوقف الشعر الأسود(١)

ويعارض صدر الدين بن الوكيل السراج المحار فى موشحته :

مذ شمت سنا البرق من نعـمان   بانـت حـرق

يذكى بمسيل دمعهـا الهتـان   نـار الحـرق

مـا أومـض بـارق الحمى أو خفقـا

إلا وجـاد لى الأسـى والحرقـا

هـذا سبب لمحـنتى قـد خلقـا

بموشحة يقول فيها :

(١) فوات الوفيات ج ٢ / ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

ما أخجل قـده غصـون البـان   بين الـورق
إلا وسبا المهـا مع الغـزلان   سود الحدق
قاسـوا غلطا من حاز حسن البشر
كالبـدر يلـوح فى دياجى الشعـر
لا كيـد ولا كرامـة   للقمـر
الحب جمالـه مدى الأزمـان   معنـاه بقى
يزداد سنا وخص بالنقصـان   بدر الأفق (١)

ويأتى بها تامة فى سبعة أقفال وستة أبيات .

والواقع أن تطور فن الموشح على أيدى المصريين يعد تطورا محدودا ، ولا نستطيع أن نقول : إن المصريين ابتعدوا بالموشح عن أصوله الأندلسية كما ذهب بعض الباحثين . (٢)

فمثلا فى الخرجة لم يكد المصريون يخرجون عن تلك القواعد التى حددها ابن سناء الملك فى دار الطراز مترسما الموشحات الأندلسية ، وكل ما للمصريين فى هذا المجال أنهم استبدلوا فى بعض الأحيان العامية المصرية بالعامية الأندلسية سواء كانت عربية أم رومية . فابن القوية يمدح ابن نباته بموشح يجعل خرجته عامية مستعارة على لسان إحدى النساء ، يمهد لها فى البيت السابق عليها فيقول

وغـادة دون حسنهـا الوصـف ..
يثقلهـا عنـد خطوهـا الـردف
قـالت وأمـواج ردفهـا تطفـو

---

(١) المنهل الصافى حـ ٣ / ص ١٥٩ ، ١٦٠ .
(٢) انظر : أحمد صادق الجمال . الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى ص ١٠٥ وما بعدها.

هـذا الثقيل ردف - يعتمد خلفى - امشى ينقطع نجلى(١)

ويجعل محمد بن فضل الله بن كاتب المرج القوصى خرجته قولا مستعارا على لسان إحدى النساء يمهد لها بقوله :

بالله يا من ينطلى عليك أو من تألفين
ابن على بعلى قالت نعم يا مسلمين

ثم يقول فى الخرجة :

لولا على انطلا تركت أمى وأبى من شانو
كفاه والله البلا يبيت سواى ذا الصبى فى أحضانو (٢)

ويجعل فخر الدين بن مكانس خرجته قولا مستعارا على لسان أحد الغلمان يمهد لها أيضا فى البيت السابق :

وقلت : يا من سبانى وزاد تيها وهجرا
دع عنك هذا التوانى واخلع لباسك جهرا
فقال لما رآنى على القبيح مصرا
إما يقطع قماسى أنا أحل لباسى (٣)

فجهد الوشاح المصرى فى الخرجة - كما رأينا - اقتصر على إحلال اللهجة العامية المصرية محل اللهجة العامية الأندلسية ، ولا نستطيع أن نقول إن هذا ابتعاد عن الأصل الأندلسى ، ولكنه الطابع المصرى يطبع به الوشاحون المصريون فن الموشح .

---

(١) الوافى بالوفيات جـ ٢ / ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٢) الطالع السعيد ص ١٠٩ ، ١١٠ .
(٣) الديوان ص ٢٠٩ .

كذلك راح الوشاحون يتصرفون فى عدد الأبيات والأقفال وفى أجزاء كل منها بالزيادة والنقصان ، فبينا نرى الموشحة تقصر قصرا ملحوظافلا تتعدى أربعة أقفال وثلاثة أبيات عند نصير الدين الحمامى فى مدحه للوراق إذ يقول :

أهوى رشا فى مهجتى مرتعه	أفديه ربيب
لا بل قمرا فى ناظرى مطلعه	لم يدر مغيب
حقف وغزال وهلال وغصن	إن قام وإن رنا وإن لاح وإن
والمؤمن ليس كما قيل فطن	قلبى أبدا إلى محياه يحن
ما أبعده وفى الحشا موضعه	ناء وقريب
قد راق به شعرى لمن يسمعه	إذ كان حبيب
يا خجلة غصن البان لما خطرا	يا حيرة بدر التم لما سفرا
يا غيرة ظبى الرمل لما نظرا	يارخص غوالى فتيق المسك لما نثرا
من لؤلؤ نثر لمن يجمعه	زاه ورطيب
ما أسعد . ما أغنى من يضعه	عقد الترتيب
دعنى فحديث العشق إفك ومرا	عندى أبد الزمان والحق أرى
مدحى لسراج الدين نور الشعرا	والكاتب عند الأمرا والوزرا
كم فيه فضيلة غدت ترفعه	عن قدر أديب
الله بما قد حازه ينفعه	والله مجيب (١)

نراها تطول طولا شديدا عند فخر الدين بن مكانس ، فتبلغ واحدا وخمسين بيتا وواحدا وخمسين قفلا فى تلك القرعاء التى يقول فيها :

---

(١) المنهل الصافى ــ ٣ / ص ٢٦٣ .

أنعم صباحا فى ظلال المجد
واركب إلى العز جواد الجد
ولا تبع عاجله بفقد
وخل نعت بازى وفهد   واستجلب الأنس بطرد الطرد (١)

كذلك لم يراع بعض الوشاحين التساوى فى عدد الأجزاء بين أقفال – الموشحة ، فمرة يتكون القفل من جزءين ، ومرة من أربعة أجزاء ، ومثال لذلك ما صنعه فخر الدين بن مكانس فى موشحته التى أوردنا خرجتها ، فهو يبدؤها بقفل من جزءين :

يا من يطوف بكاس   بالله كن لى مواسى

ثم يأتى بالقفل الثانى من أربعة أجزاء :

يا عاطر الأنفاس   فإننى غير ناسى
حتى سقيت حواسى   وزال همى وياسى

ثم يعود فيأتى بالخرجة قفلا من جزءين :

إما يقطع قماسى   أنا أحل لباسى (٢)

وحاول بعض الوشاحين التجديد فى أوزان الموشح ، ومن ذلك ما صنعه شهاب الدين العزازى إذ كتب موشحا على وزن «الدوبيت» يقول فيه :

أقسمت عليك بالأسيل القانى   أن تنظر فى حال الكئيب العانى
أو تقصر عن إطالة الهجران   يا من سلب المنام من أجفانى

---

(١) روض الآداب للحجازى ق ١٠٧ – ١١٢ .
(٢) الديوان ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

مـا أليــق هـذا الحسن بالإحســـان(١)

وإذا كان اللحن فى الموشح لا يغتفر إلا فى الخرجة ، ولعله من أجل هذا أطلق عليها هذا الاسم . إذ هى خروج من الفصيح إلى الملحون ، فإنا نـرى الوشاحين المصريين لم يلتزموا بذلك ، فالعزازى مثلا فى موشحه الذى يبدؤه بقوله :

كأس رويه　　　جلا علينا النديم　　　أم سنا مصباح

يسكن ما حقه النصب فى أحد الأبيات ، فيقول (غائب عنا) بدلا من (غائبا عنا) فى قوله :

لنا خليل　　　نراه منذ ليالى　　　غائب عنا
وما الشمول　　　لذيذة وهو سالى　　　أليس منا (٢)

ونرى اللحن يقع فى أثناء موشح لنصير الدين الإدفوى يقول فيه :

فكم من الإسراف — إسراف — كفيه من خطر
عقلى وحلمو الجانى — ألجانى — ركوبه الغـــرر
أزرى الجبين الحـــالى — بالحـــال — ممـــن قـــد اعتـــدى
إذ فـــاق بالكمـــال — كـــالى — أســـفا وأنكـــــدا
ممـــن أتتـــه النـدوالى — دوالى — قـــلبى مـــن الـــــردى
ومذ بذلت مـــالى — أو مـــالى — باللحظ إذ نظـر
وقال إذ لوى لى — للوالى — يرفع له الخـــبر (٣)

---

(١) فوات الوفيات حـ ١ / ص ١٠١ ، ١٠٢ .
(٢) فوات الوفيات حـ ١ / ص ١٠٠ .
(٣) فوات الوفيات حـ ٤ / ص ٢١٦

فنحن نرى الإدفوى آثر استخدام كلمة عامية فى قفل المطلع هى «حلمو كما سكن الفعل دون جازم فى القفل الثانى «يرفع له الخبر» .

ولعلنا لحظنا فى هذا الجزء الذى أوردناه من موشح الإدفوى احتفاءه بالجناس . وهذا يقفنا على ظاهرة أخرى فى الموشحات المصرية ، وهى احتفاء الوشاحين بالجناس خاصة من فنون البديع ، ومثال آخر لذلك من موشح نصير الإدفوى :

يا طلعة الهلال ‏ ‏ ‏ ‏ دى لا لى ‏ ‏ ‏ ‏ فى الحب منتظر
يا غاية الآمال ‏ ‏ ‏ ‏ أمالى ‏ ‏ ‏ ‏ من الهوى مفر

———

أما لدائى راقى من راقى ‏ ‏ ‏ ‏ قدرا على الأنام
زها بحسن الساق والساق ‏ ‏ ‏ ‏ من ريقه المدام

يه فؤادى باقى ‏ ‏ ‏ ‏ والباق ‏ ‏ ‏ ‏ فى لجة الغرام (١)

وعلى هذا النسق يمضى نصير الادفوى مراعيا التجنيس فى كل أجزاء الموشح ، ولعل هذا الاهتمام بالتجنيس راجع إلى ارتباط الموشح بالموسيقى والغناء وغنى عن البيان ما للجناس من أثر موسيقى .

تلك لمسات الذوق المصرى على فن الموشح ، وهى لا تعد كسر الأصول التى قام عليها فن الموشح ، أو ابتعادا عنها . فما زال الموشح فى هيكله العام ونظام أقفاله وأبياته أندلسى البناء ، أما أن يقصر مرة أو يطول أخرى ، أو أن تسرى عدوى اللحن من الخرجة إلى الأبيات ، أو أن يسرف الوشاحون فى التجنيس ، فهذا طابع مصر تضفيه على هذا الفن الجديد .

---

(١) الطالع السعيد ص ٦٨٢ .

٢ — الزجل :

الزجل توأم الموشح ، أو هو — كما يقول أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام — الصورة العامية الخالصة له . (١) وقد اتخذ الزجل فى بداية نشأته شكل القصيدة العربية من حيث الالتزام بقافية واحدة ، وبقيت نماذج تمثل هذه المرحلة من حياته . (٢) ولكنه استقر فى النهاية على بناء شبيه ببناءالموشح حيث يبنى على أدوار كل دور منها له أغصان وقفل تماما كما نرى فى الموشح كل ما هنالك أن الموشح معرب . أما الزجل فلحنه إعرابه وخطأ نحوه صوابه على حد قول صفى الدين الحلى . (٣)

وإذا كان الزجل قد نشأ نشأة أندلسية . واشتد عوده على يد ابن قزمان فان مصر حينما تلقفته أوفت به الغاية فأضافت إليه . ووسعت من موضوعاته وأضفت عليه من روحها . ومن طبيعة لغتها ما يمكننا أن نقول معه إن مصر هى الأم الثانية لهذا الفن .

ولمعت فى سماء هذا الفن أسماء مصرية عديدة لعل أبرزها شرف الدين بن أسد . وابراهيم المعمار ، وأبو عبد الله بن خلف الغبارى ، وبلغ هذا الأخير مرتبة سامقة ، وكان لهؤلاء الزجالين مكانة عظيمة فى نفوس الشعب ، لدرجة أن من يلمع اسمه فى هذا الفن كانوا يسمونه «قيما» .

وكان القيم الغبارى مسموع الكلمة لدى العامة والخاصة ، وقيل : إنه كان يكتب أزجاله فى برود موشاة بالذهب ، ومموهة بالفضة ، وكان الحكام يتقربون إليه بالهدايا والزيارات . (٤)

(١) الأدب فى العصر المملوكى جـ ١ ص ٣٠٦ .
(٢) انظر العاطل الحالى والمرخص الغالى لصفى الدين الحلى ص ١٨ — ٢٥ .
(٣) العاطل الحالى ص ٦ .
(٤) انظر الفنون الشعرية غير المعربة (الزجل) . رضا محسن حمود القريشى ص ٥٢ .

وفى حديث صفى الدين عن الزجل نراه يقصره على ما يتضمن الغزل والنسيب ووصف الخمر والزهر ، (١) ومن هنا نستطيع أن نتبين دور مصر فى تنمية هذا الفن ، وتوسيع إطاره بحيث صار يعبر عن كل الأغراض ، ويصور شتى نواحى الحياة . حتى لقد شارك الزجالون بزجلهم فى السياسة وأحداثها ، فالغبارى مثلا يقول مستبشرا بعهد السلطان الأشرف شعبان :

حب قلبى شعبان موفق رشيد — وجالو أشرق ومالو حدود
وأبوه لحسن وعمه الحسين — وارث الملك من جدود الجدود
سل لحظك صارم لقتل العدا — وأنت منصور طول المدى والسنين
زعق السعد بين يديك شاويش — فرح القلب بعد ما كان حزين (٢)

وحينما مات رثاه بقوله :

عن منازل طالع القلعة — كوكب السعد اختفى حين بان
اقتران زحل مع المريخ — كسوف شمس انتقل شعبان

ثم يمضى فيصف فى منظومة طويلة ما جرى من أحداث ، ومن حصار لشعبان انتهى بمقتله ، ويقف وقفات فنية معلقا على الأحداث : مبينا ما انتهى إليه أمر مصر على يد هؤلاء الأمراء المتصارعين :

دا يكن راكب فرس عزوا — عاليه فرحان يعود فى احزان
والذى فى الحاشية بيدق — ينتقل حتى يصير فرزان

... ...

مصر وادى تيه وصارت غاب — وسكنوا أبراج حوت رفعه

(١) العاطل الحالى ص ١٠ .
(٢) بدائع الزهور ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

واماراتها الذيـــن كانــــوا   فى هنـا من قبل دى الوقعــه
للملك خـلان وهـم غـزلان   وأسـود واقيار لهم طلعــه (١)

ولم يترك الغبارى وقعة من الوقائع إلا وسجلها بشعره ، فسجل الصراع بين بركة وبرقوق :

جعــل الله لـكل وقعـه سبـب   ونقـول لك سبب هـذه الوقعــه
بركـة راد يعمـل على ايتمـش   وإلى الشـام يسيروا سرعـــه
طـلب الصلـح بينهـم برقـوق   فارسلوا له أخلع عليه خلعـه (٢)

وسجل أيضا وقعات الدولة مع العربان ، ومع زعيمهم بدر بن سلام سنة ٧٨١ هـ ، فى منظومة زجلية طويلة يبدؤها بقوله :

باســم رب السـما أبتـدى   فـارج الهـم والكـــرب
ويفيــد للــذى حضــر   قصة الترك والعـــرب

... ...

جـا الخـبر يـوم الاربعـا   بـأن فى ليلـة الأحــــد
جـا دمنهـور عـرب خـدوا   سوقهـا واخربـوا البلــــد
وابـن سـلام أميرهـــم   هـو الـذى للجميع حشـــد (٣)

ولعل مما يلفت النظر فى أزجال المصريين هذا الطول المسهب : فمثلا منظومة الغبارى هذه التى نظمها فى تصوير وقعة العربان تبلغ أربعة عشر دورا غير المطلع . وكل دور يتكون من ثلاثة أغصان وقفل من خرجتين ، ويقارب هذا الطول منظومته فى رثاء شعبان .

---

(١) انظر المنظومة كاملة فى بدائع الزهور ص ٣٠٣ — ٣٠٥ .
(٢) بدائع الزهور ص ٢١٤ .
(٣) بدائع الزهور ص ٢١٦ .

وطول النفس هذا ظاهرة لا نجدها عند الغبارى وحده بل نجدها أيضا عند غيره ممن عالج هذا الفن ، ولسنا نعتقد أن ابن قزمان أو غيره من زجالى الأندلس بلغ فى زجله هذا المدى .

وقد يكون السر فى هذا الطول ما نراه من ميل بعض الزجالين إلى السرد والحكاية ، وفى بعض الأحيان يأخذ الزجل شكل القصة كما نرى عند هارون بن موسى بن محمد الرشيد المعروف بابن المصلى الأرمنتى ، فنى إحدى منظوماته يحكي قصة غرامه بإحدى البدويات :

بدوية فى بيوبه ساكنه صيرت عندى المحبة كامنه
اسمها ست العرب هيجت عندى طرب

أنا قاعد بين جماعه نستريح
عبرت واحده لها وجه مليح
بقوام اعدل من الغصن الرجيح

ويبدأ فى ملاحقة هذه البدوية النافرة . فتحذره من هواها ، ومن فعل أحداقها بعشاقها ، وهو لا يزداد إلا رغبة وهياما بينما هى تمعن فى نفورها ، وأخيرا يتوسط لديها فى أمره بعض الناس فتقبله عاشقا ، وتضرب له موعدا ، ويتم الوصال فى النهاية :

عندما غاب القمر واظلم الليل واعتكر جف قلبى وانكسر
وعربيا فى حديثى واهنا آمنا فى سربها مطامنا
والفؤاد منى اضطرب ونسيت ذاك الطرب

صرت نرعى النجم إلى وقت الصباح
اذ بدا لى الكوكب الدرى ولاح

واذا هـــي قـــد أتـت ست الملاح(١)

وعلى هذا النهج القصصي أيضا يمضي فخر الدين بن مكانس في منظومته التي يصف فيها عشقه لأحد الغلمان :

قـد هـوى قـلبي معيشــق حبشي أسمــر أهيــــف
يخجــل العصــن الرشيــق كيف لا نعشـــق ونتلــف
أي قمــر أي غصن يانــع تبـارك الله البلامــــه
بلعــوط حفتــا بدايــع وعــذار في الخـد لامـــه
الغـزال لــو عبـد طايــع والغزالــه لــو علامــه (٢)

والمنظومة فيها كثير من عناصر الفن القصصي من تشويق وإثارة وحوار وحبكة فنية .

وظاهرة أخرى تستلفت النظر في الأزجال المصرية هي ما نراه من حرص الزجالين على تسجيل أسمائهم ، والافتخار بفنهم ، والتأريخ لمنظوماتهم في ختام أزجالهم ، وهذا ما عرف لديهم ببيت الاستشهاد . فنرى المعمار في منظومته التي تحدث فيها عن إبطال المنكرات والتي تبدأ بقوله :

منعونـــا مـــاء العنب ياســين رب مسـلم لم يمنعونــا التــين

يختمها بقوله :

أرخــوا بالله توبـــة المعمــار واكتبوهــا بالتبـر طول الاعمار
قولــوا من هجرة النبي المختار سبعمائة سنة خمس واربعــين (٣)

---

(١) الطالع السعيد ٦٨٧ — ٦٨٩ .
(٢) المنهل الصافي جـ ٢ / ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .
(٣) بدائع الزهور ص ٨٩ .

وسار الغبارى أيضا على هذا المنوال فيقول فى خرجة زجله الذى سجل به واقعة العربان :

حسن غلب منى راجحى　　وانكسر كسر ما انجبر
قالت أقوام بعد سوء　　أنت قيم ديار مصر

جا الحكم طابق وقال　　يا غبارى جرى خبر
لديار مصر قيمين　　فى الزجل ذا يكن عجب
قلت ذا قيم السفه　　وأنا قيم الأدب (١)

وعد الزجالون الإعراب فى الزجل من المستكرهات ، وصفى الدين الحلى يراه من أقبح العيوب . ويسمى ذلك اللون الذى تعرب بعض ألفاظه «مزنما» أى دخيلا على الفن ، ومن قبل صفى الدين الحلى كان ابن قزمان رائد هذا الفن فى الأندلس قد نهى عن الإعراب وتتبع قوانينه ، وقال فى وصف زجله «وقد جردته عن الإعراب كتجريد السيف من القراب»(٢) أما فى مصر فلم يلتزم بعض الزجالين بهذه القاعدة ، وراح يمزج فى أزجاله بين الإعراب واللحن كما نرى فى هذه المنظومة الزجلية لعبد الملك بن الأعز الإسنائى :

جفونى ما تنام إلا　　لعلى أراك
فزرنى قد برانى الشوق　　يا غصن الأراك
وطرفى ما رأى مثلك　　وقلبى قد حواك
فهو لك لم يزل مسكن — فسبحان الذى أسكن — وحسنك كم به أفتن
وما قصدى سواك (٣)

---

(١) بدائع الزهور ص ٢١٧ .
(٢) العاطل الحالى ص ١٤ .
(٣) الطالع السعيد ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

والقارىء لهذه المنظومة يرى أن الإعراب يغلب عليها . ولا يكاديفرقها عن الموشح إلا بعض ألفاظ ملحونة ، ويرى أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام أن الإسنائى فى هذه المنظومة أتى بالفصيح تملحا وتوشية وسط اللفظ الملحون . (١)

ولعل استخدام الفصيح والقصد إلى الاعراب فى الزجل تملحا وتفكها هو الدرب الذى يفضى بنا إلى فن البليق ، والبليق لو نمن الزجل يتضمن الهزل والخلاعة والإحماض كما يقول الحلى . (٢) وربما كان مما يكمل تعريف الحلى لفن البليق ما ذهب إليه التنوخى فى معرض كلامه عن الفرق بين الزجل والبليق إذ يقول : «إن الزجل متى جاء فيه الكلام المعرب كان معيبا ،والبليقة ليست كذلك ، فيجيء فيها المعرب وغير المعرب ؛ ولذلك سميت بليقة من البلق وهو اختلاف الألوان» . (٣)

ونستطيع أن نصوغ من كلام الحلى والتنوخى تعريفا كاملا لفن البليق ، فنقول إنه فن من الزجل يمتزج فيه الإعراب باللحن ، ويقتصر على الهزل والخلاعة والإحماض .

ومن الجدير بالذكر هنا أن نشير إلى أن فن البليق فن مصرى خالص ، ذهب إلى ذلك الدكتور رضا محسن مستندا إلى قول الرافعى : ان اختراع البليق تم فى القرن السابع وبالتالى فهو من مخترعات المصريين . (٤) ولعل مما يعضد هذا الأساس التاريخى تناسب البليق مع طبيعة الشخصية المصرية التى تميل إلى الفكاهة .

---

(١) الأدب فى العصر المملوكى جـ ١ / ص ٣٠٩ .
(٢) العاطل الحالى ص ١٠ .
(٣) نقلا عن الفنون الشعرية غير المعربة (الزجل) ص ٣٥ .
(٤) الفنون الشعرية غير المعربة (الزجل) ص ٣٥ .

ويعمد الزجالون فى البليقة إلى الأوزان الخفيفة والأسلوب السهل ، ولذا كانت أكثر انتشارا من الزجل على الألسنة ، وتتمثل هذه الخصائص فى بليقة ابن مولاهم التى ضمنها نقده لأحوال جند الحلقة ، واختار لها وزنا راقصا ، حتى قيل إنه كان يرقص بها بين يدى السلطان حسن ، وتلك هى التى يقول فيها :

من قال أنا جندى حلق   لقد صدق
عندى قبا من عهد نوح   على الفتوح
لو صادفو شمس السطوح   كان احترق
من تحت ذاك البغلطاق   قبا مشاق
كانو إلا بالبصاق   قد التزق
وفوقه خلعه من قشير   ما فيه حرير
لو يغسلو لكان يسير   مع المرق (١)

ولسيرورة البليق وخفته على الألسنة عمد الزجالون إلى تضمينه آراءهم ، ونقدهم اللاذع للنواحى السياسية والاجتماعية . ومن ذلك ما كان العامة يتغنون به فى سلطنة بيبرس الجاشنكير «سلطاننا ركين» وقد مر بنا فى ثنايا هذا البحث ، ومن ذلك أيضا ما نراه من قول المعمار فى «طشتمر» الذى كان العامة يطلقون عليه «حمص أخضر» :

أوردت نفسك ذلا   ورد النفوس المهانه
وبالرشا حزت مالا   ملأت منه الخزانه
وكم قلوب عليك   يا حمص اخضر ملانه (٢)

---

(١) المنهل الصافى ح ٢ / ورقه ٢١٠ .
(٢) بدائع الزهور ص ١٥٤ .

وفى بليقة أخرى نرى الحسن بن هبة الله ينتقد الطريقة التعليمية فى عصره نقدا لاذعا ، وذلك إذ يقول :

يا قوم وايش هذا الفضول   تقروا الأصول

......

الملحة تقرا يا فلان   أو مختصر شيث والبيان
هذا يجنن بالضمان   لسائر أرباب العقول

......

من قوله معدى كرب   القلب أضحى منكرب
وبيت عقلى قد خرب   وشرح حالى فيه يطول

......

من صحراوات مع حبليات   ومد وشد مع حات وبات
من الذى عنده ثبات   يفهم مفاعيل مع فعول(١)

وظل للخلاعة والمجون نصيبها الأكبر من فن البليق ، ولنقرأ شاهدا على ذلك من قول المعمار :

مثقال حشيش من ذى الخضرا   يساوى عندى القين جرا
ما لذ عيشى حين نسكرا
بذى البريزه وعكرا
ومن يلمنى فى الأخضرا
قصدو يتوربى الصفرا

(١) الطالع السعيد ص ٢١٧ .

تذكـــر نهـار فى بـــاب اللوق

وأنـا مـن السطلـة مخنـــوق

دى مغـــربى فتنـــة مخلـــوق

ناديت لـومـور قـلى أرا (١)

ويستمر المعمار فى تماجنه وعبثه مع غلامه إلى أن يصل إلى نهاية البليقة فتعرى ألفاظه ، وتسفل لهجته .

وهكذا كانت البليقة تصدر عن روح الشعب ، وتعبر عن سخرياته وميله إلى الدعابة والتندر .

٣ - المواليـا :

المواليا فن من فنون النظم الشعبي تلقفه المصريون من المشرق حيث يقال إنه نشأ بواسط ، ويقول صفى الدين الحلى إن أهل واسط اخترعوه من بحر البسيط حيث «اقتطعوا منه بيتين وقفوا شطر كل بيت منهما بقافية منها، وسموا الأربعة صوتا» (٢) ويقول : إن هذا الفن انتقل بعد ذلك إلى بغداد فلطفه البغداديون ، ونقحوه ورققوا ودققوا وحذفوا الإعراب فيه ، واعتمدوا على سهولة اللفظ ورشاقة المعنى» . (٣)

ويبدو أن مصر كانت فى العصر الذى نحن بصدده قريبة عهد بمعالجة فن المواليا ، إذ نرى نماذجه ما تزال بسيطة الطابع ، وغاية المنشىء أن يقول

---

(١) الفنون الشعرية غير المعربة (الزجل) ص ٣٩ .

(٢) العاطل الحالى ص ١٣٢ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٣٤ .

صوتا لا يزيد عليه ، متغزلا أو شاكيا أو ماجنا ، فيقول ابراهيم بن محمد بن طرخان متغزلا :

البدر والسعد ذا شبهك ودا نجمك
والقد واللحظ دا رمحك وداسهمك
والبغض والحب دا قسمى ودا قسمك
والمسك والحسن دا خالك ودا عمك(١)

ويقول المعمار مَاجنا :

يا من على الخمر أنكر غاية النكران
لا تمنع القس يملا الدن والمطران
وامر بزرع الحشيشة تكتسب امران
وتغتنم دعوة المصطول والسكران(٢)

وراق لبعض الصوفية أن يستخدموا الموال فى التعبير عن مواجدهم، كما نرى فى قول عبد العزيز بن أبى الأفراح :

لم تدعى الذوق والوجدان والأحوال
وانت خالى من الإخلاص فى الأعمال
ارجع لجسمك فسم البين لك قتال
ترى حجر ما يشيله خمسميت عتال(٣)

ونلمح بداية اتجاه الموالين إلى البديع وبخاصة الجناس فى قول حوبان بن مسعود :

---

(١) النجوم الزاهرة حـ ٨ / ص ٢٨ .
(٢) الفنون الشعرية غير المعربة (المواليا) ص ٦٦ .
(٣) الدرر الكامنة حـ ٢ / ص ٣٧٥ .

افارقـه وأقـول انى قـد اتسليـت
وربحت قـلبى وزال الهـم وانخليـت
واذكـر مساويه فى حـتى إذا وليـت
واذا رجـع جانسيت الـسكل وانخليت(١)

وكل هذه النماذج تعد صورة بسيطة للمواليا إذا قيست بالتطور الذى حدث فيما بعد من ظهور أنماط جديدة فى بناء الموال من أعرج ومن نعمانى ، ومن التزام التجنيس فى نهاية الأشطار ، ومن ارتباط الموال بالقصة وبنائه بناء قصصيا ، وأيا ما كان الأمر فى هذه الصورة البسيطة التى رأيناها للموال فى العصر المملوكى الأول استطاع الموالون أن يعبروا عن جوانب كثيرة من حياتهم وعواطفهم .

٤ – الدوبيت :

الدوبيت شكل من أشكال النظم الفارسى ، وكلمة «دوبيت» كلمة فارسية معناها «بيتان» وعلى هذا فهو فن أخذه العرب عن الفرس .

والدوبيت بحر من بحور الشعر المهملة ، وشطره «فعلن متفاعلن فعولن فاعلن» ويتكون من أربع شطرات على قافية واحدة ، أو ثلاثة على قافية واحدة مطلقة وفى هذه الحالة يسمى أعرج ، أو يكون مردوفا بأربع أيضا ، والشائع من أشكال الدوبيت الأعرج .

وقد استخدم الدوبيت فى كل الأغراض الشعرية من غزل وشكوى ، ودعابة وتصوف .

فمن قول ابن دقيق العيد يشكو ما يعانيه من عذاب جسدى وروحى :

(١) الدرر الكامنة جـ ٢ / ص ٢٢٤ .

الجسم تذيبه حقوق الخدمه والقلب عذابه علو الهمه
والعمر بذاك ينقضى فى تعب والرحمة ماتت فعليها الرحمة (١)

ويتجه ابن تاج الخطباء القوصى اتجاها صوفيا :

يا غاية منيتى ويا مقصودى قد صرت من السقام كالمفقود
إن كان بدت منى ذنوب سلفت هبها لكريم عفوك المعهود(٢)

واذا كان صفى الدين الحلى قد جعل الدوبيت من الفنون المعربة التى لا يغتفر فيها اللحن ، فإن المصريين لم يلتزموا بذلك ، ولحنوا فى الدوبيت، ومن ذلك قول على بن محمد بن جعفر القوصى :

يا عين بحق من تحبى نامى نامى فهواه فى فؤادى نامى
والله وما قلت ارقدى عن ملل الا لعسى تريه فى الأحلام (٣)

ولكن الملحوظ أن المصريين أقلوا من نظم الدوبيت ، وربما كان ذلك لأن هذا اللون يجرى على بحر لم يعرف فى الشعر العربى .

٥ — الكان وكان :

هذا لون عراقى النشأة أيضا ، اخترعه أهل بغداد ، وسمى بذلك لأنهم أول ما اخترعوه لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات والمنصوبات والمراجعات فكان قائله يحكى ما كان وكانه . (٤)

والكان وكان يسير على نمط ثابت من البناء بوزن واحد وقافية واحدة ، ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الشطر الثانى (٥)

---

(١) ابن دقيق العيد : على صافى حسين (شعره المحقق) ص ١٥٧ .
(٢) الطالع السعيد ص ٦٢٣
(٣) العاطل الحالى ص ١٤٨
(٤) الطالع السعيد ص ٣٩٣ .
(٥) العاطل الحالى ص ١٤٨ .

ويقرر أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام أن هذا الفن انتقل إلى مصر في عهد الفاطميين وسموه بالزكالش . (١)

وعلى أي حال فلم نعثر على نموذج لهذا الفن في أدب العصر المملوكي اللهم إلا ما وجدناه من تسجيل ابن الوردي لطاعون الشام ، وقد سبق أن أوردنا طرفا منه ، ويبدو أن المصريين لم يشغفوا بهذا اللون .

---

(١) الأدب في العصر المملوكي جـ ١ / ص ٣٢٩ .

خاتمـــــة

والآن وقد آذن البحث بالانتهاء يجدر بنا أن نقف فنسجل أهم ما توصلنا إليه من نتائج .

ولعل أبرز هذه النتائج أن أدب العصر المملوكى أعطانا صورة نابضة ، واضحة القسمات لمجتمع مصر المملوكية بكل أبعاد حياته وقضاياها وما كان يخوض فيه الناس آنذاك من جد الحياة ولهوها .

فى حديثنا عن الحكم استطعنا أن نستشف من الأدب صورة هذا الحكم ، وموقف المحكومين من الحكام ، وإذا كانت النصوص الرسمية وبعض المدائح قد أظهرت لنا الصورة التى أحب المماليك أن يظهروا بها لأعين الناس فقد وقفنا على جملة من النصوص تعكس لنا ظاهرة الانفصام بين الحكام والمحكومين كذلك أبرز لنا الأدب الصراع الدائر حول كرسى السلطنة وموقف الناس منه ؛ وأبرز لنا صراعا آخر مستخفيا كان يدور حول كرسى الوزارة — على ضعفها وضآلة شأنها — بين أرباب السيوف وأرباب الأقلام .

كما أبرز لنا الأدب أصداء التيارات والحركات المعارضة ؛ ولعل أهمها التيار العربى الذى تصدت له السلطة بقسوة أحسسنا أثرها أنغاما حزينة تبكى الماضى العربى ، وتندب مجده .

أما الجهاد فقد أبرز أدب هذا العصر المنطلق الدينى الذى صدر عنه ، ورأينا كيف امتزجت الأنغام الدينية بأنغام الحماسة والحرب ، كما أبرز الأدب النظرة إلى المغول والصليبيين ؛ فرأينا الأدباء يصمونهم بالشرك والكفـــر والوثنية دون تفرقة ولا ريب أنهم فى ذلك كانوا يصدرون عن نظرة المجتمع ،

وعرض الأدب علينا صورة نابضة للمعارك ، وما اتسمت به من قسوة ، وضراوة ، وصور أساليبها ، وما كان يصحب النصر من أفراح ، وما كان يصحب الهزيمة من فتك وتخريب ، إلا أننا لاحظنا شحوب عنصر البطولة فى أدب الحرب ، وعللنا لذلك بالنظرة المستعلية على الحكام .

وسجل هذا البحث للأدب موقفه من تهافت المماليك على الثروة ، وما صحب ذلك من انهيار للقيم ، ففشت الرشوة ، وتأخر أصحاب الفضل واستشرت الأمراض الخلقية من نفاق ووصولية ، وراح الأدباء يصورون كل هذا الفساد ورأينا تباين طرائقهم فى معالجة هذه القضية : فمنهم المنكر المتشدد ، ومنهم الباحث عن العلل والأسباب ، ومنهم الساخر .

وحاولنا من خلال الأدب أن نقف على التيارات العقدية ، واتضح لنا قوة تيار التصوف ، كما اتضح لنا تباين نظرة الناس إلى المتصوفة ، وحينما حاولنا النفاذ إلى ما وراء أدب المتصوفة من فكر صوفى خرجنا بمفهوم مؤداه أن التصوف كان حركة مغتربة تولدت نتيجة ظروف تاريخية ، سياسية واجتماعية ، ثم إستحالت إلى غربة كونية ، وهذا المفهوم يضىء لنا كثيرا من جوانب عالم المتصوفة الذى نطل عليه من خلال أدبهم ، فهو عالم مثالى ينشده الصوفى إذ يرى فيه تحقيقا للسعادة المثلى والحرية .

كذلك وقفنا فى أدب هذا العصر على تيار آخر — وان كان خافتا — هو تيار التشيع وقد عكس الأدب بعض الجدل الذى كان ما يزال دائرا حوله ، كما وقفنا على بعض النصوص الشعرية تعكس المعتقد الشيعى ، ولحظنا تسرب كثير من معتقدات التشيع إلى أوساط المتصوفة .

وعكس أدب هذا العصر أيضا جو التوتر الدينى بين المسلمين وأهل

للذمة الذى كان نتيجة للحروب الصليبية من جانب ، ولاعتماد المماليك على أهل الذمة من جانب آخر .

ولم يقف جهد الأدباء عند تسجيل الأحداث ، بل تعدى ذلك إلى ألوان من الجدل الدينى ، ورأينا من الأدباء من تصدى لتفنيد معتقدات النصارى واليهود ، وربما كان من أهم ما توصلنا اليه بهذا الصدد أن المدائح النبوية التى شاعت فى شعر هذا العصر كانت ثمرة من ثمار هذا الجو الدينى المتوتر ، كما كان تركيز الشعراء على المعجزات المادية للرسول — صلى الله علية وسلم — وإلحاحهم فى تفضيله على بقية الرسل صدى من أصداء الجدل الدينى الدائر فى هذا العصر .

وفى حديثنا عن ملامح الشخصية المصرية والحياة العامة ، رأينا كيف تميزت شخصية مصر ، وكيف طبعت الأدب بطابعها ، فترددت أمثالها العامية فى شعر الشعراء ، واتسم كثير من أدب الأدباء بروح الفكاهةوالسخرية كما رأينا رجعا لحضارة مصر القديمة أسطورة وتاريخيا ، فضلا عن تصوير الأدب للبيئة المصرية ، ولحياة الناس وعاداتهم ، ومعتقداتهم وأفراحهم وأتراحهم ، ومآكلهم ومشاربهم ، كذلك أعطانا الأدب صورة للمرأة ولمكانتها الاجتماعية وشأنها زوجة وابنة ومحبوبة ، ومعايير الجمال النسائىوفنون الزينة :

وصور الأدب ما شاع فى هذا العصر من فنون اللهو ، كما أبرز تيار المجون متمثلا فى الخمر والحشيشة والشذوذ والغلمان ، وكان مما ألمحنا إليه أن بعض أدب الخمر كان يمثل تمردا على الواقع ، ومحاولة للهروب من دمامته .

ووقف البحث عند الذوق الأدبى وقفة طويلة متأنية ، وقد تبين لنا أن هناك لونين من الذوق ، لونا خاصا ، وآخر عاما ولكل منهما سماته وملامحه .

فأهم سمات اللون الخاص الانجذاب إلى القديم ، والشغف بالبديع ، والإغراب والذهنية ، وأهم سمات اللون العام الثورة على التراث ، والسهولة والتحامق والإفحاش .

وتحدثنا عن الموشح والزجل والمواليا والدوبيت والكان وكان باعتبارها فنونا من اللون العام ، وتبين لنا مدى ما أضفته مصر على كل فن من هذه الفنون .

وبعد .. فربما كان من التزيد أن أشير إلى أن هذا البحث نفض الغبار عن عديد من الأعمال الأدبية ، فضلا عن أنه قدم قراءة جديدة لعديدمن النصوص فهذا أمر أترك للقارىء الحكم عليه .

والله الموفق إلى سواء السبيل ...

ثبت بالمصادر والمراجع

أولا : المصادر المخطوطة :

١ - الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية للنويرى السكندرى . مخطوط بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية (ميكروفيلم) تحت رقم ٧٣٥ م .

٢ - التذكرة الصفدية ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ؛ مخطوط (ميكروفيلم) بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ٢٧٧٩ م .

٣ - تأهيل الغريب ، شمس الدين النواجى ، نسخة مصورة بمعهد المخطوطات تحت رقم ٢٤٠٦ .

٤ - تشنيف السمع فى انسكاب الدمع ، صلاح الدين بن أيبك الصفدى نسخة بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية تحت رقم ١٤٣٥ م مصوره عن دار الكتب .

٥ - جلوة المذاكرة وخلوة المحاضرة ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، مخطوط بالمكتبة التيمورية تحت رقم ١٩٨ أدب .

٦ - الحسن الصريح فى وصف مائة مليح ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، مخطوط (ميكروفيلم) بمعهد المخطوطات تحت رقم ١٩٥ أدب .

٧ - ديوان أحمد بن عبد الملك المعروف بالشهاب العزازى . مخطوط بالمكتبة التيمورية تحت رقم ٢٨٢ شعر .

٨ - ديوان سيف الدين المشد ؛ مخطوط بالمكتبة التيمورية تحت رقم

٦٠٢ شعر) ومنه (ميكروفيلم) بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ١٥٥٣ م .

٩ — ديوان شهاب الدين محمود . مخطوط بمعهد المخطوطات (ميكرو فيلم) تحت رقم ٣٠٦ أدب .

١٠ — ديوان عفيف الدين التلمسانى . مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١١٤٧ شعر تيمور .

١١ — ديوان فخر الدين بن مكانس . (ميكروفيلم) بكلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ٢٥٣٤ م مصور عن دار الكتب

١٢ — ديوان برهان الدين القيراطى (مطلع النيرين) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٢٩ شعر .

١٣ — ديوان محمد بن وفا السكندرى المصرى . مخطوط بمكتبة محافظة الاسكندرية تحت رقم ١٨٠٣ د .

١٤ — ديوان محي الدين بن عبد الظاهر . (ميكروفيلم) بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ٢٥٣١ م مصور عن دار الكتب .

١٥ — رسالة ابن عبد الظاهر إلى الأمير ناصر الدين بن النقيب. مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٣٩١١ أدب .

١٦ — روض الآداب ، شهاب الدين الحجازى . مخطوط بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ٢٧٨١ م مصور عن دار الكتب .

١٧ — زبدة الفكر فى تاريخ الهجرة : بيبرس الداوداری ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٨ .

١٨ — سلوك السنن إلى وصف السكن ، ابن أبي حجلة التلساني ، مخطوط بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ١٣٤٨ م .

١٩ — الضراعة الناجحة والبضاعة الرابحة ، أبو الحسين الجزار ، مخطوط بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ١٤٤٧ م مصور عن المكتبة التيمورية .

٢٠ — عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، بدر الدين العيني ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ .

٢١ — المذمة في استعمال أهل الذمة ، محمد بن علي بن النقاش ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٣٩٥٢ تاريخ .

٢٢ — مسالك الأبصار ، شهاب الدين بن فضل الله العمري ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٩٤ معارف عامة .

٢٣ — منتخب الجزار ، مخطوط (ميكروفيلم) بمعهد المخطوطات تحت رقم ٨١٤ أدب .

٢٤ — منتخب الوراق ، مخطوط (ميكروفيلم) بمعهد المخطوطات تحت رقم ٨١٥ أدب .

٢٥ — منثور الصاحب فخر الدين بن مكانس ، مخطوط (ميكروفيلم) بمعهد المخطوطات تحت رقم ٨٣٤ أدب .

٢٦ — المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ابن تغري بردي ، مخطوط بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ١٦٨٧ م .

٢٧ — النوادر والطرف في الوظائف والحرف ، محمد بن مسلم الشافعي مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٦٤٩ أدب .

٢٨ — نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري ج ٣٠ مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة

ثانيا : المصادر المطبوعة :

٢٩ — ابن دقيق العيد (حياته وديوانه) د. على صافى حسين ط دار — المعارف ١٩٦٠ م .

٣٠ — الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى . د. على صافى حسين ط. دار المعارف ١٩٦٤ م .

٣١ — إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تقى الدين المقريزى ، نشر زياده — الشيال ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧ م .

٣٢ — إنباء الغمر بأبناء العمر ، ابن حجر العسقلانى ، تحقيق حسن حبشى ط. القاهرة ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

٣٣ — بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ابن اياس ط. الشعب .

٣٤ — البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، محمد بن على الشوكانى ط. السعادة ١٣٤٨ هـ .

٣٥ — البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، تحقيق وتأليف د. عبد المجيد عابدين . ط. القاهرة ١٩٦١ م .

٣٦ — تاريخ ابن الفرات ، ناصر الدين محمد عبد الرحيم بن الفرات ، تحقيق قسطنطين رزيق — نجلاء عز الدين بيروت ١٩٣٩ م .

٣٧ — تاريخ ابن الوردى ، زين الدين بن الوردى ، المطبعة الوهبية ١٢٨٥ هـ .

٣٨ — تاريخ الخلفاء ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . ط. المكتبة التجارية .

٣٩ — تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون ، شمس الدين الشجاعى ، تحقيق بربارة شيفر . ط. فيسبادن ١٣٩٨ — ١٩٧٨ م .

٤٠ - تأهيل الغريب ، ابن حجة الحموى : فى ذيل ثمرات الاوراق ، ط. المطبعة الوهبية ١٣٠٠ هـ .

٤١ - تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، ابن أبى الاصبع المصرى ، تحقيق د. حفنى محمد شرف ط القاهرة ١٣٨٣ - ١٩٦٣ م .

٤٢ - تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطه(ط. المكتبة التجارية ١٩٥٨ م - ١٣٧٧ هـ .

٤٣ - التعريف بالمصطلح الشريف ، شهاب الدين بن فضل الله العمرى ط. مصر ١٣١٢ هـ .

٤٤ - ثمرات الأوراق ، ابن حجة الحموى ، ط المطبعة الوهبية ١٣٠٠ هـ .

٤٥ - حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، شهاب الدين محمود الحلبى ، المطبعة الوهبية ١٣٩٨ هـ .

٤٦ - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، السيوطى ، ط . المطبعة الشرفية ١٣٢٧ هـ .

٤٧ - حكم ابن عطاء الله السكندرى ، شرح عبد المجيد الشرنوبى . ط . القاهرة بدون تاريخ .

٤٨ - حلبة الكميت ، شمس الدين النواجى . ط. الأميرية ١٢٧٦

٤٩ - خزانة الأدب وغاية الأرب . تقى الدين أبو بكر بن حجة الحموى ط. بولاق ١٢٧٣ هـ .

٥٠ - خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال ، دراسة وتحقيق ابراهيم حماده ط. المؤسسة المصرية العامة ١٩٦١ م .

٥١ - دار الطراز فى عمل الموشحات . هبة الله بن سناء الملك . تحقيق

جوده الركابي . ط. دمشق ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م .
٥٢ - الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، ابن حجر العسقلانى ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ط. دار الكتب .
٥٣ - ديوان ابن نباته المصرى ، جمال الدين بن نباته ، بيروت ، دار احياء التراث .
٥٤ - ديوان أبى تمام تحقيق محمد عبده عزام ط. دار المعارف .
٥٥ - ديوان البوصيرى (شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى) ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، ط البابى الحلبى ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .
٥٦ - ديوان البهاء زهير ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، محمدطاهر الجبلاوى ، ط دار المعارف ١٩٧٧ م .
٥٧ - ديوان زين الدين بن الوردى ورسائله ط الجوائب ١٣٠٠ هـ .
٥٨ - ديوان الشاب الظريف (محمد بن عفيف التلمسانى) ط بيروت ١٨٨٥ م .
٥٩ - ديوان الصبابة ، ابن أبى حجلة التلمسانى . ط. القاهرة ١٢٧٩ هـ .
٦٠ - ديوان صفى الدين الحلى . ط بيروت ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .
٦١ - ديوان المتنبى ، شرح عبد الرحمن البرقوقى ط بيروت .
٦٢ - الرسالة القشيرية ، القشيرى ، ط القاهرة ١٣٦٧ هـ - ١٩٥٧ م .
٦٣ - سكردان السلطان ، ابن أبى حجلة التلمسانى ، على هامش المخلاة ط. الأميرية ١٣١٧ هـ .
٦٤ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، المقريزى ، تحقيق محمد مصطفى زياده ط ١٩٤١ م .
٦٥ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ابن العماد الحنبلى ، ط القدسى ١٣٥١ هـ .

٦٦ — صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، أبو العباس أحمد بن علـى القلقشندى ط وزارة الثقافة .
٦٧ — الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، كمال الدين الإدفوى ، تحقيق سعد محمد حسن ، ط الدار المصرية للتأليف والترجمـة ١٩٦٦ م .
٦٨ — طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين السبكى ، ط المطبعةالحسينية
٦٩ — الطبقات الكبرى ، عبد الوهاب الشعرانى ط مصر ١٣٠٥ هـ .
٧٠ — العاطل الحالى والمرخص الغالى ، صفى الدين الحلى ، بعاية ولهلم هرنباخ ، ط فرانزشتاينرويسبادن (ألمانيا(١٩٥٥ م .
٧١ — الغيث المنسجم فى شرح لامية العجم ، الصفدى ، المطبعة الوطنية ١٢٩٠ هـ .
٧٢ — فض الختام عن التورية والاستخدام ، الصفدى ، دراسة وتحقيق د. محمد عبد العزيز الحناوى ط ١٣٩٩ — ١٩٧٩ م .
٧٣ — فوات الوفيات والذيل عليها . محمد بن شاكر الكتبى ، ٤ أجزاء تحقيق د. احسان عباس ، ط. بيروت .
٧٤ — الكلمات المهمة فى مباشرة أهل الذمة ، جمال الدين الاسنوى، نشر موشى برلمان ، ط بروكلين ١٩٦٩ .
٧٥ — لسان التعريف بحال الولى الشريف ، أحمد جلال الدين الكركى ، تحقيق أحمد عز الدين خلف الله — القاهرة ١٩٦٩ م .
٧٦ — لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه الشاذلى أبى الحسن ، ابن عطاء الله السكندرى ، ط ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م
٧٧ — لوعة الشاكى ودمعة الباكى ، الصفدى ، ط مطبعة الفتوح الأدبية

٧٨ — مطالع البدور فى منازل السرور ، علاء الدين الغزولى، ط ادارة الوطن ١٢٩٩ هـ .

٧٩ — معالم القربة فى أحكام الحسبة ، محمد بن محمد القرشى المعروف بابن الاخوة ، بعناية روبن ليوى . ط كيمبرج ١٩٣٧ م .

٨٠ — معيد النعم ومبيد النقم ، تاج الدين عبد الوهاب السبكى ، تحقيق النجار وشلبى وأبى العيون ، ط دار الكتاب العربى ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م .

٨١ — المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق كنوت تلكوست : ط ليدن ١٨٩٨ م .

٨٢ — مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن محمد بن خلدون . ط الشعب .

٨٣ — المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، ابن تغرى بردى ، الجزء الأول ، ط دار الكتب ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م .

٨٤ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المقريزى ، طالعرفان

٨٥ — النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة ، ابن تغرى بردى، نسخة مصورة عن ط دار الكتب .

٨٦ — النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة (القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب فى حلى المغرب) تحقيق د. حسين نصار . ط دار الكتب ١٩٧٠ م .

٨٧ — نهاية الأرب فى فنون الأدب ، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويرى ، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

٨٨ — الوافى بالوفيات ، الصفدى ، باعتناء س ، ذيدرنغ ، ط دار النشر ، فرانزشتاينر ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .

ثالثا : المراجـــع :

٨٩ ـ ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر . د. عبد العزيز الأهوانى . ط الأنجلو ١٩٦٢ م .

٩٠ ـ أدب الدول المتتابعة ، عمر موسى باشا ، ط دار الفكر الحديث بيروت ١٩٦٣ م .

٩١ ـ الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى ، أحمد صادق الجمال ، ط الدار القومية ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م .

٩٢ ـ الأدب فى العصر الأيوبى ، د. محمد زغلول سلام ، ط دار ـ المعارف ١٩٦٨ م .

٩٣ ـ الأدب فى العصر المملوكى ، جزءان ، د. محمد زغلول سلام ، ط دار المعارف ١٩٧١ م .

٩٤ ـ الأدب فى العصر المملوكى ؛ د. كامل الفقى ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ م .

٩٥ ـ الأدب والمجتمع ، محمد كمال الدين على يوسف . القاهرة١٩٦٢م

٩٦ ـ الأسس الجمالية فى النقد العربى . د. عز الدين اسماعيل ، ط دار الفكر العربى ١٩٥٥ م .

٩٧ ـ الأسس النفسية للابداع الفنى فى الشعر خاصة ، مصطفى سويف ط دار المعارف ١٩٥١ م .

٩٨ ـ أشكال التعبير فى الأدب الشعبى . د. نبيله ابراهيم . ط القاهرة .

٩٩ ـ الاغتراب ، د. محمود رجب ، ط منشأة المعارف ، الاسكندرية

١٠٠ ـ ألف ليلة وليلة ، د. سهير القلماوى . ط مطبعة المعارف ١٩٤٣ م

١٠١ — أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى (دراسة وثائقية) . د.قاسم عبده قاسم ، ط دار المعارف ١٩٧٧ م .

١٠٢ — بحار الحب عند الصوفية ، أحمد بهجت ط المختار الإسلامى١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م .

١٠٣ — البذل والبرطله زمن سلاطين المماليك . د. أحمد عبد الرازق أحمد ط . الهيئة المصرية العامة ١٩٧٩ .

١٠٤ — تاريخ الأدب العربى ، كارل بروكلمان ، ترجمة رمضان عبد التواب ، عبد الحليم النجار ، دار ط المعارف .

١٠٥ — تاريخ آداب اللغة العربية ، جورجى زيدان ، مراجعة د. شوقى ضيف ط . دار الهلال .

١٠٦ — تاريخ دولة المماليك ، وليم موير ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ط القاهرة ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م .

١٠٧ — تاريخ اللغة العربية فى مصر . د. أحمد مختار عمر ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .

١٠٨ — تراث الإسلام (ثلاثة أجزاء) تصنيف شاخت وبوزورث ،ترجمة السمهورى ، حسين مؤنس ، إحسان صدقى ، ط الكويت١٩٧٨

١٠٩ — التصوف ثورة روحية فى الإسلام ، د. أبو العلا عفيفى ، ط دار المعارف ١٩٦٣ .

١١٠ — جمالية الفن العربى ، د. عفيف بهنسى : ط الكويت ١٩٧٩ م .

١١١ — الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول د. عبد اللطيف حمزة . الطبعة الأولى . دار الفكر .

١١٢ — الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . آدم متز ، ترجمة أبو ريده ط. القاهرة ١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م .

١١٣ - الحضارة ، د. حسين مؤنس ، ط الكويت ١٩٧٨ .
١١٤ - الحكاية الخرافية ، فردريش فون ديرلاين ، ترجمة د. نبيله ابراهيم ط. دار نهضة مصر ١٩٦٥ .
١١٥ - الحيادة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام . د. أحمد بدوى . ط مكتبة نهضة مصر .
١١٦ - الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام . د. أحمد أحمد بدوى . ط. مكتبة نهضة مصر .
١١٧ - حياتى والتحليل النفسى ، سيجموند فرويد ، ترجمة زيور والمليجى ط دار المعارف ١٩٥٧ م .
١١٨ - دراسات فى تاريخ المماليك البحرية . د. على ابراهيم حسن ، ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ م .
١١٩ - دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين . د. محمد كامل حسين . ط دار الفكر العربى ١٩٥٧ م .
١٢٠ - دولة بنى قلاوون فى مصر . د. محمد جمال الدين سرور . ط دار الفكر العربى ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م .
١٢١ - الرمز الشعرى عند الصوفية . د. عاطف جودة نصر . ط بيروت ١٩٧٨ م .
١٢٢ - الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى . د. أحمد سيد محمد ط . دار المعارف ١٩٧٩ م .
١٢٣ - شخصية مصر . د. نعمات أحمد فؤاد . القاهرة ١٩٦٨ م .
١٢٤ - الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى . د. محمد مصطفى هدارة . ط دار المعارف .

١٢٥ — الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور . د. شوقي ضيف . ط دار المعارف ١٩٧٧ م .

١٢٦ — الصبغ البديعي في اللغة العربية . د. أحمد ابراهيم موسى . ط دار الكاتب العربي ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٩ م .

١٢٧ — عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي . محمود رزق سليم ط وزارة الثقافة ١٣٨١ هـ — ١٩٦٢ م .

١٢٨ — العقيدة والشريعة في الاسلام ، جولد تسهير ، ترجمة محمد يوسف ، عبد العزيز عبد الحق ، على حسن عبد القادر ط القاهرة ١٩٤٦ م .

١٢٩ — العلاقات السياسية بين المماليك والمغول . د. فايد عاشور ط دار المعارف ١٩٧٤ م .

١٣٠ — الفكاهة في مصر . د. شوقي ضيف . ط الهلال . فبراير ١٩٥٨ م.

١٣١ — الفن والحياة ، ايردل جنكز ، ترجمة أحمد حمدى محمود ، على أدهم ط وزارة الثقافة ١٩٦٣ م .

١٣٢ — الفنون الشعرية غير المعربة (المواليا — الزجل) د. رضا محسن حمود ط العراق ١٩٧٦ م ، ١٩٧٧ م .

١٣٣ — الفنون والإنسان (مقدمة موجزة لعلم الجمال) اروين إدمان. ترجمة مصطفى حبيب . ط دار مصر للطباعة .

١٣٤ — في الأدب المصرى . أمين الخولى . الطبعة الأولى ١٩٤٣ م .

١٣٥ — قصصنا الشعبي . د. فؤاد حسنين على . ط دار الفكر ، القاهرة ١٩٤٧ م .

١٣٦ - الكيسانية فى الأدب والتاريخ د. وداد القاضى ، ط بيروت ١٩٧٤

١٣٧ - لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربى وبعده ، د. عبد الحميد عابدين ط ١٩٦٤ م .

١٣٨ - ما الأدب ، جان بول سارتر ، ترجمة وتعليق محمد غنيمى هلال ط الأنجلو ١٩٧١ م .

١٣٩ - المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك . د. سعيد عبد الفتاح عاشور ط. دار النهضة ١٩٦٢ م .

١٤٠ - محيى الدين بن عربى فى ذكراه المئوية الثامنة لميلاده ، ط الهيئة المصرية العامة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

١٤١ - المخطوطات العربية لكتبة النصرانية ، لويس شيخو ، بيروت - ١٩٢٤ م .

١٤٢ - المدائح النبوية فى الأدب العربى ، د. زكى مبارك . ط الشعب ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

١٤٣ - مشكلة الفن . د. زكريا ابراهيم - ط القاهرة ١٩٧٦ م .

١٤٤ - مطالعات فى الشعر المملوكى والعثمانى . د. بكرى شيخ أمين ، ط دار الشروق ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

١٤٥ - مقامات الحريرى ، أبو محمد القاسم بن على الحريرى ، ط القاهرة ١٣٢٦ هـ .

١٤٦ - مقدمة فى صناعة النظم والنثر ، شمس الدين النواجى ، تحقيق محمد ابن عبد الكريم ، ط مكتبة الحياة بيروت .

١٤٧ - الملابس المملوكية لى. أ. ماير ترجمة صالح الشيتى ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م .

١٤٨ - ملامح الشخصية المصرية فى الدراسات البيانية . د. مصطفى الصاوى الجوينى . ط الهيئة المصرية العامة ١٩٧٠ م .
١٤٩ - الملل والنحل . الشهرستانى ، ط الحلبى .
١٥٠ - نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام . د. على سامى النشار ، ط دار المعارف ١٩٦٤ م .
١٥١ - نفسية أبى نواس ، د. محمد النويهى ط الخانجى ١٩٧٠ .
١٥٢ - النقد الأدبى فى العصر المملوكى . د. عبده عبد العزيز قلقيلة ، ط الأنجلو ١٩٧٢ م .
١٥٣ - النيل فى الأدب المصرى . د. نعمات أحمد فؤاد . ط دار المعارف
١٥٤ - وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية ، ترجمة زهير الشايب ط الخانجى ١٩٧٨ م .

رابعا : مراجع أجنبية :

١٥٥ - Arabic Literature , H.A.R. Gidd, London 1926
١٥٦ - A History fo Egypt in The Middle Ages , Vol.VI, Stanly Laue-Poole , Loodon.
١٥٧ - A Literary History of Arabs, Nicholson,B,A, Cambridge 1969.
١٥٨ - The Priests fo Ancient Egypt, Serge , Saunran, New York 1060.

خامسا : دوريات :

١٥٩ - الثقافة والمجتمع د. على أدهم . مجلة الكاتب المصرى ، نوفمبر سنة ١٩٤٥ م .

فهـــرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

طبع بمطابع جريدة السفير
٤ شارع الصحافة
ت ٨٠٣٩٦٤ إسكندرية



٥٠٠ مـ

١١٦٤٩١/٨

دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة

الناشر منطقة الاسكندرية ٤٢ ش سعد زغلول - ٢ ميدان التحرير (المنشية)